بين الدين والحياة

(في رحلة قطار)

بقلم

د . عبد الحليم حفني



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

الاخراج الفنى

اميمة على أحمد

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

لم يجمعهما موعد ، ولا تعارف سابق ، فهذه هي المرة الأولى التي يرى فيها أحدهما الآخر ، ولم تجمعهما ألفة نفسية كالتي يشعر بها شخص نحو شخص آخر حين يحس من أول نظرة اليه بالاطمئنان والراحة النفسية نحوه ، بل لعل الأمر بينهما يوشك أن يكون بالعكس ، فلم يكن بينهما توافق أو تقارب ، لا في السن ، ولا في الملامح ، ولا فيما توحيه صورة الوجه ونظرات الأعين من هدوء أو انفعال .

لم يجمعهما شيء من ذلك ، وانما جمعتهما رحلة قطار ، وجدا نفسيهما فيها كل منهما في مواجهة الآخر ، في مربع لم يشاركهما فيه أحد ، وفي رحلة طويلة مملة ، من القاهرة أسوان ، كان أحدهما شابا واضح الفتوة ، مفعما بالحيوية الدافقة ، يقارب الثلاثين من عمره ، يحاول أن يتكلف الرزانة والوقار ، ولكن حيويته تخونه ، فهو لا يكاد يستقر في جلسته دقائق معدودة ، حتى يتحرك أية حركة قد لا تنم عن شيء ، ولا تهدف الى شيء سوى أن فيه حيوية ونشاطا لا يطيق معهما السكون والاستقرار ، وكانت نظراته أيضا رغم ما تبديه من دلالات الذكاء واليقظة لا تستقر على شيء ، والذي يراه لأول وهلة يخيل اليه أنه يبحث عن شيء أو عن أحد ، ولكن المتأمل يشعر بأن هذه النظرات تخفي وراءها عمقا غير يسير ، وأن حركتها وتنقلها انما هو من آثار الحيوية وفورة الشباب التي تموج في جسمه .

وأما الآخر فكان رجلا على أبواب الشيخوخة ، يدنو من الستين من عمره ، ولكنه يحتفظ بكثير من حيوية الشباب وصحة البدن ، ولكنها حيوية في ملامحه فحسب ، أما جسمه فساكن هادىء الحركة ، كان على عكس الشاب ، فبينما كان الشاب يتصنع الوقار والسكينة ، وكأنه يصارع حركة جسمه ، كان الرجل كأنه يقاوم ركود جسمه وهدوء حركته بحركة وجهه ، ونظراته التي كان معظمها يتجه الى النافذة ، وأهم ما يميز

ملامحه أمران ، أحدهما أنها لا توحى بالانتماء الى سلالة معينة ، فمعظم الناس حين ترى الواحد منهم تتوقع أنه ينتمى مثلا الى الصين أو اليابان ، أو الجزيرة العربية أو الشام ، أو الى افريقيـا ، بل الى شعب معين من شعوب افريقيا ، وهكذا ٠ ولكن ملامح صاحبنا لا تستطيع أن تحدد لها فى نفسك انتماء معينا ، وأما السمة الأخرى فى ملامحه فهى طابع الحزن الهادىء الذى يكسوها ، فهو حزن من الواضـح أنه ليس وليد موقف طارىء أو انفعال معين ، وكأنه سمة قديمة ، أو جزء من تكوينه ٠

وفى بداية الرحلة لم يأبه أحدهما كثيرا بالآخر ، كشأن المسافرين فى الوسائل العامة ، حيث كل منهم يتوقع أن يرى وجوها لا عهد له بها ، ولا يعنيه كثيرا أن يتأمل ملامحها فضلا عن أن يحاول استشفاف ما تخفيه هذه الملامح وراءها من طباع أصحابها ومقوماتهم ، وظلا كذلك فى عدم اهتمام أحدهما بالآخر ، ولا بأى شىء غير نفسه نحو ساعة ، ثم بدا كأن كلا منهما بدأ الملل يتسرب الى نفسه ، فأخذ كل منهما يبحث عما يعينه على هذا الملل ، فأخرج الشاب صحيفة أخذ يقلب صفحاتها ملما الماما سريعا ببعض محتواها دون استغراق أو تركيز ، بينما أخذ الشيخ أحيانا يلقى ببصره نحو النافذة مستعرضا ما يمر به القطار من مرئيات لم تكن غريبة عليه ، ولذلك فهو لا يكاد يهتم بها ، وأحيانا يعود ببصره ليغوص فى داخل نفسه ، وكأنه يستعرض ذكريات تسيطر على مشاعره ٠

وظل كل منهما يحاول أن يقطع الوقت ، وأن يقاوم الملل بأى شىء ، وكأن كلا منهما بدأ حينئذ يشعر بحاجته الى الآخر ، ولأول مرة بدأ كل منهما ينظر الى الآخر بين الحين والحين فى خلسة نظرة تأمل ، محاولا تكوين فكرة عن شخصيته من خـلال التخمين والاستنتاج ٠ وتصـادف حينئذ مرور مضيف القطار ، فطلب منه الشيخ قدحا من القهوة ، وعرض على الشاب أن يشاركه القهوة ، فاعتذر الشاب بأدب ٠

وبينما كان الشيخ يحتسى من القدح استرعى سمعه صوت خفيف صادر من جهة الشاب ، فمـد بصره اليه ، فاذا الشاب ينظر اليه وهو مستغرق فى ضحك يحاول أن يكتم صوته فلا يستطيع ، فتوقف الشيخ عن الشراب ، واعتراه شىء من ارتباك أخذ يتحول الى حيرة مشوبة بشىء من غضب ، فالشاب يضحك فى أثناء نظره اليه ، وليس معهما أحد ، ولم يطرأ فى موقعهما شىء يثير الضحك ، ومعنى ذلك أن الشاب يضحك منه ، وبصورة تلقائية دون تفكير متعمد ، طاف ببصره وذهنه فى هيئته فلم يجد فيها جديدا يستدعي الضحك ، فاتجه الى الشاب قائلا فى شىء من غضب :

ــ أراك تضحك ، وليس أمامك أحد أو شىء غيرى ، فهل وجدت فى شخصى ما يثير ضحكك ؟

قال الشاب وهو يحاول مقاومة الضحك ليعود الى وضعه العادى :

ــ ان أردت الحق ، فانى فعلا أضحك منك أنت ٠

ــ قال الشيخ وقد ازداد حدة : وماذا أضحكك منى ؟

قال الشاب : لأنى منذ رأيتك استبعدت من شكلك أن تكون مصريا ، وأخذت أخمن فى جنسيتك ، فاستقر فى نفسى أنك من الهنود الحمر ، وأنك سائح أمريكى جاء كغيره من السائحين لرؤية آثار الفراعنة ، ولكنى فوجئت من لهجتك وأنت تحادث مضيف القطار أنك مصرى ، فلم أتمالك نفسى من الضحك لهذه المفارقة الكبيرة بين التخمين والواقع ، فأرجو ألا يكون فى هذا اساءة اليك ، فانى فى حقيقة الأمر أضحك من نفسى وتخمينى ، وليس منك أنت ٠

ــ قال الشيخ وقد عاد الى هدوئه ، بل بدا كأنه يبتسم : هل تعرف أنك لست أول من استبعد مصريتى وظن بى الانتماء الى جنسية أخرى . فلا عليك ، ومع ذلك فلا غضاضة فى الانتماء الى الهنود الحمر ، أو الى غيرهم من البشر ، فالجميع خلق الله ، ومن نسل شخص واحد ، هو آدم ٠

وقد أذابت هذه المحادثة ما بينهما من جمود ، ووضحت رغبة كل منهما فى الاتصال بالآخر ٠ وذلك من خلال تبادل النظرات فى غير حرج ، وكان أمرا طبيعيا أن يكون كل منهما أقرب وسيلة وأيسرها للآخر لمقاومة ملل السفر الذى زاده الاحساس بطول الرحلة عمقا وثقلا ، فقد عرف كل منهما منذ بدء الرحلة أن وجهتيهما واحدة هى أســوان ، وذلك من خلال مفتش التــذاكر الذى راجع تذاكر المسافرين منذ تحرك القطار ، وكان المتوقع أن يتصل كل منهما بالآخر من بداية الرحلة ، ولكن الفوارق بينهما وخصوصا السن هى التى أجلت هذا الاتصال ٠

أما الآن فقد خلعا رداء التمنع والتردد ، ولم يبق بينهما الا شىء واحد كان فى أغلب الظن هو البقية الباقية من التردد ، وهو الخوف من أن تكون الصورة التى كونها كل منهما فى نفسه عن شخصية الآخر بعيدة عن الحقيقة بمقدار بعد صورة الهنود الحمر عن المصريين تلك التى تخيلها الشاب منذ حين ٠

وبدأ الشاب الحـديث وهو يقاوم شيئا من تردد أو تهيب موجها حديثه الى الشيخ بقوله :

ــ أكرر أسفى لما حدث ، ولكن رب ضارة نافعة ، فلعلها فرصـة لفتح باب الحديث أو الثرثرة بيننا لنستعين بهـا على قطع هذا السفر البالغ الطول ، والبالغ الثقل على النفوس ، ولست أشك أنك أيضا فى حاجة الى من تجاذبه أطراف الحديث ، ولو كان حديثا فارغا ، فأى شىء يعين على هذا السفر فهو خير من السأمة والملل ٠

ـ قال الشيخ : فأما أن نلتمس ما يعيننا على السفر ويذهب عنـا بعض سآمته فذلك شيء تهفو اليه النفس ، بشرط أن يكون ذا هدف وفيه نفع ، أما أن يكون الحديث فارغا وبدون هدف فذلك ما لا أظن أنك ستجد لدى عونا فيه • لا تورعا ولا تعففـا ، ولكن لأن طبيعتى بحكم تكوينها لا تميل الى العبث ، وقد زادتنى أحداث الحياة وثقلها على الكاهل أحيانا ، ومرارتها فى الحلق أحيانا أخرى تناقضا مع اللهو والعبث ، ونفورا منهما ، وكم تمنيت ، بل كم حاولت أن أروض نفسى على شيء منهما لأغالب تبرمى بالحياة فلم أستطع ، ولم أزدد الا نفورا منهما •

قال الشاب : أراك تعانى من أحداث مؤلمة فى حياتك ، وقد ظن الشاب أن الشيخ يريد بحديثه هذا أن يصل الى فتح باب الاصغاء الى حديثه عن متاعب أو آلام يعانى منها •

ولكن الشيخ يجيبه بقوله : لست يابنى أعانى من متاعب أو مشاكل معينة فى حياتى ، بل على العكس من ذلك أشعر بأنى مغمور بنعم الله ، ولكن مشكلتى أننى من الذين ينظرون الى الحياة ويتعاملون معها بعقولهم وليس بعواطفهم ، وقد يبدو لك الفرق بين المعنيين غير كبير ، ولكنهما فى حقيقة الأمر يشبهان الضدين فى آثارهما • فدون افاضة أو تفصيل فى مدلولهما تستطيع أن تقول ان الذين يتعاملون مع الحياة بعواطفهم هم السـعداء بآمالهم فى الحيـاة وتعلقهم بها وانبهارهم ببريقها ، والذين يتعاملون معها بعقولهم هم الأشقياء الذين يفسد عليهم تفكيرهم كل متعة ، وينغص عليهم كل نعمة •

قال الشاب : انني كنت قد بدأت أشـعر بشيء من الألفـة بينى وبينك ، فلا تدعنى الى النفور منك ، كيف يكون العقل مصدر شقاء وهو أعظم ميزة يحملها الانسان ؟

قال الشيخ : العيب يابنى ليس فى العقل ، ولكن فى الحياة نفسها ، فالدنيا بكل آمالها وبريقها ومتاعها أشبه بامـرأة تبدو باهرة الجمـال والفتنة ، ولكن جمالها يعتمد على زينة مستعارة ، فكثير ممن يرونها يفتنون بها حين تتجـه اليهم بنظـرتها ، ويسعدون بالحياة فى أحلام عواطفهم وخيالاتهم نحوها ، ولكن بعضهم قد ينعم النظر فيلحظ أن شعرها الجميل ليس الا شعرا مستعارا ، وأن أسنانها البراقة ليست الا أسنانا صناعية ، وأن حمرة خديها ليست الا طلاء ، وأن سحر عينيها ليس الا من رموش صناعية ، وهـكذا ، فتصور أنت حين يتخيلها هذا الشخص وقد أرادت أن تأوى الى فراشها فأخذت تخلع عنها كل مقومات جمالها شيئا فشيئا ، لتبدو على حقيقتها بدون أسنان ، وبدون شعر على رأسها ، وبدون شعر يذكـر فى جفونها ، وبدون وبدون ، فهل يسعد هذا الشخص بجمالها الزائف ؟ فكذلك من ينظر الى الدنيا ويتعامل معها بعقله •

قال الشاب : هل أنت من دارسى الفلسفة ، أو من هواة الحديث فيهـــا ؟

قال الشيخ : ليس فيما قلت لك فلسفة ولا غرابة ، بل وليس حديثا جديدا ، بل طرقه كثير من الناس منذ القديم ، وما من مفكر أو حكيم الا ويردد هذا المعنى بأى أسلوب ، ومن ذلك قول الشاعر العربى القـــديم :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله   وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

قال الشاب فى شىء من امتعاض : ولكن حديثك عن الدنيا يشوبه السخط والتحامل ، فهل هى حقا كما صورتها ؟

قال الشيخ : وأى سخط وأى تحامل ؟ ان الصورة التى مثلتها لك عن الدنيا هى أحسن صـــورها ، بل قل أقلها قبحا وزيفا ، واذا كان ما سـمعته منى سخطا فما أيسره من سخط اذا قيس بآراء كل العقلاء والحكماء وأحاديثهم عن الدنيا ، ان أحمالا من المجلدات والأوراق لا تتسع لما صبه الشعراء والأدباء والحكماء من سخط على الدنيا وعلى الزمان وعلى الحظوظ ، كل منهم بأسـلوبه وتصـويره • بعضهم بالندم ، وبعضهم بالسخرية ، وبعضهم بالسخط والنفور ، ولكنهم جميعا يتفقون على عدم الرضا عن الدنيا وعدم الاطمئنان اليها •

قال الشاب فى لهجة تشوبها سخرية حاول ألا تنم عنها ألفاظه : وهل معنى ذلك أنك ترى أن ينصرف الناس عن الدنيا ويزهدوا فيها ؟

قال الشيخ متجاهلا سخرية الشاب : ان رأيى لا يقدم فى توجيه الناس شيئا ولا يؤخر ، بل ولا فى توجيهى أنا ، فان الله قد ركز فى طبائع الناس من حب الحياة والتشبث بها ، ومن التعلق بالآمال والاندفاع وراءها ما هو أقوى من آرائهم ومن مشاعرهم ، وما أكثر تناقض الواقع بين العقول والسلوك •

قال الشاب : قد لا أختلف معك فى هذا من الناحية النظرية ، ولكن تخيلى اياه من الناحية الواقعية غير واضح ، فهل تستطيع أن تضرب لى بعض الأمثلة على ذلك من واقع الحياة ؟

قال الشيخ : أنت فى مقتبل الحياة ، ولا أريد أن أضع على عينيك منظارا أســود يلقى ظلاله السوداء على نظرتك للدنيا مما قد يثبط من كفاحك فيها •

قال الشاب : فانك تقول الآن ان عقولنا وآراءنا شيء ، وارتباطنا بالحياة ومتطلباتها شيء آخر ، فلا تخش اذن على ارتباطى بالحياة ، ولكنى أريد بعض الأمثـلة على التناقض بين معرفة حقيقـة الحياة والسعى فى شـئونها ٠

قال الشيخ : ان الأمثلة أكثر من أن تحصى ، بل تستطيع أن تقول ان حياة الناس كلها وسلوكهم كله يتسم بهذا الذى نسميه تناقضا ، فهذه هى القاعدة ، ثم تستثنى من هذه القاعدة أشياء قليلة لا تدخل فى هـذا التناقض ، وأيضا قلة قليلة من الناس يتمردون على هذا التناقض ، ولكن هذه الأشياء القليلة ، وهذه القلة النادرة من الناس لا تخل بالقـاعدة ، ولا بالحكم العام ، وهو التناقض بين المعرفة ومقتضياتها وبين السلوك وواقعه ، ألا ترى مثلا الى مدمنى المخدرات ، ومدمنى كل الأشياء الضارة ، فهل يجهل هؤلاء ضرر ما يزاولونه ؟ بطبيعة الحال لا ، فهم أعرف الناس بهذا الضرر ، لأنهم يحسونه فعلا أو يتوقعونه حتى بالقياس على زملائهم السابقين لهم فى هـذه المزاولة ، ومع ذلك فهم لا يكفون عمـا يوقنون بضرره ، بل قد يزدادون اصرارا عليه ، ونهما فيه ، والذين يسرقون مثلا يعلم كل منهم علم اليقين أنه مجاف للقيم الخلقية ، ومخالف للقانون ٠ وعقله لا ينكر هذه المجافاة وهذه المخالفة ، وقد يكون هذا السارق ذا دين، فهو يعلم أن دينه أيضا ينكر السرقة ويتوعد مزاولها ، ومع هذا كله فهو يزاول السرقة ، وقد يزداد تماديا وحرصا على مزاولتها ، وكذلك المؤمنون بأديانهم ، كل منهم يعلم ما يوجبه عليه دينه ، وما يحرمه عليه ، وعقله لا ينكر ذلك ، ومع هذا فكثير منهم يتجاهل ما يوجبه عليه دينه من واجبات أو كثيرا منها ، ويفعل ما يحرمه عليه دينه أو كثيرا منه ٠

قال الشاب فى شبه مقاطعة واعتراض : ولكن هذه الأمثلة كلهـا تدور فى فلك ما يمكن أن نصفه بالشذوذ ، بمعنى أن هذه النوعيات التى ذكرتها مهما كثر عدد أفرادها فهم شاذون ما داموا قد خرجوا على الأعراف التى تواضع الناس عليها واستقرت بينهم فى صورة عرف أو قانون أو دين ، بينما كنت أتحدث عن الأصل والقاعدة ، وليس الشذوذ ٠

قال الشيخ : أنا أعنى الحـديث عن واقع النـاس بصفة عامة ، والشاذون كثروا أو قلوا هم جزء من الناس ، ومع ذلك فالحكم بالشـذوذ أمر نسبى ، فالذى تراه أنت شاذا قد يراه غيرك هو الأصل ، والذى تراه هو الأصل قد يراه غيرك هو الشذوذ ٠

قال الشاب مستنكرا : معنى ذلك اختلاط القيم أو تداخلها ٠

قال الشيخ : لا تنس أننى لا أتحدث الآن عن القيم ، وانما عن واقع الحياة وواقع الناس فيها ، ومع ذلك فان تعقيبك هذا هو المدخل الصحيح

للاجابة عن تعقيبك أو اعتراضك ، وذلك أن القيم أو الفضائل فى أصلها محددة ، ولكن حينما يكثر انتهاكها والخروج عليها تضعف قيمتها بمقدار كثرة المنتهكين لها ، حتى اذا صار المنتهكون فى المجتمع هم الأغلبية ، فانهم يحاولون أن يجعلوا انتهاك المبادىء أو الفضائل هو الأصل ، والتمسك بها هو الشذوذ ٠

قال الشاب : ولكنك تقول ان القيم والفضائل محددة والمفروض أنها معروفة لجميع الأفراد ، فكيف يستطيع الشاذ أو الشاذون مهما كثروا أن يغيروا معرفة الناس بهذه القيم ؟ هم يستطيعون أن يشذوا ، ولكن أقول لك مرة أخرى كيف يستطيعون أن يؤثروا فى معرفة الناس التى استقرت بوصفها عرفا عاما ؟

قال الشيخ : هم فى الواقع لا يغـيرون المعرفة ، وانما يغـيرون الاحساس بالشذوذ أو يؤثرون فى درجته ، وذلك لأن الشذوذ فى حقيقته هو احساس الفرد الشاذ فى أى مسلك بأنه مخالف للشعور العـام فى المجتمع ، فاذا وجد هذا الفرد من حوله أفرادا آخرين يشاركونه الشذوذ فان احساسه بمخالفة الشعور العام يخف ويضعف ، فاذا كثر الشاذون فانهم يصبحون مجتمعا ، وبالتالى فان الفرد منهم لا يشعر بأنه فى مسلكه مخالف للشعور العام من حوله ، بل هو موافق للشعور العام ومتآلف معه ، فاذا أصبح المجتمع أغلبية بالقياس الى المتمسكين بالمبادىء فان أفراد المجتمع الشاذ يبدأون فى النظرة الى الأفراد من المجتمع الآخر وهم الأقلية على أنهم شاذون لأنهم يخالفون الأغلبية ، وكلما قل المتمسكون بالمبادىء ازداد احساس الآخرين بشذوذهم ، وهكذا بالتدريج ينقلب الوضع ، حتى يصبح الشذوذ هو الأصل ، أو هكذا يصوره أصحابه ، وتصبح المبادىء أو التمسك بها هو الشذوذ فى نظر الأغلبية الشاذة ٠

قال الشاب : قد تكون لهذا التصـوير وجهـة مقعولة من الناحية النظرية رغم ما يشـوبه فى رأيى من مبالغة وتضخيم ، ولكنى أستبعد تصوره من الناحية الواقعية ، فهل يمكن أن تقرب الى هذه الصورة فى بعض الأمثلة الواقعية ؟

قال الشيخ : ألا ترى الى ما يشيع بين كثير من فئات العامة وطبقاتهم اليوم من خروج على القيم والفضـائل ، ثم يعـدون هذا الخروج مهارة وبراعة ، بل يخترعون لهذا الخروج أسماء وصفات تزينه وتحاول الباسه لباس التفوق ؟ فالذى يجيد الكذب والمراوغة مثلا يصفونه بأنه يخرج من المواقف كالشعرة من العجين ، والذى يجيد استلاب حقوق الغير يصفونه بأنه يسرق الكحل من العين ، فى صورة أن هذا من المهارة والبراعة ، أو يقولون لك عنه انك اذا صافحته فعليك أن تعد بعد ذلك أصابعك ، أى

خشية أن يكون قد أخذ احداها ، والذى يجيد خداع الآخرين والتغرير بهم يزينون ذلك أيضا بصفات من نحو أنه (فهلوى) بمعنى أنه ماهر بارع ، وكثير غير ذلك ، ومن ناحية أخرى تراهم يحاولون تشويه التمسك بالفضائل ، والازراء به ما دام هذا التمسك لا يحقق منفعة عاجلة ، فصاحب الخلق القويم يصفونه بما يوحى بالسذاجة والغفلة ، من نحو أنه (رجل درويش) وحتى الوصف بالطيبة يساق فى مساق الاستخفاف بصاحبه . وهكذا فى صور كثيرة ، كالذين يعملون فى جهة حكومية ، أو فى مؤسسة تكون الرقابة فيها ضعيفة ، حين يبدأ الانحراف بينهم بالاختلاس من المال العام ، أو الرشوة أو غير ذلك ، ثم يشيع هذا الانحراف كما ينتشر المرض بالعدوى حتى يشمل الغالبية العظمى فى مكان ما ، فالقلة التى تحاول المحافظة على القيم والفضائل فى هذا المكان سينظر اليهم أفراد الغالبية على أنهم شاذون ، ثم يحاولون نبذهم أو التخلص منهم بأية وسيلة . كما قال المجتمع المنحرف عن المؤمنين (أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون) .

قال الشاب : ولكن اذا كان مثل هذا يحدث فى بعض المجتمعات لظروف سياسية أو اقتصادية معينة فهل يصلح أن نجعل منه حكما عاما على البشرية فى كل العصور والأماكن ؟

قال الشيخ : ينبغى ألا تنسى أننى أقول لك ان الشاذين (يحاولون) قلب الحقائق ، والمحاولة ليست بالضرورة ناجحة دائما ، وليس نجاحها بدرجة واحدة ازاء كل القيم والفضائل ، ولكن قربها من النجاح يكون بمقدار قوة الغريزة التى يخدمها هذا الشذوذ ، فكلما كان سلطان الغريزة التى يخدمها الشذوذ أقوى كان الشذوذ أقوى وأقرب الى النجاح والانتشار ، وعلى سبيل المثال فان غريزة حب التملك من أشد الغرائز سلطانا على النفوس . وأقواها حب تملك المال ، والفضيلة تدعو الى عدم تملك ما للغير الا بالوسائل المشروعة ، فاذا بدا الشذوذ فى مجتمع ما بالخروج على الفضيلة ، ومحاولة تملك ما للغير بأية وسيلة كالخداع أو الغش أو الاختلاس أو السطو أو الاغتصاب أو غير ذلك ، فان سلطان حب التملك يساعد على انتشار الخروج على الفضيلة بسرعة وقوة أكبر من الخروج على الفضائل الأضعف سلطانا على النفوس .

قال الشاب : وهل معنى ذلك أن الغرائز هى التى توجه فى النهاية سلوك البشرية ، ومن ثم هى التى فى النهاية تصوغ تحديد القيم ، والحكم على السلوك من حيث الفضيلة أو الرذيلة ؟

قال الشيخ : أظن أنك بعدت بعدا غير قليل عن مرمى الكلام . فقد كررت فى حديثى أن الغرائز هى الموجه للشذوذ وليس للقيم ، واذا كنت

تعنى بتعبيرك بالنهاية أن سلطان الغرائز قد يفشى الشذوذ حتى يصبح فى النهاية هو الأصل أو كأنه الأصل فهذا أيضا ليس صحيحا على اطلاقه بالقياس الى كل المجتمعات ، وذلك أن من لطف الله بالقيم والفضائل أن جعل للغرائز ضـوابط تكبح من جموحها ، وأولها وأهمها التشريعـات الاجتماعية المتمثلة فى العادات والتقاليد ، فان علماء الاجتماع يؤكدون أن للعادات سلطانا على الشعوب يفوق سلطان القانون وسلطان الدين معا ، فالعادات والتقاليد هى القانون الاجتماعى الذى يحمى القيم والفضائل الاجتمـــاعية ٠

قال الشاب : وما علاقة العادات بالفضائل والقيم ؟

قال الشيخ : بل هما فى المجتمعات يكادان يكونان شيئا واحدا ، أو تكمل أحداهما الأخرى على الأقل ، وذلك أنك اذا ألقيت نظرة بعيدة الى المجتمعات البشرية الأولى التى توصف بأنها بدائية ، والتى يتحدث الناس عنها بالتخمين والاستنتاج لأنها لم تكن لها حضارة محددة أو مقننة ، ولم تبلغنا عنها معلومات علمية فانك تستطيع أن تقول وأنت مطمئن ان كل عاداتها وقوانينها الاجتماعية نبعت من حاجتها ومصـالحها الدينية أو الاقتصادية ، ثم توارثت الأجيال التالية بما فيها الأجيال المتحضرة كثيرا من هذه القوانين ، بل ان كثيرا من التشريعات الحضارية ، سواء أكانت تشريعات وضعية كالتى صاغتها المجتمعات أم كانت ، تشريعـات دينية سماوية بنيت على هذه العادات والتشريعات الاجتماعية الأولى ، لأن كل التشريعات انما تهدف الى مصلحة المجتمعات ، ومن أمثلة ذلك الزواج ٠

قال الشاب مقاطعا : وما علاقة الزواج بالعادات ؟ ان الزواج له تشريعات محددة فى كل المجتمعات ، سواء أكانت تشريعات بشرية أم دينية ، الا اذا كنت تعنى أن لكل مجتمع عاداته فى أسلوب اتمام الزواج ، فهذا حق ، أما مبدأ اعتراف المجتمعات باقتران رجل بامرأة فى صـورة زواج فهذا محكوم بتشريع محدد فى كل مجتمع ٠

قال الشيخ فى شىء من عتاب : لقد استعجلت بحديثك ، فان ما تقوله هو ما كنت على وشك أن أقوله ، ولكن الذى أريد الوصول اليه هو أن كل هذه التشريعات المتعلقة بالزواج أعتقد أنها وان كانت قد مرت بمراحل أو أطوار فى تقييد العلاقة بين الرجل والمرأة الا أنها بدأت من الناحية الاقتصادية ، حيث نستطيع أن نتصور بوضوح أن هذه العلاقة فى الأجيال الأولى من البشرية كانت مطلقة بغير قيود ، ثم ترتب على هذا الاطلاق أن الذين يولدون ذكورا أو اناثا يعرفون أمهم ويرتبطون بها ، ولكنهم لا يعرفون أباهم ، ثم تبدأ المشاكل أو المتاعب أولا للأمهات ، انها ستنجب عددا من الأطفال يحتاجون الى طعام ومأوى ورعاية ، ومن المشقة الشديدة عليها أن تتحمل هذا العبء ، وقد تضنى نفسها لحمل هـذا

العبء ، ولكن المشكلة تتضخم حينما تبدأ بناتها وهن مازلن قريبات من الطفولة فى الحمل والولادة ، ليأتينها بأعباء جديدة من الأطفال الجدد ، فمن الذى يتحمل رعايتهم ؟ والاناث يشعرن بأن الذكور هم الذين تسببوا فى هذا العبء ، ولكنهم لا يتحملونه ، لأنه لا يعرف من منهم على وجه التحديد هو المسئول أو المتسبب ، فمن هنـا يبدأ التفكير فى تحـديد المسئولية ، وقد يمر هذا بمراحل أو أطوار ، ولكنه لابد أن ينتهى بأن الأنثى تستفيد بتجارب السابقات فتنتهى الى أن ترفض أن يعاشرها ذكر الا اذا قبل أن يشاركهـا فى تحمل عبء ما ينتج عن هذه المعاشرة من أطفال ، وبالتالى فان الذكر يشترط عليها أن تمتنع عن معاشرة أى ذكر غيره ليتأكد أن الطفل الذى سيأتى هو ثمرة معاشرته هو ، وبطبيعة الحال ستظهر مشاكل كثيرة فيما بين الذكور من الصراع والتنافس على معاشرة الاناث ، ومشاكل أخرى فيما بين الاناث ، بالاضافة الى المشاكل والخلافات فيما بين الذكور والاناث ، وهذه المشاكل الكثيرة تحتاج الى تدخل الآخرين للمعاونة على حلها • ولكن كثرة المشاكل وتكرارها تدعو مجتمع هـذه المشاكل الى الاتفاق على أوضاع تمنع هذه المشاكل أو تساعد على حلها ، ولكن الركيزة التى تدور حولها هذه الأوضاع لابد أن تكون هى الوسيلة التى تمنع اختلاط الأنساب وشيوعها بين الذكور ، ليكون معروفا انتساب كل طفل الى الذكر الذى تسبب فى وجوده ، وهو ما يعرف بالزواج ، ثم يأخذ المجتمع فى الاتفاق أيضا على ما يترتب على الزواج من مسئوليات أو أعباء ، وتتحول هذه الحلول الى عادات وتقاليد تأخذ حكم القانون الملزم للأفراد •

قال الشاب : قد يكون هذا التصـور ولو فى معظمه من الناحية النظرية معقولا ، ولكن ألا ترى أنه يتعارض مع سلطان الغرائز ، ففى هذه المجتمعات البدائية الأولى التى نتصورها لابد أن تكون الغرائز هى الموجه الأقوى لسلوكها ، والغريزة الجنسية لا شك أنها من أقوى الغرائز ، فكيف يستطيع المجتمع بالحلول التى يضعها وهى قيود أن يقاوم سلطان الغريزة الجنسية ، وعلى سبيل المثـال اذا تنافس رجلان أو أكثر على معاشرة امرأة معينة ، أو تنافست امرأتان أو أكثر على معاشرة رجل معين ، فكيف يستطيع اتفاق الجماعة أن يقاوم هذا التنافس النابع من الغريزة ؟

قال الشيخ : ولكن سلطان الغريزة حينئذ محاصر بأمرين أيضـــا قويين ، أحدهما الناحية الاقتصادية التى تقوم عليها الحياة ، والتى كانت الأساس فى البحث عن حلول تقيد العلاقة الجنسية ، والآخر هو تعارض الرغبة الجنسية حينئذ مع رغبة أو رغبات أخرى هى رغبات المنافسين ، واذن فالحلول أو القيود التى يضعها المجتمع ستكون مقبولة ومرضيا عنها من الجميع ، وحتى الذين يحاولون التمرد عليها فانهم من الناحية

النظرية سيرضـــون عنها لأنهم يستفيدون منها فى حماية ما يملكون ، ولكنهم بتمردهم يحاولون أن يستفيدوا أيضا بما يملكه الآخرون ، وأما ما ذكرته من مثال لتنافس رجلين أو أكثر على معاشرة امرأة معينة ، أو العكس فى تنافس امرأتين أو أكثر على رجل معين فلعلك تذكر مما قيل أن الواضح أن أساس تدخل الجماعة أو أساس التشريع الاجتماعى هو منع اختلاط الأنساب ، ويترتب على ذلك أن التشريع الاجتماعى لن يمنع سلوكا لا يؤدى الى تداخل الأنساب أو تجهيلها ، واذن فسيمنع أن يعاشر رجلان امرأة واحدة لأنه يؤدى الى اختلاط نسب ما ينتج عن معاشرتهما من أولاد· وسيمنع أن تعاشر امرأة رجلا معاشرة خفية أو عابرة أو أية معاشرة دون علم المجتمع لأنه يؤدى الى جهل نسب ما ينتج عن هذه المعاشرة من أولاد ، وأما معاشرة امرأتين أو أكثر لرجل واحد معين فلا يترتب عليها خلل فى النسب · فكل ما ينتجه هؤلاء النســـوة من أولاد فسيكونون معروفى النسب لأب واحد ، ولذلك فلا مبرر لمنع هذه المعاشرة ما دامت معروفة للمجتمع بحيث لا يستطيع الرجل التهرب من تبعاتها ·

قال الشاب : وهل معنى ذلك أن التشريعـات ضد الغرائز وحرب عليها ؟

قال الشيخ : لو وقفت التشريعات من غرائز البشر هـذا الموقف لفشلت فشلا ذريعا ، ولرفضها الناس بكل أنواعها ، لأن الغرائز من حيث المبدأ هى الموجه لحيـاة الناس ، وهى المقود لسلوكهم كله ، ولو أن التشريعات استطاعت وقف حركة الغرائز لحدث شلل للحياة كلهـا ، وما دامت الغرائز هى الموجه لسلوك الناس فانها فى مجموعها ستكون أقوى من أية عقبة تقف فى طريقها ، ولذلك فان علماء الاجتماع لا يختلفون على أن التشريعات لابد أن تكون مراعية لطبيعة الناس وميولهم ومشاعرهم ، والا فانها لن تنجح فى أداء مهمتها ، فلك أن تتصور أن أفرادا أو نسبة بالغة الضآلة من الناس هى التى تستطيع أن تكبح غرائزها أو تكبتها ، أما عامة الناس وغالبيتهم فانهم مقودون بغرائزهم ·

قال الشاب : فكيف نفهم على وجه التحديد موقف التشريعات من الغرائز ؟

قال الشيخ : ان اطلاق اسم التشريعات على عمومه لا يصل بنا الى حكم سليم أو قريب من السلامة على طبيعة التشريعات وأهدافها ، فان من التشريعات ما يراعى فى وضعه صلاحيته للشعوب والأمم ، وللعصـــور والأجيال ، ومنها ما يراعى فيه اقتصاره على طائفة معينة ، أو علاجـه لجانب معين من العقيدة أو السلوك ، فالأول يوصف بأنه تشريع عام ، والثانى يوصف بأنه تشريع خاص ، والنوع الأخير وهو الخاص لا يعنينا

في الحديث ، لأنه لا يعد تشريعا أو قانونا بالمعنى الصحيح أو المقصود ، لأننا نتحدث عن البشرية بصفة عامة ، فلا يعنينا الا التشريع الذى يراعى فيه العموم · أما التشريع الخاص فانه غالبا ما يهدف الى علاج جانب خاص ، أو مجتمع خاص ، أو تحقيق مصلحة خاصة ، فقد يضع زعيم دينى أو سياسى قانونا لطائفته يكون الهدف منه اخضاع الطائفة لسلطانه واحكام قبضته عليها ، أو يكون هدف القانون اقتصاديا مثل أن يلزم الطائفة طريقة معينة فى التعامل ، أو أداء أعباء مادية معينة ، وهكذا · مع مراعاة أن هذه التشريعات الخاصة لا تهتم غالبا بناحية الغرائز الا اذا كان فيها مساس بأهداف التشريع أو خدمتها ، ولذلك فان بعض زعماء الطوائف الدينية الخاصة يبيحون لأتباعهم اطلاق غرائزهم ، وأى شيء الا ما يتعارض مع وحدة أتباعه وخضوعهم لسلطانه ، وكذلك يبيح بعض الزعماء الدينيين والسياسيين لاتباعهم ابتزاز أموال أى أحد أو أية جهة غير الطائفة طالما لا يؤدى هذا الابتزاز الى مشاكل أو أضرار ، وأشياء كثيرة من هذا القبيل ونحوه تحفل بها التشريعات الخاصة ، ولذلك فانها لا تستحق أن توصف بأنها تشريع أو قانون بالمعنى الصحيح ·

قال الشاب : واذا سلمنا بهذا فما موقف التشريعات العامة من الغرائز على وجه التحديد ؟

قال الشيخ : موقفها أن توجهها الوجهة الصحيحة ، فلا تكبتها ، لأن كبتها يعطل حركة الحياة ، ولا تدعها منطلقة على سجيتها بدون قيود أو توجيه ، حتى لا تصطدم الغرائز بعضها ببعض فيضطرب المجتمع ، وتمزقه الصراعات ، ولو أبحنا لشخص أن يطلق غرائزه ، كغريزة حب التملك فيملك ما فى يد الآخرين ، لوجد أن الآخرين باطلاقهم هذه الغريزة يريدون أن يتملكوا ما فى يده هو ، وكذلك لو أطلق غريزته الجنسية ، فسيجد الآخرين يريدون السطو على عرضه هو ، وهكذا يدخل الناس فى صراعات دائمة ومتعددة المصادر مما يفسد الحياة ويشل حركتها ·

قال الشاب : تعنى أن حياة الناس تصبح كحياة الحيوانات العجماوات ؟!

قال الشيخ وقد كست وجهه ابتسامة عريضة : أتدرى أن هذا التشبيه قد خطر لى فى أثناء الحديث ، ولكنى استنكرته واستبعدته ، لأننا نظلم الحيوانات فى استخدامها غرائزها ظلما شديدا لو شبهنا بها الناس فى هذا ·

قال الشاب : أتريد أن تمزح أو تسخر ؟

قال الشيخ : لا هذا ولا ذاك ، وانما هى الحقيقة التى لا تحتاج

الى مراء ولا تحتمل جدالا ، وذلك أن الحيوان الأعجم قد خصه الله فى مقابل انعدام العقل والارادة عنده بتنظيم استخدامه غرائزه بصـــورة تلقائيـة نابعة من طبيعته ، ومن ثم كانت حياته منظمـة دون خلل أو اضطراب ، فالحيوان لديه غريزة جنسية كالانسان ، ولكنهـا منظمة بصورة طبيعية ، من حيث ان الأنثى لا تقبل اطلاقا المعاشرة الجنسية تحت أى ظرف أو عامل الا فى صورة واحدة ، هى رغبتها فى الحمل لبقاء النوع • فالمعاشرة مرة واحدة ، هى التى تحقق الحمل ، ثم لا يمكن أن تقبل المعاشرة بعد ذلك اطلاقا ، الا عند الرغبة فى الحمل مرة أخرى ، فلا يحدث صراع فى المجال الجنسى ، ولا تحدث خيانات ولا مفاسد كالتى تحدث فى حياة الناس ، ومع أن الحيوانات ليست فى حاجة الى تحديد الأنساب الا أن أنسابها محددة بطبيعتها وبصورة قاطعة ، بينما الناس وهم المحتاجون الى تحديد الأنساب لا تتوافر لديهم هذه الميزة التى صاغها أحد المعارف ذات مرة فى مزاح ساخر ، حين كان ابنه معه ، فسئل : هل هذا ابنك ؟ فأجاب : الله أعلم •

وتستطيع أن تقول ان أهم عوامل الصراع التى تملأ حياة الناس فسادا واضطرابا ثلاثة عوامل ، هى الغريزة الجنسية فيما بين الرجال والنساء وهى التى سبق الحديث عنها الآن ، والتى رأينا كيف أن حياة الحيوانات فيها خير تنظيما ومزاولة منها فى حيـاة النـاس ، والغريزة الثانية هى غريزة حب التملك ، التى تتمثل فى الحياة الاقتصـــادية والصراع على المال فيما بين الرجال ، والغريزة الثالثة هى غريزة الزعامة والقيادة ، وهى فيما بين القادة والزعماء • والغريزتان الآخيرتان سنجد أن حياة الحيوانات فيهما أيضا خير من حياة الناس •

فأما الغريزة الأولى منهما ، وهى غريزة حب التملك فأساسها سواء فى الحيوان الأعجم أو الانسان هو الحاجة الحيوية الى الطعام ، ولكنها تضخمت فى الانسان حتى تجاوزت الحاجة الى الطعام الى التملك لذاته بصرف النظر عن الحاجة الى الطعـام ، بينما بقيت فى الحيوانات على أساسها دون تجاوز ، فكل الحيوانات بما فيها أشدها افتراسا يسعى الى الحصول على الطعام ، وحين يحصل عليه يأخذ منه ما يشبع غريزته ، فاذا شبع ترك كل ما لديه وانصرف ، فقد تتصور أسدا يفترس ثورا ضخما يكفى أسودا عديدة ، ويكفى هذا الأسد أياما عديدة ، ولكن الأسد لا يأخذ منه الا ما يشبعه ، ثم يتركه دون أن يفكر فى ادخاره لغد ، ولا فى أن يمنع عنه حيوانا آخر يريد أن يأكل منه بعد ذلك ، وهكذا كل أنواع الحيوان ، باستثناء نوعين منها لديهما غريزة الادخار ، وهما النمل والنحل ، ولكنهما حين يدخران لا يحدث بين أفراد الخلية التى فيها الطعام المدخر أى اخلال بالنظام العام ، فلا يمكن لأى نملة أو نحلة أن تفكر مثلا

في مغافلة الجماعة لتسرق ، أو تحاول حين يوزع الطعام أن تأخذ أكثر من حقها ، أو أن تسلب غيرها شيئا من حقه أو أى شيء يخل بالنظام العام للجماعة ، ولذلك لا يمكن أن يحدث خلل أو فساد فى حياة أى نوع من أنــواع الحيوانات ، بينما البشر فى صراع رهيب ليفترس بعضهم بعضا وكأنهم فى غابة ، بل أستغفر الله من الاساءة الى وحوش الغابة فانها لا يفترس أبناء الفصيلة منها بعضهم بعضا ، أما البشر وهم جميعا اخوة لأب وأم يتنافسون فى افتراس بعضهم بعضا · أو فى افتراس بعضهم حقوق بعض ، أو كرامة بعض ، ولا يتعفف أن يفعل ذلك منهم الأبناء والاخوة الأشقاء لأب وأم مباشرين ·

وأما الغريزة الثانية من الغريزتين الأخيرتين فهى غريزة الزعامــة والقيــادة ·

قال الشاب فيما يشبه المقاطعة : أنا أفهم أن الغريزة هى الصفة الموجودة فى طبيعة التكوين ، والمشتركة بين كل الأفراد ، والزعامة أو القيادة انما تكون لشخص الزعيم أو القائد ، أو على أوسع الفروض للأفراد المنافسين له ، فكيف تعد الزعامة غريزة ؟

قال الشيخ : لا أعنى بالزعامة شخص الزعيم ، وانما أعنى صورة الزعامة والقيادة ، وهى لا تتحقق الا بوجود الزعيم والمجتمع الذى يتزعمه معا ، ومنهما معا تتكون صورة الزعامة ·

قال الشاب : وهل الزعامة فى أية صورة غريزة عامة فى البشرية ·

قال الشيخ : بل انها ليست فى البشرية وحدها ، وانما هى غريزة عامة فى سائر الحيوان ، ومنه الانسان ، فان الباحثين لحظوا أن أية جماعة من أية فصيلة من فصائل الحيوان لابد أن يكون لها قائد تنقاد له الجماعة ، ويعمل على قيادتها الى تنظيم حياتها ، وسواء أنافسه حيوان آخر على القيادة أم لم ينافسه فان الوضع لابد أن يستقر سريعا على وجود الأمرين ، القائد وانقياد الجماعة ، وكل أنواع الحيوان التى أمكن دراسة حياتها يتحقق فيها هذا الوضع بصورة ظاهرة ، فالنحل مثلا من أقدم أنواع الحيوان الذى عرفت حياته ، وحياته الاجتماعية من أدق أنواع الحياة المعيشية والسياسية · فكل مجتمع منه وهو ما نعرفه اليوم بالخلية له قيادة تتمثل فى الملكة التى تهيمن على كل الأفراد لتضبط نظام الحياة ، وكان العرب منذ أقدم ما وصــل الينا من شعر جاهليتهم يسمونهــا (الخشرم) بفتح الخاء ، ويعرفونه بأنه رئيس النحل ، ويسمون أفراد النحل أو عامته (الدبر) بفتح الدال المشددة ، ويعرفون أن الخشرم هو الذى يقود النحل وينظم حيــاته المعيشية كما يقول الشنفرى الجاهلى

(أو الخشرم المبعوث حثحث دبره ٠٠) بمعنى قاد أفراد رعيتـه وهو يحثهن على العمل ، وحياة النحل الاجتماعية بدقة تنظيمها المعيشى فى فى سعى الأفراد على القوت واختزانه ٠ وتنظيمها السياسى بدقة القيادة وتحديد المسئوليات أصبحت معروفة بتفاصيلها ليس للعلماء والباحثين فحسب ، انما لكل من يعملون فى عسله ، والنمل قد يكون أدق تنظيما أيضا فى حياتيه المعيشية والسياسية وان كانت حياة النحل أوضـح لاحتكاك الناس بها بسبب جمع العسل ، ولكن الباحثين يعرفون عن حياة النمل ما يثير العجب فى دقة القيادة ، ودقة تنظيم الحياة المعيشية ، وكذلك كل أنواع الحيوان التى أمكن ملاحظتها أو دراستها ، والتى لم يتدخل الانسان فى حياتها ، كما تدخل فى حياة الحيوانات الأليفة التى يستأنسها الناس ، فان الانسان يغير كثيرا من طبيعتها ، ومن هذا التغيير انتزاع القيادة منها ليتولى هو توجيهها وقيادتها ، بينما الأنواع التى تعيش حياة الوحشة فى الصحراوات والغابات على سجيتها نجد أن لكل سرب أو قطيع منها قائدا يوجهه ويقود حياته المعيشية ، وهكذا سائر أنواع الحيـوان ٠

وكذلك حياة الناس ، لا تظنن أن القيادة والزعامة الاجتماعية فيها هى من آثار الحضارة أو المدنية ، وانما هى غريزة فى طبيعة الناس فى كل مجتمعاتهم وعصورهم منذ وجدوا ، ولا يوجد مجتمع مهما بلغ من البداوة ، ومهما قل عدده الا وتبرز فيه زعامة ، ولا تستقر حياة أى مجتمع الا اذا وجدت فيه القيادة وتم التوافق بينها وبين المجتمع ، ولكن وازن بين القيادة فى حياة الحيوانات وليس لها هدف أو عمل الا خدمة مجتمعها وتنظيم حياته ، وبين الزعامة فى حياة الناس التى تفسد أكثر مما تصلح ، والتى فى أغلب الأحيان تملأ حياة الناس دماء عند التنافس على الزعامة ، وتملؤها ظلما وجبروتا وقهرا حينما تنفرد بالقيادة ٠ وفى كل الأحوال يكون هم القيادة خدمة نفسها وليس خدمة مجتمعها أو قبل خدمة مجتمعها ، بينما قيادة الحيوانات بالعكس ٠

قال الشاب : ألا ترى أننا بعدنا بعض الشىء بهذا الاستطراد عن أصل الحديث حتى كدنا ننساه ؟

قال الشيخ : ليس هذا استطرادا ٠ لأن الاستطراد فى العرف هو الخروج من موضوع الى موضوع آخر ، وهذا لم يحدث ، وانما قد نقول انها بسطة يسيرة فى الحديث اقتضتها ضرورة توضيح معنى قد يكون غريبا لأول وهلة وهو أن حياة الحيوان أكثر تنظيما وصلاحا من حياة الانسان : وما ذكرته لك ليس الا أمثلة قليلة عابرة لتأكيد هذه الحقيقة التى يتجاهل الناس التفكير فيها أو الاعتراف بها رغم وضوحها غرورا بانسانيتهم وتعاليا بها على سائر أنواع الحيوان ٠

قال الشاب مستنكرا : هل تعنى أن الحيوانات العجماء أفضل من الانسان ؟

قال الشيخ : لست أعنى ذلك ، وما كان لعاقل أن يعنى ذلك ، فمع كل هذا التناقض الغريب بين نظام حياة الحيوان ، وفساد حياة الناس فان الله سبحانه قد خص الانسان وميزه بمزايا لا توجد فى سائر الحيوان وأهمها العقل الذى يستطيع أن يزن به الأمور ويفاضل بينها ، والارادة التى يستطيع بها أن يقدم أو يمتنع عما يعرض له ، وبهاتين الميزتين استطاع الانسان أن يكتشف أشياء لم يكن يعرفها ، وأن يكتسب معلومات لم تكن لديه ، وأن يوجد نظما لم تكن معروفة ، واستطاع أن يواصل تطوير هذا كله وغيره فى صورة غيرت وجه الأرض عما كانت عليه قبل أن يوجد فيها ، ولكن المشكلة أن المزايا التى ميزه الله بها كان يمكن أن يوجهها كلها للخير واصلاح حياته ، فاذا هو يوجه أكثرها للشر والافساد ، وأقلها للخير والاصلاح ٠

قال الشاب : فما فضله اذن على سائر الحيوان ؟

قال الشيخ : أرى أن فضـله يتركز فى هـذا الخير القليل الذى يصنعه ويزاوله باختياره ، فان كل الحيوانات معدومة الاختيار ، ولو كانت حياتها كلها خيرا وصلاحا فلا فضل لها فى شيء من ذلك ، لأنها مسخرة فى ذلك تسخيرا لا تملك مخالفته لأنها لا تملك أصلا ارادة أو اختيارا فلا ينسب اليها شيء من الخير والصلاح الذى فى حياتها ، لأنها لم تصنع منه شيئا ، أما الخير الذى فى حياة الانسان فمهما قل فهو من صنعه واختياره ، فهو اذن صاحب هذا الخير وصانعه ، ومن ثم فهو أفضل من الحيوان الذى لا يصنع شيئا ٠

قال الشاب فى ابتسامة ساخرة : انك توشك أن تجعل الأمر حلقة مفرغة لا يعرف أولها من آخرها ، فكيف تكون حياة الحيوان خيرا من حياة الانسان ، وفى الوقت نفسه يكون الانسان خيرا من الحيوان ؟

قال الشيخ : الأمر أيسر من ذلك بكثير وأوضح ، فان الذى صنع حياة الحيوان الأعجم هو الله سبحانه ، وسخره لهذا الصنع تسخيرا لا يملك أن يغيره ولا أن يفسد فيه ، بينما حياة الانسان هو الذى يصنعها بعقله وارادته ، والله قد أراد له ذلك ليمتحنه ويحاسبه على ما يصنع ، واذن فالموازنة فى حقيقتها هى موازنة بين صنع الله وصنع الانسان ، والحكم بينهما ليس فيه لبس لدى أى مؤمن ، بل ولدى أى عاقل ٠

قال الشاب وقد تململ تململا لم يعرف الشيخ أهو ضجر أم تحفز : أرى أننا بدأنا ندخل فى الحديث عن الله وعن الدين ، ولم نتفق على ذلك ٠

قال الشيخ وهو يحاول اخفاء امتعاضه : أرى أن مجرد ذكر الدين أقلقك وأثار اضطرابك فهل لى أن أسألك لماذا ؟

قال الشاب وهو يحاول أن يستعيد هدوءه : لأن كل من استمعت الى حديثهم عن الدين سواء من مؤيديه أو معارضيه لم يبعثوا فى نفسى راحة اليه ، بل بعثوا فيها ما يشبه النفور منه ، فأما المتحدثون باسم الدين فافاجأ بأنهم يحاولون أن يسلبونى شخصيتى واعتزازى بنفسى ليعاملونى معاملة المعلم لطفل صغير ، أو القائد لجندى جاهل ، وأما المعارضون للدين فافاجأ بأنهم يحاولون أن يملأوا نفسى كراهية للدين واحتقارا للمؤمنين به ، فلم أجد من هؤلاء أو أولئك من يعاملنى على أن بينى وبينه رابطة أو تقاربا يحمله على أن يجعل الكلام بيننا فى صورة حوار وليس املاء من علو ، أو فرضا لآراء وتوجيهات ، فألزمت نفسى ألا أتحدث فى الدين الى أحد ، وألا أسمع لأحد أن يحدثنى فيه ، وما رأيته من تململى كان من أثر التزامى هذا حين وجدت أنك تريد أن تخرجنى منه ·

قال الشيخ مبتسما : لتملأ نفسك أطمئنانا الى أنك لن تخرج من التزامك هذا بالصورة التى تصورتها ، لأننى لا من المتحدثين باسم الدين ، ولا من المعارضين اياه ، لأن الذين يتحدثون باسم الدين هم علماؤه وحراسه ، ولست منهم ، والذين يعارضون الدين هم أعداؤه ، ولست أيضا منهم وقبل أن تسألنى سؤالا بدهيا هو : فمن أى نوع أنت ؟ أقول لك اننى من الذين يؤمنون بالعقل قبل الدين ، ولا يستسلمون لشىء الا اذا قام على منطق عقلى مقنع ، والذى تشعر به أنت نحو المتحدثين باسم الدين ، ونحو أعداء الدين أشعر أنا بكثير منه أيضا ، ولكنى بدل أن أقف موقفا سلبيا أستمع الى هؤلاء وهؤلاء اذا جاء الحديث عرضا ، وأستخدم عقلى فيما أسمع من كلا الطرفين ، فما وجدت فيه اقناعا قبلته فى نفسى دون أن أجعل لمحدثى وصاية على فيه ، والذى يرفضه عقلى أطرحه من نفسى دون أن أصطدم بمحدثى فيه ، وفى كلا الحالين لا يستطيع أحد أن يملى على ما يرفضه عقلى ، ولا أن ينتزع من عقلى ما يقتنع به ·

قال الشاب : وقد نظر الى الشيخ نظرة رضا واطمئنان : أما هذا المنهج فانى أستريح اليه ، وقد كان يمكن أن أسير عليه لو أننى كنت مهتما بالدين ، ولكنى أساسا لا أهتم بالدين ، ولا أجد ما يدفعنى الى التشبث به ، أو الى معاداته ·

قال الشيخ : فهل لى أن أسألك : لماذا لا تهتم بالدين مع أنه غريزة فى الانسان ، بل هو الغريزة الأولى فى تكوينه ؟

قال الشاب فى لهجة اللوم والعتاب : اننى بدأت أشعر نحوك بالاحترام · فلا تكن سببا فى ازالة هذا الشعور من نفسى ·

قال الشيخ فى شيء من استغراب : وماذا بدر منى حتى يثير قلقك ؟

قال الشاب : لعلك تلحظ أننى لم أحاول الدخول الى ما فى نفسك ، أو الى شيء من شئونك ، بل لم أحاول أن أعرف شيئا عنك ، فقد كان ينبغى أن تبادلنى هذا ، ولو أردت أن تقتحم شئونى فقد كان ينبغى أن تسعى الى التعارف بيننا ليعرف كل منا شخصية محدثه وطبيعته قبل أن يبيح له المحاورة فى خصائص شئونه ، هذه واحدة ، والأخرى مما أثارنى أننى لمست أن لهجتك فى السؤال تشعرنى بأنك قريب من الذين ألزمت نفسى ألا أخوض معهم أو أحادثهم فى الدين ٠

قال الشيخ : فأما الأولى فلك فيها كل الحق ، فقد كان يحسن أن نتعارف ، وأن أكون أنا بحكم سنى البادىء ، فأنا أعتذر عن هـذا ، وأما الثانية فلا أظن أن لك فيها حقا ، فلم أفكر اطلاقا فى اقتحام شئونك ، أو املاء أى اتجاه عليك ، وانما كان حديثنا فى نهايته عن الدين ، وكنت أنت تتحدث عن موقفك منه ، فأردت أن أسألك لماذا هذا الموقف ، ولو كنت أعلم أن السؤال غير مقبول لديك ما وجهته ، فلست فى حاجة الى أن أسألك ٠ وموقفك من الدين أيا كانت صفته لا يفيدنى بشيء ، ولا يضرنى بشيء ، ولكنى توسمت فيك خيرا ، وبدأت أشعر بميل نفسى اليك ، فأردت أن أواصل معك الحديث ، فاذا أردتنى أن أعتذر عن هذا أيضا فلا مانع لدى ٠

قال الشاب فى شيء من خجل : أرى أنك تريد أن تقلب الموضوع فتجعلنى أنا المدين ، وبهذا نكون قد خرجنا من ألفة طيبة بدأت تجمعنا الى تباعد وتنافر ، وأنا حريص على استمرار الود بيننا فلنواصل الحديث ، ولكن بعد أن نتعارف ، وبعد أن نتفق على أسس الحوار بيننا ٠

قال الشيخ : فلأبدأ بنفسى ، ماذا تريد أن تعرف عنى ؟

قال الشاب : عرفت من خلال حديثك منهجك فى الاستماع والحوار وهو تحكيم عقلك واعتمادك عليه فى كل شيء ، وأريد أن أعرف ثقافتك ٠

قال الشيخ : أنا من جيل كانت تتاح له أطراف من المعرفة فى أكثر من مجال ، ولكن المجال المحبب الى نفسى هو ما يتعلق بالدين ، وأقول ما يتعلق بالدين وليس الدين نفسه ، بمعنى أننى لست من المتخصصين ، ولا من العلماء فى الدين ، ولكن لى به الماما يتيح لى أن أتحدث فيه ولو الى حد ، ولكن حديثى فيه لا يعد حجة ولا رأيا قاطعا أو نهائيا ، وبحكم كونى مسلما فان هذا المجال هو حول الاسلام ٠

قال الشاب : يكفينى الآن هذا القدر من المعرفة عنك ، لأن هذا القدر هو الذى يحتاجه الحوار ، وأما عنى أنا فماذا تريد أن تعرف ؟

قال الشيخ : أريد أن أعرف ما حرصت أنت على معرفته ، وهو معرفة ثقافتك ، ومعرفة منهجك فى الحديث والحوار ، ومن خلالهما أستطيع أن أعرف عنك كل شيء ذى قيمة ٠

قال الشاب : أما منهجي فى الحديث والحوار فلا أستطيع أن أصوغه لك فى صياغة منمقة ، أو حتى منطقية ، وانما أقول لك اننى أتشبث بحريتى فى الحديث والحوار ، ولا أبيح لأحد أن يجعل لنفسه ولاية على تفكيرى بأن يلزمنى فكره هو يملى على اتجاهه ، وهذا لا ينفى أننى أحسن الاستماع لمحدثى ، وأترك له أيضا حريته فى التفكير ، على ألا يملى على تفكيره ، ولكنى أستمع فقط ، ثم أترك لنفسى أن تزن ما تسمع ، ثم لها أن تتجه بحرية كما تريد ٠

وأما ثقافتى فان الحديث عنها يمر ببعض المنحنيات ، ولكنى أوجزه لك فى أننى خريج كلية علمية ، ولكنى لم أدخلها مختارا كل الاختيار ، وانما وجهنى اليها تقليد التنسيق فى قبول الجامعات ، فقد كنت أرغب فى دخول كلية نظرية ، حيث كانت هوايتى دراسة الفلسفة أو علم النفس ، وأما مراحل الدراسة قبل الجامعة فقد قضيتها فى مدرسة أجنبية عالية المستوى الاجتماعى الذى تضمه ، حيث كان لدى أسرتى شيء من هذا المستوى ٠

قال الشيخ : هل أفهم من ذلك أن لديك ثقافة معينة فى الفلسفة أو علم النفس ؟

قال الشاب : قلت كنت أهوى الدراسة فى محيطهما أو أحدهما ، ولكن الكلية العملية قطعت على هذا الطريق ، فاكتفيت بما أسمعه من أحاديث متناثرة أو كتابات عابرة حولهما ، ومن الحق أن أقول اننى لا أعنى هذين المجالين بالذات ، وانما أعنى هواية البحوث التى تتعلق بالنفس البشرية وفى غير الماديات بصفة عامة ٠

قال الشيخ : ليتنى متخصصا فى أحد هذين المجالين لأجعلهما مجال حديثنا ، ومع ذلك أقول لك ان حديث الدين هو من قبيل ما تهواه ، لأنه مجال غير مادى ، وهو بطبيعته يدور حول أعماق النفس البشرية ، ونظرتها أو موقفها من سائر القضايا الغيبية أو المادية ٠

قال الشاب وهو يقاوم شيئا من الحدة فى لهجته : أعلم ذلك ، ولكنى قلت لك اننى أصبحت أنفر من الحديث فى الدين أو الاستماع اليه ، لأن كل الذين تعاملت معهم ، سواء من أعداء الدين أو من الدعاة اليه أو من المحايدين كلهم بعث فى نفسى النفور من الخوض فى حديث الدين ، لأن أعداء الدين كان أسلوبهم فى الحملة على الدين غير مقنع

فرفضته ، حتى كثير من أساتذة كليتى بمقدرتهم العقلية والثقافية فى حملتهم على الدين كانوا غير مقنعين ، فضلا عن معاونيهم وطلابهم ، فانهم كانوا أبعد عن الاقناع ، وأما دعاة الدين فكان أسلوبهم أيضا غير مقنع ٠

قال الشيخ : هل لك أن تحدثنى عن نوعية هؤلاء الدعاة ؟

قال الشاب : أفهم ما تعنى ، فقد يكون من سوء المصادفة أن أغلب الذين استمعت اليهم من دعاة الدين لم يكونوا من علمائه ، وانما كانوا من ذوى ثقافات بعيدة عن الدين ، ومعظم زادهم من الدين هو مجرد الحماس له والانفعال به ٠ ولكن لا شك أن بعضهم كان من الذين ينتمون الى الدراسة الدينية ، وبعض هؤلاء كان أسوأ من الآخرين ، فما أيسر ما يكفر الناس أو يحكم عليهم بالضلال دون وجه مقنع ٠

قال الشيخ : دعنى أولا أستمع الى بقية حديثك ، فماذا تعنى بالمحايدين فى الدين ؟

قال الشاب : أعنى بهم القائمين على التعليم فى المدرسة الأجنبية التى قضيت فيها كل مراحل التعليم قبل الجامعة ، فقد كان معظمنا فى المدرسة مسلمين ، وكان كل القائمين على المدرسة وعلى التعليم فيها غير مسلمين ، وكان أهلونا يتخوفون علينا من هؤلاء ، فينصحوننا دائما وبصفة مكررة من التنبه لهؤلاء وعدم التأثر بما يوحون به من تشويه الاسلام أو المساس به ، فكنا فعلا فى غاية اليقظة لما قد يصدر منهم من هذا القبيل ، وفى قمة التحفز للتصدى له بكل الأساليب ولو عصبية ، ولكنا فوجئنا بأننا لم نسمع كلمة قط تسىء الى الاسلام ، أو توحى الينا بمعاداته ، وانما كنا نسمع دائما أحاديث السماحة الدينية ، وعدم التعصب والدعوة الى الحب والمودة بين سائر الناس ، وألا يجعلوا الدين مثارا للخلاف والعداوة بينهم ، بحيث تقوم الرابطة بين الناس على علاقة الانسانية مهما اختلفت أديانهم ، وليس على علاقة الأديان التى تفرق بينهم ، ويكتفى أنهم نزعوا منا صفة التعصب البغيضة ٠

قال الشيخ فى لهجة أقرب الى السخرية : وهل تظن أنهم بهذا الأسلوب كانوا محايدين ؟ بل وهل تحسب أن موقفكم كان موقفا حكيما ؟

قال الشاب فى شىء من حدة : يؤسفنى أننى أفهم ما تهدف اليه ، ومن مشاكلى أننى غالبا ما أفهم هدف محدثى منذ بدء الحديث ، وقبل أن يصل الى الهدف بكثير ٠ وهى من مشاكلى لأنها كثيرا ما توقعنى فى مشاكل وخلافات مع غيرى ، فانك تسىء الظن بهم ، وتعتقد أن كل موقف لهم من ديننا لابد أن يكون لهم من ورائه هدف ، فأنا أيضا كان يساورنى هذا الظن ، وكان بعض أهلى يوحون به الى ، وقد حاولت أن أتصيد لهم

كلمة أو موقفا يسيء الى ديننا فلم أجد ، فماذا كنت تريد لنا أن نفعل ؟ هل نعلن عداءنا لمن لم يسيء الينا ؟

قال الشيخ : رفقا بنفسك وبى ، وتعال نتدبر الأمر بشيء من التفكير ، فهل تدرى أن ما تسميه حيادا منهم هو أخطر من اعلان عداوتهم الصريحة ؟ فانهم لو أعلنوا عداوتهم لدينكم أو اساءتهم اليه لأثاروا فيكم نخوة الدفاع عن النفس ، وأقول الدفاع عن النفس وليس الدفاع عن الدين ، لأنكم ستشعرون بأن اساءتهم موجهة الى أشخاصكم أنتم بصرف النظر عن موقفكم من الدين هل أنتم متمسكون به أم مفرطون فيه ، فلجأوا الى خطة لا شك أنها مدروسة بعناية فائقة الاتقان ، وهى أن يسلبوا منكم أولا وبالتدريج الحماس لدينكم أو التشبث به ، أو مجرد الاهتمام به ، فى صورة أساليب عدة ، كلها برىء المظهر ، ولكنه يخفى سهاما مسمومة ، منها أن العلاقة الصحيحة بين الناس يجب أن تقوم على الانسانية والمودة بصرف النظر عن الدين ، ومنها أن الأديان كلها سواء ، ومنها أن التعصب لأى دين شيء بغيض ، وهكذا فى أساليب عديدة لا تسيء فى ظاهرها الى أى دين بعينه ، ولكنها جميعا تنتهى الى غاية واحدة ، هى أن يغرسوا فى نفس الطفل الصغير أو الشاب البرىء أن التعصب لأى دين ومنها دينه هو أو الحماس له أو التشبث به أو التقيد بقيوده فى السلوك والتعامل صفة سيئة بغيضة يجب أن يتبرأ منها كل عاقل وكل ذى خلق ، وبهذا يتعهدون الطفل منذ ادراكه العقلى والنفسى حتى يكتمل نضجه فيسلبوا منه الارتباط بدينه ، وتمتلىء نفسه بأن الأديان كلها بالقياس اليه سواء ، وهو لا يدرى أنه بهذا قد انسلخ من دينه ، فان الدين ليس لافتة يحملها الانسان فى يده ، ولا وثيقة يضعها فى جيبه ، وانما هو عقيدة اذا لم تكن راسخة فى النفس واذا لم تحمل صاحبها على أن يقيد سلوكه بقيودها فلن يكون دينا لصاحبه ، بل ان كثيرا من المؤمنين بالدين يدفعهم ايمانهم الى التضحية فى سبيله بالعزيز مما يملكون ، بل وبالتضحية بأنفسهم أحيانا ، وان كان الدين لا يطلب منهم هذا الا فى حالة الدفاع . أما أن يتحول الدين الى شعار ميت . فان الدين نفسه يكون قد مات فى جوف صاحبه ، وهذا ما تهدف اليه خطة القائمين على المدارس الأجنبية ، أن يجردوا المتعلمين على أيديهم أو غالبيتهم من دينهم بأسلوب لا مأخذ عليهم فيه ، وتكون هذه مرحلة أولى ، أما المرحلة التالية فهى أنهم بعد أن يطمئنوا الى تجريدهم من الدين يحاولون أن يختاروا من بينهم من هو أقرب تهيؤا لتقبل توجيه جديد بدل توجيه دينه الذى فقده ، أو الذى حيل بينه وبين غرسه فى نفسه منذ الصغر . فقد يوجهون حينئذ بعض هؤلاء الصغار الى الميل الى دين القائمين على هذه المدرسة بأية درجة يمكن الوصول اليها من هذا الميل ، وقد يوجهون بعضهم الى معاداة دين هؤلاء الصغار ، أو معاداة المنتمين

اليه ، أيضا بأساليب مغلفة مسمومة ، كأن يملأوا نفوسهم بأن سبب تخلفهم أو فقرهم أو سوء حالهم انما يرجع الى تمسكهم بهذا الدين ، وأنهم يستطيعون أن يصبحوا أعلاما وأبطالا فى مستقبل حياتهم اذا استطاعوا أن يحملوا أبناء دينهم على التخلى عن التشبث بهذا الدين الذى كان سببا فى تخلفهم،واذا استطاعوا أن يغرسوا فيهم مكان التشبث بالدين التشبث باسلوب الأمم الناهضة المتحضرة ليلحقوا بركبهم فى الحضارة ، ومن الواضح أنهم حينئذ سينتقون النوعية التى يتوسمون فيها نبوغا وتفوقا واستعدادا للقيادة أو التأثير الفكرى ، ولن يكون غريبا أن يتبنوا رعاية هذه النوعية حتى بعد ترك مدارسهم ، ليواصلوا الاشراف عليها ، وحمايتها من الخروج من قبضتهم الى أى توجيه آخر غير المسار الذى رسموه لها ، ويظل هذا الاشراف على هذه النوعية مدى الحياة بأساليب غير مباشرة وغير مكشوفة ، قد تكون فى صورة أصدقاء يرتبطون بهم ، ويسهلون لهم سبل الحياة ، ويذللون لهم المصاعب ، ويفتحون لهم أبواب الشهرة فى وسائل الاعلام وغير ذلك ، وقد تكون فى صورة ضمهم الى ناد من هذه الأندية الماسونية العديدة كاندية الروتارى أو الليونز أو غيرها لتظل قبضتهم على نواصى هذه النوعية محكمة باسلوب مشروع هو الانتماء الى ناد له منهج ولائحة ظاهران ، وله أهداف غير ظاهرة ، ولكن المنتمين الى النادى يسقون من الرحيق المسموم لهذه الأهداف ، كل حسب قدرته على الشرب ، وحسب الدرجة التى وصل اليها فى الترقى الى درجات العمل فى هذه الأهداف ، وهى درجات يتحدث عنها العارفون بها بأنها تربو على ثلاثين درجة ٠

قال الشاب منفعلا : ان هذا شىء خطير لا أستطيع أن أوافقك عليه ، فكيف تسمح دولة بأن تترك دولة أو دولا أجنبية تهدم فى مقوماتها ، وتتصرف فى توجيه أبنائها ، بل وتسخير بعضهم للعمل فى هذا الهدم ؟

قال الشيخ : لا يأخذك العجب يابنى ، فان هذا ليس جديدا ، وليس فى دولة واحدة أو دول قليلة ، بل هو السائد فى كل الدول التى كانت مستعمرة عسكريا ، فان الدول المسيطرة عسكريا فيما عرف بالاستعمار لم ترفع استعمارها أو سيطرتها العسكرية الا بعد أن اطمأنت الى أنها تركت ما هو أهم من السيطرة العسكرية من أساليب عديدة متنوعة ، منها أسلوب ما يعرف بالغزو الفكرى الذى يهدف الى قتل الفكر القومى بكل مقوماته الحيوية التى أهمها الفكر الدينى والتراث الثقافى والتطلع الحضارى سواء أكان اقتصاديا أم صناعيا أم سياسيا ، وقد تركوا فى كل مكان وراءهم أعدادا لا تحصى من الذين ربوهم على أيديهم ، ومعظمهم تم اختياره وتربيته منذ تعلمه فى المدارس الأجنبية ، أو من خلال الأحزاب السياسية ، وبعض هؤلاء ظاهر معروف يساعدهم زملاؤهم المسخرون

لخدمة هذه الأهداف المشبوهة ، ويفتحون لهم أبواب الترقى والقيادة ، وبعضهم خفى ، ولكن نواصيهم جميعا فى قبضة الجهات التى تسخرهم • وهم موزعون حسب قدراتهم الذاتية ، وحسب تخصصاتهم ، فبعضهم مسخر لهدم الفكر الدينى والتراث القومى ، وتنفير الشباب وعامة المثقفين منهما ، كما ترى فى كثير من أساتذة الجامعات ، ومن الكتاب والفنانين ، ومن المنتسبين الى وسائل الاعلام ، ومثلهم فى نحو هذه المجالات ، وبعضهم يعمل فى المجالات العديدة كالتى أشرت اليها آنفا ، كل حسب استعداده وثقافته •

قال الشاب فى غضب لم يستطع أن يقاوم اظهاره : لا تنس أننى قلت لك اننى مطبوع على حب الحرية ، ولا أخجل من التعبير عما فى نفسى بصراحة ولو أغضب غيرى أو آذاه طالما أعتقد أنه حق ، فان ما تطلقه من هذا القول الخطير ، انما تستخف به عقلى ، أو أنك شخص يطلق الكلام على عواهنه دون مراعاة مطابقته للعقل أو الواقع •

قال الشيخ فى هدوء غير متوقع : أرى أنك تهاجمنى فى شخصى ، بينما أنا أتحدث فى كلام عام غير موجه اليك ، وسواء أكان كلامى صوابا او خطأ فانه لا يبيح لك مهاجمة شخصى ، وانما يبيح لك أن تعترض على ما تراه خطأ من كلامى •

قال الشاب : لعلك نسيت أننى أحد خريجى هذه المدارس الأجنبية فكل ما توجهه اليهم يلحق بى أنا أيضا ، فأنت السابق بمهاجمتى •

قال الشيخ : بسبب هذا اللبس فى فهمك لما أقول ، لم أغضب منك ، ولكنى أقول : بل أنت الذى نسى أن حديثى عن الهـــدف العــام للقائمين على المدارس الأجنبية ينصب على محاولة تجريد أبناء هذه المدارس من الارتباط العملى بدينهم ، وهى مرحلة يمكن أن توصف بأنها المرحلة السلبية وهى عامة ، أما المرحلة التى نتحدث عنها ، ولعلك تذكر أننى قلت أنهم حينئذ يلجأون الى التخصيص ، فينتقون من يرون فيه الاستعداد والكفاية انتقــاء ، ثم يواصـــلون تعهده والاشراف عليه بأساليب عديدة مختلفة ، معظمها غير مباشر ، ومن الواضح الجلى أننى لا أعنيك من قريب أو بعيد ، والا لما فاجأتك بهذا الحديث ، فهل ذهب عنك الغضب ؟ وهل نواصل الحديث ؟

قال الشاب : دع حديث الغضب فانه أمر ثانوى ووقتى ، ولكنى ما زلت أستنكر ما تقول استنكارا غير يسير ، فان معنى كلامك أن صفوة الشعوب التى كانت مستعمرة أو التى توصف بالدول النامية أو العالم الثالث وكذلك المتفوقون منهم فى كل المجالات الفكرية والثقافية والسياسية

وغير ذلك هم من الخونة لأوطانهم وشعوبهم · فهل تستسيغ أنت صدق هذه الصورة ؟

قال الشيخ : أنا معك فى أن هذه الصـــورة فى ظاهرها النظرى غريبة أو غير مستساغة ، ولكنها فى واقعها العملى غير ذلك ، مع مراعاة أننى قلت ان بعضا من هؤلاء الصفوة الفكرية والمتفوقين هم الذين ينطبق عليهم هذا ، وليس الجميع ، ولكنهم يعملون بكل جهدهم على أن يكون هذا القليل مؤثرا تأثيرا قويا بأن يتضافروا على فتح أبواب القيادة أو تولى الأماكن الحساسة لهذا القليل ، فيكتسح بتأثيره على قلته اتجاه الأغلبية ، ويوجه سياسة الموقع الذى وضع فيه لخدمة الأهداف التى يسخر لخدمتها، وقولى ان الصورة النظرية تختلف عن الواقع العملى أعنى به أن كثيرا من الأمور نستنكر حدوثها فى تصـورنا النظرى بينما هى واقع متكرر فى حياتنا العملية ، وتجد لذلك أمثلة كثيرة ، فأنت مثلا لو سئلت : هل تتصور انسانا يقتل أو يتسبب فى قتل عشرين شخصا مقابل عشرة آلاف جنيه ؟ فانك تستنكر حدوث هذا استنكارا شديدا ، بينما واقع الحياة يؤكد لك أنه ما من جهة من الجهات المشرفة على البناء والمنفذة له الا وفيها غالبا أكثر من مهندس وأكثر من (مقاول) يبيعون أمانتهم وضمائرهم بالغش فى مواد البناء مقابل أموال قد تقل وقد تكثر ولكنها لا وزن لها بجانب ما تتعرض له مبانيهم من ازهاق أرواح وخسارة أموال حين تنهار بسبب عدم الأمانة فى مواد بنائها أو ارتفاعها ، أفليس هؤلاء المهندسون و (المقاولون) خونة للأمانة ولمواطنيهم وشعوبهم ؟ واذا كانوا على مستوى الجهات المحلية أكثر من شخص ، فانهم على مستوى الشعب ولا شـك يعدون بالآلاف ·

واذا سئلت : هل تتصور انسانا يتعمد ضياع المستقبل الثقافى والعلمى واهدار الكيان الأدبى لعشرات من الناس مقابل مبلغ من المال ؟ فانك تستنكر حدوث مثل هذا ، بينما الواقع العملى أنه لا تخلو مدرسة من معلم أو أكثر يتعمدون عدم الأمانة فى عملهم ، ويتعمدون عدم افادة تلاميذهم ليحملوهم على اللجوء الى الدروس الخصوصية لديهم ، وهم يعلمون أن الذين سليجأون الى الدروس الخصوصية أو يستطيعون تحمل أعبائها قد لا يصلون الى بضعة تلاميذ ، أو لا يزيدون عن ذلك ، وأن العشرات أو ما هو أكثر من ذلك من الطلاب لا استفادوا من المدرس ، ولا استطاعوا الدروس الخصوصية فيظلون أميين حقيقيين ، أو أميين ثقافيا ، فيفشلون فى التعليم فى أغلب الأحيان ليس بسبب قدراتهم ، وانما بسبب عدم أمانة معلميهم ، ثم يذهبون الى الحياة العملية فيلاحقهم وصفهم بالفاشلين، وقد يلاحقهم هذا حتى فى حيـــاتهم الأسرية ، فتتعقد نفوســهم وتتعقد علاقاتهم وبالتالى تتعقد حياتهم كلها ، ليس لذنب جنوه ، ولا لداء حل

بهم ، وانما لعدم أمانة معلميهم ، واذا كان فى كل مدرسة معلم واحد أو اثنان من هذا النوع فانظر كم ألف معلم منهم على مستوى الشعب ، وانظر حينئذ كم من عشرات الألوف من الطلاب الموصومين بالفشل ، والذين يعانون من هذه الوصمة فى كل جوانب حياتهم بسبب معمليهم أولئك ؟ أفليس هؤلاء خونة للأمانة ولمواطنيهم وشعوبهم ؟

والتجار ، لعلك تقرأ كثيرا عن نوعيات منهم ، يستوردون الأغذية الفاسدة ، وهم أعلم من غيرهم بمخاطرها على صحة الناس وحياتهم ، فهى سم بطىء يسرى فى أبدان من يتناولونها ، أفليس الذين يستوردون هذه الأغذية من التجار ، وكذلك الذين يسهلون لهم استيرادها من الموظفين ، وأولئك وهؤلاء يعلمون علم اليقين أنهم يتسببون فى اهدار صحة بل وحياة ما لا يحصى من مواطنيهم ، أفليسوا خائنين للأمانة ولمواطنيهم ودولهم ؟ ولعلك تقرأ أيضا كثيرا عن الصناع الذين يصنعون قطع غيار للسيارات وهم يعلمون علم اليقين أنها غير صالحة لأداء الغرض منها ، ثم يجدون كثيرا من التجار الذين يروجون هذه القطع وهم يعلمون أيضا علم اليقين مدى خطورتها ، وما ينتظر من تسببها فيما لا يحصى من حوادث السيارات التى يذهب ضحيتها ما لا يحصى أيضا من الناس فضلا عن الخسائر المادية فى السيارات ، وكثير من هذه الحوادث يتهم فيها أبرياء من قادة السيارات بأنهم أساءوا القيادة وأنهم تسببوا فى هذه الحوادث ، بينما الجناة الحقيقيون طلقاء فى مصانعهم ومتاجرهم يصنعون ويروجون المزيد من وسائل القتل والدمار للأبرياء ، أفليس هؤلاء الصناع والتجار خونة للأمانة ولمواطنيهم ودولهم ؟ وأيضا ...

قال الشاب مقاطعا : حسبك هذا ، فانك ستجد أمثلة كثيرة من هذا القبيل فى كل مجال ، ولنصل الى ما تريد الوصول اليه من حديثك .

قال الشيخ : أريد أن أصل الى أنه لا غرابة فى أن تجد فى كل مجال من يخدمون أهدافا أجنبية معادية ، سواء أكانت خدمتهم بحسن نية أم بسوء نية . فالذين يخدمون بحسن نية قد يصدقون ما يوحى اليهم بأن هذه الأهداف هى التى تنقذ شعوبهم من كبوتها ثم تدفعها فى مدارج الحضارة والرقى ، وكذلك الذين يخدمون هذه الأهداف بسوء نية ، وهم الذين يعلمون أنها أهداف معادية يراد منها تحطيم مقومات شعوبهم فى الفكر والتراث ، والحيلولة بين هذه الشعوب وبين سلوك السبل الحقيقية للحضارة والتقدم ، وموقفهم ولا شك خيانة ، ولكنك رأيت كم من الخيانات فى كل مجال ، وقد تتعدد صور الخيانة ولكن منبعها واحد . وهو انفراط عروة الأمانة فى نفس صاحبها ، كما أن صور الجريمة متعددة ، ولكن منبعها واحد أيضا . والخائن الذى يخون فى مجال فليس عسيرا عليه أن يخون فى مجال آخر ، والمجرم الذى يزاول صورة من

الجريمة يسـهل عنده أن يزاول صورة أخرى ، ولذلك ترى المختلس (النشال) حرفته هذه ، ولكن لا مانع عنده من أن يقدم على القتل اذا كان هذا سبيلا الى نجاته أو الى تحقيق ما يريد ، ولا مانع عنده من أن يتحول الى مزاولة صورة أخرى من صور الجريمة اذا وجد فيها تحقيقا لما يراه مصلحة له ، والعمل فى خدمة أهداف معادية ليس الا صورة من صور الخيانة والجريمة بصرف النظر عن حجمها فى ميزان الخيانة والجريمة ، وعن مدى خطورتها وخطورة آثارها ٠

قال الشاب : ولكن ألوان الجريمة والخيانة التى ذكرت أمثلتها انما يزاولها أصحابها تحت اغراء المصلحة الشخصية والمنفعة المادية ٠

قال الشيخ : والذين يزاولون خـدمة أهداف معـادية يغرس فى نفوسهم أنهم سيحققون لأنفسهم منافع كبرى ، فالذين يعملون بحسن نية يغرس فى نفوسهم أنهم سيكونون أعلاما وأبطالا فى أقوامهم لهم الحضارة أن يدفعوا شعوبهم الى تحقيق هـذه الأهداف التى تحقق لهم الحضارة والمجد ، والذين يعملون بسوء نية تقدم لهم منافع مما يتفق ونزعاتهم ، سواء أكانت منافع مادية ، أم منافع أدبية تتعلق بالشهرة ، أو بالمناصب ، ويمنـون بما هو أكبر كلمـا واصلوا النجاح والتقدم فى تحقيق هـذه الأهـداف ٠

قال الشاب : ألا ترى أن حديثك عن الأهداف الأجنبية أو المعادية يتسم بعدم الوضوح فى تحديد هذه الأهداف وتوضيحها ، فلم أفهم منه الا جانبا من حديثك عن الغزو الفكرى المتمثل فى تشويه مقوماتنا الدينية والتاريخية وتراثنا بصفة عامة ، ولعلك تذكر أننى قلت ان مما شاهدته من بعض أساتذة كليتى والكليـات المجاورة تنافسهم فى محـاولة تنفير الشباب من كل ما يتعلق بتراثنا الدينى والثقافى والحضارى ، وأن حججهم لم تكن مقنعة لى ، رغم أننى لم أكن من المعارضين لهم ، فهذا الجانب من الحرب المعادية مفهوم ، ولم يعد خافيا ولا مغلفا كموقف العالم كله ، شرقه وغربه من الاسلام بصفة عامة ، ومن العرب بصفة خاصة ، ولكنك تتحدث عن أهداف أخرى سياسية واقتصادية وصناعية ، دون أن تضرب أمثلة لذلك ٠

قال الشيخ : لست أدعى خبرة فى أى مجال من هذه المجالات ، وانما أتحدث بصفتى مواطنا يشاهد الأحداث ويرى النتائج من سطحها دون أعماقها ، ومن هذا الموقع أقول لك انه من المعروف أن أمجاد الأمم وقوتهـا لا تقوم على دعامة معينـة ، بل لابد أن ترتكز على كل العوامل الاقتصادية والصناعية والعلمية والعسكرية وغير ذلك من مقومات القوة ٠ وحينما توجه أمة الحرب الى أمة أخرى فلن تكون حربا شاملة الا اذا

وجهت الحرب لكل هذه الجوانب ، فمن البديهى أن أعداءنا حين يهدفون الى منعنا من الوصول الى القوة والمجد فلابد أن يوجهوا حربهم ضدنا الى كل المقومات والدعائم التى تعتمد عليها قوة الأمم ، وقد وجهوها فعلا ٠

وأضرب لك بعض الأمثلة مما يبعث الحيرة فى النفوس ، ولا يوجد لدى أمثالنا تعليل الا أنه خطة مرسومة من الدول القابضة على نواصى العالم الثالث ومنها ناصيتنا نحن للحيلولة دون أن ننهض أو نتقدم فى أى مجال من المجالات التى تعتمد عليها قوة الأمم ، ومن ذلك الصناعة ، فنعلنا من نحو نصف قرن كامل كنا فى مقدمة الدول الصغيرة التى اتجهت الى التصنيع ، ووضعت قدمها على أول طريقه ، فى صناعات مثل الزجاج والنسيج وغير ذلك ، وكان لدينا علماء متخصصون فى كل المجالات التى تنطلق منها الصناعة ٠ أعنى الذين يعرفون كيف يبدءون ، وكيف يستفيدون بخبرات الآخرين ، واذا نحن بعد هذه الأحقاب الطويلة كما ترى لم نتقدم خطوة واحدة ، بل لعلنا تقهقرنا فى بعض المجالات، بينما هناك شعوب كثيرة بدأت نهضتها بعدنا فاذا هى اليوم تتحدى العالم بصناعاتها، واذالها موارد من التصدير فى مجالات عديدة ، بل وصل بعضها الى أن يتفوق على العالم كله فى صناعة الأجهزة الدقيقة ، ووصل بعضها الى صناعة الأسلحة النووية ، بينما بقينا نحن لا نتقدم خطوة ، بل نتراجع الى الوراء اما بالغش فيما نصنع ٠ واما برداءة مانصنع ، والقليل الجيد أو الذى يمكن أن يتقدم يجد العراقيل أمامه فى كل خطوة ، وخصوصا بين دهاليز الروتين والادارة ، فهل هذا وضع عادى ، أم أنه آثار خطة مرسومة للحيلولة بيننا وبين الصناعة ؟

ومن الأمثلة أيضا أن مصر معروفة منذ عرفت البشرية التاريخ أنها مستودع الحاصلات الزراعية والأمن الغذائى ليس لأبنائها فحسب ، بل أيضا لأبناء كل الأقاليم المجاورة لها ، واذا هى اليوم تستورد أربعة أخماس طعام أبنائها ، لأن نتاجها من القمح لا يكفى الا خمس أبنائها ، وهى لا تجهل كما لا يجهل أجهل الجهلاء أن لقمة العيش هى الحاجة الأولى للانسان ، وهى التى يمكن أن تكون مصدر اذلال له قبل أى شىء آخر ، ومصر لديها حاجتها من الماء ، ومن الأرض الصالحة للزراعة ، والقابلة للاصلاح ، بل لديها من ذلك ما يزيد على حاجتها ، ولكننا لا نضع هذه المشكلة موضع الاهتمام ، ولا نحاول مجرد محاولة أن نضعها موضع العقبات التى نكرس جهدنا للتغلب عليها ، رغم علمنا بأنها أشبه بحبل ملتف حول أعناقنا تستطيع جهة معينة أن تجذبه فاذا أرواحنا فيه ، فهل هذا وضع عادى ، أم أنه آثار خطة مرسومة لتظل حريتنا وكرامتنا فى قبضة أعدائنا ؟

واذا أردت أمثلة أوضح من ذلك للدلالة على تضافر العالم للحيلولة

بيننا وبين التقدم والقوة ، فانظر الى ما فعلته القوى العالمية بمصر فى عهد محمد على باشا من تضافرها على تحطيم قوة مصر حين أحست أن رأسها بدأت ترتفع فى ميدان القوة ، ثم تكرر هذه القوى فعلتها فى أوائل الثورة المصرية حين أحسوا أن رأسها بدأت تعاود الارتفاع ، فيما عرف بالعدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ ، ثم تكرر هذا حين أحسوا أن لدى مصر سلاحا يمكن أن يكون منطلقا لارتفاع رأسها مرة أخرى ، فكان ما حدث سنة ١٩٦٧ ، ثم حدث الشىء نفسه على مستوى الأمة العربية من القوى العالمية ضد العراق ، حين أحسوا أن لديه قوة ، فاذا هم يحطمون هذه القوة ، ثم لا يكتفون بذلك ، وانما يظلون يتتبعون كل موقع يحوى سلاحا مؤثرا أو صنعا لسلاح ذى قيمة ، وهكذا فى كل بقعة من بقاع الأمة الاسلامية بالذات ، والأمة العربية على وجه الخصوص ، ومصر على وجه أخص ، حيث كانت فى طول تاريخها هى القلب النابض لكل الأقاليم المحيطة بها ٠

قال الشاب : وهل تعنى أن المسئولين فى هذه الدول لا يدركون ذلك ؟

قال الشيخ فى سخرية : اذا كنا نحن الذين نرى البيت من خارجه نتحدث عما يحويه البيت فى داخله ، فكيف بالمقيمين فى داخله ، انهم بلا شك أعرف ، ولا شك أن معرفتهم أعمق وأشمل وأوسع ٠

قال الشاب : فكيف اذن يقبلون هذا مع أنه ضد مصلحة أوطانهم ، وضد مصلحتهم هم قبل غيرهم ؟

قال الشيخ : أتذكر حديث الحبل الملتف حول العنق ، ان القوى العالمية تصنع منه أنواعا مختلفة ، كل دولة لها حبل معين يناسب ظروفها وأحوالها ، فقد يكون هذا الحبل اقتصاديا ، وقد يكون سياسيا ، وقد يكون عسكريا ، وقد يكون معيشيا ،وقد يتمثل فى صراعات حزبية أو قبلية أو دينية ، أو غير ذلك ، وطرف هذا الحبل فى قبضة هذه القوى ، فاذا خرجت دولة عن الحدود المرسومة لها ، أو حاولت تجاوز القدر المسموح لها به من القوة والتأثير ، فما على تلك القوى الا أن تجذب الحبل الملتف حول العنق ، فاذا هو حبل الاعدام ٠

قال الشاب : وهل معنى ذلك اليأس ؟

قال الشيخ : ان اليأس لا يكون ، ولا ينبغى أن يكون الا فى المواقف التى هى من سنة الله ، أو سنة الطبيعة كما يصفها الملحدون ، أما ما هو من صنع البشر فلا ينبغى أن يواجه باليأس ، وانما يواجه بالعزم ، ونقطة الضعف فى موقف المسئولين فى كل دول العالم الثالث هى الحرص ،

الحرص على المنصب ، ومن حكم العرب (أذل الحرص أعناق الرجال) ٠

قال الشاب : انه من المعيب أن يدفع الحرص شخصا الى التفريط في كرامته ، فكيف بالتفريط في كرامة الأمم ؟

قال الشيخ : ان الأمر أصعب مما تتصور ، فان للسلطة بريقا وحبا يتغلغل في النفوس فيدفعها الى عمل أي شيء دفاعا عن السلطة ، أو سعيا اليها ، والتاريخ حافل بأحداث قتل فيها الأخ أخاه ، والابن أباه ، والأب ابنه ، دفاعا عن السلطة ، أو سعيا الى تملكها ، ثم ان أصحاب السلطة في العالم الثالث يرون حبال الاعدام مدلاة أمامهم كلما فكروا في محاولة رفع رءوس دولهم ، وتجاوز الحدود المرسومة لهم ، فاذا هم يجفلون ، ويتراجعون يؤثرون سلامتهم والمحافظة على مناصبهم ، وحيث كنت تتكلم عن اليأس ، فاني أرى أن بريق الأمل الوحيد هو أن يوجد المسئول الذي يبلغ من القوة والعزم أن يجعل مصلحة أمته فوق حبه للسلطة ، وأن يجعل كرامة أمته فوق حرصه على حياته نفسها ، فان مثل هذا المسئول في أغلب الظن وأغلب الأحوال لن يهزم ، واذا هزم فلابد أن يكون قد خطا بأمته خطوات في طريق التقدم ، وخطوة واحدة في تقدم الأمم لا توزن بها كل التضحيات في سبيلها ، على أن القريبين من الهزيمة ليسوا هم الأقوياء ، ولا المستعدون للتضحية ، فمن حكم العرب قولهم (احرص على الموت توهب لك الحياة) ولذلك فان الأقرب الى الفوز والنصر في كل الحروب والمبارزات هـم الذين يطلبون الموت ويحرصـون عليه ، بينما الأقرب الى الموت أو الهزيمة هم الذين يخافون الموت ويتراجعون عن مواجهته أو يفرون منه ٠

قال الشاب : ألا ترى أننا بعدنا بعض الشيء عن أصل الموضوع ؟ بل ألا ترى أننا طرقنا عدة موضوعات ، بحيث أصبح حديثنا في مجموعه غير ذي موضوع ؟

قال الشيخ : لا تنس أننا لسنا في درس أو محاضرة ٠ وانما هي أحاديث سفر ، وخواطر رحلة قطار ٠

قال الشاب : تعني أن الهدف ليس الموضوع ، ولا الحديث لذاته ، وانما الهدف هو التسلية أو قتل الوقت ؟

قال الشيخ : ليس الأمر هكذا بالضبط ، وانما أعني أننا التقينا على غير معرفة أو رابطة ٠ فلم يكن المتاح لدينا الا أسلوب أحاديث السفر التي قد يكون أطرافها مختلفين أو متناقضين ، بين عالم وجاهل ، أو ذكي وغبي ، أو شخص من مهنة والآخر من مهنة بعيدة عن مهنته ، فلا يجدان موضـوعا مشـتركا أو رابطة تجمع بينهما ليجعـلاها أساسا أو محورا للحـديث ٠

قال الشاب : ولكننا تعارفنا ، ووجدنا بيننا أكثر من رابطة تجعل لحديثنا موضوعا ، ويكفى أن تجمع بيننا الثقافة لتجعل لحديثنا موضوعا محددا .

قال الشيخ : ذلك أحب الى نفسى ، ولكن ثقافتنا فيما يبدو مختلفة ، فأنت ثقافتك علمية ، وثقافتى نظرية ، فكيف نوحد بينهما ؟

قال الشاب : كنت تقترح أن نتحدث فى الدين ، فارى أنه الموضوع الذى يمكن أن يشترك فيه كل الناس ، ولكن اذا رغبت فى الحديث عن الدين فيجب أن أكرر لك أن تعرف موقفى منه ، والأسلوب الذى أقبل الحوار به قبل أن نخوض فى حديثه ، ولك أن تعرض وجهة نظرك فى أسلوب الحوار قبل أن نبدأ ليكون ذلك شبه اتفاق بيننا ، فلا نتورط فى خلاف أو صدام .

قال الشيخ : وما موقفك من الدين ؟ وما الأسلوب الذى تشترطه ليكون أساسا أو منهجا للحوار ؟

قال الشاب : أما موقفى من الدين فقد أشرت اليه فيما سبق ، وهو أننى لم أجد ما يقنعنى من الذين يدعون الى الدين ، ولا من الذين يهاجمون الدين ، فانصرفت عن كلا الاتجاهين ورأيت أن أريح نفسى من التفكير فى هذا الأمر فضلا عن الخوض فيه ، ورغم أن ديانتى الرسمية هى الاسلام ، فيمكن أن تعدنى واقعيا لا أنا مسلم ، ولا أنا ضد الاسلام ، وأما الأسلوب الذى أرتضيه أو أشترطه للحوار فهو يتركز أساسا فى شيء واحد ، هو حريتى فى ابداء رأيى أو اعتراضى بحيث لا يكون هناك أى قيد على هذه الحرية ، بمعنى ألا يكون الدين أو غيره قيدا على حرية رأيى وتفكيرى .

قال الشيخ : أما الحرية فى أثناء الحوار فهى حقك وحق كل طرف فى الحوار طالما كان الحوار قائما ، فان طبيعة الحوار الصحيح اعتماده على حرية كل طرف فى ابداء رأيه أو اعتراضه مهما كان يبدو منكرا طالما كان يهدف الى الوصول الى الحقيقة ، وعلى الطرف الآخر أن يقارعه الحجة ، وأن يعرض منطقه فيما يراه الصواب . ولكن لا أظن أننا سندخل فى خصومة جدلية مهما تباعدت آراؤنا ، فلسنا فى منافرة خصومة ، ولا نحن فى حلقة دراسية ، وانما هى أحاديث قطار ، نأخذ منها ما نرى فيه فائدة ، وندع منها ما يؤدى الى شقاق بيننا .

وأما حديثك عن أنك لا أنت مسلم ولا أنت ضد الاسلام فهذا ما يثير فى نفسى شيئا من غرابة . فلو قلت انك ضد الاسلام لكان موقفك مفهوما ، ولكن أن يكون موقفك سلبيا فهذا غير مفهوم ، لأنه من المعروف أن الدين

غريزة مركوزة فى تكوين النفوس ، فالذى يستجيب له يكون مستجيبا لشيء فى تكوينه ، والذى يعاديه هو أيضا يشعر فى قرارة نفسه بأن هناك شيئا يجذبه ، بينما يشعر بأن فى حياته عوامل أخرى لا تتلاءم مع الدين، وفى الوقت نفسه لا يستطيع أن يتجاهلها أو يتخلى عنها ، فيحدث فى نفسه صراع ، وبمقدار حرصه على تلك العوامل يكون عداؤه للدين ٠ وعلى أى حال فالمؤيد والمعارض للدين كلاهما يشعر بوجوده ، لأنه يؤيد أو يعارض شيئا موجودا ، أما عدم الاحساس بوجود الدين فهذا هو الغريب٠

قال الشباب : انك تكرر ما أحسبه اساءة الى شخصى ٠ فلست أنا بل ولا أظن أحدا ينطبق عليه هذا الوصف الأخير ، خصوصا اذا كان يعيش فى مجتمع يوجد فيه الدين ٠ ولست أقبل منك ولا من أى أحد المساس بكرامتى ، والا سأضطر الى مبادلتك الهجوم ، ولست راغبا فى ذلك احتراما لسنك ولما أشعر به نحوك من تقدير ، واسمح لى أن أقول لك ان مما يزيد فى نفورى من هذا الجانب فى أسلوبك احساسى بأنه ينبع من شيء من تعال ، سواء بالسن أو بالثقافة أو بأى شيء ، وأبغض ما أبغضه فى حياتى كلها هو التعالى ، ولا شيء يثير الغضب والثورة فى كل ذرة من كيانى كما يثيره احساسى بأن أحدا على الاطلاق يعاملنى من علو ، وبهذه المناسبة أذكر أنك خاطبتنى فى أوائل حديثك بتعبير (يابنى) وأنا أقبل منك بحكم فارق السن تعبير (يا ابنى) فأنت فى سنك بمنزلة الأب منى ، أما تعبير (يابنى) فانه يتضمن تصغيرا وتحقيرا لى لا أستسيغه ولا أقبله ، لأننى أشعر بأنه ينبع من نغمة التعالى ، ومهما يكن فارق السن أو غيره بينى وبين أحد ، ومهما دعانى هذا الفارق الى احترامه فانه لا يزحزح الشعور الثابت فى نفسى بأن كرامتى ليست فى الموضع الأدنى بالقياس الى أى مخلوق ٠

قال الشيخ فى تودد واضح : لك كل ما تريد ،ولست أنكر عليك حقك فى اعتزازك بكرامتك ، بل أنا من الذين يدعون الى الاعتزاز بالكرامة ، وعدم التفريط فيها تحت أى عامل من العوامل ، لأنى أعتقد أن كل العوامل التى قد يتعالى بها بعض الناس على بعض كالمال والجاه والمنصب عوامل عارضة ، قد تأتى بعد عدم ، وتزول بعد وجود ، وقد توجد ولا ينتفع بها صاحبها ، أما الكرامة فهى الشيء الذى ينبغى أن يكون ثابتا لا يتغير بتغير الظروف والعوامل وفارق السن الذى تتحدث عنه بينى وبينك هو من العوامل العارضة التى يمر بها كل من يعيشون بها فى هذه الحياة من الناس ، بل من سائر الأحياء حتى النبات ، فكل كائن حى يستوفى نصيبه من الحياة لابد أن يمر بالتطور بين الصغر ثم الشباب ثم الشيخوخة ، فأنا كنت يوما ما فى مثل سنك وشبابك ، وهأنذا اليوم فى الشيخوخة ، وأنت غدا أطال الله عمرك ستكون شيخا ٠ وهكذا ، فكل

هذه العوامل العارضة التى تتبدل وتتقلب ، والتى هى من سنة الحياة لا ينبغى أن تكون مقياسا للمفاضلة بين الناس ، ولا أن تدفع أحدا الى أن يتخذها وسيلة للتعالى على غيره ، ولكن اسمح لى بأن أقول لك اننى أرى فيك حساسية مبالغا فيها نحو هذا المعنى ، حيث تتضخم فى نفسك أحاسيس صغيرة فتجعل منهــا أشياء كبيرة ، كاحساسك هذا نحوى ، بينما أنا أحس نحوك بمودة غير يسيرة ٠

قال الشاب وقد بدا عليه الارتياح : فلنبدأ حديثنا عن الدين ، ولتكن بدايته موقف الدين من القضية التى كنا نتحدث فيها ، وهى قضية كرامة الانسان ، ولكنى أذكرك وأؤكد لك تمسكى بما اتفقنا عليه صراحة أو ضمنا ، وأهمه أننى سأبدى رأيى أو اعتراضى صراحة ولو كان مخالفا لما تقول ، أو مخالفا للدين نفسه ، هذا من جانبى ، ومن جانبك أنت عليك التزام ما تحدثت به عن نفسك ، وهو اعتمادك على العقل ، فلا تعرض على الا ما يوافق العقــل ، وما يخالف العقــل من الدين فعليك أن تعترف به ، لأن هذا المعنى كان من أهم ما ينفرنى من المتحدثين فى الدين أو الدعاة اليه ٠

قال الشيخ : من ناحيتى قبلت كل ما تشترطه وما تراه حقا لك ، ولكن من ناحيتك أنت ، وضحت موقفك فى جانب واحد ، وهو ما يخالف العقل ، ولم توضح موقفك مما يوافق العقل ، فما رأيك ؟ ٠

قال الشاب : ما يوافق العقل لك على أن أعترف به ، ولكن اسمح لى أن أقول لك اننى لا أستطيع تجاوز هذا ، بمعنى أنك قد تقول شيئا من الدين يوافق العقل ، فاعترف لك بذلك صراحة أو ضمنا ولكن لا تطالبنى باعتناق هذا أو تطبيقه عمليا على نفسى ، وقبل أن تعترض على هذا المنطق أقول لك اننى أعترف بأن هذا لا يتفق مع المنطق السليم ، لأن المنطق يقضى بأن ينفذ المرء ما يراه حقــا ، ولكن مبالغتى فى الاعتــداد بحريتى تجعلنى أنفر من أن أنقاد لأحد ٠ فاذا أقنعنى أحد بشىء أرى من حقه أن أعترف له باقتناعى ، ولكن أرى اتباعى لهذا المنطق انقيادا لهذا الشخص ، وأنا أحب أن يكون انقيادى لأى شىء نابعا من نفسى وحريتى وليس انقيادا لأحد ، فاذا لم يكن هذا الموقف مقبولا لديك فأرى أن حديثنا سيكون عبثا ، لأنه من الصعب أن أغير موقفى هذا فجأة ٠

قال الشيخ : قد تظن أن موقفك هذا غريبا أو فريدا ، ولكن الحقيقة أنه موقف تكرر كثيرا من كثير من الناس ضد الأديان فى كل العصور ، ورغم أنه موقف مخالف للمنطق كما قلت الا أنه واقع مشاهد ، واذا توصلنا الى توضيح الحقائق،أى تميز الحق من الباطل نكون قد كسبنا كسبا كبيرا ، فان وضوح الحق هو يضف الطريق الى النتائج ، وأعنى بالنتائج أن

يطبق المرء فى سلوكه ما يراه حقا ، فالنصف الأول من الطريق نظرى ، والنصف الثانى عملى تطبيقى ، ولا تكون النتائج صحيحة بل لن تكون هذه النتائج اسهاما فى حضارة البشرية ، سواء أكان اسهاما خلقيا أم ماديا الا اذا اجتمع فيها الأمران ، الجانب النظرى ، والجانب العملى أو التطبيقى ، وكل قاعدة أو قانون فى العلوم النظرية لا تكتمل فائدته الا اذا طبقت فى أمثلة عملية ، وكذلك فى كل مجال علمى ، لابد من وجود الصورة النظرية أولا ، ثم لا فائدة من هذه النظرية الا اذا طبقت فى مجال عملى ، وعندما يتم التطبيق العملى يكون الاسهام الحضارى ٠

ومن حكمة الله أن المرحلتين غير متلازمتين ٠ بل يمكن أن توجد احداهما دون الأخرى ، ولذلك كان لكل مرحلة أصحابها الذين يوكل اليهم تنفيــذها ، فالجانب النظرى هو مهمة العلماء ، وفى مجال الدين بما يتضمنه من عقيدة وخلق وسلوك هو مهمة الأنبياء والمصلحين ، والجانب العملى هو مهمة المجتمع ، والمجتمع الحضارى الناهض هو الذى تتضافر فيه الجهود بين المجتمع من جهة ، والعلماء والمصلحين من جهة أخرى ٠ والمجتمع المتخلف هو الذى ينفصل فيه الجانبان ويتباعدان ، وأضرب لك مثالا من الجانب العلمى المادى ، فلو أن هناك علماء من الباحثين فى مجال الزراعة فى مجتمع ما توصلوا الى نظرية تثبت أن التربة اذا خلطت بمادة معينة ، أو أن الزراعة اذا عولجت بمادة معينة ، فان المحصول سيقفز الى مقدار كذا ، ثم لم يجدوا من يعينهم على تطبيق هذه النظرية وتنفيذها ، فان نظراتهم ستظل حبيسة عقولهم أو أوراقهم ، ومهما نادوا أو صرخوا فلن تتحقق ثمرة لنظريتهم الا اذا تجاوب المجتمع وتعاون معهم فى تنفيذها ، وكذلك الوضع فى الجانب الدينى ، فان الانبياء والمصلحين عليهم نصف الطريق ، وهو أن يميزوا الحق من الباطل ، وأن يجعلوا الحق سواء فى العقيدة أو الخلق أو السلوك واضحا بينا لا لبس فيه ٠ وهذا واجبهم الذى يملكون أداءه ، أما تطبيق هذا الحق وتنفيذه ٠ فليس من واجبهم ، لأنهم لا يملكون اكراه الناس على شىء ، وانما المجتمع هو الذى يملك تطبيق هذا الحق ، فاذا تلاقى الأمران ٠ توضيح الحق من جانب المصــلحين ، وتطبيقه من جانب المجتمع ، كان هذا المجتمع مثاليا فاضلا بمقدار تلاقى الأمرين ، كما أن درجة هذا المجتمع فى الحضارة تكون بمقدار تلاقى نظريات العلماء والباحثين مع تطبيق المجتمع لهذه النظريات والبحوث ، ولا شك أن الأمم التى ارتقت فى سبل الحضارة المادية انما كان ارتقاؤها بمقدار تلاقى نظريات علمائها وباحثيها مع تطبيق هذه الأمــم لتلك البحــوث والنظريات ، وأعتقد أن هذا أقرب تفسير للآية المشهورة فى القرآن الكريم (كنتم خير أمة أخرجت للناس) فان محمدا صلى الله عليه وسلم بوصفه

نبيا مرسلا استطاع رغم المعاناة الطويلة أن يجعل الحق واضحا مدويا فى كل أرجاء أمته ، ثم ان أمته رغم كل مواقف النفور من الدين والصراع معه انتهت الى قبول الدين وتطبيقه ، سواء فى العقيدة ، أو فى التواصى بالحق والتناهى عن المنكر ، فكانوا أول أمة فى التاريخ تلتقى فيها النظرية والتطبيق فى مجال الدين ، بينما كانت الأمم من قبلهم تستقبل أنبياءها ومصلحيها اما بالقتل ، واما بالتعذيب أو النبذ ، وأيسر ما يواجهونهم به هو التكذيب والاستهزاء الدائمين ·

قال الشاب وقد ارتسمت على وجهه ضحكة عريضة حاول أن يخفت صوتها حتى لا تتحول الى قهقهة : لقد اتفقنا على أن أعبر عما فى نفسى بصراحة ، فانى أضحك لأن أحاديثنا فى تشعبها وتداخلها بدأت تشبه أحاديث ألف ليلة وليلة أو أحاديث كليلة ودمنة ، وقد كنت أسألك أن نوجه حديثنا فى مجال واحد وفضلنا أن يكون هو الدين ، فلا أدرى كيف يتشعب الحديث ·

قال الشيخ : ذلك لأن ما يتعلق بحياة الناس كله يشبه حبالة أو شبكة متداخلة مترابطة ، ومع ذلك فلم نبعد كثيرا عن الدين كما رأيت ·

قال الشاب : كنت أسألك عن موقف الدين من كرامة الانسان ، فان مما ظل ينفرنى من الدين أنى أراه يسلب أتباعه حريتهم وكرامتهم ، فيظلون مقيدين بقيود الدين لا يستطيعون منها فكاكا مدى الحياة ، كما أنى أراهم خاضعين لأشخاص من أئمة الدين وعلمائه خضوعا يسلبهم كرامتهم فضلا عن حريتهم ·

قال الشيخ : لا أريد أن أقف طويلا عند التفرقة بين الكرامة والحرية ، فان الكرامة أعم من الحرية التى هى جزء من الكرامة ، وقد يسلب المرء حريته ولكنه يظل محتفظا بالجانب الأكبر من كرامته ، بينما اذا فقد كرامته فقد كل شىء ذى قيمة ، ولا يصبح لديه شىء يعتز به ·

ومن المؤسف أن تكون النظرة العامة لدى الناس أن الدين يسلب أتباعه حريتهم فى تقييدهم بقيود الدين ، ويسلبهم حريتهم وكرامتهم فى اخضاعهم لسلطان أئمة الدين ، فهذه النظرة مؤسفة لأنها تقلب الحقيقة ، فان الأديان السماوية كلها فى أصولها تهدف فيما تهدف اليه بصفة أساسية الى تحرير نفس الانسان من سلطان البشر ، واخضاعها لسلطة واحدة هى سلطة الاله الواحد ، بحيث تمتلىء نفس المؤمن بالشعور بأنه لا ينبغى أن ينقاد لأحد الا الله ، ولا يخضع الا لسلطان الله ، وذلك فى أزمان وعصور كان صاحب السلطة من البشر يملك الناس كما يملك قطعان الماشية ، ويتصرف فيهم يسوقهم الى أية جهة ، ويفعل فيهم أو فى

بعضهم ما يشاء كما يفعل فى ماشيته ، وكما أن الانسان يستطيع أن يذبح من ماشيته ما يشاء دون محاسبة ، فكذلك صاحب السلطان كان يملك أن يقتل من رعيته ما يشاء دون محاسبة من أحد ومن باب أولى كان يملك أن يفعل ما دون القتل من سجن أو تعذيب دون أن يخطر بباله أو ببال أحد حسابه على شيء من ذلك ، فجاءت الأديان السماوية لتنقل شعور المؤمن من الخضوع لهذا السلطان الى الخضوع لسلطان الله وحده ، ولا تولى اهتماما لأى سلطان غير سلطان الله ، ويترتب على هذا بداهة رفضها لأى سلطان يخالف سلطان الله ٠

قال الشاب فى فزع : انك بهذا تسيء الى الأديان ، لأن السلطان فى أى مكان مهمته تنظيم حياة مجتمعه أو أمته ، فاذا كانت الأديان تدعو الناس الى نبذ السلطان فكأنها تدعو الى الفوضى ، فأى مجتمع بدون سلطة تنظمه ستكون حياته فوضى ، ثم لا تنس أنك كنت تقول ان الزعامة أو السلطة غريزة فى حياة المجتمعات ، فكيف تقول الآن ان الأديان تدعو الى نبذ السلطة ؟

قال الشيخ : ومن قال ان الدين يدعو الى نبذ السلطة على الاطلاق ، انما أقول ان الدين ينقل السلطة فى الناحية النفسية من الخضوع للبشر الى الخضوع لسلطان الله سبحانه ٠ وليس معنى ذلك الغاء السلطة البشرية، وانما معناه أن السلطة البشرية حينئذ تكون هى القائمة على تنفيذ سلطان الله المتمثل فيما يجيء به الدين من شريعة ، وتكون النتيجة أن خضوع المؤمن سيكون لشريعة الله وليس لسلطة بشر ، وفيما يتعلق بالكرامة والحرية فان الفارق كبير شاسع بين الاحساس بالخضوع لسلطان الله ، والخضوع لسلطان البشر ، وهذا مما لا يحتاج الى بسطة فى توضيحه ، هذا من الناحية النفسية ، وكذلك من الناحية العملية ، فان سلطان الله يسوى فى تشريعه بين الناس جميعا على أساس أنهم بدون استثناء عباد الله ٠ وهم فى العبودية عنده على قدم المساواة ، سواء اعترفوا بهذه العبودية أو لم يعترفوا ، بينما سلطان البشر لا يستطيع ولا يعقل أن ينظر الى الناس على أساس هذه المساواة، بل بعضهم تربطهم به قرابة ، وبعضهم تربطهم به منفعة أو مصلحة ، وبعضهم يربطهم به الخوف منه ، أو الطمع فيه ، ثم ان نظرته اليهم لابد أن تتفاوت حسب رؤيته لهم فى مستوياتهم المختلفة ٠ وغير ذلك ، فلا يمكن أن يعاملهم على قدم المساواة ٠ واذن فدين الله هو الذى يحقق المساواة بين الناس ، والمساواة هى اللبنة الأولى فى شعور الفرد بكرامته فى المجتمع ، لأن الهوان أو الظلم انما يتمثل فى شعور الفرد بأنه يعامل معاملة دون معاملة غيره ، وهذا هو فقدان الكرامة الاجتماعية ، وعوامل تأكيد كرامة الانسان فى الأديان السماوية عديدة ، ولكن من الحق أن نقول ان مسألة السلطة لم تكن واضحة الا فى الاسلام ،

لأن الأديان السابقة كانت تركز دعوتها فى جانبين ، العقيدة والخلق ، أما الاسلام فهو الذى كان من أسس أهدافه بالاضافة الى العقيدة والخلق تنظيم كل شئون الحياة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ، وهو الدين الوحيد الذى كان من أسس أهدافه اقامة الدولة والأمة ، وليس اصلاح الأفراد فحسب ، فكان لابد أن ينشىء تشريعا لتنظيم هذه المجالات كلها ، ولابد بالضرورة أن تكون فيها سلطة ، ولكنها سلطة لا تنبع من شعور الحاكم بأنه المالك ، وانما من شعوره بأن ينفذ شريعة الدين .

قال الشـــاب : وهل تعتقد أن هذا وضـــع عملى يمكن تطبيقه وتنفيـذه ؟

قال الشيخ : بل من حيث المبدأ هو الواقع الحضارى المشاهد فى العالم ، وأعنى بالمبدأ أن تكون السلطة للتشريع وليس للأفراد ، وأن تكون كل مهمة أصحاب الحكم هو تنفيذ التشريع ، فان كل الأمم التى سلكت سبيل الحضارة جعلت القانون هو السلطة ، وكل مهمة أصحاب الحكم مهما علت مناصبهم هى تنفيذ القانون ، بحيث يشعر كل فرد على الاطلاق بأن الذى يحكمه ويوجهه ليس الحاكم ، وانما القانون ، والحاكم نفسه محكوم بالقـانون .

قال الشاب : ولكن التشريعات الحضارية التى اهتدت اليها الأمم المتحضرة نبعت من مصلحة الشعوب ، حيث صاغها المشرعون بما يتفق وهذه المصالح ، أما التشريع الدينى فانه يهبط من السماء كما يقول الأنبياء ولا ينبع من الأرض ، أعنى لا ينبع من واقع المجتمـع ، فكيف يتفق مع واقع الحياة ليصلحها ؟

قال الشيخ : هناك قاعدة ذات أهمية كبيرة فى حديثنا نسيت أن أوضحها لك ، وينبغى أن أوضحها الآن ، لأهميتها فى الاجابة ، وهى أن الدين دائما صورة من واقع الحياة ، بمعنى أن الله سبحانه لا يكلف عباده تكاليف خيالية ، ولا فوق طاقتهم ، ولا هى مختلفة عن واقع حياتهم ، واذا نسيت أن أوضح لك هذا فى أية اجابة فارجو أن تذكرنى .

قال الشاب : ولكن ما تقوله لا يخلو من غرابة ، فان مما ينفر الناس من الدين أنهم يرونه بعيدا عن واقع حياتهم ، حيث يشعرون أن الدين يريد أن ينقلهم من حياة ألفوها الى حياة غريبة عليهم ، مختلفة عن حياتهم المألوفة اختلافا كبيرا .

قال الشيخ : ان هذا الاختلاف حقيقة ، ولكنه ليس اختلافا بين الدين وواقع الحياة ، وانما هو اختلاف بين سلوك الناس والسلوك الذى يدعوهم اليه الدين .

قال الشاب : فهل توضح لى ما تقول ؟ وليتك تدعم توضيحك بالنصوص ٠

قال الشيخ : أما الاختلاف فى السلوك فلأنه من الواضح أن الله لا يأمر بدين جديد الا حينما يكون الناس قد بعدوا عن تعاليم الدين السابق حتى أهملوها ، أو يكون المجتمع الذى يبعث الله فيه دينا جديدا لم يسبق ارسال دين اليه ، وفى كلا الحالين يكون الفساد قد عم هذا المجتمع ، حيث لا تربطه بالدين رابطة ، ولا يتقيد فى سلوكه بشىء من قيود الدين فيكون بين سلوك المجتمع ومبادىء الدين اختلاف كبير ٠

وأما ان الدين فى مبادئه وتعاليمه مطابق دائما لواقع الحياة ، فذلك لأن الأديان السماوية كلها ليس الهدف منها اجبار الناس على الايمان ، وانما الهدف الأساسى هو أن يكون الدين حجة على الناس يوم القيامة ، فرسل الله مهمتهم الأولى أن يوضحوا الايمان الصحيح بالله للناس ، ليحاسب الله الناس فلا تكون لهم حجة بأنهم لم يعلموا أو لم يجدوا من يرشدهم الى طريق الله ، ولذلك كان هذا المعنى واضحا فى القرآن فى قوله تعالى (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) ٠

قال الشاب فى شبه مقاطعة : انك بهذا تصغر أو تقلل من حاجة الناس الى الدين ، فالذين يدعون الى الدين يجعلون شعارهم أن الدين فيه اصلاح الحياة وتقويم سلوك الناس ، ولكن قصرك اياه على الجانب الروحى وهو الايمان ينفى عن الدين أهم حجة لدعاته وهو الاصلاح العام ٠

قال الشيخ : أرى أنك لم تلحظ تعبيرى بلفظ (الأساس) فى قولى ان الهدف الأساسى للدين هو أن يكون حجة لله على الناس ، فالواقع أن الاجابة عن هذه النقطة تحتاج الى شىء من البسطة ، ولكنى أوجزها لك فى أن هناك حدودا وأسسا عامة فى الدين تندرج تحتها كل التفاصيل ، ومن هذه الأسس أن الدين لا يولى هذه الحياة بكل ما فيها اهتماما كبيرا لذاتها ولا يجعلها فى الأساس موضعا للحساب وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب ، وانما ينظر اليها على أنها ليست الا معبرا قصير الزمن يمتحن فيه كل من يمر به من الناس طوال مدة وجوده فى هذا المعبر ، وهذا لا يعنى من قريب أو بعيد عدم اهتمام الدين بأمور الحياة ، بل على العكس من ذلك ، كل ما فى الحياة له أهمية ، ولكن ليس لذاته ، وانما لكونه وسيلة الى الآخرة ٠ بمعنى أن الدين يدعو المرء الى أن يبذل كل جهده المستطاع فى السعى لاكتساب كل ما هو مباح من خيرات الحياة ، وفى الوقت نفسه يدعوه الى أن ينظر الى كل ما اكتسبه أو كل ما أتيح له على أنه وسائل الى الآخرة وأنه سيحاسب على موقفه من كل ما اكتسبه وكل ما أتيح له أو تعرض له فى حياته ٠

ومن تلك الأسس أن الايمان بالله هو أساس الحساب عند الله ، وهو محور التصنيف ، فالذى تتوافر لديه عقيدة الايمان بالله ينحاز الى صنف المؤمنين ليحاسب حسابهم أى يحاسب على ما دون ذلك أو ما يكمل الايمان وهو السلوك ، أما من لا تتوافر لديه عقيدة الايمان فهو مرفوض أساسا من جانب الله ، وليس له حساب على ما دون ذلك وهو العمل ، لأنه بعدم ايمانه دخل فى صنف محدد هو أعداء الله ، فلا قيمة لحسابه على شىء بعد ذلك ، فمهما عمل من فضائل الأعمال فلا ينفعه ذلك فى شىء ، لأن فضائله مهما عظمت لا تكفر جرمه الأكبر وهو الكفر ٠

قال الشاب مقاطعا : وهل معنى ذلك أن الكافر لا يحاسب على جرائمه ورذائله ، وهل يستوى الكافر المستقيم السلوك والكافر المنكر السلوك ؟

قال الشيخ : كلا ، لا يعقل أن يستويا ، ولذلك جعل الله العذاب فى جهنم درجات متعددة ، مراعاة لعدم تساوى المعذبين فيها فى عقيدتهم وفى جرائمهم ٠

قال الشاب : وما علاقة هذا باصلاح الحياة ؟

قال الشيخ : العلاقة تتركز فى أن الايمان بالله هو صمام الاصلاح فى كل مجال ، لأن المؤمن ايمانا صادقا بالله سيستمد كل موقفه وكل سلوكه مما يشرعه له الله ، وتشريع الله يختلف عن تشريع البشر ، من حيث انه مجرد عن الهوى والانحياز الى عصبية أو طائفية أو أى ميل عن التسوية العامة بين البشر وما تقتضيه مصلحتهم بصفة عامة أيضا وليست خاصة بجهة معينة ، بخلاف تشريع البشر فانه لا يخلو قط من هوى الى مصلحة خاصة ، اما للمشرع ، أو لطائفته ، أو لوطنه وأمته ، أما تشريع الله فهو الوحيد الذى يسوى بين البشر جميعا مهما اختلفوا أو تفاوتوا ، لأنه رب الجميع ، فالمجتمع المؤمن سيكون تشريعه قويما لأنه تشريع الله ، وسيكون سلوكه قويما لأنه سيلتزم شريعة الله ، فيتحقق لهذا المجتمع الصلاح الذى تتساءل عنه ، بخلاف المجتمع غير المؤمن ، فلابد أن يشيع فيه الفساد ، لأنه لاضابط لسلوكه ، واذا حاول هذا المجتمع أن ينشىء تشريعافلابد أن يشتمل هذا التشريع على خلل ، أو على جوانب من الخلل ، قد تكون فى ثغرات فى هذا التشريع ، أو فى اشتماله على نزعات أو أهواء تجور به عن تحقيق العدالة أو المساواة أو الكرامة أو غير ذلك ٠

قال الشاب : ولكنك لم تكمل حديثك عن أن الدين صورة من واقع الحياة ، فانى لم أفهم ماذا تعنى به بصورة محددة ٠

قال الشيخ : ما سمعته الآن هو مدخل الى الاجابة أو الى تكملة

الحديث ، فحيث كان الدين حجة لله على الناس ، فان هذه الحجة لا تكون واضحة أو ملزمة الا اذا كان الدين واضحا للناس فى كل تشريعه ، ولن يكون واضحا الا اذا كان مطابقا لواقع حياتهم أو مشابها لها ، ولذلك جعل الله رسله الى الناس بشرا مثلهم ، ومن الغريب أن كل أقوام الانبياء كانوا يستنكرون أن يكون الرسول بشرا ، ويطلبون أن يكون من الملائكة · مع أن الرسول لو كان ملكا فلن يصلح أن يكون قدوة لهم ، لأن سلوك الملائكة لا يلائم طبيعة البشر ، ولا يستطيعون مزاولته ، ولذلك كان من بليغ رد القرآن على هذا ، أنه لو فرض أن الله أرسل الى الناس ملكا فلابد أن يحوله رجلا حتى يمكن للناس أن يتعاملوا معه ، كما فى القرآن (وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) وليس معنى ذلك عدم امكان ارسال الملائكة الى الناس، فان الله قد أرسل ملائكة الى الناس كثيرا ، كما أرسلهم فى قصة ضيوف ابراهيم وضيوف لوط ، فارسال الملائكة الى الناس ممكن ، ولكنهم حينئذ اما أن يتحولوا الى بشر فلا يصبحون ملائكة ، وانما يصبحون بشرا حقيقيين كسائر الناس ، وكالرسل الذين أرسلهم الله من البشر ، واما أن يحتفظوا بطبيعتهم ، وحينئذ لا يستطيع الملائكة أن يزاولوا طبيعة البشر وحياتهم ليكونوا قدوة لهم ، ولا يستطيع الناس أن يقتدوا بهم ولا أن يتعاملوا معهم تعاملا طبيعيا لاختلافهم عنهم ، ولذلك فان ضيوف ابراهيم عليه السلام من الملائكة حينما احتفظوا بطبيعتهم استنكرهم ابراهيم وخاف منهم ، كما فى القرآن (فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة) وكذلك حينما ذهب هؤلاء الملائكة الى لوط عليه السلام وهم محتفظون بطبيعتهم أنكرهم كما فى القرآن (فلما جاء آل لوط المرسلون ، قال انكم قوم منكرون) ، واذا كان الأنبياء لا يستطيعون التعامل مع الملائكة فكيف بالناس ؟ ولذلك جعل الله رسله بشرا كسائر الناس ليكونوا صورة من واقع الحياة ·

وكذلك المعجزات ، كان من حكمة الله أن تكون مطابقة لواقع المجتمع الذى ترسل اليه هذه المعجزات ، فقد لاحظ الباحثون أن معجزات الأنبياء متنوعة ، فرغم أنها جميعا خوارق للعادات ، ويتحدى بها الأنبياء أقوامهم جميعا أن يستطيع أحد قط أن يأتى بمثلها ، الا أنها مع ذلك ليست غريبة على المجتمع ، بل هى مشابهة للواقع المألوف ، وقد كان يمكن نظريا أن يوحد الله المعجزات فى عمل واحد خارق للعادة يتكرر لذاته مع كل نبى ، مثل أن يستطيع كل نبى احياء الموتى ، ولكن الهدف ليس مجرد أن يأتى كل نبى بأمر خارق للعادة فحسب ، وانما الهدف مع ذلك أن يكون هذا الأمر الخارق للعادة مشابها لواقع المجتمع الذى تتم فيه المعجزة ، حتى لا يدعى أحد أن هذه المعجزة شىء خارج عن عقولنا ومألوفنا ولكنها قد تكون مألوفة

أو مستطاعة لمجتمع أو أشخاص يتعلمونها ، فلاحظ الباحثون أن كل معجزة انما تكون من نوع ما يعرفه المجتمع ويزاوله • فموسى عليه السلام أرسل فى مصر حيث كان السحر فنا متداولا له مختصون يتبارون فى اتقانه حتى بلغوا فيه درجات تذهل العقول ، وحتى وصف القرآن سحر سحرة موسى بقوله (فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) لذلك جعل الله معجزة موسى مشابهة للسحر • لتكون مطابقة لواقع الحياة فتكون أبلغ فى الحجة عليهم ، وكذلك صالح عليه السلام أرسل فى ثمود وهم فى بيئة الصحراء التى تعتمد حياتها على الابل ، والتى يكون أهلها أعرف الناس بخصائص الابل وصفاتها وأمراضها وعلاجها ، فجعل الله معجزة صالح ناقة تشبه كل الابل ، ولكنها ذات خصائص تختلف عن كل الابل ، وكذلك معجزة عيسى عليه السلام حيث بعث فى قوم متصلين بحضارة اليونان التى كان من بين مفاخرها النبوغ فى الطب وعلاج الأمراض ، فكانت من أبرز معجزات المسيح شفاء الأكمه الذى يولد أعمى وشفاء الأبرص ، واحياء الميت ، وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم بعث فى قوم •

قال الشاب : اسمح لى أن أقاطعك لأستوضح ملحوظة عابرة حتى لا أنساها ، وهى أننى لحظت أنك حينما كنت تتحدث عن نبى كنت تقول (عليه السلام) فلما تحدثت عن نبى الاسلام قلت (صلى الله عليه وسلم) فهل هذا تفرقة بين الأنبياء أو عصبية منك لنبيك ؟

قال الشيخ : لا هذا ولا ذاك ، وانما أنا بصفتى مسلما لابد أن ألتزم توجيه القرآن ، والقرآن حينما يتحدث عن الأنبياء يتحدث عنهم بلفظ السلام ، كقوله تعالى (وسلام على المرسلين) ولكنه حينما تحدث فى هذا السياق عن محمد قال (يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) ، وأعود الى مواصلة الحديث فاقول وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم حين بعثه الله فى قوم أهم مهاراتهم بلاغة القول ، والتنافس فى جودة الكلام جعل معجزته القرآن الذى تحدى جميع العرب على بلاغتهم ، بل تحدى الانس والجن ولو تعاونوا معا أن يأتوا بمثله •

فالأمر الذى حير الأقوام فى المعجزات أنها مشابهة للواقع ، بل هى من نوع الواقع ، ولكن أحدا قط لا يستطيع ان يقلدها ، ولذلك قال قوم موسى من المصريين عن معجزة العصا انها سحر • ولكنهم لم يستطيعوا أن يصنعوا مثلها ، وقال العرب عن القرآن انه شعر ، ولكنهم أيضا لم يستطيعوا أن يأتوا بمثله •

قال الشاب : وهل فى الاســـلام موقف محدد من هذه الواقعية للدين ؟

قال الشيخ : بل هناك ما هو أوضح من ذلك فى الاسلام ، فان الاسلام كله يتميز بأنه دين الواقعية ، وقد كان من خصائص الاسلام أنه لم يقم فى اثبات صدقه على خوارق الأحداث ، أى على أحداث وقتية يحدث فيها أمر خارق للعادة كما كان يحدث فى الأديان السابقة ، وانما كان فى كل أحداثه وكل تشريعه يعتمد على أن يكون صورة من واقع الحياة ، ولكنها الصورة الفضلى والمثلى . فالرسول يؤكد لهم كما فى القرآن أنه بشر ، وليس بشرا ذا خصوصية فى بشريته ، وانما هو بشر كسائر الناس، لا يزيد فى بشريته عن أحد الا أنه مهيأ لتلقى الوحى عن ربه (قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى) وكان فى تطبيقه العملى لهذا أبلغ صورة فى الواقعية البشرية ، حتى فى النقائص البشرية العامة كان يؤكد لهم أنه مثلهم فيها ، فمثلا يؤكد لهم أنه ينسى كما ينسون ، وأنه لا يعلم من الغيب شـيئا الا ما ينزل عليه به الوحى . هذا فضلا عن حياته المعيشية كأى فرد من النـــاس .

قال الشاب : هذا المجال مشهور معروف لا يحتاج الى بسطة فى القول ، ولكن الذى أريد استيضاحه هو التشريع الدينى . كيف أنه صورة من واقع الحياة ؟ وأذكر أنك تعرضت لشىء من هذا ، ولكنى أريد مزيد ايضاح ، وأريد تدعيم هذا بشىء من النصوص .

قال الشيخ : سأحاول أن أوضح لك فيما يعرض لنا أو نعرض له من الدين والتشريع أنه صورة من واقع الحياة ، وآمل أن تذكرنى بهذا فى كل ما نعرض له ، ولكنى أقول لك الآن ان القرآن نفسه يؤكد هذه الواقعية فى أساس التكليف ، كقوله تعالى (لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها) بمعنى أن الله لا يكلف الناس الا جهدهم وطاقتهم ، ومن جهدهم وطاقتهم أن يكون التكليف بأمور مألوفة لهم وليست غريبة عن الحياة التى تعودوها حتى يستطيعوا أداءها ، وكذلك فى الأمثال التى يضربها الله سبحانه حتى فى أخطر المواطن وهو موضـع العقيدة انه يكتفى من النـاس بما يرتضونه ويتواضعون عليه فى واقع حياتهم ، ومن ذلك فى سياق الدعوة الى الايمان بالله الواحد الذى لا شريك له قوله تعالى (ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فى ما رزقناكم) ؟ ومن مضمون هذا المثل أن الانسان لا يقبل أن يشاركه أحد فيما يملكه ، وهذا هو الواقع الذى تعارفوا عليه ، فلماذا لا يطبقون هذا الواقع بالقياس الى الله ؟ فالله يملك الألوهية ، فكيف يجعلون له فيها شركاء ؟ واذا كانوا هم لا يرضون أن يكون لهم شركاء فيما يملكون فكيف يتصورون أن الله يرضى بأن يكون له شركاء فى الألوهية ؟

بل ان القرآن يقرب معانيه حتى تكون أحيانا صورة من العادات

والتقاليد ، ولو كان ذلك أيضا فى أخطر القضايا وهى قضية العقيدة ، فمن العادات الحسنة فى حياة العرب عادة الجوار ، فحين يكون هناك ضعيف يحتاج الى حماية من ظلم أو عدوان ينبرى أحد السادة الأقوياء فيعلن أن هذا الضعيف أصبح فى حمايته ، ولكنهم يستخدمون لفظ الجوار بدل الحماية حفاظا على كرامة الضعيف ومشاعره ، والذى يجير الضعفاء فى هذا المجتمع المتصارع له شأن كبير خصوصا فى نفوس الضعفاء المتطلعين الى الحماية ، فالله سبحانه كأنه يخاطب الضعفاء وهم ركائز الايمان فى كل الأديان ، فيقول لهم اذا كنتم فى واقع حياتكم تتطلعون الى من تؤملون فيه أن يجيركم ويحميكم ، فان الله لديه هذا الجوار ، بل لديه درجة أعلى وأقوى من هذا ، وهو أنه يملك أن يجير أى أحد · بينما لا يستطيع أحد قط أن يجير عليه أى أن يحمى أحدا منه ، ففى القرآن (وهو يجير ولا يجار عليـه) ·

وكذلك من عادة السادة فى العرب أنهم أسخياء بالطعام ، فالمجتمع الذى يدين لهم بالخضوع معظمه من الفقراء المحرومين ، والسيد الذى يقدم الطعام لهؤلاء المحرومين لابد أن تهفو نفوسهم اليه ، وتلتف أفئدتهم أو آمالهم حوله ، فالله سبحانه يقرب أسلوب الدعوة اليه من أفهامهم ، فكأنه يقول لهم اذا كانت نفوسكم متطلعة الى هؤلاء السادة الذين يملكون أن يقدموا اليكم الطعام فان الله لديه ماهو خير من ذلك ، وهو أن يقدم الطعام والخير الى الناس · ومع ذلك لا ينتظر منهم مقابلا ، ففى القرآن (فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم) وهكذا فى كل ما جاء به الدين ستجده مطابقا أو مشابها لواقع الحياة · غاية الأمر أن الله يوجه الناس الى استخدام عقولهم لتوجيه هذا الواقع نحو الوجهة الصحيحة ·

قال الشاب مبتسما : ألا ترى أننا عدنا الى ما يشبه أسلوب ألف ليلة وليلة ، أو كليلة ودمنة فى التداخل والتشعب ؟ فانى أقترح أن نحدد موضوعات معينة نحصر الحديث فى كل منها ، فاذا انتهينا من موضوع يمكن اذا شئنا أن ننتقل الى موضوع آخر ·

قال الشيخ : حبذا لو أمكن ذلك ، ولكن الدين بطبيعته مترابط متكامل متداخل ، ولا يكون دينا بالمعنى الصحيح الا بتكامل عناصره الجوهرية ، فاذا فصلت هذه العناصر بعضها عن بعض لم يكن هو الدين ·

قال الشاب : ولكنك بهذا تسىء الى الدين ، وأنت ولا شك رجل مثقف ، وتعرف أن الأسلوب العلمى يقتضى تحديد موضوعات البحث وعدم تداخلها ولكن حديثك عن أن عناصر الدين وموضوعاته متداخلة قد يفهم منه

الخروج على المنهج العلمي ، فهل معنى ذلك أن البحوث الدينية متداخلة وغير محددة ؟

قال الشيخ وهو يحاول تكلف الابتسام ليذهب عن لهجته حدة بدت فيها : لابد أن تراعى أننى أحدث مثقفا لا يحتاج الى توضيح الواضحات ٠ ولو كان حديثى الى شخص غير مثقف لكان مختلفا ، فليس معنى ترابط عناصر الدين أو تداخلها أنها غير محددة ، وان كان بعض هذه الألفاظ يوحى بشىء من اللبس لدى الشخص السطحى الثقافة أو التفكير ، ولكن المعنى المقصود أن عناصر الدين وموضوعاته وان كانت محددة فى ذاتها وفى بحوثها الا أن الدين لا يكتمل الا حين تجتمع عناصره وتترابط فى أدائها ٠

قال الشاب : كنت تقول الآن ان الدين دائما صورة من واقع الحياة ، فهل توضح لى من واقع الحياة أن الشىء لابد أن تجتمع عناصره لتتحقق منه نتيجته أو فائدته ؟

قال الشيخ : ان ذلك واضح فى كل شىء ، فالبحوث العلمية أو الطبية مثلا لا تؤدى الهدف منها الا اذا تضافرت وضم اللاحق منها الى السابق ، لأن اللاحق لا يبنى على فراغ ، بل هو عنصر يبنى على العناصر السابقة أو يضم الى العناصر الأخرى ، كما أن البناء لا تبنى لبناته على الهواء ، وانما على البناء السابق ، وفى الواقع العملى كذلك ، فالسيارة التى نركبها لتنقلنا من مكان الى مكان ، تجدها مكونة من عدة عناصر محددة فى ذاتها ، ولكنها لا تؤدى الغرض منها الا اذا اجتمعت جميعا فى الأداء ، ففى السيارة عنصر الكهرباء ، وعنصر الوقود ، وعنصر الزيت ، وعنصر الماء ، وكل منها له أدواته وأجهزته المحددة فى السيارة ، ولكن السيارة لا تؤدى الغرض منها الا اذا عملت هذه الأجهزة والأدوات جميعا فى وقت واحد ، والآلة الضخمة المكونة من مئات أو آلاف الأجزاء قد يفقدها صلاحيتها للعمل مسمار واحد صغير يغيب منها ٠

وكذلك الدين يتكون من عناصر معروفة ، أساسها عنصرا العقيدة والعمل فلا يعد دينا بالمعنى الصحيح الا اذا اجتمعا ، والعمل بدوره يتكون من عناصر ، بعضها يتعلق بصلة الانسان بالله كالعبادات ، وبعضها يتعلق بصلة المرء بمجتمعه ٠ سواء مجتمع الأسرة ، أو المجتمع الذى يتعامل معه ويعيش فيه ، فكل فرع من فروع المجتمع له حقوق محددة يجب على المرء أداؤها ، وكذلك صلته بأمته أى بشعبه أو دولته ، فالأمة لها على الأفراد حقوق فى الدين يجب أداؤها ، وكل صلة من هذه الصلات التى يرتبط بها الفرد لها حقوق يجب عليه أن يؤديها ، وأداؤها جزء من الدين ، وعدم أداء أى منها خلل فى الدين ٠

قال الشاب فى استنكار لا يخلو من ارتبـــاك : انك بهذا تخيفنى وترهبنى ، فلا بد أن أطبق ما تقول أولا على نفسى ، وأنا نشأت فى أسرة مسلمة ، وأنتمى الى شعب مسلم ، ولا أسب الاسلام ولا أعاديه ، بل فوق هذا أنا راض عنه ، وبهذا أعد نفسى مسلما • وأعرف أن فى الآخرة حسابا، وبصفتى مسـلما فاننى أنتظر ثواب المسـلمين ، ولكن حديثك عن هذه العناصر ، وعن مسئولية الفرد تجاهها أفزعنى وأرهبنى •

قال الشيخ فى لهجة أقرب الى المزاح : هل تريد أن تلصق بى تهمة الارهاب الشائعة هذه الأيام لتذهب بى الى الغياهب ؟ ثم انك أنت عدو للاسلام • فاسمح لى أن أقول لك : هل أنت من الذين يغيرون مواقفهم بهذه السهولة ؟

قال الشاب : انى آسف اذا لم يكن كلامى دقيقا فى التعبير عن قصدى أو كنت أنت قد فهمت من كلامى أبعد مما قصدت به ، فأنا لم أقصد عدم انتمائى الى الاسلام ، وانما قصدت أننى لست من المتمسكين بتعاليمه وعباداته ، فأنا لا علاقة لى بشىء من تعاليم الدين ، ولا أهتم بالتفكير فيها ، ومع ذلك فأنا مستريح نفسيا الى انتمائى الى أسرة ومجتمع مسلمين وأعد هذا كافيا ، ولكن حديثك عن أهمية المسئوليات المتعددة فى الدين أثار القلق فى نفسى ، فهل ترى وضعى هذا لا يحقق لى صفة الاسلام ؟

قال الشيخ : لست أريد أن أحكم أنا على وضعك ، خصوصا وأنت واضع فى نفسك أننى مصدر تخويف كما تقول ، ولكنك تستطيع أن تحتكم الى واقع الحياة ، ففى المثال الذى ضربناه عن أن السيارة مثلا تتكون من عدة أجهزة مختلفة ، ولا تؤدى الغرض منها الا بان تعمل كل هذه الأجهزة معا ، وأنت فى وضعك الدينى افترض أن الاسلام بوصفه شعارا عاما يشبه هيكل السيارة ، وفى داخل هذا الهيكل عناصر للدين كالعناصر التى أشرنا اليها فى الصلة بالله وبالمجتمع وبالأمة ، فاذا عطل المسلم هذه العناصر ، فانه يشبه السيارة التى تعطل أجهزتها أو تنزع منها ويبقى هيكلها كاملا ، وقد يكون الهيكل فخما أو حسن المظهر ، والناظر اليه ولا شك يحكم بأنه سيارة ، ولكن هل هو فى حقيقته سيارة وهو بدون الأجهزة التى تحرك السيارة ؟ عليك أنت أن تجيب لنفسك لتحكم على اسلامك •

قال الشاب : لا أظن أن مثال السيارة هو الفيصل النهائى فى هذا المجال ، فالسيارة أو كل الآلات تفقد الغرض منها فعلا اذا فقدت جزءا قد يكون صغيرا كمسمار ، ولكن هل كل شىء يفقد الغرض منه اذا فقد جزءا؟ لا أظن ذلك ، فالانسان مثلا قد يفقد عضوا أو أكثر ، ومع ذلك يظل يؤدى وظيفته فى الحياة بوصفه انسانا ، فكيف تجعل من فقد العناصر تعطيلا لماهية الشىء وكيانه كله ؟

قال الشيخ : أرى أن تمثيلك بالانسان غير دقيق فى الاستشهاد ، فالأعضاء فى الانسان ليست عناصر ، ولكنها أجزاء من عنصر أما العناصر فى الانسان فتستطيع أن تقول انها ثلاثة ، أحدها الجسد كله بما فيه من أعضاء ، وثانيها الروح ، وثالثها الادراك الذى هو العقل ، فهذه الثلاثة هى العناصر الأصلية المكونة لذات الانسان ، ولا يؤدى الانسان وظيفته فى الحياة الا باجتماعها ، فاذا فقد عنصرا منها فقد جوهر كيانه ، فالجسد لا تستطيع أن تتخيل انسانا بدونه ، والروح بدونها يصبح المرء جثة انسان وليس انسانا ، والادراك اذا فقده شخص بأن يصاب بالجنون مثلا ، فان هذا الشخص لا يستفيد بوجود جسده وروحه ، بل لا يصبح هو الشخص الذى نعرفه ، وهكذا ترى أن الانسان لا يؤدى وظيفته فى الحياة ولا يوصف بأنه انسان بالمعنى الصحيح الا اذا اجتمعت فيه عناصره الأصلية ، وكذلك الـدين .

قال الشاب : وهل معنى ذلك أن المسلم اذا ترك عنصرا فى الدين كالصوم يختل دينه ويفقد صفة الاسلام ؟

قال الشيخ : ان الصوم ونحوه ليس عنصرا فى الدين ، وانما هو فريضة من الفرائض الواجبة الأداء ، فهو جزء من الدين ، ولكن ليس عنصرا ، لأن العناصر هى المكونات الجوهرية للأشياء ، وتستطيع أن تقول ان العناصر المكونة للدين ثلاثة ، هى العقيدة ، والعمل ، والايمان بالآخرة، فأما العقيدة فيتمثل جوهرها فى الاعتقاد النفسى والعقلى بوحدانية الله فى ألوهيته وتصريفه الكون ، وبأنه أرسل رسلا من البشر الى الناس وبأن له ملائكة كما أخبر عنهم ، وأما العمل فهو عنصر بوصـــفه كلا وليس أجزاء فى الأداء ، فيشمل كل العبادات ، وكل التكاليف مجتمعة ، وأما عنصر الآخرة فينصب أساسا على الايمان بالبعث للحساب على عنصر العمل خيره وشره ، بمعنى حساب كل فرد على ما عمل من خير أو شر فى حياته هذه ، فلابد من اجتماع هذه العناصر الثلاثة ليتحقق الدين ، فاذا فقد الشخص واحدا منها فقد انتماءه الحقيقى للدين ، وبالتالى لا يستحق أن يكون الدين وصفا له .

قال الشاب : وما الفرق بين سؤالى عن نوع من الدين كالصوم ، وبين حديثك عن العمل ؟ فقد فهمت من حديثك أن تعطيل العمل يفقد الدين وظيفته كما تفقد السيارة وظيفتها حين يتعطل أحد أجهزتها ، والصوم مثلا أو الزكاة نوع من العمل ، فهل تركهما أو أحدهما يمحو عن تاركهما صفة الايمان بالدين والانتماء اليه ؟

قال الشيخ : لعلك لم تصغ جيدا الى حديثى عن التفرقة بين العنصر والجزء ، والذى كان فيما أظن واضحا فى مثال الانسان ، بأن الجسد كله

فيه هو العنصر الذى يختل أو ينعدم كيان الانسان بدونه ، بخلاف الأعضاء فانها أجزاء من عنصر فاذا فقد جزءا أو أكثر فلا يختل ولا ينعدم كيان الانسان مادام العنصر الكلى وهو الجسد موجودا ، وكذلك العمل فى الدين تسطيل أن تنظر اليه فى مجموعة بكل أجزائه من العبادات والتكاليف على أنه عنصر يختل الدين أو ينعدم جوهره بانعدامه ، أما الأجزاء كالصوم والزكاة فلا ينعدم جوهر الدين بانعدام بعضها طالما كيان العنصر وهو العمل قائم ٠

قال الشاب : كيف أفهم هذا عمليا ، وبصورة أوضـح ؟ وأرجو ألا تضيق بالحاحى على هذه النقطة ، فانى بدأت أشعر بخطورتها بالقياس الى كثيرين ومنهم أنا ، ومع ذلك فارجو ألا تضيق أيضا بموقفى الذى بدأت به حديثى معك ، وهو أنك لا ينبغى أن تنتظر اقتناعى بكل ما تقول ، بل سأعرضه على عقلى ، ثم أرى فيه رأيى ٠

قال الشيخ : أما أنا فكل ما يهمنى أن يكون كلامى واضحا لا لبس فيه ولا غموض ، ثم بعد ذلك أنت حر فى موقفك ، وأما تساؤلك عن موضوع العمل بالقياس الى الدين ، فلا أنكر عليك تكرار السؤال عنه ، فانه موضوع واسع ، تستطيع أن تجد فيه ، بل فى فروعه عديدا من المؤلفات الضخمة ، فليس من اليسير أن أوجز لك كل ذلك فى هذه الكلمات التى يتأرجح بها القطار ، ولكنى ألخص لك الأسس والمبادىء بقدر الامكان حسب فهمى من الدين ٠

فحديثى عن العمل بوصفه عنصرا فى الدين أعنى به أن الشخص حينما تتحقق فيه صفة الايمان النفسى والعقلى بالدين سيطالب بتكاليف معينة فى أكثر من مجال كما قلت لك فى صلته بربه ، وصلته بمجتمعه ، وصلته بأمته ، وهذه التكاليف فى مجموعها هى العمل ، فاذا هيأ الشخص نفسه بعد العقيدة لمزاولة هذه التكاليف وأدائها ، بمعنى أنه نوى وعزم على أدائها وبدأ فعلا فى التنفيذ فانه يكون قد حقق عنصر العمل ، فاذا قصر فى أداء بعض صور العمل وتكاليفه فان هذا لا يمحو عنه صفة الدين ، كما أن من يفقد بعض أعضائه من الناس لا يفقد صفته بوصفه شخصا وانسانا ، أما اذا نظر الشخص الى عنصر العمل كله نظرة اهمال أو عدم اهتمام ، فان هذا يخل بكيان الدين كله فيه ، لأنه لا خير فى قول أو رأى لا يصدقه عمل ٠

قال الشاب : ولكنى أرى أن عودتنا الى أصل الحديث أهم من خروجنا عنه ، أو دخولنا فى تفاصيله ، وأصل الحديث أننى كنت أقترح أن نحدد لحديثنا موضوعات نلتزمها ، ولا نخرج من موضوع الا اذا فرغنا من حديثه، أما وقد أثرت أنت أن موضوعات الدين لا ينفصل بعضها عن بعض ، فهل

معنى ذلك أنه من العسير أن نحدد موضوعات للحديث يتميز بعضها عن بعض ؟

قال الشيخ : لقد فهمت كلامى بصورة أعم مما أقصد ، فليس معنى كلامى أن الدين ليس محدد الموضوعات ، بل على العكس تجد أن البحوث فى المجالات الدينية كانت أسبق مجالات البحث الى التحديد والتخصيص ، ولكنى أقصـــد أن موضوعات الدين مهما تعددت ، ومهما بدت متباعدة الا أنها دائما محكومة بقواعد ومبادىء عامة تجمعها ، فالروابط فى موضوعات الدين دائما موجودة • ولكن ليس بين بعضها وبعض ، وانما بينها وبين القواعد والمبادىء العامة ، ومعنى ذلك أننا نستطيع أن نحدد موضوعات للحديث ، ولكن على أساس أننا يمكن أن نستطرد أو نخرج من صلب الموضوع الى علاقته بالقواعد والمبادىء العامة ، ثم لنا أن نعود الى الحديث فى الموضوع مرة أخرى أو نؤجله الى حين ، ثم ان لى اقتراحا آخر فى هذا الصدد ، وهو أن نجعل حديثنا فى صورة أسئلة ، يكون كل سؤال منها موضوعا مســتقلا ، ولا مانع أن ننتقل منه الى موضوع آخر فى صورة ســؤال •

قال الشاب : وما المانع أن نجمع بين الأمرين ، بأن نجعل حديثنا فى صورة مناقشة أو اجابة عن أسئلة ، ولكن فى موضوع محدد بقدر الامكــان ؟

قال الشيخ : لا مانع ، فماذا تقترح أن نبدأ به من الموضوعات ؟

قال الشاب : لست أريد ترتيب الموضوعات حسب أهميتها فى الدين ، ولكنى أريد ترتيبها حسب ما يشغلنى أو ما لا يريح نفسى منها • فهناك موضوعات تتعلق بالدين ، أو بالمسلمين لا أستطيع أن أهضمها أو أقتنع بها ، فلعلى أجد عندك ما يريحنى فيها ، أو لعل حوارنا حولها يفتح لى بابا الى فهمها •

قال الشيخ : تعنى العقيدة وما يتعلق بها ؟

قال الشاب : رغم علمى بأن العقيدة هى الأساس وهى الأهم الا أن غموضها فى النفس أيسر من غموض أمور أخرى ، وهذه الأمور الأخرى التى تشغلنى أرى أنه لا فائدة من الحديث عن العقيدة مادامت النفس غير مطمئنة اليها ، ولذلك أرى أن نبدأ حديثنا عنها •

قال الشيخ : وأى هذه الأمور تريد أن نبدأ به ؟

قال الشاب : الحديث عن أحوال المسلمين •

قال الشيخ : فلنبدأ الحديث ·

قال الشاب : ولكننى أشعر بالجوع ، وأعتقد أنك لابد أن تكون كذلك أفلا يكون من الأفضل أن نتناول شيئا من طعام لنكون أنشط للحديث ؟

قال الشيخ : ولكن نفسى لا تهفو كثيرا الى طعام القطارات ولا الى أكل المطاعم بصفة عامة ·

قال الشاب : ولكننا مضطرون الى تناول طعام ، وسأطلب غداء لى ولك ، فآمل أن تتناول معى هذا الغداء ·

قال الشيخ وكأنما بدا عليه الارتياح لعدم تحمله عبئا فى الغداء : لا بأس ، وان من حق المسلم على المسلم تلبية دعوته ·

(٢)

قال الشاب : من الأسئلة التى كان الملحدون من زملائنا ومن بعض أساتذتنا فى الجامعة يوجهونها الى المتدينين ويلحون فى ترديدها بأساليب مختلفة : لماذا كان المسلمون من أسوأ الناس حالا فى الدنيا ؟ ومن المعنى نفسه أنه من الملحوظ على مستوى الأفراد أن معظم المتمسكين بالدين والايمان يعيشون حياة بائسة تقشعر منها أحيانا الأبدان ، وقد كان المفروض أنهم ماداموا مؤمنين بالله ، والله كما تدعون هو الذى يوزع الأرزاق أن يجعلهم خير الناس حالا . ولم تكن ردود المتدينين من زملائنا مقنعة ، وكنت أحد الذين تحيرهم هذه الأسئلة ، ولا تقنعهم الاجابة عنها ، فهل أجد عندك اجابة لهذه الأسئلة بشرط أن تكون كما اتفقنا ملائمة للعقـول ؟

قال الشيخ : هناك أساس لابد أن نتفق عليه ، حيث لا جدوى لأية اجابة ، أو لأى حوار بدونه ، وهو وجود الله ، فاذا اتفقنا على وجود الله فان الحوار يكون ذا موضوع ، والا فلا داعى للحوار أصلا ، لأنه سيكون بدون نتيجة .

قال الشاب : الخلاف ليس حول وجود الله ، فأنا من المؤمنين بوجود الله ، ولكن المشكلة المحيرة هى ما يصدر عن الله ، وسؤالى منصب على ما يصدر عن الله ، ومضمونه : كيف يترك الله المؤمنين به فى الأحوال السيئة ، بينما ينعم معظم الكافرين به بخيرات الدنيا ونعيمها ؟ وأعتقد أن هذا من مصادر الشك فى وجود الله لدى الملحدين ، حيث يدعون أن الله لو كان موجـــودا لكان ينبغى أن يكافىء المؤمنين به لا أن يجعلهم من أسوأ الناس حالا .

قال الشيخ : قبل أن ندخل فى الاجابة أرى ضرورة توضيح بعض اللبس فيما صدر منك ، فقد تردد فى حديثك الكلام عن المسلمين والمؤمنين على أنهما شىء واحد ، وهذا غير صحيح ، فما هو معروف أن الاسلام ينظر اليه من الناحية اللغوية ، وهو أنه بمعنى الاستسلام ، حيث ان الذى يدخل الاسلام منتقلا اليه من دين آخر أو من الحاد يحتمل أحد أمرين ،

اما أن يكون قد استسلم لقوة الداعين الى الاسلام خوفا منهم ، واما أن يكون قد استسلم لله بعقيدته ، وفى كلا الحالين يعد مستسلما وليس مؤمنا ، أما الايمان فهو أن يصوغ نفسيته وعقليته من العقيدة الدينية ويصبغهما بصبغتها ، فالايمان هو الجوهر الداخلى الذى لا يطلع عليه الا الله وان دل عليه السلوك ، أما الاسلام فهو المظهر المحسوس بالعبادات ، وقد يكون هذا المظهر نابعا من ايمان ، وقد يكون مظهرا أجوف كالذين لا يتجاوزون باسلامهم مظهره ، وقد يكون مظهرا كاذبا أو خادعا كالذين يتخذون من مظهر الاسلام ستارا يخفون به عكس ما يظهرون ، وقد ضرب القرآن مثلا شديد الوضوح فى التفرقة بين الاسلام والايمان ، وذلك فى الحديث عن البدو الذين كانوا يظنون أن مجرد انضمامهم الى المسلمين هو كل الدين ، ففى القرآن (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) وتعبير (لما يدخل) بمعنى أنه ينتظر دخول الايمان قلوبكم اذا صدقتم فى اسلامكم .

قال الشاب : هذه التفرقة وان كانت قد وضحت معنى ذا قيمة ، الا أنها بالقياس الى لا تغير مسار الحديث أو السؤال ، فانى كنت أعنى المسلمين المؤمنين معا .

قال الشيخ : لعلك تذكر أننى أكدت لك أن الدين صورة من واقع الحياة ، وفى الاجابة عن سؤالك كيف أن المؤمنين بالله يكونون غالبا من أسوأ الناس حالا ، بينما الكافرون بالله قد يكونون من أحسن الناس حالا أقول لك : ماذا تعنى بسوء الحال بالقياس الى المؤمنين ؟

قال الشاب : أعنى أن معظمهم يعيش فى كل الأحوال السيئة ، من الفقر ، ومن المصائب ، ومن الضعف ، ومن سائر الأحوال السيئة .

قال الشيخ : وهل معنى ذلك أنه ليس فيهم من يعيش فى أحوال حسنة ؟

قال الشاب : لا شك أن فيهم من يتمتعون بأحوال حسنة ، ولكنهم قلة بالقياس الى الذين يعانون مرارة الحياة من المؤمنين ، ولكن المهم ليس فى الكثرة أو القلة ، وانما المهم فى أصل الموضوع ، وهو أن الله وهو الذى يملك ويوزع الأرزاق كيف يعطى المؤمنين به سوء الحال ، ويعطى الكافرين به متع الحياة ؟ واسمح لى كما اتفقنا أن أعبر عما فى نفسى بصراحة فأقول : هل هذا من الحكمة أو العدل أو حسن الجزاء ؟

قال الشيخ وقد اعتدل فى جلسته وابتسم : لعلك تظن أن هذا المنطق يضايقنى ، فالأمر بالعكس ، ان نفسى تستريح الى منهج الصراحة

مهما بدت غريبة بشرط أن تكون هادفة الى الوصول الى الحقيقة ، وليست مكابرة أو اصرارا على وجهة نظر بصرف النظر عن كونها حقا أو باطلا ، ولا أظن أنك من هذا النوع الأخير ، ولذلك أقول لك : انه بمنطق واقع الحياة الذى تعوده كل الناس على اختلافهم فى كل شىء ، أسألك : هل تقبل أية دعوى بدون دليل على أثباتها ؟ فمثلا الطلاب فى كل مراحلهم هل تقبل أية جهة تعليمية فى العالم أن تمنح منهم طالبا شهادة بنجاحه فى أية مرحلة دون امتحان ؟ وكذلك الذين يتقدمون لشغل وظائف أو أعمال فى أية جهة ، هل تقبل أية جهة دعواهم أنهم أكفاء لهذه الأعمال دون مطالبتهم باثبات صلاحيتهم لها من خلال المؤهلات أو الخبرة العملية أو الامتحان ؟ وهكذا فى كل مجال حتى الذى يدعى حقا أو دينا على شخص آخر ، هل تقبل دعواه فى أى مكان فى العالم دون اثبات صدق هذه الدعوى بأية وسيلة من وسائل الاثبات ؟

قال الشاب : وما علاقة هذا بالصلة بين الله والمؤمنين ؟

قال الشيخ : ذلك لأن المؤمن يدعى أهم وأخطر دعوى فى هذه الحياة ، وهى الايمان بالله ، وبالتالى فهو ينتظر أن ينال أعظم شهادة أو مؤهل فى هذه الحياة وهى الايمان بالله ، فكيف تقبل دعواه بدون اثبات صدق دعواه ؟ ولذلك فان الله يمتحنه ويعرضه لما يناسبه من أنواع الاختبار والامتحان وهو ما يسمى فى الدين الابتلاء ، والابتلاء فى اللغة هو الامتحان ، فالذى يدعى أنه مؤمن بالله هو اذن يدعى دعوى على الله ، وبالتالى هو يطالب بنتيجة هذه الدعوى وما يترتب عليها من منزلة عند الله وثواب عنده واذا كان الناس فى كل أنحاء العالم على اختلاف أنواعهم وعقائدهم لا ينكرون مطالبة المدعى فى أى مجال باثبات دعواه فلماذا ينكرون على الله أن يطالب المدعين عليه باثبات صدق دعواهم ؟

قال الشاب : ولكن القياس فيه فارق كبير ، وهو أن الناس لا يعلمون الغيب ، ولا يعلمون الخفايا ، فحين يدعى أحد دعوى لا يعلمون الا ظاهر الادعاء ، فهم يريدون أن يعلموا مدى صدق هذه الدعوى ، ولا يتبينون ذلك الا بالاختبار العملى ، أما الله فالمفروض أنه يعلم الظاهر ويعلم الخفى ويعلم الحقائق ، فهو يعلم ان كان مدعى الايمان صادقا أم غير صادق ، فما فائدة أن يختبر المدعين ؟

قال الشيخ : اختبار الله ليس مقصودا به جانب الله بمعنى أن يكتشف كما يفعل الناس حقيقة لم تكن واضحة أو مؤكدة ، وانما المقصود به جانب الناس ، بمعنى أن يكون الاختبار كشفا لحقيقة الناس أمام أنفسهم ، بمعنى أنه قد يدعى شخص أنه مؤمن بالله ، وأنه مستعد لطاعته

في كل ما يأمر ، وأنه مستعد للتضحية في سبيله بكل شيء ونحو ذلك ، وقد يعلم الله أنه كاذب في كل ذلك أو في بعضه ، فلو تركه دون أن يمتحنه ليكشف حقيقته فكيف يحاسبه يوم القيامة ؟ ان العدل حينئذ يقتضي أن يمنحه كل ما يترتب على صدق هذه الدعوى من مزايا المؤمنين ، ولو حاسبه الله على علمه بحقيقته وهي أنه كاذب فمن حق هذا الذي ادعى الايمان والاستعداد للتضحية كذبا أن يقول له لماذا يارب لم تعطني من المزايا والثواب ما أعطيت المؤمنين ، وماذا صدر مني حتى تحجب عني هذه المزايا ، فالله يريد أن يكشفه أمام نفسه وأمام الناس ، فيعرضه للامتحان ، والمفروض أن يكون الامتحان في نوع ما يكذب فيه ، فقد يدعي قوة الايمان فيعرضه للمصائب والآلام ليتبين مدى صبره على قضاء الله ، وقد يدعي الاستعداد للتضحية ، فيعرضه لمواقف تحتاج تضحية ، ليتبين المدعي نفسه ويتبين الناس حقيقته وهكذا ·

قال الشاب : ولكن يوم القيامة يفترض فيه أن يكون عرضا واضحا لحقائق الأشياء ، بحيث لا يوجد تضليل ولا تمويه ، فالكاذبون في دعواهم في الدنيا يفترض أن يأتوا على حقيقتهم يوم القيامة معترفين بهذه الحقيقة رغم أنهم كانوا ينكرونها أو يخفونها في الدنيا ·

قال الشيخ مبتسما : مما يؤسف له أن طبع الانسان غالب عليه في الدنيا ، ولن يتخلى عنه حتى يوم القيامة ، فالمنافق الذي يحاول خديعة الناس في الدنيا يحاول أيضا خديعة الله يوم القيامة ·

قال الشاب : أتمزح ؟

قال الشيخ : بل هو ما أخبر به الله في صريح القرآن من مثل (يوم يبعثهم الله جيعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء) أي ويحسبون أنهم بالحلف قد خدعوا الله ، ولذلك كان من وسائل كشف حقيقة أعداء الله ومخالفيه يوم القيامة أن يجعل جوارحهم وأعضاءهم التي خالفوه بها هي نفسها تنطق وتشهد عليهم بما صدر منهم ، ومن ذلك في القرآن (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) وكذلك في القرآن في سياق الحديث عن يوم القيامة (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) ·

ولكن الله يريد أن يكشف حقيقتهم أمام أنفسهم وأمام الناس في الدنيا قبل الآخرة فيعرضهم لأنواع الاختبار التي تناسب أحوالهم ·

قال الشاب : اذا فهم هذا بالقياس الى الكاذبين في دعواهم ، فما الحاجة الى امتحان الصادقين في دعاواهم ؟

قال الشيخ : من الواضح أنه من باب العدالة ، فلو لم يمتحن الله الصادقين فقد يقول الذين امتحنهم الله من الكاذبين : فلماذا لم تمتحن هؤلاء ؟ يعنون الصادقين ؟ واذن فالعدل واغلاق باب الحجج يقتضى تعريض جميع المدعين للامتحان ، ولذلك جعل الله امتحان جميع الذين يدعون الايمان سنة ملتزمة ، ومن ذلك فى القرآن بأسلوب الاستنكار على الذين يتوقعون أن يحاسبوا على ظاهر دعواهم الايمان دون اختبار (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولون آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فيعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) ٠

قال الشاب : ولكنك منذ قليل أنت الذى أبرزت أن بعض المؤمنين لا يتعرضون لسوء الحال ، بل يعيشون فى نعيم ومتعة ، أفلا ترى فى هذا تناقضا مع قولك الآن ومع ما استشهدت به من القرآن من أن الله لابد أن يمتحن جميع الذين يدعون الايمان ؟ فمهما يكن عدد الذين لا يتعرضون لسوء الحياة من المؤمنين قليلا بل لو كان واحدا فان هذا يخل بالعدالة ، بحيث ينبغى تطبيق القاعدة على الجميع ٠

قال الشيخ : أنا أعذرك فيما يحدثه الواقع من لبس أو سوء فهم لدى كثير من الناس ، واللبس يأتى من أن كثيرا من الناس يظنون أن الابتلاء لا يكون الا بالمكروه من الفقر أو المصائب أو الأمراض أو نحو ذلك ٠ وهذا هو واقع نظرة الناس الى معنى الابتلاء والامتحان من الله ، مع أن الحقيقة أن الابتلاء ليس بالمصائب والشدائد فحسب ، بل يكون أيضا بالنعم ، سواء بالمال أو الجاه أو المناصب أو نحو ذلك ٠ فكل انسان له امتحان يناسبه ، بعضهم يناسبه الامتحان بالشدائد ، وبعضهم يناسبه الامتحان بالنعم وتحقيق الأمانى ، كما أن الامتحان فى دور التعليم والتدريب مختلف، بحيث يكون لكل فرقة أو كل مهنة امتحان يناسبها مختلف عن امتحان الفرقة الأخرى والتخصص الآخر ، فأنا أعذرك حين تفهم أن النعم على اختلاف أنواعها ليست امتحانا ، لأن هذا من الخطأ الشائع ، ولكنه خطأ فاحش ينبغى تصحيحه ٠

قال الشاب ضاحكا : ولكن الامتحان بالنعم امتحان لذيذ ممتع ، يتمناه كل الناس وأنا منهم ، فأنا أتمنى أن يمتحنى لله بأن يجعلنى رئيسا أو ملكا أو حتى وزيرا ، واذا لم يمتحنى بمنصب فأتمنى أن يمتحنى بالملايين، فيجعلنى مليونيرا ، فهل تدعو الله بأن يجعل امتحانى من هذا النوع ؟

قال الشيخ : مما يؤسف له أننى أراك تضحك ، وتشوب كلامك بشىء من المزاح أو السخرية ، مع أن الأمر أبعد وأخطر مما تظن ، وذلك من حيث الشكل ، ومن حيث الموضوع ، فأما الشكل فان طلبك أن تكون من

الذين يعرضون للامتحان غير متفق مع عرض هذا الحديث ، فان الحديث منصب على أن ابتلاء الله الملتزم انما يكون للذين يدعون الايمان ليتضح مدى صدقهم فى دعواهم ، أما الذين لا يدعون الايمان وهم غير المؤمنين فلا حاجة لامتحانهم ، لأنهم معترفون بعدم الايمان ، فكيف هم يقولون نحن غير مؤمنين ثم يقال لهم تعالوا ادخلوا امتحان المؤمنين أو مدعى الايمان ؟ فهذا يساوى أن يكون هناك امتحان معقود فى مدرسة ما ، ويدخل التلاميذ الى المدرسة ، ويكون حينئذ غلام يمشى فى الطريق ، فيمسك به أحد العاملين فى المدرسة ويقول له : تعالى ادخل الامتحان ، فيقول الغلام أنا لست تليمذا فى المدرسة فيصر العامل أن يدخله الامتحان ، وكذلك كل من يعترف بعدم أهليته لمجال ما فليس من الحكمة ولا مما يسير عليه واقع الحياة أن نعرضه لامتحانه فى هذا المجال ، وفيما يتعلق بك أنت من هذا هو أنك لم تدع الايمان صراحة فيما أذكر ، بل قررت أنه يمكن أن نعدك مسلما ، وأن نعدك غير مسلم ، وكل ما ذكرته بعد ذلك من محاولة القرب من الدين لا ينفى هذا الأساس ، وانما ينفيه – اذا شئت – أن تدخل الاسلام من جديد دخولا صحيحا ٠

قال الشاب فى شىء من حدة : لقد سبق أن قلت لك اننى لا أقبل أن يدخل أحد فى هذا الجانب من حياتى ، لأنه خاص بى أزنه أنا فى داخل نفسى وأتوجه فيه كما أشاء ، فأرجو أن تدع هذا الحديث ، وتواصل حديثك فى الامتحان بالنعم ٠

قال الشيخ : نعم فان الأمر أخطر وأبعد مما تظن ومما يظن كثير من الناس ، والذى يظنه بل يكاد يوقن به كثير من الناس أن النعم على اختلاف أنواعها ليست الا تكريما من الله لمن تصيبه هذه النعم ، ولذلك تراهم يعبرون عن هذا بأساليب مختلفة من نحو فلان أكرمه الله بكذا ، وفلان ربه راض عنه حيث أنعم عليه بكذا وهكذا ، فحقا قد يكافىء الله بعض عباده عن أعمال يرضى عنها فيمنحهم بعض نعمه ، ولكن هذا لا يخل بالقاعدة العامة الملتزمة ، وهى أن كل ما يصيب المؤمن من خير أو شر انما هو امتحان من الله ، وحتى هؤلاء الذين يكافئهم الله بنعمه يمنحهم أيضا بهذه النعم ٠ هل يشكرون الله عليها ويشعرون بأنها احسان من الله وترغيب لهم أم يجحدون ذلك ؟ وكما سمعت آنفا أن القرآن يؤكد أن الاختبار للمؤمنين سنة ملتزمة من الله ، فكذلك فى صريح القرآن أن كل ما يصيبنا من خير أو شر انما هو اختبار وامتحان من الله من مثل (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) أى ابتلاء واختبارا ٠

ولكن خطورة الأمر تكمن فيما هو أبعد من ذلك ٠ وهو أن الابتلاء بالنعم أصعب بكثير من الابتلاء بالمصاعب والشدائد ٠ وذلك أن المصاعب

والشدائد من شأنها أن تقرب الانسان من الله ، وخصوصا حينما تعجز وسائله عن التغلب على مصاعبه ومتاعبه ، كالمريض مثلا ، حينما تفشل كل جهوده فى العلاج فى الشفاء ويشتد عليه الألم فانه يلجأ تلقائيا الى الله مهما يكن حاله من ضعف التدين ، أو من بعده عن الدين ، حيث يشعر حينئذ ان الله هو الملجأ الأخير والوحيد الباقى له ، وكذلك كل مواقف الشدة والألم من شأنها أن تقرب صاحبها من الله · فالابتلاء بها اذا نظرنا اليه من الناحية الدينية نجد أنه مصلحة وفائدة للانسان ، لانه يساعده على زيادة القرب من الله ان كان فى طريق الله ، وعلى الرجوع الى الله ان كان فى طريق غير طريق الله ·

أما الابتلاء بالنعم فانه من الناحية الدينية يخدر صاحبه · فينسيه التفكير فى الله بالتدريج ، حيث يشعر بأنه مستغن عن الاستعانة بأحد ، أو اللجوء الى أحد ، ثم قد يشعر بعض أصحاب النعم بالغرور ناسين أنها من الله ، ناسبين اياها الى أنفسهم والى قدراتهم الخاصة ، كما قال قارون عن ماله (انما أوتيته على علم عندى) أى أن هذا المال ليس نعمة من الله كما يقول له المؤمنون ، وانما اكتسبه بعلمه ومهارته ، وبعض الناس قد تطغيه هذه النعم ، فتدفعه الى الظلم والبغى ، وغير ذلك من المساوىء التى تترتب على الشعور بالنعم ، ومن هذا القبيل ما نجده فى القرآن من نحو (ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى) ، وهكذا نجد أن النعم من شأنها أن تنسى أو تساعد على نسيان جانب الله ، فضلا عما قد تدفع اليه من مساوىء ، فاذا نظرنا الى هذا المعنى من الناحية الدينية نجد أن الابتلاء بالنعم أصعب وأشق من الابتلاء بالمصائب والشدائد ·

قال الشاب : قد يكون فى هذه الموازنة بين الابتلاء بالشدائد والابتلاء بالنعم شىء من الوجاهة من الناحية النظرية ، ولكنى لا أخفى عنك أننى لازلت من الناحية الواقعية أو العملية غير مقتنع بهذه الموازنة كل الاقتناع ، ولازلت أتمنى أن يبلونى الله بأنواع من النعم ، وليس بنوع واحد ·

قال الشيخ : لا يعنينى أن تتمنى ما تشاء ، ولكن الذى يعنينى قولك انك لم تقتنع بما سمعت ، ولذلك أرانى مضطرا الى أن أزيدك ايضاحا ، وأركز توضيحى فيما سبق أن قلته لك من أن الدين ليس الا صورة من واقع حياة الناس ، وأظن أن من أوضح ما فى حياة الناس المسرح ، فهل تعرف أن حياة الناس فى أوضاعهم المختلفة أشبه بمسرحية يؤدونها ؟

قال الشاب : نعم أعرف أن كثيرا من الناس يعبرون عن سخطهم على الحياة فيصفونها بأوصاف من هذا القبيل ، كما تحدثت أنت فى بدء حديثنا عن شىء من ذلك ·

قال الشيخ : لست أعني هذا ، وانما أعنى وضع الناس فى هذه الحياة فيما يؤدونه من أعمال ووظائف وأوضاع أشبه بأداء الممثلين فى مسرحية ، كل منهم يؤدى دورا مختلفا بذاته أو ضمن مجموعة ، وتوضيح هذه الموازنة بين المسرحية وحياة الناس فى أوضاعهم المختلفة أن المسرحية تتضمن أدوارا عديدة مختلفة ومتفاوتة فهذا الممثل يسند اليه دور ملك مثلا وهذا دور قائد ، وهذا دور خادم ، وهؤلاء دور جنود أو حرس ، وهذا دور عالم ، وهذا دور ثرى ، وهذا دور متسول ، وهكذا نجد كل الممثلين رجالا ونساء يسند الى كل منهم دور مختلف عن دور الآخر ومتفاوت عنه فى النظرة الاجتماعية اليه ، ويظل المشاهدون طوال المسرحية ينظرون الى الملك على أنه ملك ، مع أنهم يعلمون أنه ممثل ، وينظرون الى الخادم على أنه خادم مع أنهم يعلمون أنه يؤدى دورا تمثيليا • فهل الملك فى المسرحية ملك حقيقة ، والخادم خادم حقيقة ، والجندى جندى حقيقة ؟ والأمر لا يحتاج الى اجابة ، فمن البدهى أن جميع الممثلين فى المسرحية زملاء على قدم المساواة فى الصفة ، وهى أنهم ممثلون ، وان تفاوتوا فى براعة الأداء ، وقد يكونون جميعا خريجى معهد واحد للتمثيل ، ولكن مخرج المسرحية لابد أن يكون على علم سابق بطبيعة كل منهم ، وصفاته ، ونواحى القوة أو الضعف فى أدائه التمثيلى •

وحين تنتهى المسرحية يبدأ الناقد أو المخرج فى تقويم أداء كل ممثل لدوره والحكم عليه ، والموازنة بينه وبين أداء الآخرين فى المسرحية ، فهل سيكون الحكم على طبيعة الدور الذى أسند الى الممثل أم على طبيعة أدائه لهذا الدور ؟ بمعنى أن الحكم على الملك فى المسرحية هل سيراعى فيه أنه ملك ، أم سيكون على مـدى اجادة الممثل لدور الملك ؟ وكذلك الخادم هل سيراعى فى الحـكم عليه أنه خادم ، أم على مدى اجادته لدوره بوصفه خادما ؟

قال الشاب : من الواضح أن الأدوار نفسها لا قيمة لها فى الحكم ، وانما الحكم على مدى اجادة الممثل لدوره أيا كان الدور ، ويترتب على ذلك أننا قد نحكم بأن الخادم كان أبرع فى أداء دوره من الملك ، وأن المتسول كان أبرع تمثيلا من القائد أو الغنى وهكذا •

قال الشيخ : نعم ولا شك أن ما سينالونه بعد ذلك من جزاء مادى أو معنوى سيكون بمقدار اجادة كل منهم لدوره ، وكذلك ما قد يلحقهم من عقاب انما يكون بمقدار اساءة أى منهم فى أداء دوره ، فقد يعاقب الملك أو الوزير لأنه لم يحسن أداء دوره بينما يكافأ الخادم أو المتسول لاجادته فى الأداء •

قال الشاب : وما علاقة هذا كله بما كنا نتحدث فيه من ابتلاء الله للناس بالشر وبالخير ؟

قال الشيخ : بل العلاقة وثيقة تبلغ درجة أن كلا منهما يعد صورة طبق الأصل للآخر ، فتعالى بنا الى المقابلة بينهما ، فحيث عرفنا فى المسرحية أن الممثلين فى الأصل هم زملاء متساوون فى الصفة وهى أن كلا منهم ممثل، وأن الأدوار التى أسندت اليهم فى المسرحية أدوار طارئة ومؤقتة تنتهى بانتهاء المسرحية ، ولا تؤثر فى اشتراك كل منهم مع زملائه فى صفة التمثيل ، فكذلك الناس فى واقع الحياة كلهم مشترك فى صفة معينة هى أنهم بنو آدم واخوة فى الانسانية ، وهم متساوون فى هذه الصفة لا يمتاز أحد منهم عن أحد فيها مهما كان وضعه الاجتماعى ، ويقابل الأدوار التى تسند الى الممثلين فى المسرحية الأدوار التى تسند الى الناس ليزاولوها فى حياتهم ، فبعضهم يسند اليه أن يكون ملكا أو رئيسا أو وزيرا أو ثريا أو صاحب جاه أو غير ذلك مما يعده الناس مزايا يتنافسون وأحيانا يتقاتلون للوصول اليها ، وبعضهم يسند اليه أن يكون فقيرا أو مريضا أو عاجزا أو عاملا غير ذى شأن أو غير ذلك من الأوضاع التى ينفر منها الناس أو يتألمون ، وكما أن الأدوار التى تسند الى الممثلين فى المسرحية مؤقتة تنتهى بانتهاء المسرحية فان الأدوار التى تسند الى الناس مؤقتة تنتهى بانتهاء آجالهم على أبعد الفروض ، وقد تنتهى قبل ذلك ، فان أوضاع الحياة ليست ثابتة ولا دائمة · ولكن المهم أنها أوضاع مؤقتة مثل أدوار الممثلين ، كما أنها طارئة على صفتهم الأصلية ·

وفى المقابلة بين أساس توزيع الأدوار على الممثلين وأوضاع الناس فى الحياة نجد أن الأساس هو معرفة مخرج المسرحية بطبيعة كل ممثل وبالتالى معرفة الدور المناسب له فى المسرحية ، وكذلك فى حياة الناس فان الله سبحانه ــ وحاشا لله أن يشبه بشىء أو يشبه به شىء ولكنه من باب توضيح المثال ــ هو سبحانه العليم بطبيعة كل انسان ، وبطبيعة الدور الذى يناسبه ليؤديه فى واقع حياته ، فيسند الى كل انسان دوره المناسب له ·

وفى المقابلة بين نقد المسرحية وحساب كل ممثل على أداء دوره فيها من جهة ، وبين حساب الناس على أداء أدوارهم وأوضاعهم فى الحياة من جهة أخرى ، نجد أنه بعد انتهاء المسرحية فى أول عرضها يفترض أن يستعرض المخرج أو من يستعين بهم من النقاد المتخصصين أداء كل ممثل لدوره فى المسرحية بصرف النظر عن نوعية الأدوار ، فقد يحكم بأن الوزير كان أحسن الممثلين أداء لدوره فى المسرحية ، وقد يحكم بأن الخادم كان أحسنهم ، وهكذا ، ويترتب على ذلك رفع منزلة بعض الممثلين أو خفضها

نتيجة لجودة أدائهم أو رداءته ، ثم ما يترتب على ذلك من ثواب أو عقاب مادى أو معنوى ٠

وكذلك في حياة الناس ، فانه بعد انتهاء حياة الانسان يبدأ الحساب الحقيقى له على أداء دوره فى حياته ، فالحساب انما يكون على مدى اجادة الدور أو الاساءة فى أدائه بصرف النظر عن نوعية الدور ، والثواب والعقاب انما يكون على الاجادة أو الاساءة فى الأداء ، فقد يثاب الخادم أو الفقير الخامل الشأن أو العاجز ثوابا عظيما ، لأن كلا منهم أدى دوره أداء جيدا متميزا ، وقد يعاقب صاحب السلطة الكبرى أو الثراء العريض أو الجاه الواسع عقابا عظيما لأن أداءه لدوره كان أداء سيئا ورديئا ، فالثواب والعقاب من حيث المبدأ مرتبط بجودة الأداء أو رداءته ، كما أن درجة الثواب أو العقاب سواء فى المسرحية وفى أوضاع الناس مرتبطة بدرجة الجودة أو الاساءة فى الأداء ٠

وكذلك ما كنا نتحدث فيه من أن الابتلاء بالنعم أصعب وأشق من الابتلاء بالشدائد تستطيع أن تتبين مثيله فى المسرحية من حيث ان الأوضاع العليا فى أمور الحياة كأوضاع السلطة والقيادة كما أنها فى حياة الناس أصعب فى أدائها من الأوضاع الدنيا أو العادية بحيث لا يجيد مزاولتها الا قلة من الناس فكذلك فى المسرحية لا يجيد أداءها الا قلة من الممثلين ، فلو افترضنا أن عدد الممثلين فى المسرحية كانوا عشرين فاننا قد لا نجد بينهم من يصلح لأداء الدور القيادى الا شخص أو اثنان ، بينما قد نجد بينهم عشرة يصلحون لأداء دور الخادم أو العمل العادى ، وهكذا نجد الناس فى اختلاف أوضاعهم التى وضعهم الله فيها صورة من واقع حياتهم التى يصنعونها هم ، ولكن الناس دائما يرتضون واقعهم وما يصنعونه هم ثم ينكرون هذا اذا طالبهم به أو بمثله الدين ٠

قال الشاب : ولكن أتظن أن علماء الدين يرتضون تشبيه حياة الناس وحديثك عن صنع الله فى تنظيمها بالمسرح والتمثيل وهما نوع من التسلية واللهو وليسا من الجد ٠

قال الشيخ : تعنى بحديثك عن علماء الدين أنك تجد غرابة فى وصف حياة الناس وأوضاعهم بأنها لهو ، فان هذا الوصف ليس من عندى ، وانما اقتبسته من لفظ القرآن الذى يكرر كثيرا بأن الحياة الدنيا انما هى لهو ولعب ، ومن ذلك فى القرآن (وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو) وأيضا (وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب) وأيضا (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة) ٠٠ ومن نحو هذا الوصف بأسلوب آخر فى القرآن (وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور) ومن مثل هذا فى التحذير من أن نغتر بأوضاع الحياة (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) ٠ ومع ذلك فكثير من الناس

يغترون ويخدعون بأوضاع الحياة وما يرونه من مظاهر كالمال والجاه والمناصب وغير ذلك ولا يتصـوورون أنها أدوار يؤديها أصـحابها كأدوار التمثيل ثم ينزلون من فوق المسرح حين تنتهي حياتهم تاركين وراءهم كل شيء الا اجادتهم أو اساءتهم في أداء أدوارهم ، ثم يبدأ حسابهم على الاجادة أو الاساءة كما يحاسب الممثلون أيضا على الاجادة أو الاساءة في أداء الأدوار ، واذن نعود الى بدء هذا الحديث ، وهو أن كل ما يصيب الانسان في حياته من خير أو شر انما هو امتحان من الله ، هل سيكون موقفه وسلوكه في كل ما يمتحن به كما شرع الله له أن يكون أم يسير على شريعة غير شريعة الله أو على ما يمليه عليه هواه ؟

قال الشاب : ولكن اذا سلمت معك بأن ما يصيب الانسان من خير أو شر انما هو امتحان له من الله فهناك أمر يتردد حينئذ صدى حيرته في النفس ، وهو تكرار الامتحان سواء في الخير أو الشر ، فلعلك تلحظ كما يلحظ الناس أن كثيرا من الناس يتكرر توارد الظروف عليهم ، سواء أكانت ظروفا متفقة أم مختلفة ، بمعنى أن كثيرا من الناس قد تتوارد عليهم ظروف متفقة في أنها من نواحي الخير والنعم ، فيكون صاحب مال مثلا وصاحب منصب وصاحب جاه وغير ذلك من النعم ، وقد تكون هذه النعم متزامنة في وقت واحد ، وقد تكون متوالية بعضها في اثر بعض ، فلماذا لم تكن احدى هذه النعم كافية لامتحانه ؟ ولماذا يتكرر امتحانه ؟ وكذلك في ظروف الشر كثيرا ما نرى أناسا تتوارد عليهم مصائب متعددة مختلفة سواء في المال أو الأولاد أو الجاه أو الصحة أو غير ذلك ، وقد يتزامن بعض هذه المصائب في وقت واحد ، وقد تتوالى تباعا واحدة اثر أخرى ، فأيضا لماذا يتكرر امتحان هؤلاء الناس أو تتعدد صوره ؟ ولماذا لم يكن الامتحان باحدى هذه الشدائد كافيا ؟

قال الشيخ : أولا ينبغي ألا تنسى أن الابتلاء خاص بالمؤمنين أو بمعنى أصح الذين يدعون الايمان ، واذا كان قد ورد على لساني لفظ الانسان في سياق الحديث عن الامتحان فانما أعني به الانسان المؤمن ولو ادعاء فكما سبق الحديث عن هذا المعنى خلال كلامي فان أساس الاختبار هو ادعاء أحد الناس أنه مؤمن ، فكل دعوى تحتاج الى اثبات واثبات صدق هذه الدعوى انما يكون بالاختبار ، فان الادعاء باللسان أو حتى بالعبادات السهلة التي لا تضحية فيها لا يبين صدق الدعوى أو كذبها ، وانما يبين ذلك تعريض هذا المدعي لشدة أو موقف صعب ، فعند ذلك يظهر على حقيقته ان كان صادقا في تمسكه بالايمان أو متربصا به المنافع والفرص كما يصف القرآن هذا النوع الأخير بمثل قوله (ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ..) .

وأما حديثك عن تكرار الاختبار فهذا حقا واقع مشاهد ، وكثير من الناس يتصورون خطأ أنه ليس الا انتقاما وعقابا من الله ، ويعبرون عن ذلك بأساليب مختلفة كلها يدور حول أن هذا الشخص المتعرض للبلاء والشدائد يواجه غضب الله ، وأن الله لو كان راضيا عنه ما كان فى هذه الحال أو الأحوال المؤلمة ، هذا مع أن الابتلاء مرتبط بالايمان قوة وضعفا ، فكلما كان المرء أعمق ايمانا كان اشد ابتلاء ، وكلما علت منزلته فى الايمان بالله ازداد ابتلاء وتعرضا للشدائد ، ولذلك كان فى الحديث النبوى (أشـــد الناس ابتلاء الأنبيـــاء ، ثم الأمثل فالأمثل) وهـــذا من حيث المبدأ متفق مع الأساس الذى تعارف عليه الناس فى الدعاوى ، فالمؤمن الهين أو الضعيف الايمان يكون اختباره بمقدار دعواه هينا ضعيفا لأنه لم يدع فوق ذلك ، أما المؤمن الذى يكون فى منزلة أعلى فى الايمان فانه يحتاج الى امتحان أصعب يناسب مستواه ، فهل فى واقع حياة الناس يستوى امتحان المرحلة الابتدائية مع امتحان المراحل الأعلى منها من حيث الســـهولة والصعوبة ؟ وان مثل امتحان الأنبياء بالقياس الى بقية المؤمنين كمثل امتحان المراحل الأولى من الدراسة بالقياس الى امتحان المراحل النهائية من الدراسة الجامعية العليا ٠

قال الشاب مبتسما : لقد اتفقنا على أن أعبر عما فى نفسى بصراحة ، فأقول لك اننى سألتك سؤالا محددا عن الحكمة فى تكرار الابتلاء بالذات ، فاذا أنت تطوف حول السؤال دون صلبه ، لتحدثنى عن صعوبة الامتحان وســـهولته ، وليس عن تكراره ، فهل أعـد هذا تحاشـــيا للاجابة المبـــاشرة ؟

قال الشيخ : انك أعطيت الأمر أبعد مما يستحق ، فانه أمر يسير تستطيع أنت أن تتبينه فى ضوء حديثنا عن الابتلاء ، فحيث كان الابتلاء مرتبطا بالايمان قوة وضعفا ، فهو أيضا مرتبط بالايمان تدرجا وارتفاعا ، فالمؤمن يكون فى درجة من الايمان ، فيختبر ايمانه فيها فاذا نجح انتقل الى درجة أعلى من الايمان ، فاذا أراد أن ينتقل الى درجة أخرى بعد أن يجد نفسه كفؤا لها فليس غريبا أن يواجه امتحانا فى هذه الدرجة الأعلى ، وهكذا كلما انتقل الى درجة أعلى امتحن فيها ليتبين مدى صلاحيته لها ، فليس هذا غريبا ، بل هو المنهج الذى تعارف عليه البشر فى كل مجتمعاتهم وشعوبهم على اختلافها ألا ينقل طالب فى أية مرحلة تعليمية الى مرحلة أعلى الا بعد اجتيازه امتحانا ليتبين مدى صلاحيته للمرحلة الأعلى ، بل ان الشعوب المتحضرة تقرر هذا النظام ليس فى دور التعليم فحسب ، وانما فى كل القيادات الوظيفية ، بحيث لا يرقى موظف يتولى عملا اداريا الى درجة ادارية أو قيادية أعلى الا بعد أن يجتاز بنجاح امتحانا يبين مدى

صلاحيته لهـذا الترقى واذن فتكرار الابتلاء للمؤمنين صـورة من واقع الحياة التى يتعارف عليها الناس على اختلافهم ويرتضونها ، فكيف يرتضونه حين يكون نظاما يفعلونه هم ثم يتكرونه حين يكون نظاما من نظم الدين ، وسنة من سنن الله ؟

قال الشاب : وهل معنى ذلك أن كل ما فى حياة المؤمنين من متاعب وشدائد أو من نعم وخيرات ليس الا ابتلاء واختبارا وليس فى شىء منه ثواب عن خير عملوه أو عقاب على شر ارتكبوه ؟

قال الشيخ وهو يضحك ضحكة عريضة : بل الاثنان معا يا سيدى

قال الشاب : أراك تضحك ضحكا لم آلفه منذ اجتمعنا ، فهل فى الأمر شىء يثير الضحك ؟

قال الشيخ : ليس الضحك بسبب موضوعنا وانما بسبب فكاهة قديمة ذكرنى بها تعبير (الاثنان معا ياسيدى) ولا بأس بأن نتسلى بها فى رحلة القطار وذلك انه حينما كان لبريطانيـا مستعمرات ، كانوا يأتون بجنود من بعض هذه المستعمرات يلحقونهم بالجيش البريطانى ، وكان القائد الانجليزى يمر بين الحين والحين على هذه الكتائب ويختار بعض الجنود ليسأل كلا منهم ثلاثة أسئلة مرتبة دائما ، وهى كم عمرك ؟ ومنذ متى التحقت بالخدمة ؟ وهل تسلمت الأسلحة والمهمات ؟ وحيث كان هؤلاء الجنود لا يجيدون اللغة الانجليزية ، فان المشرفين على تدريبهم كانوا يحفظون كلا منهم الاجابة باللغة الانجليزية مرتبة ، فحفظوا أحد الجنود الاجابة المناسبة له باللغة الانجليزية مرتبة وهى عن السؤال الأول ثلاث وعشرون ســنة يا سيدى ، وعن السؤال الثـانى سنتان يا سيدى وعن السؤال الثالث الاثنان معا يا سيدى ، ثم جاء القائد وكان هذا الجندى ضمن من سألهم ، ولكن القائد لأول مرة يغير ترتيب الأسئلة ، فاذا هو يسأل الجندى أولا : منذ متى التحقت بالخدمة ؟ فاذا الجندى يجيب : ثلاث وعشرون سنة ، وتعجب القائد من الاجابة فسأله : كم عمرك ؟ فأجاب الجندى كما حفظ : سنتان ، فامتلأ القائد غضبا وسأله : هل أنت مجنون أم أنا ؟ فأجابه الجندى بما حفظ وهو : الاثنان معا يا سيدى ٠

وأما اذا عدنا الى الموضوع فان اجتماع الاثنين فيما يصيب المؤمنين من شر أو خير والاثنان هما الابتلاء والجزاء يكون اذا نظرنا الى الموضوع من زاويتين ، احداهما أنه لابد أن يكون فى حياة المؤمنين فى الدنيا جزاء بالثواب أو العقاب فى بعض ما يصيبهم من خيرا وشر ، وذلك لأن الله خلق بنى آدم ليعمروا الأرض ، وعمارة الأرض تحتاج الى نظم وضـــوابط ،

ولو ترك بنو آدم لغرائزهم وأطماعهم ، لملأوا الأرض كلها فسادا بغرائزهم، ولأكل الأقوياء الضعفاء بأطماعهم فكان لابد من تدخل عدل الله لتحقيق عمارة الأرض ، أو على الأقل لتوجد فيها العمارة مع وجود الخراب ، وتدخل عدل الله له سنن ونظم لا تحيط بها عقول البشر ، لأن الله لم يطلع البشر على كل حكمته وأسراره ، وانما تركهم يلحظون بعض هذه الحكمة ، فيما يصدر عنه سبحانه ، وفيما أخبر به رسله وأنبياؤه ، ومن ذلك أن الله جعل قرين العدل أى جزاءه الاستقرار والطمأنينة ، فالسلطان القائم على العدل يكافئه الله بالاستقرار فى السلطان وطمأنينة النفس أى شعورها بالرضا والسعادة ، وهذا ينطبق على كل سلطان حتى سلطان رب الأسرة ، فان الوالد حين يعدل بين أولاده تستقر هيبته بينهم ويشعر بالرضا والسعادة بينهم ، وكذلك يجد هذه الحال حينما تكون له أكثر من زوجة فيعدل بينهما ، فالعدل دائما وعلى كل المستويات قرينه الاستقرار والطمأنينة ، فالله يعطى هذا الاستقرار وهذه الطمأنينة للعادل ليعينه على العدل ، وليكون هذا اسهاما فى عمارة الأرض ، وبصورة أعم وأشمل من العدل فان الصلاح عموما جعل الله قرينه أى جزاءه الشعور بالسعادة ، لان الله أودع فى النفس البشرية ما يشبه الجهاز الآلى الحساس للشعور بالخير والشر فيما يعرض لها من عمل ، فكل ما يعرض للانسان من كل ما يزاوله يجد له صدى فى نفسه من الشعور بأن هذا خير أو شر ، ولهذا كان فى الحديث النبوى (البر ما اطمأنت اليه النفس ، والاثم ما حاك فى الصدر) فحين يشعر الانسان بأن نفسه راضية مطمئنة الى كل ما يعمل . فان هذا الشعور هو أعمق وأدوم أنواع السعادة التى جعلها الله جزاء للصالحين ، وجعلها سنة ملتزمة لكل من يلتزم الصـلاح من المؤمنين ، كقوله تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) وأطيب الحياة هو الشعور بالرضا والسعادة ، ومن جهة أخرى فان من أسوأ ما يشقى به الانسان شعوره فيما بينه وبين نفسه بأنه غير راض عن حياته وعما يعمل ، وقد لا يشعر الناس بشقاء هذا الشخص لأنها مشاعر نفسية داخلية تنبع من وخز الضمير وتأنيب النفس اللوامة لصاحبها عندما يرتكب شرا أو قبحا ، ويكفى من شقاء هذا الشخص وتعاسته أن يفقد احترامه لنفسه فيما بينه وبينها ، فحين يفقد المرء اعتباره لنفسه فلا ينفعه ما قد يبديه له كل الناس من تقدير أو ثناء ، وكم من الناس يتألمون ويشقون بما يصطرع داخل نفوسهم دون أن يحس بذلك حتى أقرب الناس اليهـم .

وكما جعل الله من سننه الملتزمة دوام الطمأنينة باستقرار النعم لكل مجتمع قد يسـوده العـــدل فانه سبحانه جعل من سننه تسليط القلاقل والاضـطراب على كل مجتمع يتفشى فيه الظلم حتى يدمر هذا المجتمـع

وتتفكك روابطه وتنهار فيه كل مزاياه أو يهلك المجتمع نفسه • ومن الحكم التى تتوارثها الأجيال من عبر التاريخ قولهم عن استقرار وثبات مجتمع العدل (العدل أساس الملك) فان مفهوم هذه الحكمة أن الملك الذى يفقد العدل يفقد الأساس ، وكل بناء انما يعتمد فى قوته وضعفه ، وفى طول بقائه او قصره على قوة الأساس فحينما يفقد المجتمع العدل الذى يسوسه ينهار كالبناء الذى يفقد الأساس المتين ، وكذلك يقول العامة فيما تتوارثه أجيالهم من عبر التاريخ (بيت الظالم يخرب قبل بيت الكافر) وذلك لأن الله حيث أراد عمارة الأرض فانه يمنحها لمن هو أصلح لعمارتها ولو كان كافرا ، ويسلبها ممن لا يصلح لعمارتها ولو كان مؤمنا ، والظلم يتنافى مع عمارة الأرض ، لأن عمارة الأرض ليست مصانع ومزارع فحسب ، وانما هى قبل كل شىء عمارة المجتمع البشرى بقيامه على العدل والاستقامة ، فالظلم اخلال بعمارة الأرض ، ولذلك كان الظلم أسرع الى الخراب من الكفر ، وقد راعى بعض المفسرين للقرآن هذا المعنى فى قوله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) فقال ان المراد بالصلاح هنا الصلاح لعمارة الأرض ، وليس الصلاح الدينى ، بمعنى أن الله يورث الأرض ويملكها لمن هم أصلح لعمارتها ولو كانوا كافرين ، لأنهم مع كفرهم هم من عباد الله ، فقضية عمارة الأرض وافسادها غير قضية الايمان والكفر •

وفى سياق الحديث عن أن من سنن الله تدمير كيان الظلم سواء أكان فى بيت أو مجتمع أو شعب نجد القرآن يكرر هذا المعنى كثيرا بأساليب عديدة ، منها قوله تعالى (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) ومنها (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا) ومنها (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) •

قال الشاب : ولكن الظلم موجود أو مقترن بوجود بنى آدم منذ وجدوا على الأرض ، ومقتضى ما تقوله أن يكون الله قد أهلك بنى آدم ومحا وجودهم من على الأرض ولو بالتدريج ، لأنه لم يخل ولن يخلو جيل أو مجتمع آدمى من الظلم •

قال الشيخ : ان الاجابة عن اعتراضك هذا تحتاج الى بسطة من الحديث ولو يسيرة ، وذلك أن الله لا يهلك الظالمين لمجرد وجود الظلم ، فان حكمته سبحانه اقتضت وجود الضدين فى كل شىء فى حياة الانسان بالذات ليكون ذلك أيضا اختبارا له ، فالخير لابد أن يكون معه الشر ، والعدل لابد أن يكون معه الظلم ، والعلم لابد أن يكون معه الجهل ، والنور لابد أن يكون معه الظلام وهكذا لأن الشىء لا يتبين الا بضده ، فوجود الظلم لذاته لا يترتب عليه الغضب المدمر من الله ، وانما يترتب الغضب على شيوع الظلم فى

المجتمع وعدم وجود من ينهى عنه ، فان وجود النهى عن الظلم وعن المنكر بصفه عامة يجعل الحق واضحا ، ويجعل كل من يحيد عنه أو يخالفه يشعر بوضوح أنه مخطىء وجائر عن طريق الحق ، أما حين ينعدم النهى عن المنكر فان الظلم أو أى منكر يشيع فى المجتمع حتى يصبح كأنه سلوك طبعى ، وبذلك يبدأ الاحساس بالذنب يضعف لدى مزاولى المنكر لأنه أصبح سلوك الجميع ، وفى هذا محاولة لتغيير خلق الله الذى خلق فى أعماق النفس البشرية الاحساس بالخير أو الشر من مجرد التعرض له ، وشيوع المنكر فى المجتمع يقاوم أو يضعف هذا الاحساس الذى خلقه الله ليكون حجة على الانسان عند حسابه على عمله ، والله لا يرضى أن تنقض أو تقاوم حجته التى يحاسب عليها عباده ، واذن فغضب الله المدمر الذى يهلك أماكن الظلم لا نتوقعه عند مجرد حدوث الظلم ، وانما عند شيوعه حتى يعم المجتمع دون وجود نهى عنه أو احساس بأنه شر ، ولذلك أهلك الله الشعوب السابقة حينما وصلت الى هذه الدرجة ولم يكن هناك أمل فى صلاحها ، ولعن الذين شاع فيهم المنكر ولم يتناهوا عنه مع وجود بعض الصالحين ومما يتعلق بحديث الظلم فان من سنن الله أن دعوة المظلوم حين يدعو الله لابد أن تستجاب بأية صورة من صور الاجابة ، وذلك أن المظلوم حين يعجز عن مقاومة الظلم ويستنفد وسائله فى دفعه ان كانت له وسائل فيلجأ الى الله داعيا اياه أن يغيثه فان دعوته تزلزل الفضاء وهى صاعدة الى الله فتكون اجابة الله له من اجابة المضطر اذا دعاه وهى مما جعله الله سـنة من سـنته ، وهى أيضا من المحافظة على عمارة الأرض التى أرادها الله حتى لا يترك الضعفاء لقمة سائغة للأقوياء ، ولكن سنن الله وأوجه حكمته قد يدركها البشر فى حدودها العامة ، أما تفاصيلها وأسلوب تطبيقها فكل ذلك يعلو عن علم البشر وعقولهم ٠

قال الشاب : فلنعد الى حديث (الاثنان معا يا سيدى) فقد تحدثت عن أحد الاثنين وهو أن ما يصيب الناس من خير أو شر قد يكون ثوابا أو عقابا على بعض أعمالهم ، وان كان حديثك هذا بصراحة يحتاج الى توضيح أكثر فان بعضه لم يتضح فى نفسى كل الوضوح ، ولكنك أغلقت الباب بقولك ان بعض أفعال الله تعلو فوق العقول ، فماذا عن الأمر الثانى ؟ وعن اجتماع الأمرين معا ؟

قال الشيخ : حديثك عن عدم وضوح ما أقول يذكرنى ــ بصراحة كما تقول أنت ــ بتعبير طريف لأبى تمام الطائى الشاعر العباسى حين حاول الدخول مع الشعراء بقصيدة مدح وكانت من أروع قصائده، ولكنه لم يكن قد ذاع صيته بعد ، فحاول الحاجب منعه قائلا حين لم يستوعب عمق القصيدة (لم لا تقـول ما يفهـم ؟) فاذا أبو تمام يرد عليه قائلا (ولم لا تفهم ما يقال ؟) ٠

قال الشاب : تعني واحدة بواحدة ؟

قال الشيخ : لست أعنى ذلك بالضبط ، وانما أعنى شيئا من مزاح عسى أن يبعث فينا شيئا من حيوية حتى لا يجتمع علينا ثقل السفر وثقل الحديث ، ولكن الشيء الذى لا مزاح فيه هو أن كل ما يتعلق بالله سبحانه لا نملك أن نخوض فيه الا فى حدود ما أخبرنا به القرآن أو الحديث النبوى الصحيح أو ما يدور فى فلكهما ٠

وأما عن الأمر الثانى وهو أن يكون الثواب أو العقاب نفسه ابتلاء ٠ فلأضرب لك مثلا قريبا من واقع الحياة حتى لا تقول أن كلامى غير واضح ، فاذا افترضنا أن أبا أراد أن يكافىء ابنه على نجاحه أو تفوقه بأن يعطيه مبلغا من المال ، فان الأب الحكيم حينئذ يراقب سلوك ابنه فى انفاق هذا المال ، هل سينفقه فيما يفيده ، أم ينفقه فيما يفسده ويضره ؟ وحينئذ يكون الأب قد جمع بين الثواب لابنه بأن كافأه على نجاحه أو تفوقه ، وبين اختباره فى حسن مسلكه أو سوئه فى انفاق هذه المكافأة ، فكذلك ما يصيب الله به عباده من ثواب أو عقاب دنيوى ، سيختبرهم به ، فان أحسنوا توجيه ما أثابهم به وشكروه كان رفعا لدرجتهم عنده ، وان أساءوا كان العكس ، وان صبروا على ما عاقبهم به واستيقظت نفوسهم متجهة الى الله كان ذلك اصلاحا لما بينهم وبين الله من صلة ، والا كان زيادة فى بعدهم عن الله ، وفى سخطه عليهم ٠

قال الشاب وقد اكتسى وجهه انفعالا لا يتبين منه هل هو ابتسام أو سخرية : أريد بما اتفقنا عليه من صراحة أن أعقب على عبارتين وردتا على لسانك فى بدء هذا الحديث الأخير ، وقد انتظرت أن أتحين فرصة ، ولكن الحديث طال فاسمح لى أن أسوق هذا التعقيب قبل أن تسترسل فى الحديث أو تنتقل الى حديث آخر ، وهو أنى سمعتك تصف ادعاء الايمان بأنه أهم وأخطر دعوى ، وتصف الشهادة لشخص بأنه مؤمن بأنها أعظم شهادة ، أتدرى لو سمع بعض زملائنا أو بعض أساتذتنا من الملحدين هذا القول لأغرق بعضهم فى الضحك ، ولظن بعضهم بك الظنون ؟

قال الشيخ : أراك متحفظا فى الحديث عن موقف الملحدين ، فأقول لك أما فيما يتعلق بى وبما قد يصيبنى فهذا شرف لا أستحقه ٠ ومنزلة أنا دونها ، لأنها منزلة الأنبياء والدعاة الى الله ، وما من رسول أو داع الى الله الا وقد ناله الكثير من الأذى والتكذيب ، وظنت به الظنون ، وأقربها الاتهام بالسحر والجنون ، كما فى القرآن الكريم (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون) ولن يكون ضحك الملحدين من حديث الايمان غريبا ، بل هو السنة الملتزمة فى كل عصور بنى آدم وفى

القرآن كثير من هذا المعنى بأساليب مختلفة منها (وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون) ٠

واذن فلا داعى لحرجك أو تحفظك ، لأن موقف الملحدين معروف ومتوقع فى كل العصور ، ولئن نالنى منه شىء فلن يؤذينى أو يؤلمنى ، بل يطمئننى الى أنى أسير فى الطريق الصحيحة ٠

وأما تعجبك أو تساؤلك عن كيف أن الايمان أهم وأخطر دعوى ، وأنه أعظم شهادة تمنح ، فلن أرد عليك الآن بأحكام أو نصوص من الدين، لأنها قد تزيد المتعجب تعجبا والمتسائل تساؤلا ، حيث ان التصديق بهذه الأحكام والآيات يحتاج أولا الى الايمان الذى هو موضع التعجب والتساؤل ، وانما أرد عليك بشىء من واقع الحياة ، أفتدرى أن الكافرين بالله ، والملحدين فى الدين لابد أن يكون فى سلوكهم وواقع حياتهم ما يدل على أنهم يحملون نزعة الايمان كما سبق ، وأن كفرهم أو الحادهم ليس الا مظهرا خارجيا سلوكيا تدفعهم اليه المصالح الشخصية والأوضاع الاجتماعية ، أما أعماق نفوسهم فلا تخلو من الحس الدينى الذى غرسه الله فى كل نفس ، وأضرب لك مثلين أحدهما من أعماق التاريخ ، وهو عن الفراعنة ، فقد كانوا ولا شك كما تسجل آثارهم وثنيين يعبدون الشمس أى كانوا كافرين بالله ، ومع ذلك فان حضارتهم التى بقيت آثارها حتى اليوم تقوم كلها على الايمان بالبعث والحساب فى الآخرة ، وكل آثارهم اما معابد للعبادة الدينية ، أو مقابر لحفظ الجثث حتى تبقى سليمة ليمكنها فى زعمهم أن تبعث مرة أخرى ، بينما لم يبق شىء من آثار حضارتهم الدنيوية ، فلم يبق قصر أو بيت كانوا يسكنونه ، لأن اهتمامهم كله كان مركزا فى الدين والعبادة والاستعداد للبعث والحساب ، وبصرف النظر عن صحة التدين أو بطلانه ، فان مسلكهم كله كان نابعا من مبدأ التدين ٠

والمثل الثانى من العصر الحاضر ، وهو عن الذين اعتنقوا الشيوعية واتخذوها عقيدة ومنهجا ، والشيوعية تقوم فى أساسها على الغاء فكرة الدين وكل ما يتعلق بالتدين ، على أساس أن الأديان اخترعها أشخاص من البشر هم الأنبياء ليخدروا بها الشعوب ويسهل لهم قيادهم ، ولكننا نجد أن عقيدة الشيوعية كانت وهما وثوبا ظاهريا ، وذلك لسببين : أحدهما أن الشيوعية كانت أشبه بثوب صنعه دعاة الشيوعية ليستروا به أهدافهم الحقيقية حين يلبسوه ويلبسه من ورائهم أتباعهم ، ولكن هذا الثوب كان كأى ثوب لابد أن يبلى وقد بلى فعلا فخلعه أصحابه ليعودوا الى حقيقتهم قبل أن يلبسوه ، فيعودوا الى الأديان السماوية بالتدريج ، والسبب الثانى أن واضعى الشيوعية ومؤسسيها الأصليين تبين أنهم كانوا يحملون العقيدة

الدينية في نفوسهم ، وكان يصدر منهم ما يدل عليها سواء بقصد أو غير قصد ، وقد أوردت وسائل الاعلام أن أحد الذين فازوا بجائزة نوبل العالمية فاز بها عن بحث لا يتجاوز خمسا وعشرين صفحةولكنه أثبت فيه بالوثائق أن كارل ماركس مؤسس الماركسية كان في رسائله الخاصة ما يثبت بوضوح أنه يحمل العقيدة الدينية •

ثم ان الذين يعتنقون المذاهب الالحادية كالشـيوعية والوجـودية والوثنية وغير ذلك يحولون مذاهبهم الى عقائد يعتنقونها ويدينون بهـا ويخضعون لمبادئها وطقوسها في الوقت الذى يظهرون فيه بانكار الأديان والعقائد ، مع أنهم في الواقع ينكرون الأديان السماوية ويحاربونها ، أما الأديان والعقائد الأرضية فهي عندهم غير منكرة ولا تستدعى الاستخفاف والاستهزاء ، وفي هذا قلب للمنطق المعقول ، واستخفاف بالعقول ، فالمذهب الأرضي الذى اخترعه فرد من البشر أو الذى ينتهى الى صنم جماد اعتناقه عندهم مقبول ومعقول ، بينما الدين الذى شرعه خالقهم وخالق كل شيء مرفوض عندهم ومنبوذ ، وحينما نصل الى قضية الاله فهذا موضوع يحتاج الى حديث خاص •

ولكن في سياق حديثنا عن الابتلاء ، فانه من الواضح أنه اذا كانت حياة الانسان كلها بما فيها من خير أو شر انما هي اختبار وامتحان لعقيدته ومسلكه ، واذا كانت العقيدة هي الأساس الذى يحدد الحكم على سلوكه فان هذا كله يوضح أن الايمان أو الكفر هما خلاصة موقف الانسان في هذه الحياة ، وأن الكافر يهدر قيمة حياته كلها ، ويمحو الهدف الذى ينبغى أن يكون نصب عينى كل من يوجد في هذه الدنيا ، وهو أنه خلق ووجد ليمتحن ويبتلى ، أيكون مؤمنا أم كافرا ، ويكون مسلكه متفقا مع ايمانه ان آمن أم لا يتفق ، أما ماعدا ذلك مما يتعرض له الانسان من متاع الدنيا ومظاهرها واغرائها وآمالها فكل ذلك لو نظر اليه أى عاقل بعقله حتى بدون ايمان فسيتضح له انها جميعا أعراض زائلة لابد اما أن تفارقه وهو حى ، أو يفارقها حين يفارق الحياة •

ومع أن هذا ايجاز أقول لك قبل أن تعترض أو تستوضح انه لا يكفى لاقناع المتشككين لأنه استطراد وليس أصلا في الموضوع الا أنه يوضح من وجهة نظر السياق أن الايمان هو الثمرة الحقيقية والوحيدة التى يخرج بها أى انسان من هذه الحياة ، وحينئذ يكون أوضح أن الذى يفوز بصفة الايمان بالله يكون قد فاز بأعظم شهادة يخرج بها من الحياة كلها • وبالتالى تكون دعوى الايمان أخطر دعوى يدعيها المؤمن في حياته ، حيث عليه أن يثبت صدقها أو كذبها •

قال الشاب : بقى سؤال يتعلق بموضوع الابتلاء آمل أن يتسع له صدرك ، وهو مع أنى لا أريد أن أنسى أنك قلت ان النعم والمزايا ابتلاء أيضا ، وأن الابتلاء بها أصعب فى نتيجته وأشــق من الابتلاء بالمصائب والشدائد الا أن السؤال هو عن الشق أو النوع الآخر من الابتلاء وهو الابتلاء بالمصائب والشدائد ، فكيف يستساغ أن يترك الله نوعا من المؤمنين وهم الذين يبلوهم بالشدائد والمصائب يعانون مرارة الحياة وآلامها ويتعذبون بما هم فيه من ضر وألم وشدة ، بينما النوع الآخر المنعم يسعد بما فيه من متع الدنيا حتى وان كان فى موقف ابتلاء ؟ هذا هو السؤال ، وأضيف اليه ملحوظة هى أننى أذكر شيئا سمعته من بعض المتحدثين فى الدين عن أن الله تعهد فى القرآن للمؤمنين بأن يحييهم حياة سعيدة أو طيبة ، فكيف يتفق هذا التعهد مع الشــقاء الذى يحيــاه ذلك النوع من المؤمنين البؤســاء ؟

قال الشيخ : لعلك تعنى قوله تعالى فى القرآن (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ٠٠) ٠

قال الشاب : نعم هو هذا الذى سمعته ٠

قال الشيخ : الأمر أيسر مما تظن ، وليس فى حاجة الى تحفظك أو توقعك أن يضيق بهذا صدرى ، فاللبس يأتى من أننا نقيس السعادة أو الشقاء بالمقاييس المادية فى أغلب الأحيان ، فنتصور أن المريض شــقى والصحيح سعيد ، وأن الفقير شقى والغنى سعيد وهكذا ، بينما حين نستخدم عقولنا أو نظرتنا الى الواقع لا نختلف حول أن هذه المقاييس غير صحيحة ولا واقعية ، فكثيرا ما يكون المريض مستريح النفس بينما الصحيح من أشقى الناس ، وكثيرا ما يكون الفقير مستريح النفس بينما الغنى من أتعس الناس وهكذا ، ومن هنا ندرك أن حكمنا على الذين يبتليهم الله بالمتاعب والشدائد أنهم أشقياء أو تعساء حكم غير صحيح ، وحيث قلنا ان الابتلاء فى حقيقته انما يكون للمؤمنين لبيان مدى صدق دعواهم الايمان من ناحية ، وبيان درجتهم فى الايمان من ناحية أخرى،فان المؤمنين يختلفون عن غيرهم فى وقع البلاء على نفوسهم ٠

وذلك أن الايمان يجعل لديهم احساسا بأن ما أصابهم وما هم فيه من شدائد أو مصائب هو امتحان من الله لهم ، وهذا الاحساس يولد فى نفوسهم طاقة من المقاومة والاحتمال ، حيث يشعرون بأنهم بين خيارين ، اما أن يفشلوا فى الامتحان بالسخط والتذمر ونســيان الله فيخسروا ايمانهم ، واما أن ينجحوا فى الاختبار بالصبر والاحتمال والرضا بقضاء الله فيفوزوا بالايمان ورضا الله ، والمؤمن الصادق يرى حياته كلها ليست الا وسيلة للوصول الى هذه الغاية ، وهى الايمان ورضا الله ، فيهون

لديه احتمال كل شيء ، ويتعجب الناس حين يرونه مع كل ما هو فيه قويا صامدا لا يبدو منه ما يدل على شقاء أو تعاسة ، بينما يرونه هم فى أقصى الشقاء والتعاسة ٠

وهنا تأتى الاجابة عن حديثك عن وعد الله للمؤمنين بأن يحييهم حياة طيبة ، فان الله يجعل الايمان يملأ نفوسهم راحة واطمئنانا الى قدر الله مهما رآه الناس قاسيا أو مؤلما ، ولذلك ترى غير المؤمنين يظهرون سخطهم وتذمرهم على ما هم فيه من ظروف رغم أنهم لا يملكون تغييرها ، وقد يزداد هذا السخط لديهم حتى يتحول الى يأس ، وهذا اليأس قد يدفع بعضهم الى التخلص من الحياة كلها بالانتحار ، بينما تسأل المؤمن وهو فى هذه الحالة التى دفعت غير المؤمن الى الانتحار : كيف حالك ؟ فيجيبك بملء فيه ، وبما يدل على نفس مطمئنة : الحمد لله ، فان الايمان بالله ، وبالأمل فى الله يمنحه هذه القوة فى المقاومة والصـــمود ليفوز فى الامتحان ، ويمنحه الأمل لأنه يؤمن بأن هناك من يملك أن ينقذه مما هو فيه ، وهو الله ، والنبى صلى الله عليه وسلم يصور الفرق بين المؤمن وغيره فى الشدائد بقوله (مثل المؤمن كالخامة من الزرع ، من حيث أتتها الريح كفأتها ، فاذا اعتدلت تكفأ بالبلاء ، ومثل الفاجر كالأرزة الصماء لا تزال حتى يقصمها الله اذا شاء) بمعنى أن المؤمن يشبه النبات اللين العود كالقمح والشعير مثلا ، وما يصيبه من البلاء كالريح ، فان الريح تظل تكفى النبات اللين ، ثم تظل تكرر كفأه كلما اعتدل ، ويظل النبات هكذا ينكفىء ثم يعتدل ولكنه لا يسقط لأن لديه قوة مقاومة للريح ، وهو كونه لينا مرنا ، بينما الكافر يتركه الله أحيانا بدون ابتلاء فيعلو ويرتفع ويقوى كشجر الأرز (بفتح الهمزة) حتى يسقط ، فاذا سقط مرة واحدة فلا يمكن أن يعتدل مرة أخرى ٠

قال الشاب : ولكن قبل أن نترك موضوع الابتلاء هناك ملحوظة لا أدرى هل نسيت أنا أن أسألك عنها ، أم كنت أتوقع أن تثيرها خلال كلامك فلم تفعل ، وهى أنه اذا كان كل ما يصيب الناس كما تقول اختبارا ، فان الاختبار يقتضى أن يعرف المختبر مقدما ماذا ينبغى أن تكون اجابته فى الامتحان ؟ وماذا ينبغى أن يكون موقفه أو رد فعله فى الاختبار ؟ ولكنك لم تشر الى هذا فى حديثك ٠

قال الشيخ : أولا ينبغى أن ألفت نظرك الى ما تكرر فى الحديث من أن الابتلاء لا يكون لـكل الناس ، وانما هو خاص بالمؤمنين ، أو مدعى الايمان ، أما غير المؤمنين فقد يصيبهم ما يصيب المؤمن من خير أو شر ، ولكنه ليس ابتلاء ، وانما يخضع لسنة أخرى من سنن الله التى يقوم عليها نظام هذه الأرض ، فقد يكون هذا من باب ارادة الله عمارة الأرض ، فيعطى

بعض الناس ولو كانوا كافرين ما يعين على عمارتها ، وقد يكون من باب سنة الله في تبادل مظاهر الدنيا ومنافعها بين الناس كما يشير القرآن من مثل (وتلك الأيام نداولها بين الناس) وقد يكون انتقاما من الله ، وقد يكون غير ذلك ، أما ما يصيب المؤمن من خير أو شر فهو ابتلاء من الله ·

ثم فيما يتعلق بملحوظتك عن موقف المؤمن فى حال ما يصيبه من بلاء ، فان الدين وضح توجيهه الى ما ينبغى أن يكون عليه حاله حينئذ ، وهو الصبر فى الشدائد ، والشكر فى النعم ، ولكن الواقع أن هذا شعار عام يختلف من شخص الى شخص ومن موقف الى موقف ، فالموقف ازاء الشدائد ليس واحدا ، لأن الشدائد نفسها مختلفة ، فموت الأعزاء شدة ، والموقف حينئذ لا يحتمل أكثر من الصبر ورياضة النفس على احتمال الحزن وألم الفراق ، ولكن اذا كانت الشدة امتحانا فى طلب تضحية ، كانفاق المال أو الجهاد ، فان الموقف يتطلب من المؤمن اثارة كل عوامل القوة فى نفسه ليقاوم نزوعها الى الحرص على المال أو الحياة ، وهكذا ·

وكذلك شكر النعم يختلف من نعمة الى أخرى ، وبعض النعم جعل الدين من شكرها شكرا محددا ، كنعمة المال فان من شكرها الزكاة والصدقة واغاثة الملهوف المحروم ، وهذا هو الشكر العملى بالاضافة الى الشكر القلبى ، ولكنه ليس الشكر الوحيد بين سائر النعم ، بل هو نموذج ومثال لتوجيه المؤمن الى أن كل نعمة لها نوع من الشكر العملى يناسبها ، فالذى يمتحنه الله بنعمة الجاه والقوة فى المجتمع ، فان الشكر العملى لهذه النعمة حماية الضعفاء ومعاونة المظلومين حتى يحصلوا على حقوقهم ، والاسهام فى اصلاح المجتمع فيما يسميه الدين الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والذى يبتليه الله بالمناصب فان من شكره العملى قضاء حوائج الناس وتيسير وصولهم الى حقوقهم ، والذى يبتليه الله بالأولاد فان من شكره العملى أن يتحول أن مؤدب وحارس ، مؤدب لهم فى أخلاقهم ودينهم ، وحارس لهم من أن ينزلقوا فى أى طريق غير الطريق القويم ، وهكذا ·

(٣)

قال الشاب : ولكن نهاية حديثك السابق تنقلنا الى موضوع آخر ، وهو مفهوم السعادة والشقاء ، فقد جعلت السعادة والشقاء أمرين نسبيين ، يختلفان من وضع الى آخر ، أو يختلفان فى النظرة اليهما ، أو هكذا خيل الى من حديثك ، فهل لى أن أستمع الى مفهوم السعادة عندك ؟

قال الشيخ : ان سؤالك هذا يذكرنى بحديث اذاعى استمعت اليه منذ أمد غير قصير ، وكان موضوعه سؤالا محددا ، هو : ما السعادة ، وقد وجه هذا السؤال الى عدد كبير من الشخصيات البارزة فى مجالات عديدة من السياسة والأدب والعلم والفن والعمل رجالا ونساء ، ليبدى كل مسئول منهم فهمه للسعادة ، وقد اختلفت اجاباتهم اختلافا شديدا حتى انه من الغريب أنه لم يكد اثنان يتفقان على اجابة واحدة أو مفهوم واحد للسعادة ، وكانت اجاباتهم جميعا تكاد تدور حول أمانيهم التى يتمنونها فى الحياة ، والآمال التى يسعون الى تحقيقها ، فمنهم القائل ان السعادة هى النجاح فى العمل أو فى الحياة ، ومنهم القائل ان السعادة هى أن يحقق المرء أمانيه التى يتمناها ، ومنهم القائل ان السعادة هى أن يشعر المرء بأنه موضع اعجاب الآخرين أو تقديرهم ، ومنهم القائل ان السعادة هى أن يشعر المرء بأن الآخرين محتاجون اليه فى ماله أو جاهه أو مزاياه ، ومنهم القائل ان السعادة هى أن يشعر المرء بأنه متفوق ، وهكذا أخذ كل منهم يرى السعادة فى صورة غير التى يراها الآخر .

ولا أدرى لماذا راق لى السؤال منذ البداية ، فأخذت أحصى الاجابات لأصل الى الاجابة المقنعة عن السعادة ، وقد أخذت أراجع هذه الاجابات جميعا فلم أجد بينها اجابة واحدة تتحقق فيها السعادة ، وذلك لأن كلا منهم كان يعبر عن أمانيه وآماله هو ، وليس عن السعادة بمفهومها العام ، وتحقق الآمال والأمانى مهما يبلغ فلن يحقق بالضرورة السعادة ، وواقع الحياة يؤكد هذا ، فقد نرى فقيرا كل أمانيه أن يحصل على مال كثير ، فهل كل من يتحقق له المال مهما كثر تتحقق له السعادة ؟ ألا ترى بعضهم حين يغتنى يئن من متاعب المال ومشاكله ، ويتحسر على أيام الفقر وخلو

البال ؟ بل ألا ترى بعضا منهم يدفعه المال الى جرائم تؤدى به الى مهالك ، أو الى خصومات تؤدى به الى جرائم ، وسواء أحس هو بالسخط على المال والتحسر على أيام الفقر أم لم يحس ، فان العقلاء من حوله يحسون هذا الاحساس ، ولكنه هو على أى حال لن يشعر بالسعادة التى كان يحسب أن المال سيسبغها عليه ، وهكذا الذين يسعون الى المناصب ويحسبون أن السعادة تكمن فى قوائم عروشها ، والذين يسعون الى الجاه والشهرة ويظنون أن السعادة منسوجة فى الهالة التى ستحيط بهم وهم فى قمم الجاه والشهرة ، ولكنهم قد يفاجأون بأن السعادة التى يتخيلون بل الهالة التى يحلمون بها ليست الا سرابا ووهما ، وأن الناظرين الى الجاه والشهرة من بعيد هم الذين يرون هذه الهالة ، أما أصحاب الجاه والشهرة أنفسهم فقد لا يشعرون الا بما يجره عليهم الجاه أو تجره عليهم الشهرة من متاعب وقيود ومشاكل وصراعات ومخاوف من فقدان ما هم فيه ، ولذلك نجد العقلاء ممن أتيح لهم الجاه أو الشهرة ما منهم الا من يبدى استخفافه بما وصل اليه من مجد أو شهرة أو يبدى سخطه عليه ، والتاريخ القديم والحديث حافل بالأمثلة لذلك ، فمن أمثلة السلطة فى التاريخ الاسلامى نجد عمر بن الخطاب حين كان أكبر امبراطور بل الامبراطور الوحيد فى العالم يقول : يا ليت أم عمر لم تلد عمر ، بينما كثير ممن حوله يتمنون ما هو فيه أو ما دونه بكثير ٠

قال الشاب شبه مقاطع : ولكن عمر بن الخطاب لا يصلح مثالا لما نحن فيه ، فانه رجل زاهد فى الدنيا ومظاهرها ، فهو يتحدث من خلال نزعة دينية ، وليس من خلال شعوره بالمجد والسلطان ٠

قال الشيخ : لست أريد أن أحاور كثيرا فيما تقول ، ولكنى أضرب لك مثالا آخر أوضح وهو من التاريخ الاسلامى ، عن معاوية بن أبى سفيان الذى بلغ من المجد والسلطان أوسع مما بلغ عمر ، ولم يصفه أحد بالزهد فى الدنيا ومظاهرها ، ومع ذلك نجده وهو فى قمة مجده وسلطانه يقول للناس على المنبر : لقد مللتكم ومللتمونى ، ثم يتجه الى الله قائلا : اللهم انى أحببت لقاءك فأحبب لقائى ، فلم يصعد المنبر بعدها حتى توفى بعد أمد قصير ، وأضرب لك مثلا فى مجال الشهرة أذكر أنى قرأته منذ عهد غير قصير عن أشهر أديب قصاص فى عصره فى بريطانيا وهو سومرست موم حيث سئل وهو يحتفل بعيد ميلاده الثمانين : ما شعورك الآن وقد بلغت من المجد والشهرة والمال أقصى ما يحلم به شخص ؟ فقال : شعورى الآن هو أننى أفنيت حياتى وجهدى فى سبيل الوصول الى أشياء ، فلما وصلت اليها وجدت أنها لا تستحق كل هذا العناء ، ومن أقرب الأمثلة التى أذكرها والتى أدركتها أنت ، ولعلك قرأت عنها فى الصحف ، تلك الحالة التى سيطرت على توفيق الحكم وهو فى قمة الجاه والشهرة فى

أخريات حياته ، حيث سيطر عليه الشعور بتفاهة الحياة ، وتفاهة كل ما كتب ، وكل ما أنتج ، وان فالواقع الذى نلمسه من الحياة والأحياء يؤكد أن تحقق الآمال والأمانى مهما يبلغ لا يضمن تحقيق السعادة النفسية لصاحبه ، لأن السعادة فى حقيقتها شعور نفسى وليست مظاهر مادية محسوسة ، وقد تجتمع لدى انسان كل مظاهر النعم المحسوسة من مال وجاه وصحة وأولاد وغير ذلك ومع هذا نجده مكتئبا حزينا ساخطا على كل شيء ، وزاهدا فى كل شيء حتى فى الحياة نفسها ، وبعض هؤلاء قد يتحول لديه السخط على الحياة من شعور نفسى الى واقع عملى فيقدم على الانتحار تاركا الحياة بكل ما لديه فيها من نعم يغبطه عليها الكثيرون .

قال الشاب : ولكن أليس غريبا أن يسخط بعض الناس أو يشقون مع وجـود نعم لديهم يحسـدهم أو يغبطهم عليها غيرهم ؟ فماذا تظن فى ذلك ؟

قال الشيخ : أظـن أن السبب فى ذلك أن حـكمة الله حسب مشاهدات المتأملين اقتضت ألا تكون هذه الحياة كاملة ، فلا يوجد انسان تكمل لديه النعم ، ولا يوجد انسان تكمل لديه المتاعب ، بل لابد لكل انسان أن يأخذ نصيبه من الناحيتين على مستوى حياته كلها ، بمعنى أنه قد يثقل ميزان النعم لديه بكثرة النعم فى حقبة فيبدو وكأنه كامل النعم ، ولكن سرعان ما يبدأ الميزان فى الانقلاب الى الجهة الأخرى فاذا ميزان المتاعب فى مرحلة أو حقبة أخرى من حياته يكون هو الأثقل ، حتى ان بعض الحكمـاء يقولون ان أنصـبة الناس من النعم والنقم أو المتاعب متساوية ، فمجموع ما لدى كل شخص من النعم والمتاعب فى حياته كلها يساوى ما لدى كل شخص آخر فى حياته كلها ، غير أن النعم والنقم لا تقاس بالكم أو العدد ، وانما تقاس بالجوهر والقيمة ، فهناك نعمة قد تبدو عادية ، ولكنها تساوى نعما عديدة ، بل لا تعوضها كل النعم ، وبالعكس المتاعب أو المصائب قد تبدو احداها عادية ولكن لا تساويها مصائب عديدة ، فمجموع النعم أو المصائب فى قيمتها وجوهرها يتساوى عند كل الناس ، والناس يلحظون كثيرا من هذه الأمور ولكن لا يقفون عندها الا حينما تقع أحداثها رغم أنهم يصـوغون منها ما يشبه الحـكم والأمثال ، ومن ذلك أنهم يلحظون أن الشخص حينما يشعر بأن النعم قد كملت لديه فان هذا ايذان بأفول هذه النعم وبانقلاب ميزانها الى الجهة الأخرى ، ومما يصوغونه فى ذلك (ما تم شيء الا بدا نقصـه) وفى بعض الأحاديث النبوية شيء من هذا المعنى فيما أذكر ، حيث حدث أنه كانت للنبى صلى الله عليه وسلم ناقة لا تلحق فى سرعتها ، وفى كل سباق تفوز ، فجاء أخيرا شاب أعرابى فسبقها على جمله ، فتعجب بعض المسلمين حيث كانوا يظنون أن ناقة النبى لا تهزم لأنها ناقة النبى فأخبرهم

النبى بأنها سنة الله ألا يتم أمر الا بدا نقصه ، وكذلك يلحظ الناس أنه حينما يشعر الشخص بأن المصائب أو المتاعب قد اكتملت لديه فان هذا ايذان بانقلاب ميزان المتاعب وزوالها ، ويصوغون من ذلك مثل قولهم (اشتدى أزمة تنفرجى) بمعنى يا أزمة ابلغى أقصاك حيث لا يكون لك حينئذ مكان فى الصعود فتنحدرين الى أسفل بالزوال ٠

قال الشاب : فهل معنى ذلك أنه لا توجد سعادة حقيقية طالما أن النعم لابد أن تخالطها المصاعب ان كانت ناقصة ، ولابد أن تعقبها المصاعب ان كملت ؟

قال الشيخ : يمكن أن أجيبك بنعم ، ولكنها ستكون اجابة غير كاملة أو غير دقيقة ، وذلك لأننا لم نتحدث بعد فى حقيقة السعادة وجوهرها ، فهل النعم والمكتسبات المادية والمظاهر المحسوسة هى السعادة ، أم أن السعادة مجرد شعور نفسى ؟

قال الشاب : وهل تظن أن الأمرين ينفصلان ؟ بمعنى أنه هل يشعر انسان بأنه سعيد وهو محروم من النعم ؟

قال الشيخ : قد تعجب اذا قلت لك نعم قد توجد السعادة بدون نعم ، ولكن ينبغى أن يزول هذا العجب اذا تذكرت تكرار القول بأن السعادة مجرد شعور نفسى وليس أشياء مادية أو محسوسة ، فهذا الشعور النفسى اذا وجد تتحقق معه السعادة ولو بدون نعم ظاهرة ، بينما النعم الظاهرة قد توجد ولا تتحقق معها أية سعادة ، أعنى أى شعور بالسعادة ٠

قال الشاب : حتى لا يدخل الحديث فى حلقة مفرغة ، أسألك سؤالا محددا ، وآمل أن يكون جوابك عنه محددا ومباشرا ، وهو : ما هذا الشعور النفسى الثمين الذى يحقق السعادة ولو بدون نعم ؟

قال الشيخ : سأتغاضى عن سخريتك فى تعبيرك بلفظ (الثمين) وأجيبك بأن هذا الشعور النفسى الثمين فعلا هو الرضا ، فتستطيع بايجاز شديد أن تقول ان السعادة هى الرضا ، بل وتقول ليست السعادة أى شىء غير الرضا ، وهذا ما جعل كل اجابات المسئولين فى الحديث الاذاعى الذى أشرت اليه فى بدء هذا الحديث ، غير صحيحة ، لأنها تحدثت عن النعم والمظاهر الحسية ولم تتحدث عن الشعور النفسى عن هذه النعم ، وذلك لأن السعادة ليست الا تعبيرا عن الراحة النفسية أو الاطمئنان النفسى ، وهذا لا يتحقق الا اذا شعر الانسان بأنه راض عما هو فيه ، أو عما لديه من نعم ، أو عن نفسه ، وتزداد اقتناعا بهذا المعنى اذا ألقيت نظرة على الواقع ، فقد تجد شخصا فقيرا كل ما يتمناه هو أن يجد قوت يومه يوما بيوم ، فاذا وجد هذا أحس بالرضا عن نفسه وعن حاله ،

وتسأله عن حاله فيجيبك بكل ثقة وصدق بما يدل على أنه سعيد وراض ، بينما قد تجد شخصا يملك الألوف أو الملايين ، وليست لديه متاعب فى حياته ، ولكنه غير راض عما لديه من مال ، لأن المنافسين له قد زاد مالهم عن ماله ، أو لأنه لم يحقق درجة معينة من الغنى يحلم بالوصول اليها أو غير ذلك ، وتسأله عن حاله فيجيبك بما يدل فى صدق بأنه غير راض عن حاله أو عن نفسه ، فذلك الفقير سعيد لأنه راض عن القدر اليسير الذى لديه ، وهذا الغنى غير سعيد لأنه غير راض عن القدر الكبير الذى لديه ، وهكذا فى كل الأحوال والظروف ، قد تجد مريضا وهو فى حال رضـا واطمئنان نفسى بينما تجد صحيحا وهو ساخط متبرم ، وتجد شخصا خامل الشأن راضيا سعيدا بحاله اليسير ، بينما تجد شخصا فى قمة المجد وعلو الشأن وهو متبرم ساخط أو غير راض ، فلا ثمرة لأى نعم ما لم يوجد الرضا النفسى .

قال الشاب : يبدو من حديثك أن هناك مراجع لهذا الحديث ، فهل تدلنى على كتاب منها لأرجع اليه ؟

قال الشيخ : نعم لهذا الحديث مرجع ، ولكنه ليس بحوثا أو كتبا مما تظن ، وانما هو القرآن ، فمن الدقة البالغة فى تعبير القرآن أنه يركز دائما فيما يتعلق بالسعادة والشقاء على المشاعر النفسية ، وليس على المظاهر الحسية .

ففى مجال السعادة نجده سواء فى الحديث عن نعم الدنيا أو نعيم الآخرة يجعل الغاية هى الرضا وليس النعم أو النعيم لذاتهما ومن الأمثلة التى يحفل بها القرآن فى هذا حديث الله سبحانه الى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم مواسيا اياه ومقويا من أمله وعزمه حينما اشتد عليه عداء المشركين وايذاؤهم ، فكان مما وعده به فى القرآن حينئذ (ولسوف يعطيك ربك فترضى) وكل من درس ولو مبادىء فى قواعد اللغة ، أو حتى لديه أدنى ذوق فى اللغة يعرف أن العطاء فى لفظ (يعطيك) يحتاج الى مفعول به آخر أى يحتاج الى بيان نوع العطاء ، فكان المتوقع أن يقال يعطيك ماذا ؟ هل يعطيك نصرا على أعدائك ؟ هل يعطيك نجاحا وانتشارا لدينك ؟ هل يعطيك كثرة فى أتباعك ؟ هل يعطيك ما لا يخرجك أنت وأصحابك مما أنتم فيه من فاقة ؟ هل يعطيك كذا ؟ هل يعطيك كذا ، هل يعطيك كل ما تتمناه ؟ ولكن القرآن لم يبين نوع أو أنواع العطاء ، لأنه ليس المهم نوع العطاء ، وانما المهم أثر العطاء فى النفس ، فقد يعطى الانسان نعما كثيرة ، ولكنه مع ذلك لا تتحقق له السعادة النفسية ، لأن نفسه تظل غير راضية عما هى فيه ، ولذلك أهمل القرآن نوع العطاء ، وركز فى النتيجة ، وهى أن يكون الرسول راضيا عما أعطاه ربه ، ولذلك كان التعبير (ولسوف يعطيك ربك فترضى) .

ومن الأمثلة أنه فى سياق تحريم الله على رسوله أن يتزوج من النساء أكثر مما كان لديه من أزواج حينما نزل هذا التحريم ، يقول سبحانه (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن) وتركيز المشاعر النفسية يكمن فى لفظ (أعجبك) فقد كان يمكن لأسلوب آخر أن يقول مهما كان حسن اللاتى تريد الزواج بهن ، أو مهما بلغن من الجمال ، ولكن الحسن والجمال لذاته ليس هو محل الرغبة والاغراء ، وانما الرغبة تأتى من الميل النفسى ، بدليل أنه قد تكون هناك امرأة يراها كثير من الناس قمة الجمال والاغراء فى حين أن بعضا آخر لا يرى فيها هذه الدرجة من الجمال ، ولا يرى فى نفسه الميل اليها ، وعلى العكس من ذلك قد تكون هناك امرأة يراها الناس خالية من أى جمال أو جاذبية بينما يرى أحد الناس فيها جمالا معينا ، ويجد فى نفسه ميلا جارفا اليها • ولذلك لم يركز القرآن على الحسن لذاته ، وانما ركز على الاعجاب النفسى بهذا الحسن ، فلم يكن التعبير مهما بلغ حسنهن ، وانما كان (ولو أعجبك حسنهن) •

وحتى فى مجال التشريع نجد أيضا الاهتمام بالمجال النفسى ، فمثلا فى تشريع الشهادة فى القرآن (واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهدا •••) فلم يكن التعبير فرجل وامرأتان من الصـــالحين أو المتدينين أو نحو ذلك ، لأن الصلاح أو العبادة أو غيرهما قد يكون أمرا ظاهريا يخفى عكسه كما فى حال المنافقين ، وانما كان التعبير مرتكزا على المشاعر النفسية للقاضى بحيث يكون مطمئنا نفسيا الى أمانة هذا الشاهد أو الشاهدة فى أداء الشهادة ، فكان التعبير (ممن ترضون من الشهداء) •

وكذلك فى الحديث عن نعيم الآخرة نجد الارتكاز أيضا على المشاعر النفسية ، وليس على النعيم لذاته ، ومن الأمثلة التى يحفل بها القرآن فى هذا (فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية) فلم توصف العيشة بالرغد أو الرفاهية أو نحو ذلك ، لأن كل هذا لا يحقق السعادة والمتعة للمنعمين ما لم يشعروا بالرضا عما هم فيه ، ولذلك كان التعبير (فى عيشة راضية) •

وكذلك فى مجال الشقاء والألم ، نجد القرآن يهتم بالأثر النفسى ، لأنه هو الهدف من العذاب أو الانتقام ، ولذلك لم يكن الأهم نوع العذاب وانما الأهم هو الأثر النفسى للعذاب ، وعلى سبيل المثال فاننا فى واقع الحياة نجد أن الشخص ذا المكانة والجاه تؤلمه الاهانة حين توجه اليه مهما صغرت ، بينما الشخص العادى أو الخامل الشأن قد لا يأبه أو لا يتألم من مثل هذه الاهانات التى يقيم ذو المكانة الدنيا من أجلها ، ولذلك نجد القرآن يتحدث فى عذاب الآخرة عن نوعين من العذاب ، أحدهما العذاب

المؤلم جسديا ، وهذا فى الغالب يكون في سياق العذاب المعد لعامة الناس من أعـداء اللـه ، ويوصف بأنه (عذاب أليم) بينما نجد عذابا آخر لا يوصف بأنه (أليم) وانما يوصف بأنه (عذاب مهين) حيث يكون القصد منه ليس الايلام الجسدى ، وانما الايلام النفسى بالاهانة ، ومن الأمثلة الكثيرة لهذا فى القرآن قوله تعالى فى سياق الحديث عن زعيم من أكبر زعماء الشرك وعما أعد له يوم القيامة (••• ان كان ذا مال وبنين ، اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، سنسمه على الخرطوم) فلفظ سنسمه من الوسم والسمة وهى العلامة ، يعنى الكى ، والخرطوم الأنف ، فالكى على الأنف لا يقصد منه الايلام الجسدى ، لأن الكى عندهم كان شائعا للعلاج من بعض الأمراض ، ولكن المراد بالكى على الأنف الاذلال والاهانة ، وهما عقاب وعذاب نفسى وليسا عذابا بدنيا ، وكذلك فى سياق الحديث عن العقاب المعد لسيد من كبار سادة قريش ، وهم أعضاء دار الندوة المشهورة التى تدير شئون قريش كلها وتضع لها التشريعات التى تقتضيها حياتها ، حيث يقول تعالى (•• كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ، فليدع ناديه ، سندع الزبانية) فالسفع هو الضرب الشديد ، والناصية أعلى الرأس ، فجريمة هذا الكافر وهى الشرك ومعاداة الله لا يكافئها مجرد الضرب على الرأس مهما يبلغ ، وفى القرآن ألوان لا تكاد تحصى من صور العذاب الجسدى فى جهنم ، وكان يمكن أن يتوعد هنا بأحدها ، ولكن المراد هنا ليس العذاب المؤلم بدنيا ، وانما المراد الاهانة النفسية والاذلال بالضرب على الرأس ، وهى صورة كانوا يرونها فى عقاب العبيد ، ومن تتمة الصورة أن القرآن فى تعبيره وتصويره وضربه الأمثال يقرب الدين الى الناس حتى يجعله صورة من واقع حياتهم حتى لا تكون لهم حجة عند حسابهم ، ومن ذلك هذه الصورة الساخرة (فليدع ناديه ، سندع الزبانية) بمعنى أن هذا الزعيم اذا استعان علينا بأعضاء ناديه ، فسندعو نحن زبانيتنا ، وهم أشد وأقوى من أعضاء ناديه ، وكأنه أصبح صراعا أو معركة بين الطرفين ، أو يمكن أن يصبح كذلك ، ومن الواضح أن كل هذا ليس الا من تقريب الدين الى الأذهان ، وجعله صورة من واقع الحياة ، وواقع حياتهم هو الصراع فى كل المجالات ، وبين كل القوى ، فكأن القرآن يقول لهم ان قـوة الله لا تغالب ولا تقاوم •

ومن هذا القبيل ، قبيل القصد الى الايلام النفسى وليس البدنى قوله تعالى (يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام) فالأخذ بالنواصى والأقدام لذاته ليس عقابا بدنيا ، ولا ايلاما جسديا ، وانما القصد منه الاهانة والاذلال النفسى ، وخصوصا للسادة والبارزين المعروفين بمزاياهم الاجتماعية وسيماهم المميزة عن غيرهم ، بل يبلغ القرآن من دقته واعجازه أنه حتى فى الحديث عن العذاب البدنى فى جهنم يهتم بابراز

الموضوع الذى يتركز فيه الشعور بالألم ، كقوله تعالى (ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ٠٠) فلم يعرف الا فى العصور المتأخرة أن الجلد هو مركز الاحساس بالألم ، ويبدو هذا حينما تغرس ابرة مثلا فى الجسم ، فان الألم انما يكون عندما تخترق الابرة الجلد ، ثم لا يشعر الانسان بالألم بعد أن تجتاز الابرة الجلد وتتوغل فى الجسد ، وحينما يلقى أعداء الله فى النار فانها ستأكل أول ما تأكل جلودهم فيتألمون حينئذ ، ولكنهم لا يتألمون بعد ذلك لأن مركز الألم وهو الجلد قد انعدم ، وبالتالى ينعدم الألم ، والله يريد لهم استمرار الألم ، ولذلك كلما نضجت جلودهم أى تآكلت من النار جددها الله والقرآن يوضح الهدف ، وهو (ليذوقوا العذاب) أى ليستمر شعورهم بالعذاب ٠

واذن فالنار ، وكل ما فى جهنم من وسائل التعذيب لا تحقق الألم لذاتها ، وانما يحققه الشعور النفسى عن طريق الجلد ، هذا الشعور المعبر عنه بالذوق فى (ليذوقوا) ٠

وأظن أن الحديث فى هذا المعنى قد طال بعض الشىء ، ولكنى قصدت أن أوضح لك أن السعادة والشقاء كليهما ليس فى المحسوسات والماديات المنظورة ، وانما فى الأثر النفسى ، وأنه فى حال السعادة لا قيمة لأى نعم ما لم يشعر الانسان أنه هو راض عنها ، وفى حال الشقاء لا قيمة لأى مصاعب أو متاعب أو شدائد ما لم يشعر الانسان أنه يتألم منها فى داخل نفسه ، ولذلك نعجب أحيانا حينما نرى بعض الفقراء فى حال نتألم لها نحن ، لأننا نتصور أنهم يتألمون ، بينما هم لا يتألمون ، لأنهم نشأوا فى هذه الحال وتعودوا عليها ولم تتعلق آمالهم بأكثر من ضروريات الحياة ، فحينما تتوافر لديهم هذه الضروريات التى نراها نحن شبه حرمان وبؤسا يكونون راضين مستريحى النفوس ٠

قال الشاب وقد اعتدل فى جلسته متحفزا : أكرر تذكيرك بما اتفقنا عليه من التعبير عما فى نفسى بصراحة ، فأقول لك : لا أدرى هل تعمدت بحديثك هذا على طوله أن تبعد عن الموضوع ، أم تصورت أن التفافك حول الموضوع ينسى السامع أو السائل صلب الموضوع ؟ فان أساس الموضوع هو الدين ، وقد كان سؤالى اياك عن السعادة لتحدثنى عنها فى مفهوم الدين ، فأفضت فى الحديث عن السعادة من الناحية النظرية ، وعن آثارها من الناحية النفسية ، وقد كنت أنتظر أن تحدثنى عما هو أهم وهو مصدر السعادة ، وقد فهمت من حديثك أن السعادة هى أن يرضى المرء عما هو فيه ، ولا أريد أن أناقش فى هذا ، وانما أناقش فى أنه كيف يرضى المرء عما هو فيه ، أو من أين يأتى بهذا الرضا وأغلب ما فى الحياة يبعث على السخط والضيق ، بل ان كلامك أنت نفسك يوحى بأبعد من

هذا التشاؤم ، فاذكر أنك قلت ما معناه ان النعم لا تكمل لأنها موزعة بين الناس ، وحين تكمل فان هذا ايذان بزوالها أو انحدارهـا نحو النقصان ، والنقصان أو الزوال لا يحقق فى النفس الرضا فلا تتحقق السعادة ، بل ان فى كلامك ما أراه تناقضا بالقياس الى حياة المؤمنين ، فانت تقول ان المؤمن دائما فى حال ابتلاء واختبار ، فى الوقت الذى اذكر أنك قلت فيه صراحة أو ضمنا ان الايمان لا يوجد معه شعور بالشقاء ، فكيف يتفق أن يكون المرء محروما من النعم ، وفى الوقت نفسه يكون راضيا عن هذا الحرمان ، وكما تضرب أنت أمثالا من واقع الحياة أضرب لك مثلا أيضا من الواقع ، فاذا افترضنا أننى سلمت جدلا بكل ما سمعته منك ، وذهبنـا الى مثال من المؤمنين ، رجل ظل يبتليه الله بالشـدائد والمصائب ، لينال شهادة الايمان كما تقول ، ثم تتوالى عليه المصائب ، كلما ارتفع درجة فى الايمان أصابته مصيبة أو مصائب ، فهل تظن واقعيا أن المرء يشعر بالرضـا والسعادة وهو غارق فى المصائب والشدائد ؟ وحتى فى حال ابتلاء المؤمن بالنعم كما تقول ، فان شعوره بأنه فى موقف امتحان وابتلاء يفسد عليه الشعور بالتمتع بالنعم ، وبالتالى لا يشـعر بالرضا ولا بالسعادة ، فكيف هذا التناقض ؟

قال الشيخ : لا تظن أننى سأغضب مما تضمنه كلامك من سخرية بحال المؤمنين ، وتصـويرك أن الارتفاع فى درجات الايمـان مقرون بالمصائب ، ففى كل العصور والأجيال على الاطلاق كان نصيب الأنبياء وأديانهم من الناس السخرية والاستهزاء بهم وبكل ما تأتى به الأديان ، فليس هذا جديدا بل لا يقاس بشىء مما صدر من السابقين ، ومما يصدر اليوم سواء من الكافرين والملحدين أو من المنافقين الذين يدعون الاسلام بين المسلمين وهم يطعنون فى الدين وينخرون فى أساسه . ولكن سخريتك هذه ذكرتنى بقصة طريفة سمعتها فى قريتى ، حيث يحكون عن رجل فى القرية لم يكن يصلى ولا يعرف من الدين شيئا ، فأخذ بعض الناس يلحون عليه حتى بدأ يصلى ، وكانت له ثلاثة معيز لا يملك غيرها ، ففى الاسبوع الأول من بدء صلاته ماتت احداها ، وفى الاسبوع الثانى ماتت الثانية ، ولم تبق له الا معزى واحدة ، وذات يوم وجدها تذهب وتجىء وتتحرك فى صورة ضايقته ، فقال يخاطبها : لا تملىء نفسى غضبا ، أنت دواؤك ركعتان ، بمعنى أن صلاة ركعتين تكفى لموتها ، فقد ربط هذا الرجل موت المعيز بالصلاة ، وهذا يعنى أنه تشاءم من الصلاة . وهذه القصة وان كانت تروى على أنها طرفة ، الا أن دلالتها أبعد من ذلك ، فهى مثال عملى للابتلاء من الله ، فهذا الشخص كان بعيدا عن الله ، ثم دخل فى زمرة المؤمنين الذين يجمعون بين العقيدة والعمل أو الذين يطبقون ادعاءهم الايمان ، فلو تركه الله بدون اختبار وظل الرجل يصلى ويؤدى العبادات حتى يموت ، فمن حقه أن ينال شهادة الايمان ليدخل بها رضوان الله ،

ويكون فى عداد المؤمنين الصادقين ، ولكن الله يعلم أن ايمانه واه ضعيف ، بل زائف ، فيريد الله أن يكشفه أمام نفسه وأمام الناس ، فيعرضه لاختبار ، وقد عرضه لاختبار كان بالقياس الى الرجل صعبا ، لأنه ابتلاء فى كل ما يملك ، فلم يصمد الرجل للابتلاء ، بل فشل ، وانكشفت دخيلة نفسه ، وهي أنه لا يحمل ايمانا بالله فى معناه الصحيح ·

قال الشاب : انك وصلت بهذا المثال من حيث لا تقصد الى تحديد لسؤالى ، وهو ماذا ينبغى لصاحب المعيز هذا أومن فى مكانه أن يفعل ليحقق لنفسه الرضا بما فيه من بؤس ؟ أو كيف يتحقق له الرضا النفسى مع ما هو فيه من بؤس ؟ أليس هذا شيئا محيرا ؟

قال الشيخ : لا شك أن الذى ينظر الى الأمر من سطحه يجد فيه حيرة ، والذى يغلق عينيه عن التفكير فى الأمر أصلا يريح نفسه فيرى فى المؤمنين الذين يرضون بما هم فيه من بؤس أو حرمان أناسا أغبياء أو سذجا أو ما شاء لهم من هذه الأوصاف ، أما الذى يحاول أن يدخل فى نفسية المؤمن ، أو أن ينظر الى الأمر من زاوية الايمان ، فانه يرى الأمر مختلفا ، لأن المؤمن ما دام مؤمنا بالله فهو لا يشك فى أن كل شىء صغر أو كبر لابد أن يكون بارادة الله ومشيئته ، واذن فالذى أصابه من خير أو شر انما هو بارادة الله ، وما دام مؤمنا بالله فهو يتوقع ويشعر بأن الله راض عنه ، وما دام الله راضيا عنه فلن يكون ما أصابه به عقابا أو انتقاما ، ومهما يبلغ ألم المؤمن مما أصابه فلا يمكن أن يظن بالله سوءا أو أن يفقد ثقته بالله ، أو أن يهتز حسن الصلة بينه وبين الله ، بل يشعر بداهة أنه لابد أن تكون لله حكمة فيما أصابه به ، وقد تذهب نفسه فى هذه الحكمة مذاهب ، ولكنها لابد أن تدور فى نفسه فى فلك أنه ما دامت الصلة بينه وبين الله حسنة فلابد أن تكون نتيجة هذه الحكمة خيرا ، وكل مذاهب الظن فى نفسه سيجد لها أسسا واضحة فى الدين ، فقد يرى المؤمن أن ما أصيب به من مصيبة أو ضرر هو خير له ، وسيجد فى القرآن ما يؤيد ظنه من مثل قوله تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) ، والمؤمن بطبيعة الحال لا يساوره شك قط فى كلام الله وكلام رسوله ، فضلا عن أنه سيجد هذا الظن لا يتعارض مع الواقع ، بل كثيرا ما تؤيده الأحداث مثل أن يتجه شخص لركوب طائرة أو حافلة فيفاجأ بأنها انطلقت قبل أن يصل اليها فيغضب ويأسى على ما فاته من مصالح ستضيع نتيجة لتأخره ، ولكنه ما ان يلبث حتى يحمد الله على أنه لم يدركها لأنها تعرضت لحادث ، ولو كان أحد ركابها لكان من الضحايا ، وهكذا فى أحداث كثيرة قد يكون بعضها عاجل النتيجة كالمثال السابق ، وقد يكون بعضها آجلا مثل أحداث كثيرة يعرفها الناس فى كل مكان ويتناقلونها ، ولذلك صاغ العرب من كثرة هذه الأحداث

مثلا يتداولونه ، هو (رب ضارة نافعة) وحينئذ سيجد المؤمن نفسه شاكرا لله على هذه المصيبة ، وقد يرى المؤمن أن ما أصيب به هو امتحان له كما سبق من الحديث ، وحينئذ سيبذل جهده ليفوز فى هذا الامتحان ، كما يبذل الطالب القويم كل جهده لينجح فى الامتحان ، فيصبر ان كان الموقف يحتاج صبرا ، ويعمل ويجتهد ان كان الموقف يستدعى اجتهادا ، ويضحى ان كان الموقف يحتاج تضحية وهكذا ، وحين يشعر المؤمن بأنه كان موفقا فى معالجة الموقف بما يلائم الايمان ، فانه يشعر بأنه نجح فى هذا الامتحان ، وحينئذ يجد نفسه شاكرا لله على توفيقه ونجاحه ، وهنا نكون قد وصلنا الى الاجابة عن تساؤلك أو حيرتك ، فان صاحب المعيز الذى تحدثنا عنه آنفا • أو من هو أسوأ منه حالا مهما يبلغ به السوء ، لو كان مؤمنا فلن تكون هناك علاقة بين نفسيته وظاهر حاله ، فقد يكون ظاهر حاله بالغ الضر والسوء ، ولكن نفسيته ستكون بالغة الاطمئنان والسكينة والرضا ، وهذا هو مبعث الحيرة لدى الذين ينظرون الى الأمور من سطحها ، ويغلقون عيونهم عن النظر الى جوهرها وأعماقها •

قال الشاب فى شىء من غضب : أشعر كأنك تسىء الى من تصفهم بأنهم ينظرون الى الأمور من سطحها ، مع أنك تفعل مثل ما يفعلون أو أسوأ ، فهم يبدون أراء يقتنعون بها ، وأنت أيضا تبدى آراء تقتنع بها ، وتزيد عنهم أنك لا تكتفى باقتناعك ، وانما تريد أن تفرضه على غيرك رغم أن بعضه فى رأيى غير صحيح ، أو على الأقل لا نستطيع تعميمه على الواقع ، ومثال ذلك تركيزك على أن الرضا هو السعادة أو أن السعادة هى الرضـــا ، بمعنى أن كل راض عن نفسه سعيد ، مع أن المجانين ومحدودى التفكير هم أشد الناس رضا عن أنفسهم وعن حالهم ، وأذكر أنك قلت فيما سبق ما يتضمن أن كبار العقول دائما يسخطون على الحياة وعلى أنفسهم ، ومفهوم هذا أن السذج هم الراضون عن أنفسهم ، فهل معنى ذلك أن السعادة مقصورة على السذج والبلهاء ؟ وأيضا اذا كان المؤمنون هم الراضون دائما بما يصيبهم • فهل معنى ذلك أن المؤمنين هم السذج والبلهاء لأنهم هم الراضون عن أنفسهم ؟

قال الشيخ ضــاحكا : أراك بدأت تهاجم بقولك اننى أريد فرض رأيى ، ومع ذلك فلن أغضب أو أرد لسببين ، أحدهما أنك تتصور أنك بهذا تدافع عن نفسك متصورا أن فى بعض كلامى مساسا بك أو بمن تنتمى الى تفكيرهم ، والسبب الثانى أن هذا القول ليس جديدا ، وليس صادرا منك وحدك ، ولا هو يوجه ضدى وحدى ، بل هو سلاح من أسلحة الملحدين والمنافقين ضد دعاة الدين ، فمن أسلحتهم أن دعوة الدين ارهاب فكرى ، وأن دعاة الدين يريدون أن يقبضوا على نواصى العقول ليغلقوها أو يوجهوها كما يريدون ، مع أنهم بحكم ثقافتهم قد يكونون

أعلم من غيرهم بأن دعاة الدين ليست لهم مصلحة شخصية ، يريدون أن يجنوها من وراء جهدهم فى دعوتهم ، وليس لهم هدف خاص يريدون أن يدفعوا اليه غيرهم ، وانما شعارهم الواضح والمعلن أنهم يؤدون واجبا ، ويبلغون أمانة يحملونها ، وهى أن يوصلوا الدين الى الناس ، ويبسطوه أمامهم ، ولا شىء أكثر أو أبعد من ذلك ٠

وأما حديثك الساخر عن أن المجانين ومخبولى العقول هم أشد الناس رضا عن أنفسهم ، وبالتالى فهم أسعد الناس ، فان هذا لا يغضبنى ، لأنه حق وواقع وليس سخرية ، ولكنه لا يتعارض مع كلامى ، فقد كان المفروض أن يصل الحديث الى تحديد مفهوم الرضا ، وكان أجدى لو أنك سألت عن هذا بدل النشاز الذى أحدثته باعتراضك هذا ٠ وحينئذ أقول لك ان هناك فرقا جوهريا بين الرضا عن طريق العاطفة ، والرضا عن طريق العقل ، فأما الرضا عن طريق العاطفة فهو تعبير عن الهوى النفسى لشىء دون استخدام العقل بنقد هذا الشىء ، وبالتالى بنقد الميل اليه ، والهوى النفسى أو العاطفة كلاهما ينساق فى أغلب الأحيان وراء الغرائز دون مراعاة النتائج التى تترتب على عدم النقد الموضوعى لهذا الشىء ، ولكن ما يميز الانسان عن سائر الحيوان أنه يحكم عقله فى كل مسلكه قبل عاطفته ، بل يحاول أن يحكم عقله فى عاطفته نفسها ان استطاع ، أو هكذا يفترض فى الانسان أن يكون ، لأن النفس أو العاطفة ليس لديها القدرة على النقد والتمييز بين الضر والنفع ، أما الذى لديه هذه القدرة فهو العقل ، وعلى سبيل المثال فان المريض يمنعه الطبيب أحيانا من بعض الأطعمة والمشروبات ، فإذا كان مريضا بالكبد فعليه أن يتحاشى كذ وكذا ، وان كان مريضا بالقلب فعليه تحاشى كذ وكذا ، وان كان مريضا بالسكر فعليه تحاشى كذا وكذا وهكذا ، ولكن المريض حين يكون جائعا ويرى الطعام الممنوع منه يجد نفسه بحكم الجوع ميالا اليه ، ولو تركها لميلها لأكل منه حتى يشبع ، وقد يكون هذا الطعام أو الشراب الممنوع من أحب الأشياء الى نفسه ، ولكن استخدام عقله هو الذى يفرق له حينئذ بين ما يضره فينبغى أن يتحاشاه ، وما يصلح له فلا مانع من أن يتناوله ٠

والدين من مبادئه بصفة عامة أنه لا يحارب أى شىء من المكونات الأصلية فى الانسان لذاتها ، وانما يجعل عليها قيما هو العقل ، فالغرائز من طبيعة الانسان ، فالدين لا يحاربهـا ، ولا يحاسب الانســان على استخدامها ، ولكن يطالبه باستخدام العقل فى مزاولتها ، وكذلك العاطفة سواء فى الحب أو الكره ، لا يحاسبه الدين على وجودها لأنه لا يملك محوها من تكوينه ، كما لا يملك محو غرائزه ، وانما يطالبه بأن يجعل العقل قيما على توجيهها ، فله أن يحب من يشاء فى داخل نفسه ، وأن يكره من يشاء فى داخل نفسه ، لأن تعبير المشيئة حينئذ فيه تجوز ، فهو

فى الحقيقة لا سلطان له على عاطفة الحب أو الكره فى داخل نفسه ، فلا يحاسب على وجودها ، وانما يحاسب على ما يترتب عليها من سلوك ، فاذا أبغض شخصا ولو بدون سبب ، فالذى يحاسب عليه ليس البغض ، وانما أن يدفعه هذا البغض الى ظلم من يبغض أو انتقاص حقه ، وكذلك اذا أحب ، فالذى يحاسب عليه أن يعطى المحبوب أكثر من حقه ، اذا كان فى هذا العطاء اضرار بأحد أو بشىء ، ومن هذا القبيل فى البغض أن عمر بن الخطاب قتل أخوه زيد فى احدى المواقع ، فجاء اليه قاتله وهو خليفة ، فقال له عمر : أأنت قاتل زيد ؟ قال نعم ، قال : ما على وجه الأرض أحد أبغض الى منك ، قال : فهل ينقص ذلك من حقى شيئا ؟ قال : لا ، قال : فانما يأسى على الحب النساء ، وكذلك فى مقام الحب ، كان من المعروف عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه يحمل لزوجه عائشة حبا عاطفيا لا يحمله لأحد غيرها اطلاقا ، فكان يقول فى سياق العدل بين أزواجه (اللهم هذا قسطى فيما أملك ، فلا تؤاخذنى فيما لا أملك) بمعنى أنى لا أملك العدل فى عاطفة الحب نفسها ، فلا تحاسبنى عليها ، ولكنى أملك ما يترتب عليها من السلوك ، وهأنذا ألتزم فيه العدل ، والتزام العدل فى الأحوال العادية ليس سهلا ، ولكنه فى حالى الكره والحب أمر بالغ المشقة على النفوس ، ولا يقوى عليه الا من أوتى عزما صلبا ، وخلقا فى الاستقامة أشد صلابة ، لأن العاطفة تلون الأشياء أمام الانسان العادى بلونها ، فالذى يحب يرى كل شىء فى محبوبه حتى بعض العيوب حسنا ، والذى يكره يرى كل شىء فى مكروهه حتى بعض الحسنات سيئا ، ومن هذا القبيل قول الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... كما أن عين السخط تبدى المساويا

ومن هنا يبدو الفارق بين الرضا النفسى النابع من العاطفة ، والرضا العقلى النابع من النقد والتقويم السليم ، وهو فارق كبير رهيب فى مجال نظرة الشخص الى نفسه ، وهذا الفارق بين النظرتين تبدو آثاره أخطر وأكبر فى النتيجة ، فان الرضا العاطفى عن النفس هو حب واعجاب بالذات اذا سيطر على صاحبه بدون استخدام العقل وصل الى درجة الغرور والخيلاء ، ثم الى ما هو فوق ذلك من الأمراض النفسية النابعة من سيطرة حب الذات ، أما الرضا القائم على استخدام العقل فانه شعور محكوم بقيود العقل ونقده لواقعه ، فهو لا يرضى الا اذا كان الواقع يستحق الرضا · ثم هو يزن قيمة هذا الواقع ليكون الرضا أيضا موزونا ومقدرا ، لا يتجاوز حجمه بزيادة أو نقصان ، واذا كان الأمر كذلك فحين يحدث تجاوز فى هذا النقد وهذا الميزان بزيادة أو نقص ، فسيكون تجاوزا يسيرا محدودا لا يمثل خللا فى نفسية صاحبه ولا فى النتيجة ، لأن الخلل انما يأتى من اطلاق الرضا عن النفس وراء العاطفة بغير حدود أو

قيود ، أما تحكيم العقل فى هذا الرضا فهو الصمام الذى يحول دون هذا الخلل ، ولذلك فان اطلاق الرضا عن النفس بغير قيود العقل يمكن أن يؤدى بصاحبه الى الجنون ، كما هو معروف فى علم النفس ، بينما تحكيم العقل فى الرضا عن النفس يمكن أن يؤدى بصاحبه الى العبقرية ، لأن حكم الانسان على غيره أيسر وأدق من حكمه على نفسه ، حيث لا يستطيع تقويم نفسه من كل جوانبها تقويما دقيقا دون تدخل العاطفة رضا أو سخطا فى كل الأحوال الا من أوتى مقومات عديدة عالية من العقل وحسن التقدير وضبط الانفعالات وغير ذلك ، ولهذا كانت خلاصة النصيحة التى استقاها الفلاسفة من معارفهم وخبراتهم والتى يرونها قمة الحكمة (اعرف نفسك) وهذا المعنى نفسه نجده فى الحديث النبوى (رحم الله امرءا عرف قدر نفسه) .

والواقع العملى للرضا عن النفس أنه ينبع عادة من النجاح فى أى مجال ، حيث يشعر الشخص بأنه نجح فى الانتصار على خصم ، أو فى تحقيق أمل أو هدف فى مجال معين ، أو التفوق على منافس فى أى ميدان ، أو نحو ذلك ، وحين يشعر بالنجاح يحس بالرضا عن نفسه ، وهذا الرضا يولد فى نفسه احساسا أو بحثا عن المقومات والمزايا التى حققت له النجاح ، وهنا يكون مفترق الطرق ، بين التقدير السليم للنفس ومزاياها وبين المبالغة والتضخيم لقيمة الذات ومزاياها ، فالذى يستخدم عقله يزن قدراته ومزاياه وزنا صحيحا دون مبالغة أو تضخم أو انقاص ، فيكون من الذين يعرفون أنفسهم معرفة صحيحة أو قريبة من الصحة ، ويكون قد اكتسب قدرا من الحكمة بمقدار قربه من الصواب فى معرفة قدر نفسه . لأن حكمه على قيمة نفسه ليس شعورا نفسيا سلبيا فحسب ، بل سيؤثر هذا الشعور على كل سلوكه وتعامله مع غيره تأثيرا خطيرا يصبغ كل ما يصدر عنه حتى يصل الى الشىء وضده ، وعلى سبيل المثال فان الذى يتكون لديه الشعور بالقوة حتى يستقر هذا الشعور فى نفسه ويصبح حكما عليها ، هذا الشخص يشعر بعد ذلك بالثقة فى نفسه . وهذا الشعور بالثقة فى قوته يجعله أقرب الى الحلم والهدوء فى مواقف الخصومة لأنه يشعر بأنه يملك أن يدافع وأن يأخذ حقه ، أما الذى يشعر بالضعف حتى يحكم على نفسه بهذا فانه يفقد الثقة فى نفسه وبالتالى يخيل اليه أنه سيهزم فى كل خصومه ، وأن حقه سيضيع فيصبح فى كل خصومة منفعلا متوترا . وما لم يكن فى موقف خوف فانه يصبح هائجا غاضبا ، وقد يحسب بعض الناس أن هذا الغضب والهياج نوع من القوة والشجاعة بينما هو بالعكس مظهر للضعف وعدم الثقة بالنفس ، ولذلك كان الهدوء والحلم فى مواقف الصراع أو الاستفزاز هو الدليل على الشجاعة والثقة بالنفس .

قال الشاب : ولكنه دليل غير واضح ولا أشعر بالاقتناع به ٠

قال الشيخ : أضرب لك مثلا يسيرا من واقع الحياة ، لو افترضنا أن طفلا صغيرا تعرض لك باستفزاز مهما يبلغ من شتم أو حتى ضرب ، فأنت بطبيعة الحال لا تنفعل ولا تغضب ، لماذا ؟ لأنك واثق من مقدرتك عليه ، ولا يتولد لديك من استفزازه شعور بالخوف على نفسك أو كرامتك أو منزلتك فلا تشعر بداع الى رد فعل من انفعال أو غضب ، وهكذا كل من توقن بأنه أضعف منك ، بينما تشـــعر بالغضب والانفعال حينما يستفزك شخص قوى ، لأنك تشعر بالحاجة الى الدفاع ، ومعنى الحاجة الى الدفاع هو الشعور بالخوف على شيء تملكه ، وهذا أصبح مهددا فيحتاج الى دفاع عنه ٠

واذن فالشعور بالرضا ليس مجرد شعور نفسى سلبى ، بل لابد أن تكون له آثار ايجابية فى السلوك وفى التعامل مع الغير ٠

قال الشاب : ولكن حديثك عن الرضا وأطواره وآثاره يخيل الى أنه قطع الصلة بين حديث الرضا وعكسه بحيث لم يتبين من الحديث ماذا يكون الوضع فى حال انعدام الرضا عن النفس ؟

قال الشيخ : العكوس عادة تأخذ حكم الأمور ، فالمراحل التى يتدرج فيها الأمر الى أعلى يتدرج فيها عكسه الى أسفل ، فاذا كان الرضا عن النفس اذا لم يصاحبه استخدام العقل فى وزن مقومات النفس ومزاياها يتطور حتى يصل الى الغرور والخيلاء والأمراض النفسية التى قد تنتهى بالجنون فان انعدام الشعور بالرضا اذا لم يصاحبه أيضا استخدام العقل فانه يتطور الى الاكتئاب والأمراض النفسية التى قد تنتهى أيضا بنوع من الجنون ، وذلك أن سخط الشخص على نفسه يبدأ وينمو عادة فى ظروف الفشل فى تحقيق الآمال والأهداف ، كما أن الرضا عن النفس يبدأ وينمو فى ظروف النجاح ، فحينما يسيطر على المرء الشعور بالفشل يبدأ فى السخط على نفسه ، فاذا كان عاقلا استخدم عقله فى تقدير نفسه ، والبحث عن أسباب وملابسات هذا الفشل ، والموازنة بين مزاياه ومساوئه ، فكل شخص مهما تكثر مساوئه لابد أن تكون فيه مزايا وحسنات ، ولكن استمرار الفشل وآثاره أو تكراره بدون استخدام العقل يضخم فى العادة شعور السخط على النفس ، وتضخيم العوامل المســـاعدة على السخط على النفس ، ومن أهمها العامل الاجتماعى ، فمن عادة الناس الالتفاف حول الشخص الناجح والثناء عليه ، وفى أغلب الأحيان يكون هذا الثناء مبالغا فيه مما يساعد على تضخيم الشعور بالرضا عن النفس اذا لم يكن مصحوبا باستخدام العقل ، وكذلك من عادة الناس النفور من الفاشل والنظر اليه بازدراء مضخمين فى أغلب الأحيان هذا الفشل مما يساعد

الفاشل على تضخيم شعوره بالفشل ، وكلما تضخم الشعور بالفشل اذا لم يصحبه استخدام العقل تضاءل الشعور بالمزايا حتى ينعدم ، وتتحول مشاعر هذا الشخص الى سخط كامل ينتهى باليأس من النجاح فى أى مجال أو أى وقت مستقبل ، ويتحول هذا الشعور إلى شعور عدائى نحو النفس • ومن المتوقع حينئذ أن يتمنى هذا الشخص التخلص من نفسه أى من حياته كما يتمنى الخصم التخلص من خصمه ، وقد ينفذ بعضهم هذا الشعور بالانتحار ، وقد يظل البعض فى حالة السخط على النفس وعدائها ، وكلها أمراض نفسية •

قال الشاب مبتسما : ولكن حديثك هذا عن النواحى النفسية أهو حديث علم أم حديث ••• ولم يكمل •

قال الشيخ مستغرقا فى الضحك : بل أكمل وقل أم هو حديث تجربة ، فان هـذا يقتضى احتمال أن أكون قد جربت الأمرين الغرور وما يتطور اليه والسخط والاكتئاب وما يتطوران اليه ، ومع ذلك فليس هذا هو الذى أضحكنى ، وانما أضحكنى أن سؤالك المبتور ذكرنى بأن أصحاب المرض النفسى فى مراحله الأخيرة سواء فى أطوار الغرور أو فى أطوار الاكتئاب لا يشعرون بأنهم مرضى ، وبداية شفاء أحدهم أن يشعر بأنه مريض نفسيا ، وأن سلوكه غير عادى ، فتخيلت من سؤالك أننى قد أكون مررت بالتجربتين أو احداهما أو أننى فيهما الآن ولا أدرى بنفسى ، وأما عن الناحية العلمية فانى بلا شك كما قلت فى بدء رحلتنا لا اتحدث حديثا علميا ، وانما أستنتج استنتاجا وأطوف حـول بعض الثقافات تطوافا •

ولكن الذى أريد أن أصل اليه من هذا التطواف هو أنه اذا كان استخدام العقل صماما وضمانا لعدم الجموح فى الرضا عن النفس سواء الى أعلى أو الى أسفل فان الصمام الأكبر ، والضمان المحكم للاتزان وعدم الجموح هو الايمان • وذلك أن استخدام العقل نفسه هدف من الأهداف الجوهرية للايمان ، ولذلك فان الاســلام يجعل العقل محـورا فى كل ما يدعو اليه ، وباستثناء الأمور المقررة بنصوص محكمة لا تقبل الاجتهاد والتأويل وهى غير كثيرة فى الاسلام ، أقول باستثناء هذه الأمور المقررة فان الاسلام يدعو بصفة دائمة ومتكررة فى القرآن نفسه الى استخدام العقول ، ويمجد أصحاب العقول الذين يستخدمونها فى اتجاهها الصحيح ، وينوع الأساليب والأوصاف كثيرا مثل الدعوة الى التفكر والتدبر والنظر والتبصر والتعقل وغير ذلك ممـا يحفز الى اســتخدام الفكر • وما دام استخدام العقل صماما لعدم الشطط والغلو فى النظرة الى الذات سواء فى الرضا والسخط ، واستخدام العقل من أهداف الايمان فان الايمان اذن صمام وضمان لعدم الشطط فى تقدير الذات ومقوماتها ، ولكن الايمان

لا يتضمن فى هذا المجال استخدام العقل فقط ، وانما يتضمن ما هو أهم بكثير ، بل يتضمن ما يتعلق بالأساس الذى يبنى عليه الرضا أو السخط على النفس ، وهو نسبة المقومات التى تحملها النفس ، ونسبة الأحداث التى تتوارد عليها وتؤثر فيها الى مصدرها الأصلى وهو الله سبحانه ، وعلى هذه النقطة يرتكز الموضوع كله ·

وذلك أن الذى يجمح به الرضا عن النفس الى الغرور وما يتطور اليه انما يكون سبب هذا الجموح أنه يرى فى نفسه مزايا ، ويرى هذه المزايا وليدة تفوق فى شخصيه يمتاز به عن غيره ، ووليدة صفات ومقومات فيه ، فيبدأ فى الاعجاب بنفسه ، ثم يتطور هذا الاعجاب ويتضخم ، ولكن المؤمن ينظر الى الأمر من زاوية مختلفة كل الاختلاف ، حيث ينظر الى مزاياه مهما تبلغ ومهما تتنوع على أنها ليست نابعة منه هو ، وانما هى قادمة اليه من الله ، فالله سبحانه هو الذى أرادها ، وهو الذى صنعها ، وهو الذى منحه اياها ، وفوق هذا فانه لم يمنحه اياها ليعجب بها ، أو ليباهى أو يفاخر بها ، وانما ليمتحنه بها ، وكذلك ما يفد اليه من نعم أو خير فانه لا ينسبه الى نفسه ، وانما ينسبه الى مصدره الأصلى وهو الله · واذن فلا محل للاعجاب بنفسه لأنها لم تصنع شيئا ولا تملك شيئا ، وما دام الاعجاب بالنفس قد انتفى وهو أساس الغرور والشطط فليس هناك أى احتمال للغرور أو ما يتطور اليه ·

وكذلك فى حال السـخط على النفس وما يتطور اليه من عـوامل وأمراض نفسية ، فان أساس هذا السخط أن يتصور صاحبه أن ما يحمله من مساوىء أو ما يصيبه من فشل انما سببه هو ما تحمله نفسه فى تكوينها من ضعف أو تخلف عن غيرها أو أية ناحية من نواحى السوء ، ولكن المؤمن لا ينظر الى الأمر من هذه الزاوية ، وانما ينظر اليه على أن كل ما تحمله نفسه وكل ما يصيبها انما هو قدر أراده الله وأصابه به ليس لاهانته ، ولا ليجعله دون غيره ، وانما ليمتحنه فيما أراده له ، وما أصابه به ، وهو لا يشك حينئذ فى أنه لو رضى بما أراده الله له ، وقاوم آثاره ، ووجهه قدر جهده الى الخير فانه سيكون خيرا من غيره ، أى سيكون فى النتيجة متفوقا على غيره ، وليس ناقصا أو متخلفا عن غيره ، وهى أصعب نقطة يواجهها المصاب بالاحباط والفشل والشعور بالنقص ، ولكن الايمان يحميه حينئذ من أن يتحول هذا الشعور الى مرض نفسى ، بل يحوله الى العكس ، وهو الأمل فى أن يكون هو فى النتيجة من المتفوقين ·

وما من شك فى أنه لا يوجد علاج سواء فى موقف الرضا أو موقف السخط النفسيين خير من هذا العلاج الذى يقدمه الايمان ، بل لا يوجد علاج ينافسه أو يدانيه ، لأن أى علاج غير الايمان انما يحاول أن يزيل

مرضا أو وضعا نفسيا طارئا أو أن يخفف منه ، أما الايمان فانه يمنع أصـلا وجود المرض أو أية مرحلة تؤدى الى المرض ، لأنه يمنع وجود الأسباب التى تؤدى الى المرض أو مقدماته ، بل يحول هذه المقدمات الى مصلحة وفائدة للشخص ، حيث يجعل المؤمن يتمثل فى نفسه بصفة دائمة أن له سندا قويا بالغ القوة هو الله ، وهو مطمئن الى أن صلته بالله طيبة ، واذن فكل ما يأتيه من قبل الله لابد أن يكون خيرا ، أو ينتهى الى خير ، وان بدا فى ظاهره ضررا وسوءا ، بينما غيره من الذين يرى نفسه دونهم ويشعر بالنقص من أجل تخلفه عنهم قد لا تكون صلتهم بالله طيبة ، وبالتالى فليس لهم السند الذى يستند اليه هو ، ومن ثم فسوف ينعكس الوضع فى النتيجة ، فيجعله الله هو المتفوق ، ويجعل الآخرين هم المتخلفين وان بدوا اليوم متفوقين ٠

فهذا الشعور بالسند النفسى من الله ، وبالأمل والرجاء فيه لا يدانيه أى علاج نفسى ، والقرآن يغذى هذا الشعور فى نفوس المؤمنين بمساندة الله لهم ، ويقرب لهم معنى هذه المساندة والمؤازرة فى صورة من عاداتهم المألوفة ، فمن عادات العرب الحسنة أن الضعيف حينما يكون بين قوم أو جماعة أقوى منه ويخشى على حقوقه أو كرامته بينهم فانه يلجأ الى سيد منهم أو من غيرهم ليحتمى به ، فيعلن هذا السيد أن هذا الضعيف أصبح فى جواره ، فيكتسب هذا الضعيف كل حقوق الكرامة التى يتمتع به هذا السيد وأقاربه ، فاذا اعتدى عليه أحد فكأنما اعتدى على السيد الذى حماه ، وكذلك العبد الذى ينـال حريته ، كان يحتمى بعد ذلك بحماية سيده الذى أعتقه ، فيصبح السيد مولى له ، وكذلك عشيرة سيده يصبحون مواليه ، ويقال عنه انه مولى بنى فلان ، أى أنه فى حمايتهم ، فالذى يناله بأى سوء يكون قد نال سيده ومواليه ، وبهذا يصبح هذا الشخص الضعيف فى مأمن من أن يناله بغى أو عدوان من أحد ، فيكون آمنا على نفسه وحقوقه وكرامته ٠

وهذه الصورة الاجتماعية المألوفة يثبتها القرآن فى نفوس المؤمنين وغيرهم بالصورة الواقعية لتكون أثبت وأرسخ وأوضح فى النفوس ، وذلك بأساليب عديدة كقوله تعالى (واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير) كما يوضح القرآن الفارق النفسى بين الذى يشعر بأن له مولى يحتمى به وهو المؤمن ، وبين الضعيف الذى ليس له من يحميه وهو غير المؤمن فى قوله تعالى (ذلك بأن مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم) ٠

قال الشاب : ولكن كثيرا من الناس من غير المؤمنين قد يرون فى مثل هذه المعانى وهما أو خداعا أو استخفافا بالعقول ، فهل يقتنعون بأن مثل هذا يصلح أن يكون علاجا ؟

قال الشيخ : وما قيمة آراء الناس اذا كانت مخالفة لما يعتقده الشخص ويقتنع به ؟ ان ارادة الانسان تنبع من داخل نفسه ، ولا قيمة لآراء غيره أو مشاعرهم اذا لم تؤثر فيه ، والمؤمن لا يظن ظنا أو شكا ، بل يأخذ كل أمور دينه الجوهرية مأخذ اليقين ، فاذا تطرق اليه الشك لم يكن ايمانا ما لم يرجع الى اليقين ، واعتقاد أن كل ما يصيب الانسان من خير أو شر ، وكل ما يحدث في الكون لابد أن يكون بارادة الله وقضائه هذا من أهم أسس الايمان ٠

فالمؤمن حين ينظر الى أن كل ما يتمتع به من نعم ، وكل ما ينفرد به أو يتفوق فيه من مزايا انما هو من عند الله وليس من عنده هو ، وكذلك الصفات المتميزة والتي يتفوق فيها أو ينفرد بها هي أيضا من عند الله ، وفوق ذلك هي امتحان من الله له ، حين ينظر المؤمن الى ذلك فلا يمكن أن يصيبه غرور ولا اعجاب بالنفس ، بل كلما أحس بزيادة نعم الله عليه أحس بثقل المسئولية وصعوبة الامتحان ، كما يشعر الطالب في الامتحان بأن الأسئلة كلما كانت أشد عمقا وأكثر عددا كانت الاجابة عنها أصعب وأشق ، ولذلك كان مما يروى عن أحد أئمة الدين أنه وفد اليه وفد من بعض الأقاليم يلتمسون الاستفادة منه ، فسألهم كيف حالكم هناك ؟ قالوا بلسان المتحدث عنهم : الحمد لله ٠ اذا أعطينا (بضم الهمزة) شكرنا ، واذا منعنا (بضم الميم) صبرنا ٠

قال الامام : ولكن هذا خلق الكلاب ، أما خلق المؤمنين ، فانهم اذا منعوا (بضم الميم) شكروا ، واذا أعطوا (بضم الهمزة) آثروا ، وهو لا يعني بحديث الكلاب الشتم ، وانما يعني أن الكلب من صفته انه اذا وجد صاحبه يأكل يقعي قريبا منه ، فاذا ألقى اليه ببعض الطعام هز ذيله شاكرا ، واذا لم يقدم اليه شيئا ظل صابرا ، أما المؤمن فانه حين يمنع الله عنه النعم والمزايا التي يؤملها الناس فانه يشكر الله على أن أعفاه من الامتحان العسير الصعب ، وهو امتحان النعم ، فاذا أعطاه الله نعمة مادية كالمال آثر بها من هو أحوج اليها ٠

وكذلك حين ينظر المؤمن الى أن كل ما هو فيه من سوء ، وكل ما يصاب به من ضر انما هو من عند الله بقضائه وارادته ، وحتى اذا كان فيه نقص في بعض صفاته أو تكوينه فهو ينظر اليه على أنه ما دامت صلته بالله حسنة فان هذا النقص لا تراد به اهانته ولا نقصه عن غيره لذات النقص ، وانما هو امتحان من الله ، أو على أى احتمال فهو خير له ، فقد يكون من الاحتمالات في نفسه أنه عقاب من الله على بعض ما صدر منه ، فيحمد الله على أن عجل له الانتقام بهذا العقاب الدنيوى اليسير مهما يبلغ بالقياس الى عقاب الآخرة ، وقد يكون من الاحتمالات أن ما أصابه كان حماية له فما هو أسوأ منه ، وقد يكون غير ذلك ، ولكنه في كل

الأحوال لا يسيء الظن بالله ، ولا بما يصدر اليه منه ، كما لا يسيء الابن الظن بما يصدر اليه عن أبيه مهما يبدو غير مقبول ، وواقع الحياة لدى المؤمن المتأمل يؤكد له هذا المعنى ، وهو أن الأمور لا تقاس بظاهرها وانما بنتائجها ، فقد يسعى الانسان برغبته الى تناول الدواء المر ، أو اجراء الجراحة المؤلمة ، بل بعضهم يسعى الى الكى بالنار ، لأنه ينتظر من وراء ذلك خيرا وشفاء ، فكذلك ما يأتى به الله من آلام يحمله المؤمن على أنه من قبيل هذه الآلام التي يتحملها المرء في العلاج منتظرا من ورائها خيرا ٠

واذن فالمؤمن لا يتجه بآلامه أو فشله أو شعوره بالنقص الى نفسه فيسخط عليها ، ثم يتوالى هـذا السخط ويتضخم ليدخل فى مراحل الأمراض النفسية ، وانما يتجه بها الى الله داعيا اياه ومفوضا اليه ما هو فيه ، على أساس أن الله هو مصدر ما هو فيه ، فليس من العدل أن يظلم نفسه أو يعاديها أو يسخط عليها ٠

قال الشاب : ولكن الواقع العملى كثيرا ما يصطدم بالأمور النظرية ولا يتفق معها ، فالذى تقوله أمور نظرية ، أما الواقع فأحيانا يكون غير ذلك ، ومثال هذا شخص يفشل فى امتحان أو أى مجال ، فقد يجد من الاحتمالات ما يعينه على تحمل الشعور بالفشل ، ولكن فشله قد يتكرر فى كل محاولة بعد ذلك فماذا يفعل غير أن يصاب باليأس ، ثم ما يتبع ذلك من الشعور بالنقص ثم أطوار الأمراض النفسية ؟

قال الشيخ : لقد ذكرتنى بالعقبة الكئود التى تفصل فى رأيى بين الصحة النفسية والمرض النفسى ، وهى اليأس ، وذلك أن الأمل يشبه الوقود الذى يحرك السيارة ، فما دام الوقود موجودا فالسيارة تتحرك ، فاذا نفد توقفت ، كذلك الأمل ، طالما كان موجودا فان الانسان يتحرك ويعمل بصورة عادية أو شبه عادية ، وكلما أحس بفشل أو نقص فيه فانه يحاول بهذا الأمل أن يعالجه ، فاذا انعدم الأمل حل مكانه اليأس ، واليأس اذا تأملناه معناه توقف الحركة ، فالطالب مثلا اذا رسب يحاول اعادة الامتحان ثم اعادته طالما كان لديه أمل فى النجاح ، فاذا فقد الأمل كف عن المحاولة أى توقفت حركة المحاولة ، وكذلك الذى يشعر بنقص يحول بينه وبين تحقيق هدف ، فانه يحاول علاج هذا النقص ومقاومته ، ويظل يحاول حتى يفقد الأمل ، فاذا فقدم حل مكانه اليأس ، فيتوقف عن المحاولة ، أى تتوقف حركة المحاولة ، فيبدأ فى الشعور بفقدان الثقة بالنفس حتى يسيطر عليه هذا الشعور ، ثم ما يترتب على ذلك من أمراض نفسية ، فكما أن الأمل هو القوة المحركة للحياة فكذلك اليأس هو التوقف الحقيقى لحركة الحياة ، ومن ثم فليس من المبالغة أن يقال ان اليأس هو الموت غير المنظور ٠

وهنا أيضـا يأتي دور الايمان ، فان المؤمن لا يمكن أن يستسلم لليأس ، ولا يمكن لليأس أن يسيطر عليه ، بل ان اليأس يتنافى أصلا مع الايمان بالله ، وذلك لأن اليأس مضمونه انعـدام الأمل فى تغيير الواقع ، لانعدام الوسائل التى تغير هذا الواقع ، ومن بدهيات الايمان أن المؤمن لابد أن يعتقد أن هناك من يملك تغيير الواقع وهو الله الذى لا يعجزه شيء على الاطلاق ، وما دامت صلته بالله حسنة ، وهو يدعو الله أن يغير هذا الواقع الى ما هو أحسن فلابد أن يكون لديه أمل فى أن يستجيب الله لدعائه بأية صورة من صور الاجابة ، فاذا لم يوجد لديه هذا الأمل فهو بين أمرين كلاهما يتنافى مع الايمان ، فاما أن يظن عدم مقدرة الله على تغيير هذا الواقع ، وهذا كفر لا ريب فيه واما أن يعتقد أن صلته بالله غير حسنة ، وسوء الصلة بالله ليس من الايمان ، أما المؤمن فهو الذى يجمع بين اعتقاده بقدرة الله على كل شيء ومنه تغيير هـذا الواقع ، وبين أمله فى أن يكون حسن صلته بالله سبيلا الى استجابة الله لدعائه ، واذن فالمؤمن لابد أن يكون لديه أمل ، ولا يمكن أن يسيطر عليه اليأس ، لأن اليأس لا يتفق مع الايمان بالله ٠ وهذا المعنى يؤكده القرآن فى قوله تعالى (ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) وكذلك يوضـــح القرآن أن اليأس انما هو من صفات الكافرين كقوله تعالى (والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى ٠٠٠) ٠

وحيث ينعدم اليأس من نفس المؤمن تنعدم بالضرورة الأطوار النفسية التى تترتب على اليأس ٠

واذن فليس من الشطط أن يقال ان خير علاج للأمراض النفسية ، أو خير وقاية منها هو الايمان الصحيح بالله ٠

قال الشاب : ولكن حديثك فيما يفهم منه منصب على ما يصيب الانســان من ألم أو ضرر لا دخل له فيه ولم يكن مسئولا عن حدوثه ، كمصائب الموت أو المرض أو العجز أو الفقر الذى لا دخل للانسان فى حدوثه أو نحو ذلك ، فكيف بما يصيب الانسان من آلام نفسية أو أضرار هو الذى أحدثها أو كان سببا فى حدوثها ؟ بمعنى أن بعض الناس من المؤمنين — وهم كثيرون — يسلكون مسالك خاطئة قد تنتهى بهم الى كوارث أو آلام ، فكيف يلجأون الى الله فى محنهم وهم المنسيون فيما أحاط بهم ٠ والأمثلة من ذلك كثيرة ، منها مثلا ادمان المخدرات وما ينتهى اليه من كوارث فى جسده وماله وعلاقاته ، ومنها الاهمال فى العمل وما ينتهى اليه من أضرار مادية ومعنوية ، ومنها ارتكاب الجرائم وما يؤدى اليه ذلك من عواقب منتظرة ، ومنها المسالك الخاطئة التى لا يقدر المرء نتيجتها ، ومن أمثلتها المؤلمة هذه القصة التى نشرتها الصحف منذ حين قريب عن

الأب الذى أوى الى فراشه ليستريح ، فضاق بعبث طفله ، فربط يده بخيط الى قائم السرير ، وحينما ذهب ليفك الخيط بعد ذلك وجد أن الرباط قد منع تدفق الدم فيما بعده من اليد ٠ فاسود هذا الجزء ، وأشار الأطباء بضرورة بتر هذا الجزء والا أثر على بقية جسمه ، فبتر ، وحين أفاق الطفل من المخدر بعد الجراحة ووجد يده مبتورة أخذ فى براءة يتوسل الى أبيه أن يعيد اليه يده ولن يلجأ الى العبث أو الصخب مرة أخرى ٠ وظل الطفل يردد هذا التوسل ، ونفس الأب بطبيعة الحال ملأى بالحسرة والندم ، وتوسل طفله يزيده ألما وحسرة وندما ، وظل هذا الصراع فى نفسه حتى انتهى به الى الانتحار ليتخلص من عذاب نفسى لم يطقه ، والأمثلة لا تحصى للذين يصابون بكوارث وآلام تأتيهم بسبب أخطائهم وذنوبهم وليست من جهة الله ، والمفروض أن هؤلاء مؤمنون رغم أخطائهم وذنوبهم ، فكيف يكون العلاج النفسى لهم من زاوية الايمان التى تتحدث عنها ، أعنى كيف يتوجهون الى الله حينئذ وهم يعلمون أن ما أصابهم انما هو نتيجة أخطائهم وليس ابتلاء من الله ؟

قال الشيخ : هناك تحفظ يسير فى ربطك أخطاء هؤلاء وذنوبهم بايمانهم ، فأنا لا أنفى ربط هؤلاء بالايمان ، بمعنى أنى لا أنفى عنهم الايمان ، وانما أنفى ربط الذنوب والأخطاء بالايمان ، لأنهما لا يجتمعان فى وقت واحد ٠ وأى انسان حينما يقدم على ذنب لو كان الايمان حيا أو مستيقظا فى قلبه حينئذ لما أقدم على هذا الذنب ، لأن الذنب معناه مخالفة الله ، والمرء الذى يستشعر الايمان بالله وجلاله وهيبته لا يمكن أن يغضبه وهو يشعر بهذه المشاعر ، كما لا يعقل أن تستفز أو تتحدى سلطة أو قوة أنت توقن أنك فى قبضتها ، ونجد تصويرا لهذا المعنى فى الحديث الشريف (لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن) بمعنى أن المرتكب لأى مغاضبة لله لو كان يشعر حينئذ بهيبة لله فى نفسه ما أقدم على فعله ، والا كان متحديا لله ٠

واذن فهذا النوع لا يدخل فى مجال الابتلاء بالصورة التى تحدثنا عنها ، وبالتالى فان علاجه يختلف عن علاج الابتلاء ، ولكن النتيجة ستكون واحدة ، وهى الشفاء مما يكون قد ترتب على هذه المواقف من متاعب وأمراض نفسية ان كانت قد وقعت ، والوقاية منها ان كانت لم تقع ٠

والفارق بين الموقفين أو النوعين ، أن المؤمن فى موقف الابتلاء يشعر بأن ما هو فيه من خير أو شر انما هو قضاء وارادة من الله لحكمة يعلمها سبحانه ، سواء أدركها المؤمن أو لم يدركها ، فعليه أن يرضى بهذا القضاء ، وأن يؤدى الواجب عليه ازاءه ، فيصبر صبرا نفسيا وعمليا ان كان القضاء مرا ، ويشكر شكرا نفسيا وعمليا ان كان القضاء حلوا ٠

أما المؤمن الذى تزل قدمه فيقارف جرما أو خطأ يؤدى به الى ضرر أو ايلام نفسى ، فهو بطبيعة الحال المتسبب فيما حل به بدنيا أو نفسيا أو اجتماعيا ، ولو حاسبهم الله فى الدنيا حساب العدل لتركهم يصطلون نتائج ما اكتسبته أيديهم ، ولكن رحمة الله التى وسعت كل شيء لا تتركهم رغم مغاضبتهم لله ، وتحديهم ضمنا اياه بمخالفته عمدا ، فيفتح الله لهم بابا واسعا للعلاج النفسى المؤكد الفائدة ، وهو التوبة ، فانها من أبلغ أساليب العلاج الناجح للنفس البشرية حين تقع تحت وطأة الشعور بالندم ، وهو شعور يختلف تبعا لنوعية مصدر الندم • ومدى حساسية نفس النادم ، ولكنه لا حدود لآلامه ، ولا لقدرته على تدمير النفس البشرية ومقومات قوتها ، فان من الآثار العادية فقدان الثقة بالنفس ، لأن الثقة بالنفس تتضمن رضا المرء عن نفسه واعتقاده أنه فى وضع الصـــواب والمسلك الحسن ، وحين يندم على فعل شيء معين أو عدم فعل شيء معين ، فان هذا معناه الحكم على نفسه بأنه أساء التصرف ، وهذا يقلل من رضاه عن نفسه ، وقد يتطور الى سخط على النفس ثم معاداة لها ثم الحكم عليها بعدم صلاحيتها للحياة كموقف الأب الذى تسبب فى بتر يد طفله •

وهنا تبدو ميزة الايمان بالله ، ومدى أثره فى العلاج النفسى ، وانقاذ المرء من التردى فى الأمراض النفسية ومعاناتها ونتائجها ، فان المؤمن قد يزل وقد يضعف عزمه تحت وطأة غريزة ما ، أو انفعال معين ، فيجنح الى الذنب والخطأ ، ولكنه بدل أن يستمرىء هذا الخطأ بتعوده اياه ان كان هذا الخطأ يتضمن جانبا من الاغراء ، أو بدل أن يستسلم لآلام الندم ونتائج الخطأ ان كان هذا الخطأ مما تظهر أضراره عاجلة أو مؤلمة فانه يلجأ الى الله معتذرا اليه عن مخالفته اياه ، ومتوسلا اليه أن ينقذه مما يعانيه من ألم وصراع نفسى •

قال الشـــاب مبتســـما : ما أيسره من علاج لا يكلف جهدا ولا مالا ولا ترددا على أطباء ، وانما هو ابداء الأسف والاعتذار •

قال الشيخ : لا أجد غرابة فيما تبديه من تهوين أو استخفاف ، فان كل الذين لا يتعمق الايمان فى قلوبهم ينظرون الى الدين ومواقفه نظرات الاستخفاف ، بل الازدراء والاستهزاء ، ولكن الذين يحل الايمان فى قلوبهم يعلمون أن كل الدين ومواقفه لابد أن يؤخـذ بكل الجـد والاهتمام ، وأن الذين يتجهون الى الله بالتوبة الصـــادقة لا يتجهون بالسنتهم ، ولا باستهانتهم ، بل لابد أن يجتمع فى اتجاههم الى الله بالتوبة أمران ، أحدهما سيطرة الشعور بالندم على نفوسهم بمقدار حجم الجرم الذى ارتكبوه ، والآخر الشعور بجلال من خالفوه وهيبته ، وحين يجتمع الأمران فى نفس المؤمن يكون وقعهما عميقا يهز الكيان هزا ،

ولك أن تقيس ذلك على من يخطىء فى حق شخص من الناس ذى سلطان قاهر أو بطش مخوف ، فانظر كيف يكون خوف المخطىء من بطشه ، وكيف يكون خوفه فى أثناء الاعتذار اليه ، وكيف يكون توجسه من رفض اعتذاره أو قبوله ، فكذلك من يريد التوبة الى الله لابد أن يستشعر جلال الله وقدرته المطلقة على البطش والانتقام ، وحين يستشعر التائب هذا الشعور نحو الله فان هذا يعنى قبول توبته ومحو ذنبه أو ذنوبه ٠

قال الشاب : ومن الذى يضمن له ذلك ؟

قال الشيخ : الله سبحانه هو الذى ضمن له ذلك بأوسع وأوثق مما أقول ، فأما مبدأ قبول التوبة فقد تكرر فى القرآن كثيرا جدا ومنه (وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) بل ان الله يعد التائبين الصادقين بما هو فوق ذلك ، وهو أن يبدل سيآتهم حسنات كقوله تعالى (الا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما) وأما كون باب التوبة أوسع وأوثق فذلك أن الله فتح هذا الباب لكل من يريد توبة صادقة ورجوعا خاشعا الى الله ، وتعهد الله له حينئذ أن يمحو عنه كل ما صدر عنه من ذنوب مهما كثرت ومهما عظمت كقوله تعالى (قل يا عبادى الذين أسرفو على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا) واذا تأملت تعبير الآية تجد أنها تبعد المؤمن التائب عن الطريق التى تؤدى به الى الأمراض النفسية الخطيرة ، فهذه الطريق بدايتها اليأس ، لأن الانسان طالما كان لديه أمل فلن تظلم الدنيا أمامه ، وانما تظلم الدنيا ويبدأ هو فى التخبط فى الظلام حينما يشعر باليأس ، وتعبير الآية ينهى المؤمنين عن الشعور باليأس والقنوط ، لأنه ليس أمام قدرة الله شىء صعب أو مستحيل ، فيقول لهم (لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا) ٠

قال الشاب : ما تستشهد به الآن من القرآن يفيد أن الله يغفر كل كل شىء ، ولكنى أذكر أننى سمعت من القرآن ما يفيد أن هناك ما لا يغفره الله كالشرك بالله ، فكيف ذلك ؟

قال الشيخ : نعم فى القرآن مثل قوله تعالى (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ولكن ليس بين التعبيرين تعارض ، غاية الأمر أن أحدهما يشير الى الدنيا والآخر يشير الى الآخرة ، فأما المشير الى الآخرة فهو التعبير الذى يتحدث عن الشرك ، بمعنى أن الذى يموت مخالفا لله فيمكن أن يغفر الله له ان شاء كل شىء الا الشرك ٠ وأما التعبير الذى يشير الى الدنيا فهو الذى يتحدث عن غفران كل الذنوب ٠ وذلك أن الانسان طالما كان حيا فيمكن أن يتوب الى الله بصدق عن أى ذنوب يكون

قد ارتكبها ، وكذلك يتوب عن الشرك فيؤمن بالله فتكون توبته أقرب من غيرها الى القبول لأنه يكون قد ترك مجتمعه وآماله فضلا عن عقيدته الى مجتمع المؤمنين وآمالهم ، أما الذى يموت فانه لا توبة عند الموت أو بعد المـــوت ٠

ومن نحو هذا تتبين أهمية الدين فى الحياة ، فكل الناس يشكون من هموم الحياة وآلامها ومصائبها على تفاوت بينهم ، ولكنه لا يخلو انسان من أن يكون له حمل من الهموم والايمان بالله ، والاعتماد عليه واللجوء اليه هو العلاج الأقوى والأنجح فى كل تلك الأحوال ، فلا شىء أوسع من حمة الله التى وصفها الله بقوله (ورحمتى وسعت كل شىء) ولا أحد أرحم من الله الذى يفيض القرآن فى وصف رحمته التى تصغر كل رحمة بل تكاد تنعدم بجوار رحمته كقوله تعالى (وأنا التواب الرحيم) واذا أردت بالمنطق البشرى أن تشـــعر بذلك فتأمل مثلا حال الكافرين والملحدين ، فان الله يمنحهم من نعمه ويسبغ عليهم من فضله ، لأنه يريد لهم أن يعيشوا فى الدنيا ، ومهما تكن عقيدتهم فهم عباده ، فهو يشملهم برحمته فى الدنيا ، ويؤجل حسابهم الى الآخرة ٠

ولهذا كان الأنبياء أرحم الناس حتى بالعصاة والمذنبين ، وأخبارهم فى هذا مستفيضة ، لأن رحمتهم لم تكن فى موقف أو مواقف وقتية ، وانما كانت خلقا ثابتا دائما ، ومن أمثلته ما هو مشهور عن المسيح عليه السلام حين وجدهم قد تجمعوا وهم يتنافسون لرجم امرأة زانية بالحجارة ، فقال لهم : من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر ، وما هو مشهور عن محمد صلى الله عليه وسلم حين رمى خالد بن الوليد الزانية بحجر فتناثر الدم منها على ثوبه فأخذ يسبها فقال له النبى : مهلا يا خالد ، لقد تابت توبة لو وزعت على أهل المدينة لوسعتهم ٠

قال الشاب : ولكن بعض الناس وخصوصا من غير المسلمين يتحدثون عن قسوة التشريع الاسلامى كما فى تشريع القتل فى القصاص ، وقطع يد السارق ، ورجم الزانى ، وجلد شارب الخمر ٠ فهل هذا يتفق مع الرحمة التى تتحدث عنها ؟

قال الشيخ : هذا حديث لا أريد أن أفيض فيه ، ولكنى أقول لك بايجاز ان الذين يتحدثون عن قسوة التشريع الاسلامى انما يتحدثون بروح العداوة وليس بمنطق الانصاف ، وفرق كبير بين النقد الهادم ، والنقد البناء ٠ ولو كانوا منصفين لتحدثوا أيضا عن الرحمة بالمجنى عليه ، وليس بالجانى وحده ، فأنت مثلا يبدو من حديثك تصديقك أن فى التشريع الاسلامى قسوة ، فتصور لاقدر الله أنك عدت من رحلتك فوجدت بيتك

مسروقا ، فهل تتحدث حينئذ عن قسوة قطع يد السارق ، أم تتمنى لو أن كل أيدى اللصوص قد قطعت ؟ وكذلك فى حالة القتل فأنت تعلم أو تسمع عن أنهار الدم التى تسيل فى حوادث الثأر وما يترتب على ذلك من خلل شديد فى الأمن ، ومن خلل فى النشاط العملى والاقتصادى فى مجتمعات الثأر ، مع أن هذا كله كان بالتأكيد لن يحدث لو أن القاتل الأول قد قتل كما يقضى بذلك التشريع الاسلامى ، ولكن عدم قتل القاتل جعل أهل القتيل يصممون على أخذ ثأرهم بأيديهم ، وكل علماء الاجتماع ، وكل المسئولين عن الأمن وعن القضاء يعلمون أن هذه الأنهار من الدم ، وما يترتب عليها من آثار لن تتوقف أبدا ما لم يقتل القاتل الأول ، ومهما صدرت ضده من أحكام قضائية أو اجراءات أمنية فلن تتوقف عجلة الثأر ٠

وقد تعجب اذا عرفت أن التشريع الاسلامى لا يهدف الى العقوبات لذاتها ، وانما يهدف الى اقرار الأمن والوفاق فى المجتمع ، ولذلك فهو يحاول منع تنفيذ العقوبات على اختلافها ، ولا يلجأ الى تنفيذها الا اذا كان التنفيذ هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق الأمن والوفاق فى المجتمع ، ولذلك فانه فى حالة القتل يجعل تنفيذ القصاص آخر مرحلة يلجأ اليها بعد أن تفشل كل المحاولات لمنع التنفيذ ، فمن هذه المحاولات التشريعية فى الاسلام الزام القاضى أن يعرض على ورثة القتيل العفو مرغبا اياهم فيه ، فاذا رفضوا جميعا عرض عليهم الدية وهو كم ضخم من المال شديد الاغراء فاذا وافق على العفو أو قبول نصيبه فى الدية أى وارث مهما صغر نصيبه سقط القصاص وجوبا وعلى بقية الورثة اما قبول العفو أو الدية أو لا شىء ، فاذا أصروا جميعا على طلب القصاص فمعنى ذلك أنه اذا لم يقتل القاتل فستقوم فى داخل هذا المجتمع (حرب أهلية) بين عصبة القتيل وعصبة القاتل ٠ واذا بدأت فستدور فى حلقة مفرغة كلما قتل شخص قتلوا مكانه شخصا أو أكثر ولن تتوقف هذه الحلقة فى دورانها أبدا ، فهل ترى موقف التشريع الاسلامى اذن قاسيا وهو يبذل كل المحاولات الجادة لمنع تنفيذ العقوبة مع أنها حق ، ولا ينفذها الا اذا كان التنفيذ سيمنع شرورا وأضرارا أسوأ منها بكثير ؟ أم ترى أنه رحيم غاية الرحمة بالمجتمع وأمنه وعلاقات أفراده بعضهم ببعض ؟

قال الشاب : فكيف بالعقوبات الأخرى كالرجم وقطع يد السارق وجلد الشارب ؟

قال الشيخ : هذه العقوبات تسمى فى الاسلام الحدود أى حدود الله التى لا يجوز انتهاك واقعها الذى أدى الى العقوبة ، وحديثها أيضا واسع مستفيض ، ولكنى أوجزه لك بقدر الامكان فى نقاط ، منها أن هذه الحدود جميعا محكومة بحديث نبوى مشهور ، هو (ادرأوا الحدود بالشبهات)

أى امنعوا تنفيذها اذا وجدت أية شبهة لصالح الجاني ، وهذا معناه أن الاسلام لا يريد تنفيذ العقوبات ، لأن الهدف الأول فى الدين هو دفع المؤمن الى أن يجعل الرقابة على سلوكه ليست الخوف من القانون أو من الناس ، وانما يجعل الرقابة تنبع من داخل نفسه ، من خوفه وحيائه من الله ، وفرق كبير بين أثر كل من الرقابتين ، فالرقابة النابعة من النفس ملازمة للانسان فى السر وفى العلن وفى كل حال وكل مكان ، أما الرقابة الآتية من أى مصدر خارج النفس فانها رقابة مقرونة بالعلن المكشوف فقط ، أما فى السر والخفاء فلا وجود ولا تأثير لها ، ولذلك فان الذين ينتهكون القوانين البشرية فى كل مجال لا يحصون ، بينما المؤمنون الذين تحكمهم ضمائرهم الدينية هم الأمناء الذين يوثق فى أمانتهم فى السر وفى العلن .

واذا كان التشريع نفسه لا يحرص على تنفيذ هذه العقوبات ، وانما يجعلها شعارا رهيبا للدلالة على عظم هذه الجرائم عند الله ، وعظم عقابها عنده يوم القيامة ، ومن النقاط التى أشرت اليها أن التشريع الاسلامى نفسه جعل بعض هذه العقوبات يستحيل عمليا تنفيذها الا باعتراف الجانى فيها ، وهى عقوبة الزنا ، فهى لا تثبت فى الاسلام الا بشهادة أربعة شهود عدول أى هم حسنوا السمعة ولا يكفى أن يشهدوا برؤيتهم الزانيين متلاصقين أو فى أى وضع جنسى فى نوم أو غيره ، بل لابد أن يشهد كل واحد منهم أنه رأى العضوين التناسليين من الزانيين متداخلين تداخلا كاملا، ولذلك لم يثبت الزنا بشهادة الشهود فى تاريخ الاسلام قط لاستحالة هذا واقعيا ، فهل التشريع الذى يفعل هذا يوصف بأنه قاس أو عنيف ؟ بل فوق هذا فانه حتى الذين جاءوا يعترفون بالزنا للرسول صلى الله عليه وسلم ليقيم عليهم حد الزنا حاول الرسول أن يمنعهم من الاعتراف ويثنيهم عنه ، ولكنهم أصروا على الاعتراف ، وعلى تنفيذ العقوبة فيهم كما هو مشهور .

وأما السرقة فان الاسلام منع تنفيذ عقوبتها اذا كان السارق فى حاجة الى ما سرقه ، أو كانت هناك شبهة استند اليها فى سرقته ، فاذا لم يكن هناك شىء من ذلك فهو اذن لص محترف ، وهو خطر على أمن مجتمعه ، وكان يمكن أن تكون العقوبة اعدامه لمصلحة المجتمع ، ولكن التشريع الاسلامى يكتفى حينئذ بالتخلص من العضو الذى يزاول السرقة عادة وهو اليد .

وأما عقوبة شرب الخمر فانها لا تنفذ الا حينما يخرج الشارب بسكره الى المجتمع ، فيصبح بسكره خطرا على المجتمع ، حيث يمكن أن يصدر منه وهو سكران ما يضر بغيره ، كما يحدث من الذين يقودون سياراتهم وهم سكارى فيتساقط أمامهم ضحايا نتيجة لسكرهم ، ولذلك لا تنفذ عقوبة

شرب الخمر الا بشهادة شاهدين اثنين ، ومعنى ذلك أن الشارب قد خرج الى المجتمع بسكره ، أما الشارب فى بيته وحده أو فى خفية فلا تقام عليه العقوبة الا اذا جاء باختياره معترفا وطالبا تنفيذ العقوبة فيه ، ومن طريف ما يروى فى هذا المجال أن أحد حكام المسلمين كان يتجول فى الليل ليتفقد أحوال رعيته ، فرأى شخصا داخل بيته يشرب الخمر ، فاستدعاه فى الصباح ليقيم عليه الحد ، وقال له لقد رأيتك تشرب الخمر البارحة فليقم عليك الحد . قال الرجل : لئن كنت أنا عصيت الله فى واحدة ، فلقد عصيت أنت الله فى اثنتين ، فأما احداهما فأن الله يقول ولا تجسسوا ، وقد تجسست على ، وأما الأخرى فان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : من ستر على مسلم ستر الله عليه ، وقد كشفت أنت سترى ، فتركه .

أفتقول بعد ذلك ان التشريع الاسلامى قاس أو عنيف ؟

ثم اعتدل الشاب في جلسته ، وبدا كأنه يتردد في القاء شيء يشغله ثم قال : مادمنا دخلنا في صلب حديث الدين فان هناك أشياء كثيرة ظلت تتجول في نفسي دون أن تنتهي الى استقرار ، وقبل أن أفضي بها أود أن تعلم أنها ليست كلها وليدة خواطري ، وانما معظمها مما كان يدور بيننا نحن الزملاء من أحاديث عابرة ، قد يطول فيها حديثنا أو يقصر ، ولم نكن نبدأ فيها الحديث لذاتها ، وانما تأتي عرضا خلال الحديث أو في أذيال أحاديث أخرى فنعرض لها عرضا عابرا ، ثم نتركها ، ولكنها كانت دائما تترك في نفسي وأعتقد أنها أيضا كانت تترك في نفوس الآخرين نوعا من التساؤل أو الحيرة ، ومن هذه الأشياء فيما يتعلق بالاسلام بوصفه دينا أن بعضنا كان يتساءل أحيانا فيقول :

لقد سبقت الاسلام أديان سماوية كاليهودية والمسيحية ، وكانت موجودة ومعروفة حين جاء الاسلام ، فما فائدة مجيء الاسلام مع وجود أديان سماوية أخرى ؟

قال الشيخ : لا أريد أن أدخل في موازنات موضوعية كثيرة ومعروفة بين الاسلام وغيره من الأديان ، وانما أقول لك بمنطق واقع الحياة ، ان الدين دستور وقانون يسير عليه المؤمنون به كما يسير غير المؤمنين على دساتيرهم وقوانينهم الوضعية ، فهل تظن أن مجتمعا أو شعبا على وجه الأرض احتفظ بدستوره أو قانونه منذ وجد هذا الشعب حتى اليوم دون أن يغيره ؟ وليس هذا السؤال في حاجة الى اجابة فمن البداهة بمكان أن كل الدساتير والقوانين تغير ليس في أوقات متباعدة ، بل أحيانا في أوقات شديدة التقارب ، فكلما جدت ظروف أو أحوال طارئة في مجتمع اضطر هذا المجتمع الى التغيير في تشريعه ، والتطور والتحول من سنن الحياة ، فاذا كان لكل جيل طابع جديد أو شبه جديد في عاداته وسلوكه وثقافته وغير ذلك فاننا سنجد كل مجتمع بعد بضعة أجيال كأنه مجتمع جديد أو مختلف عما كان عليه قبل هذه البضعة من الأجيال ، وحينئذ سيجد أن دستوره وقوانينه القديمة لم تعد ملائمة لواقعه فيضطر اضطرارا الى

تغييرها ، واذا كان هذا حال المجتمعات غير المؤمنة فى اضطرارها الى تغيير تشريعاتها ، فكيف لا تتجدد الأديان بين حين وآخر لتلائم تطور المجتمعات وما يطرأ عليها من تغيير ؟ فمن هنا يكون من المتوقع أن يرسل الله الى الناس كل بضعة أجيال نبيا جديدا يحمل دينا جديدا يتضمن تلبية الحاجة الدينية للأمور والأحوال المستجدة للبشر ٠

قال الشاب : ولكن اجابتك هذه قد تتضمن شبهة أو طعنا يسىء الى الأديان السماوية كلها ، فالمفروض أن الأديان السماوية من مصدر واحد هو الله ، كما أن جوهر الأديان السماوية يتركز فى اصلاح العقيدة الدينية لدى البشر ، وكل ذلك ثابت لا أظن أنه يقبل التغيير ، فتغيير الأديان السماوية اذن وتجديدها يتنافى مع وحدة مصدرها ومع جوهرها ، وهذا يفتح المجال للتشكيك فيها ٠

قال الشيخ مبتسما : أرى أنك بدأت تظهر عليك البراعة فى الحوار ، فان ما تقوله حق لا ريب فيه من حيث المبدأ ، ولكن اختلاف المسار بيننا هو فى التطبيق وليس فى المبدأ ، وذلك أن ما تقوله يتضمن جانبين ، جانب العقيدة ، وجانب الشريعة ، والفرق بينهما بدهى معروف فى الدراسات الدينية ، فان العقيدة تتمثل فى معرفة المؤمن بالله وصلته به ، والمعرفة بالله تنحصر فى وجوب الايمان الذى لا يخالطه شك بوجود اله واحد هو الخالق لكل شىء والمهيمن على كل شىء على الاطلاق ، وليس له شريك قط فى وحدانيته أو فى هيمنته على كل شىء ، وأما الصلة بالله فتنحصر فى شعور المؤمن الدائم بأنه مادام مخلوقا لله ومصيرا بارادته فيجب عليه التزام طاعته وتجنب عصيانه ، وهذا يشـبه الدسـتور فى التشريعات البشرية الوضعية ٠

والجانب الثانى مما أثرته فى حديثك وهو جانب الشريعة فانه يتضمن تفصيل كيفية صلة المؤمن بالله وبالناس ، وهو يشبه القانون الوضعى الذى ينظم سلوك الناس وتعاملهم ٠

قال الشاب : وما علاقة هذا بما كنا نتحدث فيه من مدى الحاجة الى تجديد الأديان أو تكرارها ؟

قال الشيخ : لابد أن نعرف طبيعة الدين حتى نتبين مدى حاجته الى التجديد ومما كنت أقول يتبين أن هناك فرقا كبيرا بين العقيدة والشريعة من حيث الحاجة الى التجديد أو التغيير ، فان العقيدة سواء من حيث معرفة الله ، أو الصلة به ثابتة لا تقبل التغيير أو التحوير فى أى زمان أو مكان ، ولدى أى نبى أو رسول ، لأنها محصورة فيما يتعلق بذات الله سبحانه ، أو بالصلة به ، وهو وضع ثابت حيث من المحال أن يلحق ذات الله سبحانه

تغيير ، وكذلك الصلة الصحيحة بالله لا تقبل التغيير ، لأنها صلة خالق ومخلوق ، فاذا حدث فيها أى تغيير لم تكن صلة ايمان ٠

قال الشاب : واذن فأنت تتفق معى على الأقل فى هذا الجانب ، وهو جانب العقيدة الذى هو أساس الأديان ، أعنى تتفق معى فى أنه ثابت لم يتغير ، ومن ثم فلا حاجة لتكرار الأديان فيه ، وحينئذ نعود الى بدء الحديث ، وهو أنه ما الحاجة الى مجىء الاسلام مادامت قد سبقته أديان سماوية أخرى ، وأنت اتفقت معى على أن العقيدة الدينية ثابتة فى كل الأزمان والأماكن أى فى كل الأديان ؟

قال الشيخ ضاحكا : أنا لم أختلف معك ، ولكنك أنت الذى تصر على الخلاف ، وتتلمس كل ثغرة لتوجد منها خلافا ، واصرارك على أنى اتفقت معك هو نوع من هذا الخلاف غير المباشر ، فأنت تعلم من سياق حديثى تأكيدى أن الظروف اقتضت الحاجة الى تجديد الأديان كل بضعة أجيال ويمكن أن يقال كل بضعة أماكن ، باعتبار أن كل نبى كان يبعث الى قومه فحسب ، وهذا التجديد أو التغيير فى الأديان بالقياس الى العقيدة لم يكن لتغير طبيعة العقيدة فى أى جانب من جوانبها ، وانما كان لأن الانبياء تركوا تعاليمهم الدينية فتناقلها أتباعهم ، واحتكر رجال الدين منهم هذه التعاليم ثم بدأوا يختلفون كطبيعة البشر جميعا فى الاختلاف ، ثم تحولوا الى جماعات وأحزاب مختلفة ، وأيضا كطبيعة البشر سيكون لكل جماعة دينية زعيم ، كما أن كل جماعة فى أى مجال لابد أن يكون لها زعيم ، وعندئذ يجد هؤلاء الزعماء أنفسهم مدفوعين بأهوائهم الى استغلال الدين للمحافظة على زعامتهم من جهة ، وللمحافظة على كيان جماعتهم من جهة أخرى ، وذلك بأن يوجدوا لأنفسهم مذهبا دينيا خاصا بهم يميزهم عن غيرهم من الزعماء الدينيين ومن الجماعات الدينية ، ومعنى ايجاد مذهب دينى جديد أن يحدثوا فى التعاليم الدينية تغييرا أو تأويلا وتفسيرا ينتهى الى تغيير فى هذه التعاليم ، وقد يكون هذا التغيير فى بادىء الأمر طفيفا ، أو هو فى فروع الدين ، ولكنــه يظل يتوالى تحت وطأة الرغبة فى تميز المذاهب الدينية بعضها عن بعض حتى يمس هذا التغيير العقيدة نفسها ، والعقيدة هى الأساس الذى يقوم عليه أى دين ، ولك أن تتخيل أى بناء أو عمارة حينما يختل أساسها ، فلا شك أنها لا تصلح حينئذ للسكن ، بل تصبح آيلة للسقوط ، فيجب هدمها واقامة بناء جديد بدلها ، وكذلك الدين حينما يصل التغيير فيه الى العقيدة لا يصبح صالحا للبقاء أو لاعتناقه ، وحينئذ ينتظر أن يبعث الله نبيا جديدا يحمل الى الناس الدين الأصلى بعقيدته الصحيحة ، وبالتشريع الملائم لما طرأ على الحياة من مستجدات ٠

قال الشاب فى لهجة توحى بالسخرية : فهل ترى أن المسلمين وحدهم

هم أصحاب الدين الذى خلا من التفرق الى جماعات ومذاهب ، وبالتالى فهم الآمنون من حدوث تغيير فى دينهم ؟

قال الشيخ : بل الأمر بالعكس ، فلعل المسلمين كانوا ومازالوا أكثر من غيرهم تفرقا وأشد اختلافا ، وأنت ترى اليوم ما آل اليه حالهم من هذا التفرق وهذا الاختلاف ، وأنت ترى ما وصلت اليه مذاهبهم فى تعددها واختلافها ، ولكنهم يتميزون عن غيرهم من أصحاب الأديان السماوية بأن عقيدتهم الدينية لم يحدث فيها تغيير ، وكذلك أهم الأصول التى يرتكز عليها دينهم لم يحدث فيها تغيير ، ولم يكن الفضل فى ذلك لهم ، وانما كان الفضل فيه للقرآن وحده ، فشىء واحد يتفق عليه المسـلمون على تعدد مذاهبهم واختلافها ، وهو أن القرآن أملاه النبى صلى الله عليه وسلم نفسه بوصفه وحيا من الله اليه ، ولم يحدث فى نص هذا القرآن تغيير أو تبديل قط ، ومن المعروف أن الذى ينكر هذا أو يشك فيه من المسلمين يعد منكرا للاسلام نفسه وخارجا عن دائرته ، والقرآن يتضمن فى نصه الصريح عقيدة الاسلام واضحة ومكررة بأساليب متعددة لا تقبل التأويل أو الاجتهاد ، وكذلك أهم الأصول والأسس فى الأحكام التى يقوم عليها الاسلام ، ومن هنا لم يستطع زعماء الجماعات والمذاهب الاسلامية أن يحدثوا أى تغيير فى عقيدة الاسلام التى تنحصر فى وحدانية الله وما يترتب عليها ، واكتفى هؤلاء الزعماء الدينيون باحداث تغييرات فى فروع الاسلام وكمالياته بحيث تكون هذه التغييرات معالم مميزة لكل مذهب ولكنهـا لا تخرج عن الدائرة العامة للاسلام ، كما حدث فى مذاهب أهل السنة والخوارج والمعتزلة والمعتدلين من الشيعة ، وقد حاول زعماء آخرون أن يمسـوا صلب العقيدة فأصبحوا معروفين لعامة مذاهب المسـلمين أنهم خارجون عن دائرة الاسلام ، رغم أن بعضهم لم يعمد الى التغيير المباشر فى العقيدة ، وانما لجأ الى التأويل والتفسير ، ولكنه كان تأويلا ضالا عن طريق الاسلام لمخالفته النص الصريح للقرآن ، وهذا مجال لا أظننا الآن فى حاجة الى الخوض فى تفاصيله .

قال الشاب : ولكن ألا ترى معى أن حال المسلمين اليوم أصبح أسوأ من أصحاب الأديان الأخرى سواء فى كيانهم أو فى أخلاقهم وسلوكهم ، وبالتالى ألا ترى أنه قد يقال انهم أحوج من غيرهم الى دين جديد لاصلاح حالهـم ؟

قال الشيخ فى شىء من انفعال : اسمح لى أن أقول ان من يقول هذا يسىء الى نفسه وليس الى الاسلام ، لانه يتجاهل مالا يمكن تجاهله ، وهو أنه حتى أعداء الاسلام أنفسهم يعلمون أن سوء حال المسلمين ليس مصدره الاسلام ، وانما هو نابع منهم هم ، بدليل أن الذين تمسكوا بالاسلام وطبقوه

سواء فى كيانهم سياسيا أو فى أفرادهم خلقيا وسلوكيا سادوا العالم وكانوا (خير أمة أخرجت الناس) ولم تكن سيادتهم العالم نابعة من قوة عسكرية أو سياسية أو اقتصادية أو ثقافية ، فقد كانوا قبل الاسلام مجرد قبائل متفرقة متناحرة من الأميين الفقراء ، وكان أعظم ما بهر العالم منهم حينئذ ليس قوتهم العسكرية أو السياسية وانما هذا الخلق المميز الذى يلتزمونه فى كل مسلكهم الجماعى أو الفردى منذ اعتنقوا الاسلام ، ومعنى ذلك بوضوح أن سوء حال المسلمين اليوم ليس سببه الاسلام ، بل سببه العكس ، وهو بعد المسلمين عن الاسلام ، وتفريطهم فى التمسك به ٠

قال الشاب : ولكنى أرى أن هذه التفاصيل قد بعدت بنا مرة أخرى عن أصل الموضوع ، وهو مدى ضرورة مجىء الاسلام مع وجود أديان سماوية سابقة له ٠

قال الشيخ : بل كانت هذه البسطة اليسيرة ضرورية لتكون الاجابة أقرب الى الوضوح ، حيث تبينا منها عدة نقاط من أهمها أن فى الحياة كلها سننا لا تتخلف ومنها نزعة الخلاف والحزبية فى بنى آدم ، هذه النزعة التى كانت من أهم أسباب التغيير والتبديل فى تعاليم الأديان السماوية حتى فى صلب العقيدة ، وأن الاسلام لم يشذ عن هذه السنة لولا أن الله قيض له القرآن ليحفظ بنصه الثابت صلب العقيدة والأسس التى يقوم عليها الاسلام فلم يستطع أصحاب الأهواء من زعماء المذاهب الاسلامية أن يغيروا فى العقيدة أو فى الأسس ، والذين لجأوا الى التغيير أصبحوا معروفين لكل المذاهب الاسلامية بل ولأنفسهم هم أنهم خارجون عن دائرة الاسلام ٠ ولكن فيما يتعلق بالأديان السماوية الأخرى كان ما حدث من تغيير فى عقيدتهم أو فى أسس أديانهم داعيا الى أن يرسل الله أنبياء جددا يصححون العقيدة وأسس الدين ويعيدونها الى الوضع الأصلى الصحيح ، ولكنى بعد هذا التوضيح أقول لك انى لأعجب كيف أن مجىء الاسلام بعد أديان سماوية أخرى هو الذى يشغلك ويقلقك مع أن الانسان هو الدين الأخير الذى جاء بعد سلسلة من الأديان السماوية التى جاء كل منها بعد دين سماوى سابق ، وقد عدد القرآن خمسة وعشرين رسولا بأسمائهم ، وكلهم معروف لأصحاب الأديان الأخرى ، لأن كلا منهم اما صاحب دين سماوى ، أو معاون لرسول فى تبليغ دينه ودعوته ، وكل ذلك معروف لأصحاب الأديان السابقة ، على أن الرسل الخمسة والعشرين الذين ذكرهم القرآن لم يكونوا كل رسل الله الذين حملوا الى الناس تعاليم الله وشرائعه ، بل يقول القرآن عن الرسل المذكورين والذين لم يذكروا (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك) ٠

قال الشـــاب : أما السؤال عن الاســـلام بالذات فذلك لأن الأديان السماوية المعروفة كاليهودية والنصرانية كان يكمل بعضها بعضا ، فضلا عن أن الأديان السابقة كلها أو معظمها كانت فى سلالة واحدة هى اسرائيل، والاسلام هو الذى شذ فى الجانبين ، فلم يكن مكملا لدين سابق ، بل كان فيما أعرف مختلفا عن كل الأديان السابقة ، وفى الجانب الآخر لم يكن الاسلام فى سلالة بنى اسرائيل ، وانما كان فى العرب ، فكان هذا سبب سؤالى عن الاسلام بالذات ·

قال الشيخ : ولكن ما ورد فى ثنايا سؤالك بعضه يحتاج الى دقة وتوضيح ، وبعضه يحتاج الى شيء من التصحيح ، فأما الذى يحتاج الى دقة وتوضيح فهو حديثك عن أن الأديان يكمل بعضها بعضا ماعدا الاسلام ، فقد سبق فى حديثنا أن الدين له جانبان ، جانب العقيدة وما يترتب عليها من أصول وهو يشبه فى التشريعات البشرية الدستور ، وجانب الشريعة وهو يشبه القوانين النابعة من الدستور والتى تنظم حياة الناس وعلاقاتهم ومعاملاتهم ، وينبغى ألا تنسى أننا مازلنا فى محيط الحديث عن العقيدة ، وفيما يتعلق بالعقيدة فلا يمكن أن يقال ان دينا من الأديان السماوية يختلف عن دين آخر ، أو أن دينا منها يكمل دينا آخر بمعنى أن الدين السابق كان ناقصا فى تحديد العقيدة أو توضيحها ، لأن الأديان السماوية كلها من الله ، وكلها يدعو الى الايمان بالله الواحد الذى لا شريك له فى ألوهيته ، والاسلام فى هذا الجانب ليس الا أحد الأديان السماوية التى لا تختلف ولا تتفاضل فى الدعوة الى وحدانية الله والايمان به ، وكما سبق من الحديث فان ما حدث فى الأديان السابقة من تغيير أو تبديل فى العقيدة انما كان من صنع زعماء الأحزاب والمذاهب الدينية ، ولذلك نجد الاسلام صريحا قاطعا فى أنه لم يأت فيما يتعلق بالعقيدة بجديد ، وانما كان مصدقا لما بين يديه من التوراة والانجيل أى مؤيدا ومصدقا لما جاء فى أصول التوراة والانجيل فيما يتعلق بالعقيدة قبل أن تمتد اليهما أيدى التغيير ·

فالاسلام اذن لم يكن مختلفا عن غيره من الأديان السماوية فيما يتعلق بالعقيدة ، ولذلك يتكرر كثيرا فى القرآن نحو (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون) وفى مثل الحديث النبوى (خير ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا اله الا الله) ·

وأما حديثك عن أن الأديان السماوية أو معظمها كانت فى بنى اسرائيل وأن الاسلام شذ عن ذلك ، فان هذا يحتاج الى شيء من التصحيح من ناحية أن الرسالات السماوية لم تقتصر على سلالة دون سلالة ، ولا على شعب دون شعب ، بل المبدأ أن الله لا يحاسب أحدا على الدين الا اذا كان قد بلغه الدين ، وهذا هو المنطق الذى يقره العدل والعقل ، ولذلك يؤكد

القرآن هذه الحقيقةفى مثل قوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ولذلك يرسل الله للناس رسله لاليلزموهم الدين ، ولا ليكرهوهم على الايمان ، وانما ليبلغوا اليهم دين الله ليكون هذا التبليغ حجة على الناس يحاسبهم على أساسها · ولذلك يوضح القرآن هذا المعنى فى سياق حديثه عن الحكمة فى ارسال الرسل الى الناس (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وحيث كان الحساب حقا على كل البشر ، فقد كان من حق البشر أن يرسل الله اليهم من يرشدهم الى العقيدة الصحيحة ، ولذلك يؤكد القرآن هذه الحقيقة فى مثل قوله تعالى (وان من أمة الا خلا فيها نذير) ·

فرسل الله الى الناس بما يحملونه من أديان سماوية ليسوا مقصورين على سلالة معينة ، ولا على مكان معين أو عصر معين من العصور السابقة ، وانما غلب ارسال الأنبياء فى بنى اسرائيل فيما يبدو لسببين ، أحدهما أنها سلالة أنبياء ، والناس يعلمون عنهم هذا فيتوقعون أن تأتى الدعوات الدينية من بينهم فيكون هذا أقرب الى تقبل الدعوة الدينية منهم ، أو على الأقل تجنب مرحلة الانكار المبدئى فيما لو كان النبى من غيرهم ، بمعنى تجنب أن يبدأ المجتمع فى استنكار الدعوة الدينية الجديدة بأن يقال كيف يأتى هذا النبى من سلالة لم تعرف الدين ولم يسبق فيها أنبياء ، وذلك اذا كان النبى فى سلالة غير بنى اسرائيل ، والسبب الثانى أن أغلب اقامة اليهود فى التاريخ القديم كانت فى فلسطين ، وفلسطين كانت تتوسط كل الحضارات القديمة ، فمن ناحية الشرق كانت توجد حضارة العراق والفرس ، ومن ناحية الغرب الحضارة المصرية الفرعونية ، ومن ناحية الشمال حضارة الروم واليونان ، ومن ناحية الجنوب حضارة اليمن ، فكان ينتظر حين تشرق دعوة دينية فى فلسطين أن يشع شىء من نورها الى الشعوب المتحضرة حولها ، والتى هى أقرب الى الفهم والاستيعاب ، بصرف النظر عن موقفها أو موقف حكامها من هذه الدعوة ، لأن هدف الدعوات الدينية الأول كما سبق ليس أن يتقبلها الناس أو يرفضوها ، وانما هدفها الأول أن تصل الى عقول الناس حتى يتبينوا الحق من الباطل ، ليكون هذا حجة عليهم عند الحساب ·

قال الشاب : لقد أفضت فى الحديث عن جانب العقيدة ، ولكنك لم تتحدث عن جانب الشريعة ، فماذا عنها ؟

قال الشيخ : حديث العقيدة لم يكن افاضة ، وانما كان ايجازا أرجو ألا يكون مخلا بالقياس الى أهميتها ، فان أهميتها تتركز فى أمرين ، أحدهما أنها هى الفيصل بين الايمان والكفر أو الالحاد ، لأن الدين يعتمد على

دعامتين ، العقيدة الصحيحة والعمل ، ولكن العقيدة هى التى ينتقل بها المرء الى الايمان ، وبها يوصف بأنه مؤمن ٠

قال الشاب فى شبه مقاطعة : ولكنى أذكر أنى قلت فى أوائل حديثنا أننى من المؤمنين بالله ولكنى لا أهتم بالعمل الدينى فاستنكرت أنت هذا ووصفته بما يعنى أنه يتنافى مع الايمان ٠

قال الشيخ : لو تمهلت قليلا حتى أتم ما أقول فقد كنت تجد فيه جوابا ، حيث كنت أقول أهمية العقيدة تتركز فى أمرين ذكرت أولهما ، وأما الثانى فهو أن العمل وهو الدعامة الثانية للايمان ينبع من العقيدة ، ولا قيمة للعمل فى الدين الا اذا كان نابعا من عقيدة دينية صحيحة ، واذن فالعمل مهما تكن أهميته فهو تابع للعقيدة وليس مكافئا لها ، لأنه نابع منها ، وأما ملحوظتك عن أن اهمال العمل الدينى يعد خروجا على الايمان ، فذلك أن هناك فرقا كبيرا بين ترك العمل استهانة به أو اعتقادا بعدم أهميته أو عدم وجوبه ، وبين تركه مع الشعور بأهميته ، والشعور بالتقصير فى أدائه ، فان الحالة الأولى تتنافى فعلا مع الايمان ، لأنه لو كان يؤمن حقا بالله فلابد أن يخشاه ويشعر بجلاله وبوجوب أداء ما يأمر به ، فاذا قصر فانه يشعر بالألم وبالندم ، وهذا ما أعنيه فى الحديث عن كون العمل تابعا للعقيدة وليس مكافئا لها ٠

وأما الحديث عن جانب الشريعة فى الدين فهو حديث واسع متشعب انه يمثل كل القوانين والتشريعات الوضعية ، فكما أن العقيدة تمثل الدستور ، فكذلك الشريعة تمثل كل القوانين والتشريعات التى تنبع من الدستور وتنظم كل جوانب حياة المجتمع ٠

قال الشاب فى تحفز : كان فى نفسى سؤال حول هذا الموضوع وانتظرت حتى تطرقه لألقيه عليك ، وهو أن حياة البشرية لم تتغير ، ففى كل العصور والأماكن يوجد التعامل والاقتصاد ، ويوجد الزواج والتوارث ، وتوجد المخالفات التى تحتاج الى عقوبات ، وغير ذلك من مجالات الحياة التى تحتاج الى تشريعات ، والمفروض أن الأديان السماوية السابقة كان فيها أحكام وتشريعات لكل هذه المجالات ، فهل أحدث أصحاب الأديان السابقة أيضا تغييرا وتبديلا فى تشريعات هذه المجالات فاحتاج الوضع الى دين جديد كالاسلام يصحح هذا التغيير كما تقول انه حدث فى مجال العقيدة ؟

قال الشيخ : بل ان هذه التشريعات لم توجد أصلا فى الأديان السابقة ، وانما كان وجودها فى الاسلام ميزة له وحده وهذه حقيقة تاريخية ٠

قال الشاب : وهل يعقل أن يخلو دين سماوى واحد من الأديان السابقة فضلا عنها مجتمعة من تشريعات تعالج كل جوانب حياة المجتمع ، هذا غير معقول لأن المجتمع الذى يجىء فيه الدين ، أى مجتمع وأى دين لابد أن يحتاج الى تشريع سواء أكان مكتوبا أم كان منطوقا لينظم المجتمع حياته فى ضوء هذا الدين الجديد ، فكيف تخلو الأديان السابقة كلها من تشريعات تنظم جوانب حياتها ؟

قال الشيخ : هناك فارق جوهرى معروف بين الاسلام وغيره من الأديان السماوية فى هذا المجال ، وهو أن الأديان السابقة كلها كانت تخاطب الأفراد وليس المجتمعات ، فلم يكن دين منها يهدف الى تكوين مجتمع أى تكوين دولة دينية ، وانما كانت الأديان تهدف الى اصلاح الأفراد ، فكانت توجيهاتها موجهة الى الأفراد ، أما المجتمع فكانت تنظم حياته قوانين المجتمع أو الدولة التى يشرف الحاكم على تنفيذها سواء أكانت قوانين وضعية ، أو قوانين اجتماعية فى صورة ، عادات وتقاليد ، أما الاسلام فهو الدين الوحيد الذى يهدف أساسا الى اقامة دولة دينية ، تستمد كل حياتها فى كل جوانبها من الدين ، فكان لابد أن يأتى بالتشريعات التى تشمل كل جوانب حياة المجتمع فى السياسة والاقتصاد والتعامل وفى أحوال الأسرة ، وفى العقوبات ، وفى كل صور الحياة ·

قال الشاب : هل تعنى أن الاسلام منذ بدايته جاء بهذه التشريعات التى تعالج كل جوانب الحياة ؟

قال الشيخ مبتسما : هذا سؤال اجابته بدهية ، ولذلك أخشى أن تكون بهذا تريد امتحان معلوماتى ، أو تريد أن توقعنى فى خطأ ثقافى لا يقع فيه تلميذ مدرك ، وفى كلا الحالين ليس فى نفسي من هذا غضاضة ، حيث يجب أن تسود حديثنا ورحلتنا روح التسامح والمودة ·

وأما الاجابة عن سؤالك فيمكن أن تصاغ فى أن الاسلام فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وهى مدة التشريع مر بمرحلتين ، احداهما كان الاسلام فيها من الناحية الاجتماعية لا يختلف عن الأديان السابقة ، من حيث ان أتباعه كانوا مجرد أفراد ، وهذه المرحلة هى حياة النبى صلى الله عليه وسلم بعد البعثة فى مكة ، فقد قضى فى مكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة ، ثم فى المدينة عشر سنين ، وطوال مدة الثلاثة عشر عاما فى مكة لم يتجاوز عدد المسلمين رجالا ونساء بضع عشرات من الأفراد معظمهم من المستضعفين الفقراء ، ومعنى ذلك أنهم من الناحية الاجتماعية كانوا ضائعين أو مغمورين بين الكثرة الغالبة ، والقوة القاهرة ، فلم يبلغوا قط أن يكون لهم فى مكة كيان اجتماعى متميز ، فكان مجتمع الشرك هو المشرف

والمنفذ للتشريعات الاجتماعية المتمثلة عندهم فى الأعراف والتقاليد ، ولم يكن يعقل أن يصدر الاسلام حينئذ تشريعات للمجتمع ، لأنه مجتمع غير مؤمن ، وحتى لو صدرت تشريعات من الاسلام يومئذ فلن ينفذها ، فاقتصرت توجيهات الاسلام فى مكة على اصلاح الأفراد كما كان الحال فى الأديان السابقة ، ولذلك نجد ما نزل من القرآن فى مكة يكاد يكون محصورا فى مجال العقيدة والفضائل الخلقية الفردية ، وهو أيضا ما تكاد الأديان السماوية السابقة تكون محصورة فيه ٠

وأما المرحلة الثانية للاسلام تشريعيا فكانت فى المدينة ، حيث تغير وضع المسلمين اجتماعيا منذ وصول النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة، فأصبحوا هناك مجتمعا متميزا مستقلا يحظى بالاعتراف به بل وبتقديره من مجتمع الشرك فى المدينة رغم أن مجتمع الشرك كان فيها حينئذ هو الأغلبية ، ولكن هذه الأغلبية بدأت تذوب بسرعة غير عادية ، وما ان انتصر المسلمون على قريش فى موقعة بدر بعد نحو عام واحد من وصول النبى الى المدينة حتى بدأ الوضع ينقلب اجتماعيا فى المدينة ثم فيما حولها رأسا على عقب ، فاذا مجتمع المسلمين هو اللامع ، وهو الغالب كما وكيفا ، ومنذ ذلك الحين أصبح المسلمون مجتمعا مستقلا ، يشبه أن يكون دولة صغيرة حينئذ ، ولكنها مستقلة متميزة ، تحتاج الى تشريعات تعالج كل جوانب حياتها فأخذت تتوالى تشريعات القرآن فى كل مجال من مجالات الحياة ، حتى اكتملت هذه التشريعات فى أقل من عشر سنين هى حياة النبى فى المدينة ، وهذه هى التشريعات الاجتماعية التى تميز بها الاسلام ٠

قال الشاب : وهل معنى ذلك أنه لم تكن فى تاريخ الانبياء السابقين أو حياتهم دولة دينية ؟

قال الشيخ : يخيل الى أن هذا السؤال يشبه السؤال السابق فى بداهة الاجابة عنه ، وبالتالى أخشى أن يكون القصد من ورائه يشبه القصد من وراء السؤاء السابق ان صح ما أتخيله ٠

قال الشاب : كأنك حكمت على قصدى دون أن تسألنى عنه ، فهل هذا من العدل ؟ ولا أريد أن أتجاوز هذا وأقول لك التعبير الدينى المشهور ان بعض الظن اثم ٠

قال الشيخ : بل تجاوزت فعلا وقلت ، وما قلته ليس مجرد تعبير دينى ، وانما هو قرآن كريم ، ومهما يكن صدق ظنى فقد كان ينبغى كما

تقول أن أسألك لأتبين مدى صدق هذا الظن ، فأنت محق فى هذا ، ولذلك فانى أسحب هذه الملحوظة وأرجو أن تعدها كأن لم تكن ٠

وأما الاجابة عن سؤالك عن مدى وجود دولة للأنبياء السابقين ، فهى أنه من المعروف أن بعض الأنبياء السـابقين مثل داود وسليمان عليهما السلام كانوا ملوكا ، بل بلغ بعضهم مثل سليمان من الملك ما لم يبلغه أحد بعده ، ولكن دون شك لم تكن هذه الدول دولا دينية ، بمعنى أنه لم تكن لها تشريعات دينية تنظم جوانب الحياة ووجوهها ، وانما كانت تسير على التوجيهات الفردية التى يسير عليها الأفراد ٠

قال الشـاب : كيف يكون الملـك نبيا ولا يجعل لدولته تشريعا دينيـا ؟

قال الشيخ : ذلك أن الدول حينذاك لم تكن قد عرفت التشريعات العامة ، فكانت العادات والتقاليد هى التى تحكم الشعوب ، وكان تركيز الأنبياء واهتمامهم منصبا على تصحيح العقيدة ، وتطبيق المبادىء الخلقية سواء لدى الأفراد كالصدق والأمانة ، أو فى التعامل كعدم الغش أو الظلم ٠

قال الشاب : ولكن الاسلام أيضا دين قديم مضى عليه أربعة عشر قرنا ، وكانت المجتمعات أيضا حينذاك يغلب عليها طابع البداوة ، وخصوصا البيئة التى ظهر فيها الاسلام أول أمره ، فكيف جاء بالتشريعات الاجتماعية العامة دون الأديان وحال المجتمعات حين جاء أشـــبه بحالها فى الأديان السـابقة ؟

قال الشيخ : الاجابة عن هذا السؤال تحتاج الى بسطة فى الحديث ، ولكنى أوجزها فى نقطتين : احداهما أن حال المجتمعات حينما جاء الاسلام لم يكن يشبه حالها فى الأديان السابقة لسبب واضح ، وهو أن سنة الله فى كل الأحياء التدرج والتطور سواء فى الأفراد أو الجماعات أو الأمم ، وابن خلدون فى مقدمته يبسط هذه النظرية فى أحد فصولها بما يتضمن أن سنة التدرج فى الفرد من الصغر والضعف الى مراحل النمو والقوة حتى يبلغ نهايتها ثم الانحدار من قمة القوة والاكتمال الى مراحل الضعف مرة أخرى ، هذه الســنة ليست خاصة بالأفراد ، وانما تسرى أيضـا على الجماعات كالقبائل وعلى الأمم والشعوب ، فكل أمة لابد أن تأخذ دورها فى التدرج من الضـعف الى نهاية القوة الملائمة لها ثم تنحـدر الى نهاية الضعف ، ويمكن أن نتصور البشرية هكذا بينما يكون هناك صاعد فى القوة سواء من الأفراد والجماعات أو الأمم يكون هناك نازل فيها ٠ وبينما يكون هناك نازل يكون هناك صاعد وهكذا ، وهو فى الحقيقة تطبيق لقوله

تعالى (وتلك الأيام نداولها بين الناس) ، ويمكن أن نضيف الى هذه الصورة نظرة أخرى ، هى أنه حيث كان للجماعات والدول أعمار كأعمار الأفراد تتدرج فيها فان للبشرية كلها فى مجموعها عمرا أيضا تتدرج فيه ، وهذا ما يتفق مع الواقع التاريخى للانسانية ، فقد بدأت البشرية فى ضآلة وعيها وادراكها وخبراتها كما تبدأ طفولة الفرد ، ثم أخذت فى النمو كما ينمو الفرد أيضا ، غاية الأمر أن النمو فى البشرية يكون أبطأ من نمو الفرد بمقدار الفارق بين عمر الفرد وعمر البشرية ، كما أننا حين نتصور أن دورات القوة والضعف تتوارد وتتكرر فى كل جماعة أو أمة فانها لا تتوالى ولا تتكرر فى عمر البشرية ، لأن البشرية فى مجموعها تعد كيانا واحدا يشبه شخصا واحدا ، والفرد له دورة واحدة لا تتكرر فى الضعف والقوة ، فكذلك البشرية بدأت ضعيفة فى كل مقوماتها من الثقافة والخبرة والعلم والابتكار والتنظيم وغير ذلك ، ثم أخذت تتدرج فى كل مقوماتها نحو القوة، ورغم ما وصلت اليه البشرية اليوم فى كل مقوماتها فلا يعلم الا الله هل وصلت الى نهاية قوتها ونضـــجها ، أم مازالت بينها وبين هذه النهاية أشواط ، ولكن نهاية القوة التى وصلت اليها ان كانت قد وصلت ، أو التى ستصل اليها ان لم تكن قد وصلت هى نهاية البشرية على الأرض ، أو نهاية حضارتها على الأقل ، ولعل هذا مما يشير اليه قوله تعالى (انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليـــلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس) .

والذى يعنى حديثنا من هذا أن سنة النمو والتدرج المستمر فى البشرية تقضى بأن البشرية حينما جاء الاسلام لم تكن كما كانت عليه فى الأديان السابقة ، فان بين الاسلام والدين السابق له وهو المسيحية نحو ستمائة عام ، وهى مدة ليست قصيرة ولا يسيرة الشأن فى نمو حضارة البشرية وتقدمها ، ومعنى هذا أن البشرية حين جاء الاسلام كانت أشد نضجا وأقوى حضارة ، فكان هذا يؤهل الاسلام للاتيان بتشريعات عامة تعالج مختلف أوجه الحياة كما حدث ، وأما اشارتك الى أن البيئة التى ظهر فيها الاسلام كانت أوضح دليل على أن البشرية عندما جاء الاسلام كانت كحالها فى الأديان السابقة من البداوة والسذاجة فهذا أيضا لا يعبر عن الواقع ، لأن البيئة العربية التى ظهر فيها الاسلام رغم بداوتها المعيشية، ورغم أميتها الثقافية ورغم جاهليتها الدينية فانها أثبتت أنها كانت على درجة عالية من الخبرة بالحيـاة ، ومن المقدرة على التخطيط والتنظيـم الفكرى ، ورغم أنهم عادوا الاسلام أشد العداء وأشرسه ، فان القرآن شهد

لهم فى مواضع عديدة منه بأنهم لم يكونوا فى صراعهم مع الاسلام سذجا ، وانما كانوا على درجة لعل البشرية حتى اليوم على تقدمها الباهر لم تضف اليها فى صراعاتها وحروبها شيئا كثيرا فيما يتعلق بالتنظيم والتخطيط ، ومن ذلك أن البيئة العربية أدارت ضد الاسلام حربا شاملة ، والعالم يعرف اليوم أن الحرب الشاملة ليست الحرب العسكرية وحدها وانما هى ثلاثة أنواع ، الحرب النفسية التى تحاول اضعاف ثقة الخصم فى نفسه مع تضخيم قوته هو فى عين خصمه ، والحرب الاقتصادية التى هى شل حركة الخصم وانضاب الموارد التى تغذى قوته ، والحرب العسكرية التى تحاول جنى ثمار النوعين السابقين بالقوة ، والبيئة العربية أدارت كل هذه الأنواع ضد الاسلام ، ولم تكن ادارتهم اياها بصورة عفوية ، وانما عن معرفة بكل نوع منها وبمدى تأثيره ، ففى مجال الحرب النفسية ملأوا كل وجوه الأرض بأن محمدا ليس نبيا كما يزعم وانما هو كاذب يفترى على الله أنه ينزل عليه وحيا ، وهو شاعر يقول شعرا ويدعى أنه قرآن من الله ، وهو ساحر يؤثر بكلامه فى عقول بعض الناس فيسحرهم حتى ينقلب الابن وهو مسحور العقل ضد أبيه ، والأخ ضد أخيه ، والزوج ضد زوجه ، والعبد ضد سيده ، بل ان القرآن يشهد بالعبقرية رغم أنها عبقرية شريرة للزعيم القرشى الذى ظل يفكر فى اشاعة وصف للقرآن لتكون من أدوات الحرب النفسية ضد الاسلام حتى انتهى الى وصف القرآن بانه سحر ، وذلك أنهم أشاعوا أن القرآن من أساطير الأمم السابقة اقتبسها محمد من بعض الموالى الأعاجم الذين كانوا يعملون فى مكة ، وأشاعوا أنه سجع من سجع الكهان ، وأشاعوا أنه شعر يقوله محمد ، ولكن شيئا من هذه الاشاعات لم يصل الى عقول الناس ، فظل هذا الزعيم بعد تفكير طويل وعميق يوازن بين تأثير القرآن فى عقول سامعيه ونفوسهم وبين السحر فى تأثيره على عقول المسحورين ونفوسهم ، فوجد أن بينهما نوعا من الشبه ، فأخذ يشيع أن القرآن ليس الا سحرا معددا الآثار التى أحدثها فى سامعيه والتى لا يحدثها الا السحر الذى يرون بعض السحرة يزاولونه فيفرقون به بين المرء وزوجه وبين الصديق وصديقه وهكذا ، فيقول القرآن فى أسلوب التعجب من تفكير هذا الزعيم ومن تقديره وتخطيطه (انه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال ان هذا الا سحر مؤثر) ولم تكن شهادة القرآن لأشخاص فرادى فحسب ، وانما شهد لهم بوصفهم جماعة بقوة الخصومة والمقدرة على المحاجة والتمادى فى الصراع ، كقوله تعالى (فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا) فوصفهم باللدد وهو قوة المخاصمة والتمادى فيها ، بل يصف القرآن تدبيرهم وتخطيطهم بالمكر ، وأن هذا المكر يبلغ من قوته

وخطورته أن يزيل الجبال ، كقوله تعالى (وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال) .

وأما فى مجال الحرب الاقتصادية فقد استخدموا هذه الحرب ضد المسلمين بأقصى ما يمكن لعلم أو تخطيط أن يستخدمها ، ففضلا عن الموقف الدائم ضد المسلمين اقتصاديا فقد كانت لهم مواقف خاصة دبروها وقدروا آثارها تقديرا محكما ، ولولا القوة الشديدة الصلابة فى عقيدة الاسـلام لحققت هذه الحرب للمشركين ما يريدون ، ومن هذه المواقف التاريخية فى الحرب الاقتصادية مقاطعة قريش لبنى هاشم اقتصاديا واجتماعيا هذه المقاطعة المشهورة التى استمرت ثلاث سنوات كاملة لا يجد بنو هاشم بيت النبى فى مكة كلها من يتعامل معهم بيعا أو شراء أو زواجا ، وذلك لارغام بنى هاشم على أن يسلموا الى قريش محمدا صلى الله عليه وسلم ليقتلوه بموافقة أهله فلا يكون له ثار ، ولكن بنى هاشم رغم ان أغلبهم كان مازال فى الشرك وجدوا صلابة ايمان محمد ومن آمن معه منهم ولمسوا رسوخ عقيدتهم فأكبروا موقفهم ورفضوا تسليمه ، وكان هذا الموقف فى مكة ، وكذلك استمرت الحرب الاقتصادية ضد الاسلام فى المدينة ، وكانت أيضا بتدبير ومعرفة بخطورة آثارها ، ومن ذلك ما ينقله القرآن عن المنافقين فى المدينة من حربهم هذه الاقتصادية كقوله تعالى (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) فقد رأى المنافقون أن المسلمين يغلب عليهم الفقر ، وخصوصا المهاجرين الذين فروا من مكة الى المدينة بدينهم تاركين وراءهم كل شيء ، ووجدوا أن غالبية هؤلاء الفقراء من المسلمين يعتمدون على مساعدة الأنصار وايوائهم اياهم فيما عرف بالمؤخاة ، حيث كان النبى يجعل لكل مهاجر أخا فى الله من الأنصار ليؤويه الانصارى ، فأخذ المنافقون يديرون خطة يحاولون أحكامها لتنفير الأنصار المهاجرين ، وتخويفهم من أن يصبح المهاجرون هم أصحاب النفوذ والجاه فى المدينة ، وأطلقوا على المهاجرين لقب الجلابيب أى الغرباء ، ومن خلال ذلك يحرضون الأنصار على عدم الانفاق على المهاجرين محددين الهدف وهو (حتى ينفضوا) أى ينفضوا من حول الرسول تاركين الاسلام نفسه ، وهكذا فى صور كثيرة من أساليب الحرب الاقتصادية التى أجادت البيئة التى ظهر فيها الاسلام ادراكها وادراك آثارها ، وهو ادراك لا يوصف بأنه بدائى ، وكذلك استخدموا ضد الاسلام الحرب العسكرية كما هو معروف لتكتمل حربهم الشاملة ضد الاسلام بأنواعها الثلاثة ، ومعنى ذلك أن هذه البيئة عند مجيء الاسلام كانت قد وصلت الى درجة واضحة من النضج والخبرة ، ومن باب أولى البيئات الأخرى التى كانت أرقى حضارة وأعلى ثقافة وخبرة .

وكل هذا مما يوحى بأن البشرية حين جاء الاسلام كانت قد وصلت

الى درجة من النضج تهيؤها لتقبل التشريعات العامة التى جاء بها الاسلام ٠ بينما لم تكن قد وصلت الى هذه الدرجة من النضج فى الأديان السابقة ٠

قال الشاب : من المعروف أنه كانت قبل الاسلام حضارات كثيرة بلغت شأنا كبيرا من التقدم كحضارة الاغريق والفرس والروم والفراعنة ، أما كان يمكن لهذه الحضارات أو أحداها أن توجد تشريعات عامة ؟

قال الشيخ : من الناحية النظرية كان ذلك ممكنا ، فلم يكن المفكرون فى أية أمة من هذه الأمم ليعجزوا عن ايجاد تشريعات عامة لكل مجالات الحياة ، ولكن من الناحية الواقعية لم يحدث هذا ، لأن من أهم موانع ذلك أن التشريعات العامة تحدد للأفراد حقوقهم وواجباتهم وتفرض عليهم المساواة فى هذه الحقوق والواجبات ، ولم يكن أسلوب الحكم حينئذ يسمح قط بذلك ٠ ولا بشيء من ذلك ، لأن شخصية الملك هى مصدر كل التشريعات ، وكلمات مثل الحقوق والمساواة لم تكن تدور فى خيال أحد لأنها تتنافى مع أسلوب الحكم ، فالاسلام هو أول من أتى بالتشريعات العامة التى تحدد فيما تحدد الحقوق والواجبات وتفرض المساواة المطلقة أمام التشريع ، لأن الاسلام نفى أسلوب الفردية والملكية فى الحكم ، وحصره فى أسلوب اختيار الأمة للحاكم ، ثم التزام الحاكم الشورى ، ولكن فى سياق الحديث عن امكان أن يوجد المفكرون فى الأمم المتحضرة نظريا تشريعات عامة ينبغى ألا نغفل أنه مع افتراض أن يوجد المفكرون تشريعات عامة فى أية أمة وخصوصا فى الأمم السابقة فان هذه التشريعات لابد وأن تكون معالجة لشئون الأمة التى تنشأ فيها هذه التشريعات ومبنية على ظروف العصر الذى أنشئت فيه ، وهذا فارق جوهرى بين تشريع الاسلام وأية تشريعات أخرى ، فان تشريع الاسلام ملحوظ فيه بوضوح أنه تشريع عام لا يعالج شئون عنصر من الناس دون عنصر آخر ، ولا شئون بيئة دون أخرى ٠

وأما النقطة الثانية من الاجابة عن سؤالك الذى بعد الشوط بيننا وبينه فهى أن الاسلام جاء بتشريعه العام رغم أن الاسلام يعد أيضا قديما فكان سبقه بالتشريعات العامة طفرة تسبق كل مستويات الحضارة المعاصرة له وتتفوق عليها ، هذه النقطة هى أن الاسلام روعى فيه استمراريته الى نهاية البشرية ، أى روعى فيه أن يكون صالحا لكل الأزمنة والأمكنة ، ولكل أطوار البشرية فى حضارتها وتقدمها مهما بلغت ، والواقع يؤيد صدق ذلك ، فقد مضى عليه اليوم أربعة عشر قرنا ومازال تشريعه صالحا ومصلحا لأى مجتمع يقام فيه ، وسيظل دون شك كذلك مهما اختلفت البيئات التى يطبق فيها أو تنوعت أو تطورت ، وهو ليس فى حاجة الى أدلة على ذلك ، لأنه طبق فعلا فى أحقاب طويلة من الزمان فى بيئات وأمم شديدة الاختلاف والتنوع فلم يفشل في أي مكان ٠ حيث طبق في أمم كانت ذات حضارات

شامخة قبل دخولها الاسلام كبلاد الفرس والروم واليمن ومصر وفى أوربا فى الأندلس ، وفى شعوب كثيرة لم تعرف الحضارة فكان بالغ النجاح فى كل هذا التنوع ، وكان نجاحه من أهم الأسباب التى بهرت الشعوب والأمم فدخلوا فى لاسلام أفواجا ٠

قال الشاب : وبم تعلل ذلك ؟

قال الشيخ : لا شيء سوى أنه تشريع من الله العليم بطبائع الناس وما يصلحهم على اختلاف بيئاتهم وعصورهم ، وليس من شك فى أن تشريعات الاسلام المتنوعة لو كانت من عقول البشر مهما يكن مستوى هذه العقول فلم تكن لتصمد فى الحياة بضعة أجيال ، ليس لازالتها أو تغييرها ، وانما لمجرد صلاحيتها لما يطرأ ويستجد فى حياة الناس من تغير فاننا لو وازنا بين أحوال حياة الناس اليوم وأحوالهم حينما جاء الاسلام بهذه التشريعات لوجدنا الحياة قد تبدلت تبدلا يكاد يكون كاملا ، ومع ذلك فان تشريعات الاسلام لم تتغير ، وهذا شيء يثير العجب ، أن يظل التشريع ثابتا ولكنه يلائم كل متغيرات الحياة ، بينما تشريعات البشر يتعجب الناس عادة من صمودها اذا صمدت جيلين أو ثلاثة ، مع مراعاة الفارق بين الجيل والقرن ، فقد اصطلحوا على أن القرن مائة عـام ، بينما الجيل نحـو ثلاثة وثلاثين عاما فحسب ، باعتبـار أن الأجيـال يتـداخل بعضها فى بعض ، بل ان بعض التشريعات لا تصمد للحياة بضع سنوات يشعر الناس خلالها أن هذا التشريع لم يعد صالحا للحياة رغم أن عقول المجتمع وأفكاره كانت محتشدة ومتسـابقة فى تمحيص هذا التشريع وتنقيحه ، وصدق الله حيث يقول عن القرآن (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) ٠

وما من مثقف الا ويعرف أن أى أفكار لا تصمد فى صلاحيتها للزمان مهما بلغ نضج أصحابها أو عبقريتهم ، ولذلك لم تزد الأفكار السابقة فى أحسن أحوالها عن أن تكون مراحل تبنى عليها الأجيال اللاحقة بعد تنقيحها أو تصحيح المعوج منها ، أما فى غالب الأحوال فان تلك الأفكار السابقة لا تصلح للبناء عليها أو لتطويرها ، بل أحيانا تدعو الى السخرية والضحك ، ولعل افلاطون من أكبر فلاسفة العالم القديم وأشهرهم ، ولعله كان من أقربهم الى دعوة الاصلاح والاتجاه الى التشريع حين أنشأ صورة المدينة الفاضلة التى تخيلها نموذجا أمثل لأرقى حياة اجتماعية يعيشها البشر ، وقسم الناس فيها فئات ، وجعلهم بناء على ذلك درجات ، فالعلماء مثلاهم الدرجة العليا والعبيد والخدم هم الدرجة السفلى ، وجعل لكل فئة حقوقا وعليها واجبات تختلف من فئة الى فئة ، ولم يستطع أن يتخيل المساواة بين الناس جميعا فى الحقوق الواجبات ، ومن باب أولى لم يستطع غيره أن يتخيل

ذلك ، لأن البشر مهما علا تفكيرهم · انما يستقون هذا التفكير من واقع الحياة والمجتمع الذى يعيشون فيه ، ولذلك حينما يحدث أى تغيير فى هذا الواقع يصبح تفكيرهم أو تشريعهم مختلفا أو متخلفا عن الواقع الجديد والاسلام وحده هو الذى فرض المساواة الكاملة بين الناس جميعا فى كل الحقوق والواجبات ، سواء فى العبادات الدينية ، أو قوانين التعامل فى أى مجال ، أو قوانين العقـوبات ، والأمثلـة التطبيقية فى عصر التشريع الاسلامى لهذه المساواة لا تكاد تحصى ، ومن ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم حين سرقت امرأة من قبيلة قريش وأرادوا استثناءها من عقوبة السرقة غضب غضبا شديدا وقال والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها ، ونفذت العقوبة فيها ·

ولم تكن هناك غرابة قط فى نظر المسلمين أن يجدوا الخليفة ــ وهو الامبراطور الوحيد فى العالم حينئذ ــ واقفا على قدم المساواة أمام القاضى مع أى شخص من عامة الناس اذا كان الخليفة طرفا فى الخصـــومة أو شاهدا فيها ، ولا يملك القاضى أن يميز الخليفة فى أثناء الخصومة حتى ولو ببشاشة الوجه ، ولعلك سمعت بقصة عمر بن الخطاب مع ابن عمرو ابن العاص والشاب النصرانى ، حيث كان عمرو بن العاص واليا على مصر وهو من كبار أصحاب النبى فى الاسلام ، ومن كبار السادة قبل الاسلام فتسابق ابنه مع شاب مصرى نصرانى على الخيل ، فكان السابق النصرانى، فغضب ابن عمرو وضرب الشاب النصرانى قائلا أتسبق ابن الأكرمين ؟ وكانت شهرة الاســلام بالعدل والمســاواة تطبق الآفاق ، فأصر الشاب النصرانى على أن يرحل الى خليفة المسلمين عمر بن الخطاب فى المدينة ليشكو اليه ما أصابه ، وهناك استبقاه عمر ، وأرسل يستدعى عمرو ابن العاص وابنه على عجل ، وعرض عليهما القضية فاعترف ابن عمرو بما حدث ، فناول الخليفة عصاه الى النصرانى وقال له : اضرب ابن الأكرمين كما ضربك ، فضرب النصرانى ابن عمرو كما ضربه وأعاد العصا الى الخليفة، ولكن الخليفة ناوله اياها مرة أخرى وقال له : أجلها على صلعة عمرو فانما ضربك ابنه بسلطانه ، وكان عمرو أصلع ، يعنى اجعل عصاك تتجول على رأس عمرو بضربه عليها ، ولكن الشـــاب رفض قائلا : قد أخذت حقى ممن ضربنى ·

فالعدل والمساواة فى التشريع الاسلامى أعظم وأكبر من أن يمثل لهما بأمثلة مهما تكن لأنهما من أسس الاسلام ، واذا كان العدل معروفا نظريا لدى البشرية بوصفه فضيلة خلقية فان الاسلام يسمو به الى وجوب التزامه حتى مع الخصوم والأعداء ، والقرآن نفسه يؤكد هذا فى مثل قوله تعالى (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) ، كما

أن البشرية فى أعرافها وتشريعاتها تستثنى من العدل المساواة ، فتفرق الناس طبقات حسب ألوانهم وأنسابهم أو أوضاعهم الاجتماعية ، ولم تختلف البشرية في معظم أحوالها وأزمانها فى هذا بين القديم منذ تشريع افلاطون لجمهوريته الفاضلة وما قبل هذا الى زماننا الحاضر حتى فيمن يوصفون بأنهم أرقى الشعوب حضارة وعلما وفكرا ، بينما التشريع الاسلامي يضع فيما يضع من مبادىء المساواة مثل قوله تعالى (ان اكرمكم عند الله اتقاكم) فتقوى الله فيما تتضمنه التقوى من الايمان والعمل الصالح هى مقياس التفاضل الوحيد بين الناس ، ومع ذلك فان هذا التفاضل ليس بين الناس ، ولا يبيح تمييز بعضهم عن بعض أمام التشريع ، وانما هو تفاضل (عند الله) .

قال الشاب : ولكن أساس حديثنا ينصب على الموازنة بين الاسلام وغيره من الأديان السماوية وليس بينه وبين التشريعات البشرية ، فهل ترى ما قلته ردا كافيا ؟

قال الشيخ : هذه القضايا أوسع وأكبر من أن توفيها حقها أحاديث عابرة ، وحديثنا هذا كله ليس الا مقتطفات لا ترتكز على الأسس العلمية فى أغلب جوانبها ، وانما تعتمد على المنطق العقلى المتداول بين الناس وعلى النظر الى واقع الحياة ، ولو حتى صرفت النظر عن كل ما سبق من اجابة ونظرت الى مجىء الاسلام بعد قرون عديدة من الأديان السابقة ، ونظرت الى أن الأديان السابقة كانت محلية موجهة الى أقوام مخصوصين ، فيكفينا النظر الى جانبين ، أحدهما أن الشىء الصغير أو المحدود لا يصلح الا لما صمم من أجله ، فلو أتيت بثوب طفل أو صبى فانه لا يصلح لشاب أو رجل ، والأديان السابقة بالقياس الى البشرية فى نموها ونضجها أشبه بثوب طفل أو صبى بالقياس الى زمن الاسلام الذى كانت البشرية فيه قد بلغت مرحلة أكبر ، وكذلك الأديان السابقة فى توجيهها الى قوم أو أماكن محددة أشبه بشىء أعد على مقدار بضعة نفر فانه لا يصلح للمئات والألوف ، بالقياس الى الاسلام الذى يوجه الى البشرية كلها فى كل الأزمان والأماكن الى نهاية الحياة .

قال الشاب : ولكن حكاية ثوب الطفل الذى لا يصلح للكبير هى الحجة التى يعتمد عليها أعداء الاسلام من غير المسلمين ، وأعداء الاسلام من المنافقين بين المسلمين فى أن الاسلام وقد مضى عليه أربعة عشر قرنا أصبح كثوب الطفولة الذى لا يناسب العصر الحديث الذى نمت فيه البشرية ونضجت .

قال الشيخ : ولكن ثوب الاسلام لم يصنع لطفولة أو مرحلة معينة

كما سبق ، وانما صنع كاملا ، لأن الله أنزل شريعة الاسلام كاملة لتلائم كل ألوان الحياة وكل مستويات الحضارة وكل أطوار الزمان ، ولو كان الذى صنع هذه الشريعة حانك أو مفكر من البشر مهما يكن فما كان ليصلح لكل هذه المختلفات وكل هذه العصور ٠

وأما الجانب الثانى مما كنت أحدثك فيه قبل أن تسأل سؤالك فهو أنه لا محل أصلا للموازنة بين شريعة الاسلام وغيرها من الشرائع السماوية، لأنه لا توجد أصلا شريعة سماوية متكاملة لتنظيم شئون الدين والدنيا الا شريعة الاسلام ، والفرق واضح وكبير بين تعبير الدين بما يعنيه من العقيدة والطابع الروحى ، وبين الشريعة الدينية بما تعنيه من وصف بالتشريع ، ولعله تكرر فيما سبق التمييز بين العقيدة والشريعة ٠

- ٥ -

قال الشاب : هناك سؤال يتعلق بالأديان السماوية كلها أخشى أن يثير غصه فى حلق كل مؤمن بدين سماوى حين يسمعه ، هو كيف تتنابذ الأديان السماوية بالسباب ، وتتقاذف بالطعن المشين ، فكيف تكون الأديان السماوية أصلا خصوما ، واذا كانت خصوما فكيف تسلك فى الخصومة من السوء ما يأباه على أنفسهم كرام الناس فيما بينهم حين يتخاصمون ؟

قال الشيخ : ماذا تعنى بذلك ؟

قال الشاب : أعنى ما تلمسه وما يلمسه كل الناس من أن أصحاب كل دين ينالون من الأديان الأخرى ليس بالنقد ولا حتى بمحاولة التصحيح لما يرونه فى نظرهم خطأ فى الأديان الأخرى ، وانما ينالون من الدين نفسه من أساسه ومن مقدساته هدما وتشويها وتسفيها ، بكل ما تعاقب عليه قوانين البشر من أنواع السب والقذف ، غير مراعين أن قوانين الدين أو جــلال الدين أولى من القوانين البشرية بمنع أصــحابه من الســوء فى التخاصــم .

قال الشيخ : مما يؤسف له أن الصورة العامة لهذا الموضوع غير واضحة فى ذهنك ، وقد تكون فى ذهن الكثيرين كذلك ، وذلـك أنه لا خصومة أساسا بين الأديان السماوية ، لأنها مادامت سماوية فهى بداهة من مصدر واحد هو الله ، والمصدر الواحد لا تختلف آثاره ولا تتناقض ، وكما سبق فان القدر المتفق عليه بين الأديان جميعا هو العقيدة التى تنحصر فى أنه لا اله الا الله ، لأن المصدر الواحد وهو الله سبحانه لا يعقل أن يأمر الناس بعقيدتين مختلفتين ، ولا بأى شىء غير الحقيقة الواضحة ، وهى اعبدونى وحدى ، والاسلام هو الدين الوحيد الذى احتفظ بهذه الحقيقة دون تغيير فيها ، ولم يكن للمسلمين فى هذا فضل كما سبق ، وانما كان الفضل للقرآن الذى قطع الطريق على الذين كان ينتظر منهم أن يغيروا فيها ، لأنه لم يستطيع أحد أن يغير أو يبدل فى نص القرآن ولن يستطيع ، لأن الله تكفل بحفظه فى قوله تعالى (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) وها قد مضى عليه أكثر من أربعة عشر قرنا وهو يؤكد صدق وعد الله .

فأصول الأديان السماوية اذن واحدة ، وبالتالى لا خلاف ولا خصومة بينها ، وانما الخلاف والخصومة بين أتباع الأديان ٠

قال الشاب : وكيف توجد بينهم الخصومة حول الأديان بينما الأديان نفسها لا خلاف ولا خصومة بينها ؟

قال الشيخ : لا شك أن أبرز ما يقودهم أو يدفعهم الى هذا هو نزعة الحزبية المركوزة فى طباع البشر ، فأنت تجد الناس جميعا فى كل بيئاتهم وأجناسهم وعلى اختلاف مستوياتهم ينساقون وراء أى شىء يجدون فيه مجالا للتنافس والتصارع ، واذا لم يجدوه أوجدوه ايجادا حتى يصيروا شيعا وأحزابا ، ففى مجال السياسة تجدهم أحزابا متنافسة متصارعة ، وفى مجال الدين الواحد ، تجدهم فى داخله أحزابا فى صورة مذاهب ، وفى مجال الرياضة تجدهم أيضا أحزابا فى صورة مشجعين لفرق مختلفة ، وفى مجال النسب تجدهم أحزابا فى صورة التعصب لعناصرهم وأنسابهم ، وهكذا حتى فى مجال الفكر أو الأدب ما ان يوجد اتجاهان مختلفان ، أو أديبان بارزان متنافسان حتى ينخرط الناس فى الانسياق وراءهما فى صورة حزبين أو فريقين ، فيندر أو يكاد يكون من المستحيل واقعيا أن تجد شخصا ليس له انتماء حزبى ضد حزب آخر سواء فى السياسة أو الدين أو الرياضة أو الفكر أو المصالح الشخصية ولو فى تعصبه لعائلته ضد عائلة أخرى أو نحو ذلك ٠

واذا كان الدين الواحد يتحول أتباعه الى أحزاب متنافسة أو متصارعة، فمن باب أولى أن يتحول أتباع الأديان المختلفة الى متخاصمين ومتصارعين ٠

ومما لا شك فيه أيضا أن أساس الصراع والتخاصم بين أتباع الأديان المختلفة ليس تعصب أتباع كل دين لدينهم ، ولا غيرتهم عليه وان ادعوا ذلك ، وانما أساس صراعهم ولو فى الغالبية العظمى منهم هو نزعة الحزبية لذاتها ، بصرف النظر عن الغيرة على الدين ذاته ، ومن الأدلة على ذلك أن المتمسكين حقا بالدين من أتباع الأديان كلها ليسوا الا قلة قليلة ، أما الغالبية العظمى منهم فهم خارجون عليه ، أو متجاهلين تعاليمه ، بل منهم من يحاربه ويحاول جهده أن يهدمه ، ومع ذلك فهو منغمس مع أتباع هذا الدين ضد الأديان الأخرى ٠

قال الشاب : وهل معنى ذلك أن الخلافات بين الأديان خلافات بشرية تدور فى حلقات مفرغة تضيع فيها الحقائق ، ويضيع فيها النقد الموضوعى للأديان ؟

قال الشيخ : هذا السؤال يختلف عن سؤالك السابق ، ففى سؤالك السابق تتحدث عن الخصومات والسباب بين أتباع الأديان ، فقلت لك ان

هذه الخصومات لا تعبر عن الأديان ، وانما تعبر عن نزعة الحزبية فى البشر ، أما سؤالك الأخير عن النقد الموضوعى فهذا يمثله علماء الأديان فى كل الأديان ، فعلماء الدين فى كل دين هم الذين يعبرون عن هذا الدين ، وهم الذين يغارون عليه ويتعصبون له ولو من باب أنه مهنتهم وعملهم الذى يحرصون عليه ويدافعون عنه ، وحين يدافعون عنه فان دفاعهم بصرف النظر عن كونه صوابا أو خطأ يكون معبرا عن هذا الدين فحين يدافعون عنه فان دفاعهم فى مجموعه لا يكون عن الدين نفسه ، وانما عن الانتماء اليه ، أى هو دفاع عن كيانهم هم بوصفهم أتباعا لهذا الدين وليس دفاعا عن الدين نفسـه .

قال الشاب : من البدهى أن علماء كل دين يرون دينهم هو الحق ، وغيره من الأديان باطل ، فأريد أن أسألك عن رأيك فى موقف علماء كل دين بصفة عامة ، ولست متجاهلا أنك ستنحاز الى موقف علماء الاسـلام بطبيعة الحال .

قال الشيخ مبتسما : طبيعة الحال التى تشير بها ليست كاملة ، فلست من علماء الاسلام حتى أنحاز اليهم ، وأقصى ما أوصف به أننى قد أكون من المثقفين المسلمين ، ولكننى لا أشك فى أن هذا لا يدفعنى الى التعصب لدينى بغير حق ، أو التحامل على دين آخر بظلم ، ليس لأن هذا خلقى وطبعى فحسب ، بل لأن دينى نفسه يوجب هذا الخلق على أتباعه وجوبا كقوله تعالى (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) بمعنى أن العـداوة مهما اشتدت بينكم وبين قوم فلا ينبغى أن تدفعكم الى تجاوز العدل ، بل يجب أن تعدلوا فى كل الأحوال .

ومن منطلق احساسى بوجوب العدل سواء فى حديثى عن دينى أو غيره من الأديان أقول انه من المعروف أن الأديان السـماوية المكتوبة هى بالترتيب الزمنى اليهودية والمسيحية والاسلام ، وأن أصولها التى أنزلت على أنبيائها من السماء فى الأصل هى عقيدة واحدة ، هى عقيدة التوحيد وأن أى تغيير حدث أو يحدث فى هذه العقيدة فانما هى مسئولية القائمين على الدين ، وينبغى أن تلحظ أن الاسلام وحده هو الذى يعترف بوجود أديان سماوية غيره ، بينما كان يمكن نظريا لو كان الاسلام مذهبا بشريا كما يزعم أعداؤه أن ينكر وجود أديان سماوية غيره ، ولم يكن عليه حينئذ بأس لدى أتباعه،فان أتباع الأديان والمذاهب الدينية يستجيبون فى العادة لكل مايلقيه أئمة الدين فى آذانهم دون نقد أو تمحيص ولو كان خطأ أو ضلالا بعيدا عن العقول كما هو مشاهد كثيرا فى الديانات الوثنية ، والمذاهب الدينية البشرية ، وفى بعض الأديان السماوية أيضا ، ولذلك فانى أعتقد أن هذا من أدلة كون الاسلام دينا سماويا ، لأنه لو كان مذهبا بشريا

لســار على مذهب البشر في أن يدعى لنفســه المـزايا وينـكرها على غيره ، خصوصا فى الميزة الكبرى وهى الانتساب الى الله ، ولكن الاسلام فى كل أمره ينسب كل الأمور الى مصدرها الأصلى وهو الله ، فهناك ثلاثة أمور فى الاسلام آمل أن تتاح لها بسطة من الحديث فيما بعد ، ولكنى أسردها لك على عجل ، هذه الثلاثة لو كان الاســلام من عند غير الله ما سمحت طبيعة البشر بتجريد أنفسهم منها ونسبتها الى أى أحد ولو كان هو الله ، وأول هذه الثلاثة ما نتحدث عنه الآن وهو نسبة الاسلام الى الله ، فان محمدا صلى الله عليه وسلم لو كانت عبقريته البشرية هى التى اخترعت الدين الاسلامى بكل ما فيه من عقيدة ومن أنواع التشريع الذى يعالج كل شئون الحياة وهو أمى فى بيئة لم تعرف دينا سماويا ولا تشريعا ولا ثقافة علمية لكان بكل مقاييس المنطق البشرى جديرا بأن يتيه فخرا واعتزازا بأنه أنشأ دينا كاملا وتشريعا كاملا من تلقاء نفسه دون أن يبنى شيئا من ذلك على سابقة وخبرة فى بيئته ، ولكنه نفى نفيا قاطعا متكررا أن يكون له فضل فى انشاء شىء من هذا الدين ، بل كثيرا ما كان يوجه اليه السؤال العادى الذى لا يحتاج الى عبقرية فى الاجابة ، فيقول انه لم ينزل على فى هذا وحى ، وينتظر أن ينزل عليه وحى وقد لا ينزل فيه والأمر الثانى أنه لم يدع أنه نائب عن الله فى الناس ، ولا هو ظل له فى الأرض كما ادعى كثير من الأفاقين سواء فى مذاهب الالحاد أو الأديان السماوية ، بل ظل يقرر الحقيقة ويؤكدها وهى أنه محض (عبد لله) وأنه محض (رسول من الله الى الناس) ولو لم يكن صادقا لأفلتت منه كلمة أو اشارة الى ما يخفيه فى نفسه ، خصوصا وأن ما يخفيه حينئذ ليس سيئا أو معيبا وانما هو مجد يجاوز عنان السماء أن يستطيع أمى اختراع دين كامل ٠

وثالث الأمور الثلاثة هو القرآن الذى بهر العرب ببلاغته وسمو تعبيره، وهم قوم كانت كل حضارتهم مركوزة فى جودة الكلام ، والشاعر قد يطبق ذكره الآفاق كما تتيه قبيلته فخرا حين يتاح له انشاء قصيدة جيدة ، ولكن القرآن لم يكن كلاما جيدا فقط ، ولا بليغا فحسب ، وانما بلغ من سموه وتفرده أن وصفوه بأنه سحر ، وهو الوصف الوحيد الذى بدأ بعض العرب تصديقه لأنهم وجدوا بين القرآن والسحر شبها فى التأثير فيمن يوجه اليه ، فلو كان هذا القرآن من اختراع محمد صلى الله عليه سلم لعز عليه بكل مقاييس البشر أن ينتزعه من نفسه لينسبه الى أى أحد ولو كان الله ، وحتى لو افترضنا جدلا أنه نسبه الى الله لكان لابد بالضرورة أن يصدر عنه ولو عفوا ما يشير الى أنه كلامه هو فى أية مناســبة خـلال حياته فى النبوة ٠

وأما الموقف المعروف والمشهور لعلماء الدين فى الأديان الثلاثة ،

فهو أن علماء اليهود ينكرون كل الأديان ما عدا دينهم ، ويسفهون كل الأنبياء ويقولون فيهم قولا منكرا ، وهذه ليست نزعة دينية فحسب لدى اليهود ، بل هى نزعة عنصرية شـديدة العداء لكل ما هو غير يهـودى تسيطر على اليهود بصفة عامة ، وقد أثبت علماء غربيون فى دراساتهم الاجتماعية والنفسية عن اليهود أنهم يحملون نزعة عدائية لكل الناس من غير اليهود ، وأنهم يوجهون هذه النزعة العدائية لكل شىء حتى لله سبحانه حيث يسمونه العدو الأكبر ، وأن كثيرا منهم يوجـه هذه النزعة نحو نفسه ، ولذلك شاع فيهم الانتحار الجماعى دون غيرهم ، والذى يعنينا الآن من هذا أنهم ينكرون كل الأديان ماعدا اليهودية ويعادون أنبياءها وأتباعها ٠

قال الشاب : ولكن المعروف فى العالم كله اليوم أن اليهود يركزون عداوتهم على الاسلام والمسلمين دون غيرهم ٠ بل انهم يظهرون التودد للمسيحيين ، فعداوتهم اذن ليست لكل الأديان ٠

قال الشيخ : بل الأمر بالعكس بالقياس الى المسيحيين فان المسيحيين يعلمون أن نفوس اليهود تفيض عداوة وحقدا عليهم وعلى دينهم ، ولكن اليهود يأخذون بأسلوب الأهم فالمهم ، فحين ظهر المسيح عليه السـلام بدينه قبل الاسلام كان هو العدو الوحيد دينيا أمامهم فصبوا عليه كل حقدهم ونقمتهم حتى صمموا على قتله ، ولم يكتفوا بمجرد التصميم على قتله ، وانما صمموا أيضا على صلبه ، والمسيحيون يعتقدون أن اليهود نفذوا قتله وصلبه فعلا ، حتى جعلوا صلبه شعارهم الدينى وهو الصليب ، أما المسلمون فيعتقدون ما أكده القرآن وهو أن الله نجى المسيح من القتل والصلب بأن ألقى على الشخص الذى دلهم على المسيح أن يكون شبيها للمسـيح فاعتقـدوا أنـه هو المسـيح فقتلوه وصـلبوه ، أما المسـيح فقـد رفعه اللـه اليـه ، وهو حى عنـد اللـه ، ويؤكـد القرآن أنه لابد أن يعـود حيـا الى الأرض يدعـو الى الدين الحق فيؤمن به الناس ، كما فى القرآن من تعداد بعض مساوىء اليهود فى عقيدتهم وأخلاقهم وعدوانهم حتى على الأنبياء واتهامهم مريم أم المسيح بالزنا وادعائهم قتل المسيح (فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا ، وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما ، وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منك ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا حكيما ، وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ٠٠٠) ٠

قال الشاب : ولكن ألا يقدر المسيحيون أن هذا الذى يقرره القرآن أشد تكريما وتعظيما للمسيح من رأى المسيحيين أنفسهم ؟

قال الشيخ ضاحكا : كان يمكن أن تسأل المدرسة الأجنبية التى تعلمت فيها هذا السؤال ، ولكنى أقول لك ان بعض المسيحيين وان كانوا قلة يقدرون هذا حتى انه يدفع بعضهم الى اعتناق الاسلام ، ومن المشهور أن تكريم القرآن للمسيح كان سببا فى اسلام النجاشى ملك الحبشة في حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، وما زال هذا الوضع قائما حتى اليوم ٠ فى أن بعض المسيحيين يقدرون تكريم الاسـلام للمسيح وأمـه ٠

ولكن لنعد الى مسار حديثنا عن موقف علماء كل دين من الأديان الأخرى ، فأقول ان عداوة اليهود كانت مركزة على المسيح ودينه حينما كان هو الدين الوحيد الذى جاء بعد اليهودية ، فلما جاء الاسلام أحس اليهود أن الخطر انتقل من المسيحية الى الاسلام وذلك لأسباب أهمها سببان ، أحدهما أن علماء المسيحية كانوا حينئذ مختلفين مذهبيا اختلافا شديدا وكأنهم أديان متعددة اضافة الى ما أحدثه علماؤهم فى أصول الدين مما أفقد الدين المسيحى كثيرا من بريقه وجاذبيته فشعر اليهود أن خطره قد خف وزنه ، والسبب الثانى مبنى على الأول ، وهو أن الاسلام كان هو الدين الجديد بلمعانه الذى طبق مشارق الأرض ومغاربها فى بضع عشرات من السنين ، واندفع الناس الى الدخول فيه أفواجا بمن فيهم المسيحيون أنفسهم ، فحول اليهود مركز عداوتهم وحدة حقدهم من المسيحية الى الاسلام ، فالفارق بين عداوتهم للمسيحية وعداوتهم للاسلام فارق فى الدرجة وليس فى النوع ، وأما ما تراه اليوم من تودد اليهود الى المسيحيين فليس ذلك حبا ولا ودا والطرفان يعلمان ذلك ، وانما تجمعهما السياسة الواحدة ، والمصالح المشتركة ، ومن أهم هذه المصالح اتفاق الطرفين على أن الاسلام هو العدو الأول ، وأنه يجب التخلص من خطورته بكسر شوكته قبل أن يتفرغ بعضهما لعداوة بعض ، على أن هذا التودد من اليهود للمسيحيين انما هو فى مجال العامة من الطرفين ، ونحن نتحدث عن علماء الأديان بوصفهم المعبرين عن أديانهم وليس الحديث عن عامة الأتباع ، وعلماء اليهود فيما أعلم لم يغيروا قط موقفهم الدينى من المسيحية أو غيرها ، وهو موقف العداء والحقد الشديد ، أما عامة اليهود فى توددهم الى عامة المسيحيين فذلك تحكمه السياسة والمصالح المشتركة التى تتركز ضد الاسلام والعرب ٠

أما موقف علماء المسيحية فقد كان أقرب الى الاعتدال ، وأبعد عن حدة العداء سواء بالقياس الى اليهودية أو الاسلام ، ورغم المرارة التى تملأ نفوسهم من عمد اليهود الى قتل المسيح وصلبه كما يعتقدون الا أنهم

لم يحملوا لليهود هذه الدرجة من العداوة التى يحملها اليهود لهم ، ولم ينكروا الدين اليهودى كما أنكر اليهود المسيحية ، بل يعدون اليهودية والمسيحية مرحلتين يكمل بعضهما بعضـا فيما أعلم ، ولذلك يصفون انجيلهم بالعهد الجديد ، ويصفون توراة اليهود بالعهد القديم .

وكذلك موقف علماء المسيحية من الاسلام ، لم يكن طابعه العداوة والحقد ، بل كان طابعـه الغـالب هو التنافس ، ورغم أنهم لا يعترفون بالاسلام بوصفه دينا سماويا الا أنهم لا يضمرون للمسلمين سوء العداوة ، ولا مرارة الحقد ، وليس هناك وصف فى الموازنة بين موقفهم وموقف اليهود من الاسلام أوضح من وصف القرآن فى قوله تعالى (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ، واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ، وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنـا ربنـا مع القوم الصالحين) ورغم أن المقصودين بتعبير (الذين آمنوا) الموجهة اليهم شدة عداوة اليهود وقرب مودة النصارى هم الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم الا أن اطلاق وصف الايمان يوحى بأن عداوة اليهود موجهة للايمان نفسه وبالتالى لكل مؤمن فى أى دين ، وواقع اليهود يؤكد ذلك فى سيطرة نزعة الالحاد عليهم وعداوتهم لكل الأديان وكل الأنبياء حتى انفردوا دون سلالات البشر بتتبعهم الأنبياء وقتلهم اياهم .

وأما موقف علماء الاسلام فهو محكوم بموقف الاسلام نفسه والاسلام يمثله القرآن ، ومن مكرور القول أن القرآن هو الذى حفظ الاسلام من التغيير والتبديل فيه ، كما حمى المسلمين من سلطة علماء الدين ورجاله ، فان علماء الدين فى الأديان الأخرى جعلوا أنفسهم هم الممثلين للدين ، وهم المشرعين فى الدين ، وهم الواسطة بين الله والناس ، وبالتالى فان أتباع الدين أصبحوا يخضعون لهم على أساس أنهم هم الدين ، وأن رضاهم أو سخطهم يترتب عليه رضا الله أو سخطه ، لأنهم جعلوا أنفسهم بمثابة النائبين عن الله ، أما علماء الاسلام فلم يستطيعوا أن يدعوا هذا الادعاء ، لأنهم يعلمون أن الدين وخصوصا القرآن محفوظ ومتاح لكل فرد من عامة المسلمين ، بل ان المسلمين جميعا مدعوون دائما الى تلاوته وحفظه ، فلو ادعى علماء الدين شيئا يخالف القرآن ، ففى وسع أى مسلم من عامة الناس أن يكذبهم ، بل هذا من الواجب على المسلمين ، اما من باب الدفاع عن الاسلام ، واما من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكلاهما واجب على كل مسلم .

قال الشاب : ولكننى أعلم أنه فى بعض مذاهب الاسلام كالصوفية

والشـيعة يدعى أئمة الدين ما يدعيه أئمة الدين فى الأديان الأخرى ، ويعتقد فيهم أتباعهم مثل ما يعتقده أتباع الأديان الأخرى من التقديس ، أو الانقياد لهم فى كل ما يملونه من تشريع ٠

قال الشيخ : لست أنكر أن هذه الصورة موجودة وان كان مبالغا فيها فى بعض فئات المسلمين ، وهذا دون شك خطأ كبير فى الاسلام ، ولكنه خطأ لا ينسب الى الاسلام ، وانما ينسب الى مرتكبيه ، أما الاسلام نفسه بصورته الناصعة المبرأة من الأخطاء والضـلالات والانحرافات فهو موجود ومعروف ممثلا فى القرآن كما تكرر القول ، وكما تكرر القول أيضا فان مهمة الاسلام وكل الأديان السماوية ليس أن يعتنقها الناس ولا أن يلتزموها وانما المهمة والهدف المحدد لكل الأديان أن يكون الحق محددا غير ملتبس بباطل ، وأن يكون واضحا معروفا غير مطموس أو مغطى عليه ، والاسلام بهذا الوصف يعرف الناس جميعا أن الحق فيه محدد وواضح ممثلا فى القرآن ، وأن كل من يخالفه أو يبتعد عن منهجه فهو بعيد عن الاسلام بمقدار هذا البعد ، والقرآن يؤكد كثيرا وبأساليب متعددة أن النبى محمدا نفسه ليس الا عبدا لله ، وأنه مجرد بشر كسائر البشر ، لا يمتاز عنهم الا بأن الوحى ينزل عليه من الله ، وأنه مجرد رسول أرسله الله الى الناس ، والنبى نفسه كان أكثر تكرارا لهذه المعانى والتزاما اياها ، فلم يدع قط أن له صفة دينية فوق هذا ، أو أنه يملك لنفسه أو لغيره شيئا من قدر الله ، فمن باب أولى أنه لا يملك أحد غيره من المسلمين مهما تبلغ صفته الدينية فيهم أو منزلته بينهم شيئا لنفسه أو لغيره فى الدين ، وهذه المعانى ليست خافية ولا عميقة فى الاسلام ، بل انها من البدهيات التى يعلمها صغار المتعلمين فى الدين ، كما يعرفها الشخص العادى من عامة المسلمين الذين يستقون معرفتهم من منابع الدين ولا يحول بينهم وبين هذه المنابع حائل من سوء التوجيه أو التعليم ٠

ونعود الى مسار حديثنا وهو موقف علماء الاســـلام من الأديان الأخرى ، فأقول أنه حيث كان موقف علماء الاسلام هو موقف الاسلام فان موقف الاسلام من الأديان الأخرى معروف وواضح فى القرآن ، وهو أنه يعترف بكل الأديان السماوية سواء المكتوب منها وهما اليهودية والنصرانية أو غير المكتوب من شرائع الأنبياء التى لم تصل الينا تفاصيلها ، كما أن الاســـلام يعظم كل الأنبياء والمرسلين من الله على الاطلاق ، ولا يفرق بينهم فى الايمان بهم مهما تفاوتت منازلهم وجهودهم ، ومعنى ذلك أن الاسلام يعترف باليهودية وبأنبياء اليهود ، وبالمسيحية وبالمسيح ، رغم تأكيده أن اليهود والنصارى غيروا فى الصورة الأصلية التى نزل بها دين كل منهم من عند الله ، ولكن مبدأ الاعتراف بهما موجود ، وترتب على ذلك حكم سياسي بالغ الأهمية ، هو أن الاسلام من زاوية أنه يهدف أساسا

الى تولى زمام السلطة ليفرض من خلالها شريعة الله فانه لا يسمح أن يبقى تحت سلطانه الا دين سماوى هو اليهودية أو النصرانية ، بمعنى أن المسلمين حينما تكون لهم دولة مهما يبلغ سلطانها فانهم ملزمون بأمرين واجبين ، أحدهما وجوب اقرار اليهود والنصارى على أديانهم والإعتراف بدين كل منهما ومهما بلغ اختلاف هذا الدين مع الاسلام فلا يجوز اضطهاده أو اكراهه على الاسلام ، والأمر الثانى أنه لا يجوز للمسلمين أن يعترفوا تحت سلطانهم بأى دين أو مذهب وثنى ، والوثنية هى كل ديانة غير اليهودية والنصرانية ، فأصبح اعتراف الاسلام باليهودية والمسيحية حكما سياسيا فى أية سلطة اسلامية ، وقد كان هذا الحكم على مر التاريخ الاسلامى حماية لليهود والنصارى تحت ظل السلطة الاسلامية ، بل ليس حماية فقط ، وانما يجعل الاسلام لهم من الحقوق ما للمسلمين أنفسهم ، ولو عاش شخص واحد يهودى أو نصرانى فى دولة اسلامية فانه يتمتع بهذه الحقوق التى يتمتع بها أى مسلم .

قال الشاب : ولكن هناك فى هذا المجال أمور يتندر بها بعض الناس من أحكام توجد فى الاسلام لاذلال أهل الكتاب اليهود والنصارى الذين يقيمون تحت حكم اسلامى مثل الزامهم لباسا معينا وزيا خاصا يميزهم عن المسلمين حتى لا ينـالوا فى المجتمع الاحترام الذى ينـاله المسلمون ، وبعض الناس يتحدثون بأن مثل هذه الأحكام موجودة فى كتب الفقه الاسلامى ، فاذا صح هذا فهل هو متفق مع ما تقوله من مساواة أهل الكتاب بالمسلمين فى الحقوق الاجتماعية ؟

قال الشيخ : هذه الأحكام موجودة فى بعض كتب الفقه الاسلامى فعلا ، ومع أنها مسوقة على أنها أحكام دينية الا أن الواقع أنها ليست أحكاما دينية ، بمعنى أنها لا تعبر عن الموقف الدينى للاسلام ، وانما تعبر عن الموقف السياسى للمسلمين ، فهذه الأحكام صاغها بعض الفقهاء حينما كان المسلمون فى قمة مجدهم السياسى ، وكانوا هم أصحاب العزة والسلطة والقوة ، بينما كان كل أهل الكتاب حينذاك سـواء أكانوا جمـاعات أم دولا بالقياس الى المسلمين يمثلون الضعف والاستسـلام ، وأصحاب القوة فى كل المجتمعات وكل العصور يحبون أن يتميزوا عن الضعفاء أو الأقلية بأية مزايا تعبر عن قوتهم وتفوقهم ، وأنت ترى اليوم كثيرا من هذا السلوك فى كثير من الشعوب التى تدعى أنها بلغت قمة الحضارة والرقى ، ولعلك تعى أنه الى عهد قريب لم يكن يسمح للسود فى أمريكا بأن يركبوا المواصـلات العامة مع البيض ، ولا أن يدخلوا أولادهم المدارس العامة مع أبناء البيض وغير ذلك من وسائل التفرقة والتمييز ، فكانت تخصص لهم مدارس ومواصلات خاصة بهم رغم أنهم يشاركون البيض فى الوطنية وفى الدين وفى جباية الضرائب ، وكل

الفارق أن البيض بيدهم كل مقاليد القوة والسلطة والتفوق ، فيريدون أن يعبروا عن هذا التفوق بأية مزايا لهم ، وتجد نجوا من هذا فى دول أوربية مثل المانيا وفرنسا وغيرهما مما تفيض بأخباره وسائل الاعلام هذه الايام من اضطهاد الأقليات والأجانب بصور بشعة تصل الى القتل والى احراق البيوت على من فيها من الأجانب وبالأخص اذا كان هؤلاء الأجانب مسلمين ٠

فحينما كان المسلمون في موضع القوة والسلطة كان من المتوقع بالمنطق البشرى أن يعبروا عن قوتهم وتفوقهم بمزايا لهم ترفعهم اجتماعيا ، وتخفض الضعفاء اجتماعيا ، فأثبت بعض الفقهاء هذه المزايا على أنها أحكام دينية ، بينما هى فى الحقيقة أحكام سياسية وأوضاع اجتماعية طبيعية ، لا تعبر عن الاسلام ، ولا تعد من أحكامه الدينية ، بدليل أنها لا توجد فى أى مصدر من مصادر التشريع الاسلامى الأصلية ، وهى القرآن الكريم ، والسنة النبوية الصحيحة ، واجماع أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وكل ما ورد من هذا القبيل فى مصادر التشريع الاسلامى فيما أعلم هو ما ورد فى القرآن من وجوب الزام أهل الكتاب المقيمين تحت الحكم الاسلامى اعطاء الجزية للدولة ، والجزية هى ما يعرف اليوم بالضريبة التى أصبح يدفعها كل مواطن فى كل دولة مهما يكن دينه أو انتماؤه دون أن تتضمن أى اذلال أو اهانة للمواطن ، وحتى حينما كان يدفعها أهل الكتاب وحدهم فقد كان الهدف الأول منها أيضا سياسيا وهو أن دفع هذه الجزية يكون تعبيرا عن خضوعهم وولائهم للحكم الاسلامى وعدم لجوئهم الى التمرد أو اثارة القلائل بحكم اختلافهم الدينى مع المسلمين ، ومع ذلك لم يكن المسلمون معفون حينذاك من دفع نوع آخر يشبه الضرائب وهو الزكاة ، ونسبة الزكاة التى يدفعها المسلمون الى الدولة أكبر من نسبة الجزية التى يدفعها أهل الكتاب ، على أنه اذا كان أحد وجوه الجزية وأهدافها هو الاستقرار السياسى باعلاء ولاء أهل الكتاب للحكم الاسلامى الذى يعيشون فى ظله فان لها أهدافا أخرى منها أنها مقابل الخدمات والمرافق التى تيسرها لهم الدولة فيستفيدون بها ، ومنها أنها نوع من التأمين والادخار لهم ، ومما يروى من هذا القبيل أن أحد الولاة أرسل الى الخليفة عمر بن الخطاب يستفتيه في شخص ذمى من أهل الكتاب أصابه المرض والعجز ، هل يجوز أن يعطيه من الزكاة او من بيت مال المسلمين ، فرد عليه عمر بما معناه كيف نأخذ أموالهم وهم أقوياء ، ثم نتخلى عنهم وهم ضعفاء أى من حقه أن يأخذ ٠

قال الشاب : سمعتك تقول منذ قريب ان الاســـلام يؤمن بكل الأنبياء ، والأنبياء أصحاب الديانات معروفون ، فكيف يتحدث من سواهم ؟

قال الشيخ : فى البحوث الدينية الاسلامية هناك فرق بين النبى

والرسول ، فالنبى هو من يوحى اليه من الله ، والرسول هو من يرسله الله من أنبيائه برسالة دينية ليبلغها الى الناس ، ومعنى ذلك أن بعض الأنبياء قد لا يحملون رسالة الى الناس فلا يكونون رسلا ولا أصحاب ديانات ، بينما المرسل من الله لابد أن يكون نبيا لأنه لابد أن يكون موحى اليه ، فكل رسول لابد أن يكون نبيا ، بينما بعض الأنبياء قد لا يكونون رسلا ٠

ورغم أنه من المؤكد في الاسلام أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والرسل فلن يكن بعده نبى أو رسول من الله أبدا لأن رسالته الدينية المتمثلة في القرآن قائمة وموجودة فلا داعي لرسالة جديدة ، لأنه لو افترضنا جدلا أنه جاء بعده رسول من الله فسيحمل رسالة الاسلام نفسها أو صورة منها فلن تأتي هذه الرسالة المفترضة بجديد ، أقول رغم أن سؤالك لا محل له بالقياس الى المستقبل فاننا بالقياس الى الماضى نستطيع أن نستشف مدى صدق أو كذب من يدعى النبوة من مضمون العقيدة التى يدعو اليها ، فان أصول عقيدة الأديان السماوية كلها هى وحدانية الله فى ألوهيته ، فكل من يدعو الى وحدانية الله دون أن يكون له فى دعوته مصلحة شخصية فهو على وجه اليقين ، اما نبى أو تابع لنبى ٠

قال الشاب : تشيع فى العالم كله اليوم صفة تنسب الى المسلمين دون سواهم ، وهى صفة الارهاب ، بمعنى أن الناس يتوقعون حوادث ارهاب فى أى مكان يوجد فيه مسلمون ، فما تعليلك لهذا ؟

قال الشيخ : التعليل يكون لشىء موجود ، ولكن هذه الصفة التى يلصقها العالم بالمسلمين الصاقا لا وجود لها فى واقع المسلمين ، ولكنها من آثار نظرة السخط التى يقول عنها الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدى المساويا

فغير المسلمين من كل دين ومذهب يتفقون على كراهية الاسلام فترتد هذه الكراهية الى المسلمين حيث هم حملة هذا الدين الذى يبغضونه ٠

قال الشاب مقاطعا : وكيف يستساغ اجماع العالم كله من غير المسلمين على كراهية الاسلام ؟ أو بمعنى آخر : هل يعقل أن يكون الاسلام دينا حسنا ثم يتفق كل الناس من مختلف المذاهب والأديان على كراهيته ؟

قال الشيخ : لن أفيض فى الاجابة عن هذا السؤال ، وانما أقول لك ما قاله سقراط منذ القديم حين قال : لم يترك لى قول الحق صديقا ، فالحق بغيض عادة الى النفوس لأنه يحول بينها وبين أهوائها ونزعاتها ، والاسلام هو الحق الوحيد الباقى على الأرض ، فلم يكن غريبا أن يحاصره الناس بالعداوة ، ليس من غير المسلمين فحسب ، بل ومن كثير من

المسلمين أنفسهم ، أو بمعنى أصح من المنتمين الى المجتمع الاسـلامى ، وقضية كراهية الحق لا تحتاج الى تدليل ، فتستطيع أن تسأل نفسك أو تسأل غيرك : لماذا ووجه كل الأنبياء على الاطلاق بالكراهية والسخط والعدواة من الناس ؟ هل كانوا هم على الباطل وأعداؤهم على الحق ؟

قال الشاب : لقد قطعت عليك حديث الارهاب الاسلامى ، فهلا واصلته ؟

قال الشيخ : أراك مصرا على الصاق الارهاب بالمسلمين ، بينما الأمر مقلوب ومعكوس عكسـا كاملا ، فالمسلمون اليوم هم الذين يعانون من ارهاب العالم كله اياهم فى كل مكان على الاطلاق ، غير أنه فى بعض الأماكن يوجه اليهم الارهاب بالسلاح والعنف ، وفى بعضها بالاضطهاد والتجويع والتخويف والتشريد ، وفى بعضها بالضغوط الاقتصـادية والسياسية وغير ذلك من كل ألوان الارهاب والحرب النفسية ، وكأن العالم يريد أن يتخفف من شىء من وخز الضمير فيحاول خلق تهمة يلصقها بالمسلمين ليبرر بها جرائمه ضد المسلمين ٠

قال الشاب : وحوادث الارهاب التى تقع فعلا من المسلمين ولا يمكن انكارها كخطف الطائرات ، وقتل بعض الناس ، ماذا تقول عنها ؟

قال الشيخ : من البداهة بمكان أنها حوادث فردية ، تصدر من أفراد مهما كثر عددهم ، ولكنها لا تصدر من مجتمع اسلامى ، ولم يدع أحد ذلك ، والحوادث الفردية ، بل الشذوذ الفردى ، أو الجرائم الفردية لم تخل منها البشرية فى أى مكان وأى عصر منذ الجيل الأول للبشرية ، جيل آدم وولديه هابيل وقابيل حتى اليوم ، وكلنا يعلم أن الأخبار تترى وتتواتر عن حوادث العدوان وقطع الطريق التى تعج بهـا كل عواصم العالم ، وبالأخص عواصم الدول الكبرى كلها ، حتى انه لا يأمن شخص على نفسه أن يسير بعد غروب الشمس فى أية عاصمة ، ومع ذلك لم يصف أحد هذه الدول بالارهاب مع وجود هذه الظاهرة المخيفة للحوادث الفردية فيها ، كما لم يصفها أحد بالارهاب رغم ما تصبه من ألوان الارهاب على الدول الصغيرة وخصوصا الدول الاسلامية من صنوف الارهاب ، سواء الارهاب العسكرى ، كما فعلت مجتمعة وعلانية ورسميا فى العصر الحديث فى مصر مرتين ، مرة فى عهد محمد على باشا لتحطيم قوة مصر العسكرية ، ومرة فى سنة ست وخمسين وتسعمائة وألف لتحطيم قوتها العسكرية وتحقيق مآرب اقتصادية ، وكما فعلت أيضا سنة احدى وتسعين وتسعمائة وألف فى العراق لتحطيم قوته العسكرية ، وكما فعلت أيضا هذا العام وهو ثلاث وتسعون وتسعمائة ألف فى الصـومال ، وكما فعلت فيما لا يحصى من المرات والأماكن من ألوان الارهاب السياسى والاقتصادى ،

ومع ذلك لم توصف دولة منها بالارهـــاب ، بينما المسلمون يوصفون بالارهاب مع أن الأفراد الذين يزاولون أحيانا هذه الحوادث التى توصف بالارهاب هم فارون من ارهاب الدول الكبرى أو عملائها كاسرائيـــل ، ويحاولون أن ينقسموا عن شيء مما يعانونه من بطش الارهاب المصبوب عليهم ٠

قال الشاب : قد أفهم من حديثك ما يعانيه المسلمون من هذه القوى التى تتحدث عنها ، ولكنك لم توضح موقف المسلمين الأخلاقى من غيرهم ٠

قال الشيخ : هذا حديث يتصل بالسياسة والتاريخ ، ولا أظنهما من أهداف حديثنا ، وحتى لو تحدثنا فيهما فلن تكفينا رحلة كهذه أو رحلات ، فاكتفى بأن أضرب لك مثلا واحدا وان تعددت مواقفه ، وهو الموازنة بين موقف الأمة الاسلامية أو الدول الاسلامية وموقف غيرهم من قبول معيشة الأقليات بينهم ، فالمسلمون منذ كانوا القوة الوحيدة فى العالم حتى اليوم لم يرفضوا أن تعيش بينهم أقلية من غير المسلمين . بل حتى اليوم لا تكاد تخلو دولة اسلامية على الاطلاق من أقليات تعيش بينها ســـواء بالمواطنة أو العمل ، وهذه الأقليـــات من مختلف الأديان والمذاهب ، وهى تتمتع بكامل حريتها وكرامتها وحسن معاملتها ، بل ولا يفرق بينها وبين المسلمين فى الحقوق والواجبات ، بينما فى أوربا التى تدعى أنها رائدة الحرية والديمقراطية والمساواة وسائر الفضائل أكتفى بالاشارة الى مثالين من معاملتها للأقلية المسلمة التى حاولت أن تعيش بين ربوعها ، وأحد المثالين من التاريخ فى الأندلس ، حينما أصبح المسلمون أقلية فيها فان الذين يدينون بالمسيحية فيها خيروا المسلمون بأن يتخلوا عن دينهم ويعتنقوا المسيحية أو أن تقطع رقابهم ، والمثال الثانى نعيشه هذه الأيام وهو عن الأقلية المسلمة بين دول أوربا أعنى عن دويلة البوسنة والهرسك حيث تتفق دول أوربا مجتمعة على أنهم لن يسمحوا باقامة دول اسلامية فى أوربا كما أعلن ذلك صراحة رئيس وزراء بريطانيا ، وأن على المسلمين اما أن يتخلوا عن دولتهم واما أن يقبلوا الابادة والموت الجماعى ، وسل دول أوربا هل حدث من المسلمين طوال تاريخهم شيء من هذا ؟

قال الشاب : هناك أسئلة أخرى تتعلق بموضوع حديثنا أرى أنها فى حاجة الى الالمام بها وان كان بعض جوانبها مما تعرض له الحديث ، ومنها أننى فهمت من حديثك ومن حديث غيرك عن الاسلام أنه يكاد يثنى على علاقة المسيحيين بالاسلام رغم أنهم من أعدائه ، أو على الأقل هو لا يجعل خصومتهم مع الاسلام من العداوة العنيفة والمتغلغلة فى الحقد كعداوة اليهود ، ولكنى لا أتبين هذا الفارق فى واقع الحياة اليوم ، فاليهود

والنصارى كلاهما اليوم ظاهر العداوة للاسلام ، فكيف أفهم تفريق الاسلام بينهما ؟

قال الشيخ : قولك ان اليهود والنصارى كليهما عدو للاسلام هذا حق ، ولكنك لو تأملت أسلوب كل منهما في عداوته لوجدت الفارق غير يسير ، ذلك أن معظم جهود المسيحيين فى عداوتهم الاسلام تتركز فى نشر المسيحية سـواء فى الأقاليم التى لا تدين بدين ، أو التى تدين بالاسلام وليس لديها علم ذو قيمة عنه فيما يعرف بالتبشير ، وهـذا الأسلوب أقرب الى المنافسة بينهم وبين الاسلام فى الانتشار منه الى الحقد والعداء ، وأقول معظم جهودهم كذلك لأن بعض جهودهم تتركز فى الطعن فى الاسلام والتنفير منه والتحريض عليه ، ومن القواعد المسلم بها أن الحكم دائما للأغلبية ، فأغلبية المسيحيين تسلك أسلوب العداوة الشريفة للاسلام ، بينما اليهود ليست غالبية جهودهم بل كل جهودهم تتركز فى الحقد المتوهج المتغلغل ضـد الاسـلام والمسلمين ، وكل أساليبهم محصورة فى الطعن فى الاسـلام وتأليب الناس عليه وتنفيرهم منه ، ولا يتركون جانبا من هذه الأساليب للتنافس مع الاسلام فى نشر دينهم ، لأنهم ينظرون الى دينهم على أنه خاص بهم لا ينبغى أن يدخل فيه غيرهم ، ولذلك فانهم لا يرغبون الناس فيه ، بل يحاولون طرد الناس منه ، وذلك بتشددهم فى تعريف من اليهودى ؟ هل هو من يولد من أبوين يهوديين ، أو من أب يهودى وأم غير يهودية ، أو من أم يهودية وأب غير يهودى ، وأذكر أنهم لأول مرة يتفقون فى السبعينيات من هـذا القرن على أن اليهودى هو من كانت أمه يهودية ، بصرف النظر عن انتماء أبيه ، ولكن هذا يعنى أنهم ينظرون الى اليهودية لا على أنها دين ، وانما على أنهـا عنصر من البشر يحكمه ويجمعه النسب وليس الدين كما فى الأديان الأخرى ٠

ومعنى ذلك أن عداوة النصارى للاسلام تختلف عن عداوة اليهود له ، حيث انهم مع عداوتهم يجمعهم مع الاسلام الشعور بالدين ، أما اليهود فهم فى غالبيتهم العظمى ليس لديهم الشعور بالدين حتى بدينهم نفسه ، فهو شعب بطبعه ملحد فى طول تاريخه ، وهذا الشعور الدينى الذى يقرب النصارى من المسلمين بعض الشىء تجده واضحا فى تعليل القرآن هذا القرب فى قوله تعالى (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ، واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ٠٠٠) ٠

فتلحظ أن التعبير بلفظ (الذين آمنوا) وان كان مقصـودا به المسلمون الا أن اطلاقه على الدين يعنى أن الصراع حول الدين ، واليهود

والذين أشركوا كلاهما يفقد الشعور الديني ، اليهود بطبعهم ، والذين أشركوا بعقيدتهم ، أما النصارى فلديهم الشعور الديني مهما كان الحكم على توجيههم اياه ، ولذلك كان من الواضح فى أسلوب القرآن أنه جعل هذا الشعور الدينى هو سبب قربهم نفسيا من المؤمنين ، وهذا فى قوله تعالى (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا الخ ...) .

قال الشاب : وهل ينطبق هذا على النصارى فى كل العصور بمن فيهم مسيحيو العصر الحاضر ؟

قال الشيخ : لا تنس أننى قلت ان الحكم دائما على الأغلبية كما هو معروف ، ولكن لا تنس أيضا شيئا آخر لعله أهم من هذا ، وهو أن الذين ينتمون الى المسيحية قد قطعوا رسميا الصلة بينهم وبين المسيحية منذ عدة قرون ، وأصبح انتماؤهم الى المسيحية فى حقيقته أقرب الى الانتماء العنصرى منه الى الانتماء الدينى ، بمعنى أن الانتماء الى المسيحية عندهم أصبح انتماء اجتماعيا وليس دينيا بالمعنى الصحيح للدين ، وذلك منذ الصراع الرهيب الذى حدث فى القرون الوسطى بين رجال الحكم والسياسة ورجال الدين والكنيسة ، حيث كان صراعهم وتنافسهم ينصب لا على التمسك بالدين ، وانما على السيطرة على الشعوب المسيحية ، وذلك فى كل الدول التى تدين بالمسيحية ، فرجال الدين كانوا هم أصحاب القبضة الأقوى والنفوذ الحقيقى على الشعوب ، بينما رجال الحكم والسياسة يريدون أن يكونوا هم أصحاب القبضة الأقوى أو الوحيدة ، ومما يعرفه التاريخ المسيحى من أمثلة هذا الصراع ، ومن أن رجال الدين كانوا هم أصحاب القبضة الأقوى ما حدث بين الامبراطور هنرى الرابع امبراطور ألمانيا ، والبابا جريجورى سنة سبع وسبعين وألف للميلاد حين اشتد الخلاف بينهما فأصدر البابا أمرا بخلع الامبراطور من تبعية الكنيسة وهى التى كانت قد نصبته امبراطورا ، ومعنى ذلك أنها نزعت عنه السلطة الشرعية وخلعته من منصبه وأمرت الشعب بالخروج من سلطانه وطاعته ، فاضطر الامبراطور الى التوجه ذليلا ومعه زوجه وأولاده الى مقر البابا ، ووقفوا أمام بابه ثلاثة أيام حفاة فى البرد القارس والبابا لا يأذن لهم بالدخول ، ثم أذن لهم ، فدخلوا أذلاء وانهالوا على يدى البابا مقبلين ومعلنين التوبة يستعطفونه حتى قبل توبتهم اليه وأعلن عفوه عن الامبراطور واعادته الى عضوية الكنيسة ، ولكن هذا الصراع بين رجال السياسة ورجال الدين رغم استمراره عدة أجيال وقرون بدأ ينتهى الى صالح رجال السياسة الذين وحدوا صفوفهم ضد رجال الكنيسة ، وأعلنوا فصل الدين عن السياسة بشعار (أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله) ولكنهم لم يعدلوا فى القسمة ، بل أعطوا قيصر كل شىء ، ولم يتركوا لله الا جدران الكنائس والأديرة يزاول فيها القسس والرهبان طقوسهم ، ويتردد عليها

من المسيحيين من يريد التردد ، فأصبح الدين معتقلا أو مسجونا داخل جدران الكنائس والأديرة ، ورغم أن السجن أضعفه حتى أصبح ينتهك حتى داخل الكنائس والأديرة كما يذكر مؤرخو المسيحية أنفسهم الا أن المهم أن الدين أصبح رسميا فى واد والسياسة والحياة بكل ما فيها فى واد آخر ، ومعنى ذلك بوضوح أن الحياة انفصلت عن الدين ومنها كل سلوك الناس وأوضاعهم ، وأن السياسة أصبحت لا علاقة لها بالدين ، مع أن الله أنزل كل الأديان لا لتسجن داخل أى دار للعبادة ، ولا لتصبح دور العبادة التى تسجن فيها الأديان صنما يتردد عليه الناس لتقديسه أو التبرك به ، وانما أنزل الله كل الأديان ليصوغ الناس منهـا كل سلوكهم ، وليصبغوا كل أوجه حياتهم بصبغتها ، أما أن يتحول الدين كما فعلوا الى مجرد انتماء اجتماعى كالانتماء الى وطن أو نسب أو مهنة فهذا قتل صريح للدين ، وانسلاخ منه أشد صراحة ، ومع ذلك يدعون أنهم مسيحيون ٠

ولكن من الانصاف أن نقول ان المسلمين سلكوا طريقهم ، وأوشكوا أن يصلوا الى ما وصـلت اليه الدول المسيحية من فصـل الدين عن السياسة ، بل ان بعض الأقطار الاسلامية تجاوزتهم فى ذلك ، وأن الدول المسيحية الكبرى بما تملك من امكانات سياسية ومادية وثقافية نشرت بين المثقفين المسلمين هذه الموجة من المناداة بفصـل الدين عن السياسة بأساليب عديدة معظمها ، فيما يعرف بالعلمانية التى تنادى بأن الذى يقود الشعوب الى الحضارة هو العلم وليس الدين ، واستطاعت هذه الدول الكبرى أن تجند كثيرا من المثقفين فى كل الأقطار الاسلامية ليتخذوا من هذه العلمانية عقيدة يجاهدون فى سبيل نشرها واقناع الناس بها ، وحين بدأت نفوس كثيرة فى أنحاء الأقطار الاسلامية تتقبل فكرة العلمانية بدأ قادة هذه الدول الكبرى وساستها بما يملكون من نفوذ على قادة الأقطار الاسلامية وساستها يوجهونهم الى أن يجعلوا من العلمانية أو فصل الدين عن السياسة أسلوبا سياسيا وليس ثقافيا فقط ، بمعنى ألا يكتفوا بالدعوة الى هذا المنهج ثقافيا وانما ليجعلوه سياسة لأقطارهم ، بمعنى أن تكون العلمانية هى سياسة الدولة وليس الدين ، وهأنت ذا ترى أن الغالبية العظمى من الأقطار أو الدول الاسلامية ان لم تكن كلها قد استجابت وسلكت هذه السبيل ، غاية الأمر أن بعضهـا قد قطع الطريق الى نهايتها ، وبعض الدول ما زالت تحاول الوصول الى غايتها ٠

هذا أخطر ما مر به الاسلام فى تاريخه على الاطلاق ، فان الهدف الذى يوشك أن يتحقق أو يخشى خشية واضحة أن يتحقق اذا لم يتدارك الله الاسلام بتأييده أن يحدث فى الأمة الاسلامية ما حدث فى الدول المسيحية من سجن الاسلام بين جدران المساجد ، ثم من أراد أن يذهب

للتبرك بالمسجد أو ليزاول فى داخله ما يشاء فليفعل ، ولكن لا ينبغى أن يخرج الاسلام من داخل المسجد ليمس أى شىء فى حياة الناس أو فى سياستهم ، ويصبح نصيب الله من الحياة كلها هو جدران المســاجد وما بينها ، أما الحياة بكل ما فيها فهى نصيب الساسة يفعلون بها وفيها ما يشاء لهم سلطانهم .

قال الشاب : فى الحديث عن ساسة الدول المسيحية وصراعهم مع رجال الدين ماذا كنت تتوقع أن يفعلوا غير ما فعلوه ؟ فماداموا فى خصومة وصراع فان المنتصر هو الذى يملك الموقف ويملى ما يشاء ، وقد أملى رجال السياسة على رجال الدين ألا يتدخلوا فى السياسة ، وأن يتفرغوا للدين داخل كنائسهم ، وهذا كل ما حدث .

قال الشيخ ضاحكا : وهذا كل ما حدث ؟ بل حدث الشىء الكبير والخطير ، وهو أنهم جعلوا الدين هو الضحية وحده فى هذا الصراع ، ومثل أية معركة يكون فيها قتلى ، فان الدين كان هو القتيل الوحيد فى هذه المعركة ، بينما انصرف كل طرف بعد المعركة بما أتيح له ، انصرف الساسة بما استطاعوا أن يحققوا من نصر كبير على خصومهم ، وانصرف رجال الدين بما تبقى لديهم وهو أجواف الكنائس يستقبلون فيها من يريدون التبرك بالكنيسة ، مقدمين ما تجود به أيديهم من هبات ، أما الدين فعليه رحمة الله .

قال الشاب : ولكنى سألتك ماذا كان يمكن لرجال السياسة أن يفعلوا غير ما فعلوه ؟

قال الشيخ : نحن لا نتحدث عن موقعة عسكرية بين رجال السياسة ورجال الدين ، لنرى ماذا يفعله أى طرف فى ادارة المعركة ، ولا ما يفعله طرف ما بعد انتهائها ، ولكننا نتحدث عن الدين ، ولو أنك سألت كيف كان يمكن انقاذ الدين أو الاهتمام به لكان الأمر أوضح ، بل لعلك لم تكن حينئذ فى حاجة الى السؤال ، لأن السؤال نفسه كان يمكن أن يهديك الى جواب .

وأما كيف كان يمكن انقاذ الدين ، فان الدين فى حقيقة الأمر لم يكن طرفا فى هذه المعركة ، وانما حشره أطراف المعركة فيها حشرا ، بعضهم يتخذه سلاحا يستعين به ، وبعضهم يتخذه خصما يطعن فيه ، بينما كان يمكن للأطراف جميعا أن يجعلوه خارج المعركة ، ولو كان رجال الدين مخلصين للدين لركزوا همهم فى مطالبة رجال السياسة بتحديد موقفهم من الدين ، حيث ان الدين شىء وهم شىء آخر ، فلا يتركوا الطعنات الموجهة اليهم هم تصيب الدين ، كما أن رجال السياسة لو كانوا مخلصين للدين لفعلوا هذا بأن يفرقوا بين الدين وعلماء الدين ، ومهما كانت

حربهم لعلماء الدين فلا ينبغى أن تمس الدين ، كما لو تصورنا حكومة ما سخطت على المسئولين فى مركز صناعى أو فى دور التعليم مثلا فمن البدهى أن تكون خصومتهم مع هؤلاء المسئولين ، وليس مع الصناعة أو مع التعليم ، لأن المساس بالصناعة أو التعليم مساس بحضارة الأمة وليست خصومة وقتية ، كذلك لو كان رجال السياسة مخلصين للدين فمهما كانت حربهم مع رجال الدين فقد كان ينبغى أن يضعوا الدين فى مكانه الصحيح ، وهو أنه الموجه لكل شئون الحياة ، سواء فى حياة الأفراد أو فى سياسة الدولة أو فى تشريعها ، ولكن نتيجة لأن المعركة تمخضت عن استشهاد الدين بوصفه الضحية الوحيدة فيها فان رجال السياسة وكذلك رجال التشريع يبنون سياستهم وتشريعهم على افتراض عدم وجود الدين ، فرجال السياسة لا يضعون للدين اعتبارا فى سياستهم ، ولا بأس بأن تكون سياستهم ضد الدين أو عكس الدين ، وقد اقتبس ساستنا هذا المنهج فأعلنوا أنه (لا دين فى السياسة) وحتى يكون الحظر كاملا أو الفصل كاملا بين الدين والسياسة فقد كانت تتمة الشعار (ولا سياسة فى الدين) وهو تطبيق حرفى ودقيق لموقف الدول الأوربية من الدين ، وصدق رسول الاسلام حيث يقول فيما مضمونه : لتسلكن سبيل من قبلكم من الأمم شبرا شبرا ، ولو دخلوا جحرا لدخلتموه ٠

وكذلك رجال التشريع فى الدول الأوربية التى تدعى المسيحية ، فقد جعلوا الدين وراء ظهورهم فى كل ما يشرعون ، فالتشريع ينبع فقط من مصالحهم وأهوائهم دون أن يكون لله أو للدين فيه دخل ، ومقتضى هذا أن يكون التشريع فى كثير من الأحيان معارضا للدين ومنتهكا اياه انتهاكا مزريا مهينا ، وهذا ما حدث فعلا ، فعلى سبيل المثال الزنا محرم تحريما شديدا قاطعا فى كل الأديان السماوية ، ومع ذلك نجد كل تشريعات دول أوربا تتجاهل هذا وهى تعلمه علم اليقين ، فتجعل العلاقة بين الرجل والمرأة لا يحكمها الا مجرد التراضى بينهما دون أن يكون لله أو للدين دخل فى الموضوع ، وكذلك الشأن فى الخمر ، تعلم هذه الدول أن الدين يحرمها ، ولكن تشريعاتهم جميعا تبيحها ، ولا تحاسب على شربها ، وانما تحاسب على ما قد ينتج من شربها من اضرار بالغير كما تحاسب على هذا الاضرار لو حدث من غير شرب الخمر ، بل ان تشريعهم قد يفعل ما هو أشد بشاعة ونكرا ، وما هو أكثر اهانة للدين واستخفافا به كاباحة الشذوذ الجنسى قانونا كما حدث فى بريطانيا منذ سنة سبع وستين وتسعمائة وألف للميلاد ، وهكذا فهذه مجرد أمثلة ٠

والدول الاسلامية فى غالبيتها العظمى سلكت أيضا سبيل الدول الأوربية فى تشريعها ، حيث جعلت تشريع الدول الأوربية تشريعا لها ،

ولا شك أنها تحاول أن تتم جهودها أو أهدافها فى الفصل الكامل بين الدين والحياة ان وفقت ، أو بالمعنى الصريح والصحيح فى قتل الدين ودفنه داخل المساجد لتكون المساجد مجرد قبور للدين تتفاوت فخامة مبانيها كما تتفاوت فخامة مبانى القبور ليذهب الى هذه المساجد كل من يريد التبرك بالدين ، كما يتبرك بعض الناس بقبور أولياء الله الصالحين الذين دفنوا فى هذه القبور ٠

قال الشاب : لدى سؤال غير واضح كل الوضوح فى ذهنى ، وهو يتعلق بالمسيحيين حيث أذكر أننى سمعت ذات مرة من القرآن ما يتضمن وعدا من الله للمسيح بأن يكون أتباع المسيح هم المتفوقون على الناس الى يوم القيامة ، فهل ما نراه اليوم من تفوق الدول المسيحية وسيطرتها على الأرض والعالم هو تحقيق لهذا الوعد ؟

قال الشيخ : لعلك تعنى قول الله تعالى (اذ قال الله يا عيسى انى متوفيك ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ثم الى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) ٠

قال الشاب : نعم هذا ما أعنيه ، ولا أعرف كيف أصوغ لك السؤال بالضبط ، ولكنى منذ سمعت هذا ونظرت الى الواقع لم أزل فى حيرة ، فمن المقصودون بالكافرين ؟ وهل سيطرتهم اليوم على العالم تصديق لهذا الوعد بما يفهم منه أن العالم كله كفار بالقياس اليهم ؟ وخصوصا وأنه من الطبعى أن يفهم أتباع كل دين أن دينهم وحده هو الصحيح ، وأن من عداهم يعدون كفارا ؟ أم ماذا ؟

قال الشيخ : لا شك أن فى واقع المسيحيين اليوم من تصديق وعد الله أثر واضح ومما هو أيضا تصديق للقرآن نفسه وأنه من عند الله ، ولكن ليس من الزاوية التى تتصورها أو التى تتضارب خواطرها فى نفسك ، وذلك أننا مما نقع فيه من أخطا كثيرا أن نأخذ بعض معانى القرآن مبتورة ومفصولة عن سياقها ، وأذكر من الأمثلة التى مررت بها شخصيا من هذا القبيل أننى كنت ذات مرة مدعوا الى حفل مسيحى ، وكان من المتحدثين فيه أحد رجال الدين المسيحى ، فأثار بعض نقاط يعيب بها الاسلام والمسلمين ، ومنها اتهام المسلمين بالتعصب ضد غيرهم ، وأراد أن يؤكد زعمه فساق شاهدا من القرآن على أنه تأييد لهذا التعصب ، وذلك فى قوله تعالى (ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم) على أساس أن القرآن بهذا التعبير يأمر المسلمين بالتعصب ضد من سواهم ، وكان يحضر الحفل عدد غير قليل من علماء الدين الاسلامى ، وقد رد عليه بعضهم ردا مقنعا لكل الحاضرين بأن كل ما أثاره ضد الاسلام والمسلمين غير صحيح وأنه محض تحامل ونظرة سخط على الاسلام ، الا أن ما استشهد به القس

من القرآن سمعه المسلمون فى الحفل ومنهم العلماء على أنه كما استشهد به القسيس أمر موجه الى المسلمين ، وظللت حينا وهذا الاستشهاد ماثل فى نفسى بغير اطمئنان الى أن المراد منه هو كما استشهد به المتحدث ، وأخيرا رجعت الى القرآن نفسه لأعرف السياق الذى سبق فيه هذا المعنى فاذا هو بعيد كل البعد عما استشهد به المتحدث ، بل هو عكس ما استشهد به المتحدث حيث يثبت أن غير المسلمين هم الذين يجعلون هذا المعنى شعارهم ويوصى به بعضهم بعضا وليس المسلمون ، وذلك أن السياق كله حديث عن أهل الكتاب عامة ، وهذا المعنى الذى استشهد به المتحدث منسوب الى طائفة معينة من أهل الكتاب من الواضح أنهم اليهود المحيطون بالمدينة والمحتكين بالمسلمين حين نزول هذه الآيات ، والسياق يتمثل فى آيات كثيرة جدا من سورة آل عمران ، ولكن السياق الذى يشير الى تخصيص اليهود منه قوله تعالى (يأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ، وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ، ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم ٠٠٠) فالذين يتحدث القرآن عنهم كثيرا بالمخادعة والتضليل والباس الحق بالباطل وكتمان الحق هم اليهود بالذات ، ولكن المهم أن تعبير (ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم) صريح فى أنه من كلام اليهود وتواصيهم بألا يؤمنوا الا لمن تبع دينهم وليس من كلام المسلمين ، ولا هو من أمر القرآن للمسلمين كما استشهد به رجل الدين المسيحى ٠

والشاهد فى هذه القصة أننا نخطىء حينما نأخذ بعض معانى القرآن مبتورة من سياقها ، لأن هذا البتر يمكن أن يجعلنا نفهم منها غير المراد ، بل وأحيانا عكس المراد ، أو على الأقل بعض المراد ، وهذا ينطبق على ما استشهدت به من القرآن على تفوق المسيحيين على الذين كفروا ، وما أثرته من أن بعضهم قد يفهم أن الذين كفروا بالقياس الى المسيحيين هم كل من عداهم كما يفهم ذلك أتباع كل دين ، فلو نظرنا الى السياق الذى وردت فيه الآية المشار اليها عن تفوق المسيحيين لوجدنا أنه صريح فى أن المقصودين به هم اليهود ، وذلك أن الصراع المحتدم كان بين المسيح واليهود كأى صراع بين رسل الله والذين أرسلوا اليهم ، فالمسيح عليه السلام كان طرفا فى الصراع ، واليهود كانوا هم الطرف الذى يناصبه كل العداء ، وحين اشتد الصراع وتكاثر اليهود على المسيح ، بشره الله بأنه سينجيه منهم ، وأنه سينصر دينه ويجعل أتباعه ظاهرين ومتفوقين على هؤلاء الأعداء الى يوم القيامة ، وهؤلاء الأعداء هم اليهود ، وهذا ما حدث حتى اليوم ، وما لابد أن يحدث الى يوم القيامة تصديقا لوعد الله ٠

والسياق أيضا فى آيات كثيرة وطويلة من سورة آل عمران ، ولكن

تأكيد أن الصراع كان بينه وبين بنى اسرائيل ، وأنهم هم المقصودون بالذين كفروا ، والذين سيكون أتباع المسيح فوقهم علوا ومجدا الى يوم القيامة ، هذا التأكيد يبدأ من قوله تعالى فى الحديث عن المسيح (ورسولا الى بنى اسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم ...) ، ثم بعد آيتين فقط (فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون ، ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ، ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ، اذ قال الله يا عيسى انى متوفيك ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ثم الى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) فواضح أن الذين أحس عيسى منهم الكفر هم بنوا اسرائيل الذين أرسل اليهم ، وواضح أيضا أن الذين كفروا فى تعبير (ومطهرك من الذين كفروا) هم بنو اسرائيل أنفسهم ، وحينئذ يكون أشد وضوحا أن الذين كفروا فى وعد الله اياه بأن يجعل أتباعه فوقهم هم أنفسهم الذين كفروا من بنى اسرائيل .

واذن فالمعنى واضح محدد لا يثير لبسا ولا يحتمل تأويلا ، ولا علاقة للمسلمين به لأن المسلمين لا هم من الذين كفروا بالله ، ولا من الذين كفروا بالمسيح ، وان كان المؤدى واحدا لأن الكفر برسل الله كفر بالله ، والمسلمون يؤمنون بالسيد المسيح ويعظمونه كما يعظمون نبيهم وهى أسمى منزلة لمخلوق عندهم .

واذا كان الواقع السياسى الحاضر يثير فى نفسك لبسا وهو تفوق المسيحيين سياسيا اليوم فهذا فى أحد جوانبه لا علاقة له بالدين ، وانما هى سنة الله المتمثلة فى قوله تعالى (وتلك الأيام نداولها بين الناس) فاذا كانت الدول المسيحية اليوم هى المسيطرة وحدها على العالم ، فقد كان المسلمون يوما ما ، بل وطوال عدة قرون هم وحدهم المسيطرون أيضا على العالم ، ومن يدرى فلعل دورة الزمان تعيدهم مرة أخرى الى قمة العالم ، وهذا الاحتمال هو ما يثير قلق الدول المسيحية اليوم ويدفعهم الى هذه الحرب المسعورة التى يشنونها ضد الاسلام والمسلمين فى كل مجال سياسى أو اقتصادى أو ثقافى أو دينى .

قال الشاب : أريد أن ننتقل الى موضوع آخر يتعلق بشخص نبى الاسلام ، ولست فى حاجة الى تكرار ما اتفقنا عليه من التعبير عن كل ما فى نفسى سواء أكان موضع اقتناعى ، أو مجرد خواطر لا أقرها أو مما سمعته من غيرى ، ولكن ينبغى الا تتصور أننى أعبر عن موقف أعداء الاسلام ، واذا عرضت عليك رأيا من آرائهم أو رأيا يتفق مع آرائهم فانما يكون ذلك لأنه يثير فى نفسى وساوس لم أصل الى استقرار فيها ٠

ففى سياق الحديث عن نبى الاسلام أقول ان كل الأنبياء السابقين من أصحاب الرسالات السماوية كانت لهم دلائل ومعجزات تدل على صدقهم فى ادعاء النبوة ، كمعجزة ابراهيم الذى ألقوه فى النار فاذا هو يخرج منها أمام أعينهم وهو يرتعش من البرد ، وكمعجزة موسى التى ضرب فيها البحر بعصاه فاذا هو ينشق أمام أعين أتباعه وأعدائه على السواء ، ولم يقل أحد منهم انه سحر كما قالوا عن العصا ، مما يعنى ايمانهم بأنها من عمل الله وليس من عمل موسى ، وكمعجزة المسيح الذى كان يلمس الميت الذى شبع موتا فاذا هو حى كامل الحياة أمام أعين الجميع ، ولكن نبى الاسلام فيما أعلم لم تكن له معجزة قط من هذه المعجزات ، فكيف يصدقه الناس سواء فى حياته أو بعد موته حتى اليوم دون أن يكون له شىء خارق للعادة يؤكد أنه من الله الذى أرسله ؟

قال الشيخ : وهل تعتقد أن نبى الاسلام أرسله الله بدون معجزة ؟

قال الشاب : تعنى القرآن ، فلست جاهلا الى هذه الدرجة ، فأنا أعلم أنه جاء بالقرآن ، ولكن القرآن اذا عده العرب معجزة فان غيرهم بالضرورة لا يوافقهم على ذلك ، لأن العرب يعدونه معجزة حين يتذوقون بلاغته وسمو أسلوبه ، بينما غيرهم لا يعرف العربية أصلا فضلا عن تذوقه بلاغتها ، بل ان بعض العرب أنفسهم قد لا يتذوقون بلاغة القرآن فكيف يعدونه معجزة ؟ أما معجزات الأنبياء السابقين فكانت مادية محسوسة لكل ناظر اليها مهما كانت لغته أو جنسيته ٠

قال الشيخ : الاجابة عن هذا تحتاج الى سعة ولو يسيرة فى القول ،

فانك قد خلطت فى تساؤلك أشياء قد يفهم منها البعض فهما خاطئا ، ومن ذلك حديثك الذى يوحى بأن معجزة القرآن ليست الا فى بلاغته وأســلوبه مما يترتب عليه أن القرآن يفقد اعجازه لدى من لا يتذوق بلاغته ، وهذا غير صحيح ، فانه من الحق أن أبرز ما يميز القرآن هو روعة أسلوبه ودقة تعبيره ، ولكن جوانب الاعجاز فى القرآن لم يستطع الباحثون فيه على كثرتهم وعلى طول القرون أن يحصروها حصرا يقال معه ان هذا هو كل اعجاز القرآن .

ولست أشك فى أن جانب البلاغة والأسلوب فى القرآن على أهميته وبروزه لم يكن هو الغاية أى لم يكن هو المعجزة ، وانما كان وسيلة لفتح آذان العرب وقلوبهم لســماعه ، فولعهم الشــديد بســماع جيد الكلام وحرصهم على تناقله جعلهم أيضا يولعون بسماع القرآن وتناقله ، ولكن لو كانت البلاغة كل ميزة القرآن ما كان القرآن سببا فى دخولهم الاسلام وتركهم كل تراثهم الدينى ، ولاكتفوا بأن يستمتعوا بحلاوة تعبيره كما يستمتعون بأى شعر أو نثر ، أما بلاغة القرآن فكانت كفاتح للشهية الى السماع ، فحين يستمعون يعرض عليهم القرآن موضوعه وجوهره الحافل بجوانب الاعجاز .

قال الشاب : هل تعلم أننى أضيق بالتعميم فى الأوصــاف مثل الروعة والعظمة والشمول وغير ذلك ، وأحب دائما الموضوعية ، بأن تقول مثلا ما الجانب أو الجوانب المحددة فى اعجاز القرآن غير بلاغته .

قال الشيخ : لقد حدد علماء الاسلام جوانب كثيرة لاعجاز القرآن غير بلاغته ، ولا أظن أن المجال يسمح بالتعرض لها ، ولكن منها على سبيل المثال الاخبار بمغيبات سواء للمستقبل كما فى تأكيده أن الروم سينتصرون خلال بضع سنين بعد هزيمتهم ، أو عن الماضى كما فى أخباره عن أحداث وتفاصيل فى تاريخ بعض الأمم السابقة أكدتها الآثار والأخبار الأخرى ، كما فى حديثه عن مملكة سبأ ، ولا زال علماء العالم فى مجالات كثيرة يكتشفون اعجاز القرآن وأن بعض ما ورد فيه من دقائق العلوم لا يمكن لأحد فى العصر الذى نزل فيه كان يمكن أن يعرف هذه الدقائق ، مثل تأكيد كل علماء طب الأجنة فى العالم أن أدق تصوير لمراحل نمو الجنين هو ما ورد فى القرآن ، ولم يكن محمد ولا أحد فى العالم قط حينئذ يستطيع أن يعرف ذلك ، وكما يعرف علماء البحار أن أدق وصف لأعماق البحار هو وصف القرآن للبحر اللجى وظلمات أعماقه التى بعضها فوق بعض ، وأذكر أن أحد علماء البحار من غير المسلمين حين سمع هذا الوصف سأل : هل كان محمد بحارا ؟ فقيل له بل انه لم يركب البحر ولم ينزل فيه قط ، فكان هذا سببا فى اسلامه أقول مع الوجوه العديدة

التي ذكرها علماء الاسلام لاعجاز القرآن فاني أعتقد أن من أهم جوانب اعجازه أنه يحمل صدى ذات قائله .

قال الشاب : لست أفهم ماذا تعنى بذلك ؟

قال الشيخ : في النقد الأدبى حينما ينقدون نصا أدبيا شعرا أو نثرا أو بحثا أدبيا يكون من صلب نقدهم أحيانا لبيان محاسنه أن أسلوب هذا النص يحمل شخصية صاحبه ، أو يجعلك كأنك تراه أو تتمثله موجودا أمامك يخاطبك وأنت تقرأ أسلوبه أو تستمع اليه ، بما يعنى أن الكلام الجيد يحمل مشاعر صاحبه أو انفعالاته لأن الأديب الحق هو الذى يستطيع أن يصوغ مشاعره في كلام ، وأن يضمن كلماته المشاعر التي يشعر بها نحو الموضوع ، وبالتالى فان القارىء أو السامع لكلامه اذا أحسن التأمل والتذوق يمكن أن يشعر بمشاعر صاحب الكلام التي صاغها في كلامه ، ولذلك يمكن مثلا أن نستمع الى عدة نصوص في رثاء شخص واحد معين ، ففي بعضها لا نشعر بمشاعر حزن لأن قائل هذا الكلام لم يكن صادقا في ادعائه الحزن على الفقيد ، أو لم يستطع أن يصوغ مشاعر حزنه في كلامه ، بينما نستمع الى بعض هذا الرثاء فنشعر كأن حزنا وحسرة على الفقيد قد انتقلت من الكلام الذى نسمعه فسرت في نفوسنا وأصبحنا نشارك القائل الحزن على الفقيد أو الشعور بخساوة فقده ، رغم أننا لا نعرف عن الفقيد شيئا ، ويمكن أن يكون قد مضى على فقد الفقيد أزمان غابرة ، وكذلك حين نستمع الى نص يصف مشهدا سارا أو مشهدا مخيفا أو مشهدا يثير الاحتقار أو مشهدا يثير الاعجاب فاننا أحيانا نشعر بأن مشاعر قائل هذا الكلام قد انتقلت الينا وأصبحنا نشعر فعلا بما يشعر به صاحب الكلام نحو الموضوع الذى يعبر عنه ، لأن هذا القائل قد استطاع أن يصوغ مشاعره ضمن هذا الكلام ، أو بمعنى أدق استطاع أن يعبر عن المشاعر النفسية تعبيرا دقيقا ، ولم يكتف بوصف المرئيات التي يسهل وصفها والتعبير عنها ، وعلماء النقد يختلفون في تعبيرهم عن هذا المعنى فبعضهم يجعله يبدأ من تميز الأديب عن غيره بدقة الاحساس ، كما يقولون في تعريفهم الشاعر بأنه الذى يشعر بما لا يشعر به غيره ، أو الذى يشعر لما لا يشعر به غيره ، ومضمون ذلك أنه لا يكون شاعرا الا اذا استطاع التعبير عن هذه المشاعر التي يتميز بها عن غيره ، وخلاصة هذا أن من خصائص جودة الكلام أن يستطيع قائله تضمينه مشاعره وأحاسيسه ، وحينئذ يوصف الكلام بأنه يحمل شخصية صاحبه ، أو يدل عليها ، أو يحمل خصائصها .

والواقع المشاهد يؤيد هذه النظرة ، فانك قد تدخل حفلا أو مناسبة فتجد شخصا يتحدث أو يخطب ، فتنصت اليه فتحس من حديثه أنه ذو سلطان أو منزلة عالية دون أن يعرفك أحد به ، ودون أن يكون في

كلامه ما يدل على ذلك ، وقد تفتح المذياع فتجد شخصا يتحدث فتشعر من كلامه بأنه من المفكرين ، وهكذا يدلك الكلام نفسه على شيء من صفات المتحدث ، وآثار من شخصيته دون أن تعرف شيئا عن ذلك المتحدث ، وانما يكون هذا من ايحاء الكلام نفسه ٠

ومن الواضح أن دلالة الكلام على شخصية صاحبه ليست مقصورة على الكلام الجيد ، أو على الأسلوب الأدبى ، وانما هى عامة ، فالكلام الردىء قد يكون أدل على شخصية صاحبه من الكلام الجيد ، فأنت فى كل حال تستطيع أن تحس بعقلية الشخص ومدى تنظيم فكره ومدى توازن شخصيته وغير ذلك من كلامه ، ولذلك فانه من المعروف فى الدول المتقدمة علميا أنه كثيرا ما يستدل على شخصية شخص ما من خلال دراسة علماء النفس لمذكرة أو رسالة كان قد تركها أو أرسلها الى أحد ٠ فيحددون من كلامه شخصيته وأفكاره وانفعالاته وغير ذلك ، ومن هذا القبيل ما يروى من أن عمر بن الخطاب وفد عليه أحد زعماء العرب وهو لا يعلم عنه معلومات سابقة فأراد أن يخبر شخصيته فلم يزد على أن قال له تكلم ، وأمثال العرب حافلة بهذا القبيل ، من مثل قولهم (مصرع الرجل بين فكيه) ونحو (لسان الفتى نصف ونصف فؤاده) أى نصف شخصية المرء فى كلامه ، ونصفها فى عقله ، والأحاديث النبوية كثيرة فى هذا المجال ٠

وكل هذا يؤكد أن الكلام مرآة لصاحبه ، أى هو مرآة تظهر فيها شخصية صاحبه ٠

والقرآن كلام فلماذا يشذ عن هذه القاعدة ؟ وهو كلام الله ، فلابد أن يحمل آثارا من ذات الله سبحانه وجلاله ، بحيث يشعر السامع المتأمل والمتذوق شعورا واضحا بجلال غير عادى ، وبروح غير عادية تشع من خلال هذا الكلام ، والسامع وان لم يستطع أن يحدد هذا الذى يشع من خلال تعبير القرآن الا أن نفسه اذا تجردت من الأهواء الشخصية تمتلىء تهيبا من هذا الكلام وخشوعا له ، دون أن تحدد سبب هذا التهيب وهذا الخشوع ، وهذا ما كان يشعر به العرب حين يسمعون القرآن لأول مرة ، وهم أعرف الناس بالكلام وأشدهم تذوقا ونقدا له ، وسواء من آمن منهم بأنه كلام الله ، أو من جحد ذلك ، فانهم أجمعوا على أنه كلام غير عادى ، وأنه يهز المشاعر ويزلزل القلوب ، فأما المؤمنون فقد عرفوا السبب وهو أنه كلام الله ، فبطل لديهم العجب من تأثيره فى نفوسهم ، وأما الكافرون المكذبون بأنه كلام الله فقد ظلوا يبحثون عن سبب مقنع لهذا التأثير الغريب الذى يشعرون به حين يسمعونه ، وظلوا يتنقلون بين عدة أسباب من نحو أنه شعر أو سجع كهان أو نحو ذلك فلم يجدوا شيئا من هذه

العلل مقبولا لدى الناس أو لديهم هم ، حتى اهتدى مفكرهم الذى نوه به القرآن فى سورة المدثر الى سبب بدا كثير من الناس يتقبلونه ، وهو أن هذا الكلام نوع من السحر الذى تعلمه محمد ، وذلك لأنه وازن بين تأثير السحر الذى يزاوله بعض الناس فيؤثرون به فى عواطف من يوجهونه اليه ومشاعرهم ، فيستطيعون به التفريق بين عاشقين أو زوجين بتحويل حبهما الى بغض ، وكذلك بين صديقين وهكذا ، ووجد أن القرآن يفعل فى نفوس سامعيه كثيرا من نحو ذلك ، حين يتأثر به شخص فيؤمن به فينفصل عن زوجه التى ترفض الايمان به أو عن صديقه الرافض وهكذا ، والمهم أن هذا التأثير الذى يشع من القرآن والذى اتفق على الاحساس به كل سامعيه سواء المصدق بالقرآن والمكذب به لم يشعروا به نحو أى كلام آخر ولو كان كلام محمد ، فمحمد عاش بينهم أربعين سنة قبل أن يقول هذا القرآن ، ولم يكن قبله عييا ، ولم يطرأ على فصاحته أى تطور بعد الاسلام ، ولم يدع أحد من أعدائه المعاشرين له ذلك ، ومع هذا فلم يصفوا شيئا من كلامه قبل القرآن بأن له تأثيرا خاصا أو أى وصف مما وصفوا به القرآن على أساس أنه من كلام محمد . فلماذا لم يصفوا شيئا من كلام محمد قبل القرآن بشىء مما وصفوا به القرآن ؟ وكذلك كان محمد صلى الله عليه وسلم بعد نزول القرآن يقول مواعظ كثيرة ، ويتحدث بكلام غير قليل يحمل نهج القرآن فى الدعوة الى الله والتحذير من عصيانه أو الكفر به ، وفى الدعوة الى الخلق والاستقامة ونحو ذلك ، فلم يدع أحد قط سواء من المؤمنين أو المكذبين أن كلام محمد له هذا التأثير الذى يحدثه القرآن فى النفوس .

وكل هذا يؤكد أن القرآن بوصفه كلاما لا يشذ عن سنة الحياة والناس فى أن الكلام لابد أن يحمل آثار قائله ولمحات عن شخصيته ، وقائل القرآن هو الله ، فلابد أن يحمل القرآن أشعة من ذات الله سبحانه ، وهذه الأشعة هى التى تحدث فى نفس سامع القرآن لأول مرة ما تحدثه من تأثير قد تختلف تعبيرات السامعين عنه ولكنها تتفق على أن له فى النفس والمشاعر تأثيرا ليس لغيره من الكلام اطلاقا .

قال الشاب : قد فهمت ماذا تعنى ، ولكننى مازلت لم أفهم كيف أن هذا التأثير النفسى للقرآن يعد معجزة من معجزات الله وخوارقه ؟

قال الشيخ : ذلك لأن القرآن هو الكلام الوحيد الباقى على الأرض من كلام الله ذاته ، فالقرآن يتحدى أن يأتى أحد على الأطلاق بكلام يشبه القرآن أى يحمل آثارا واشعاعا يدل على ذات الله وجلاله ويشعر السامع معه أن هذا الكلام صادر ليس من قوى مدبر فقط ، وانما من الاله المهيمن على كل شىء ، والمدبر لكل شىء ، ومن أمثلة التحدى فى القرآن (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله

ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) فالانس والجن لو اجتمعوا جميعا وتعاونوا على أن يأتوا بمثل القرآن أو بمثل شيء منه فلن يستطيعوا لأن كلامهم مهما بلغت جودته سيحمل آثار شخصياتهم هم ، ولن يحمل آثار ذات الله ، فلن يكون لكلامهم من التأثير النفسي ما للقرآن ٠

قال الشاب : ولكن هذا لا يذهب ما في النفس من عجب من أن رسولا من الله لا يمنحه الله شيئا من الأمور الخارقة للعادة حتى ولو لمجرد أن يزداد أتباعه ايمانا بأنه مرسل من الله ٠

قال الشيخ : ومن قال لك ان الله لم يمنحه هذه الخوارق للعادة والمألوف ، بل كثيرا ما كانت تحدث على يديه أمور خارقة للعادة حينما يكون الموقف محتاجا اليها ، فمثلا حينما يكونون في سفر ويوشك الماء على النفاد ، ومعنى ذلك أن أصحابه سيهلكون عطشا ، كان يأتي بالوعاء وفيه الماء القليل الباقي فيضع أصـــابعه فيه ويطلب من المسلمين أن يشربوا ،فيظلوا يشربون ويرتوون حتى يشربوا جميعا والماء لم ينقص ، ومن أمثلتها الروايات المشهورة عن الخوارق للمألوف التي حدثت في أثناء هجرته من مكة الى المدينة من قصة العنكبوت التي نسجت خيوطها حتى ســدت مدخل الغار كله في ساعات ، ومن سوخان قوائم فرس سراقة في الرمال حين اراد أن يدل قريشا عليه ، ومن انبعاث الحيوية وادراد اللبن في النعجة العجفاء لأم معبد وغير ذلك ، بل وأغرب من ذلك كثير حدث له كقصة الاسراء والمعراج ٠

قال الشاب : فلماذا لم يعد المســـلمون هذه الخوارق معجزات لنبيهم ؟

قال الشيخ : ذلك لأن المعجزة ليست كل أمر خارق للعادة ، فان الله كثيرا ما يكرم بعض عباده من غير الأنبياء بأمور خارقة للعادة فلا تعد معجزات ، لأن العلماء يعرفون المعجزة بأنها (أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعي النبوة على وجه التحدي تصديقا له في دعواه) فلابد للمعجزة أن تكون على يد مدع للنبوة ، وأن يتحدى بها قبل وقوعها ، فمثلا حين طلب الله من موسى أن يضرب البحر بعصاه وأخبره أن البحر حينئذ سينشق قسمين ، فان موسى عندئذ سيخبر قومه مقدما بهذا مؤكدا أن البحر سينفلق ليتأكدوا من صدق ادعائه النبوة ، ولو أن البحر انشق من تلقاء نفسه حينئذ لن يكون معجزة ، فلابد لأية معجزة أن يخبر النبي بها قبل حدوثها ، وخوارق محمد صلى الله عليه وسلم لم يخبر بها مقدما وانما كانت اكراما له في مواقف يحتاج اليهــا فيها فلم تكن معجزات بالمعنى العلمي للمعجزة ٠

قال الشاب : أخشى أن يكون في أسئلتي حول هذا الموضوع اثقالا عليك ، فلا أخفي عنك أن عقلي لم يقتنع بعد كل الاقتناع ، فلو افترضنا

أن الناس اقتنعوا بأن القرآن معجزة أفلا يقول بعضهم لماذا ترك الله المعجزات الحسية التي تبهر الناس ولا يختلفون على خرقها للعادة واختار المعجزة لمحمد كلاما قد يختلف الناس في خرقه للعادة ؟

قال الشيخ مبتسما : لا أريد أن أختلف معك في أن المعجزات الحسية المادية كانت وما زالت تبهر الناس ، ولكن هذا ليس مهما ، بل لا قيمة له لذاته ، أما المهم فهو هل دفعت هذه المعجزات المادية الناس الى الايمان ؟ والجواب بالتأكيد لا ، فانى لا أعلم أن معجزة سابقة على الاطلاق كانت سببا فى الايمان برسولها ونشر دعوته ، وانما أعلم أن المعجزات كانت سببا فى الاساءة ، الى الأنبياء واتهامهم بمزاولة السحر ، لأن أية معجزة مهما كان نوعها انما تتميز بغرابتها عن المألوف ، فما ان يفيق الناس من انبهارهم بتأثير المعجزة الوقتى فى نفوسهم حتى يسارعوا الى اتهام النبى بأنه ساحر ، وقد أكد القرآن أنه ما من رسول على الاطلاق الا واتهمه قومه بالجنون والسحر ، فى قوله تعالى (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون) ومن أمثلة ذلك ما صنعه فرعون من اتهامه موسى بالسحر ، واقامة مباراة بينه وبين السحرة ٠

واذن فالمعجزات الحسية المرئية انتهت جميعا الى عكس النتائج المرجوة منها ٠

قال الشاب : كيف تقول هذا وأتباع اليهودية الآن بهذا الحجم الكبير ، وأتباع المسيحية بهذا العدد الهائل ؟ أعنى أن المعجزات أتت بنتائج هي كثرة الأتباع ٠

قال الشيخ : مما يؤسف له أنه لا اليهود أتباع لليهودية ، ولا المسيحيون أتباع للمسيحية ، كما أن معظم المسلمين ليسوا أتباعا للاسلام ، وانما أصبحت الأديان أشبه بالجنسيات التي يكفى الشخص أن ينتمي اليها عنصريا وتكتب فى بطاقة التعريف به على أن ديانته كذا ولا شيء يذكر فوق ذلك الا ما ندر ، سواء في ذلك موقف الأفراد وموقف الدول ، فالله سبحانه انما يحاسب الناس على أمرين لا ثالث لهما ، على القلوب وما تحمل من عقيدة ، وعلى السلوك ومدى مطابقته لما شرعه من الدين ، أما الحجم والعدد صغر أو كبر فلا قيمة له فى ميزان الدين ، ونحن نتحدث عن الأنبياء وما جاءوا به من المعجزات ، فان نجاح المعجزة أو فشلها انما يكون فى مدى تصديق الناس بها ، ومن ثم تصديق النبى صاحبها والايمان به ، ومن المعروف أن معجزات الأنبياء جميعا - وكلها كانت حسية مرئية - لم تؤد الغرض المرجو منها على يد الأنبياء ، فقد كان الأنبياء يطلبون من أقوامهم أن يديروا هذه المعجزات فى تفكيرهم ليصل هذا التفكير الى يقين عقلى بصدق النبى ، وبالتالى الى تقبل رسالته

التى يحملها من الله اليهم ، ولكن أقوامهم كانوا يقفون منهم موقف العداء رافضين مجرد استخدام عقولهم ، ولو أن أى انسان استخدم عقله تجاه الله أدنى استخدام مجرد من المؤثرات الشخصية والاجتماعية لوصل الى يقين الايمان ، وكانت النتيجة أن باء الأنبياء بالفشل والتكذيب ، وكثير منهم كان جزاؤه القتل ، وكان النبى يموت وليس له من الأتباع سوى الأفراد أو العشرات ، حتى ان نوحا الذى كانت حياته نفسها فى طولها أشبه بالمعجزة يروى أن أتباعه بعد هذا العمر المديد فى النبوة لم يتجاوزوا أربعين أو سبعين نفسا .

والنبى الوحيد الذى مات عن أمه كاملة تؤمن به وتتبعه هو محمد ، وهى حقيقة تاريخية لا ينازع فيها حتى أعداء الاسلام .

قال الشاب : قد لا ينكر الناس هذه الحقيقة ولكنهم قد لا يفهمون سببها ، وقد لا يقتنعون بأن الدين هو الذى أوجد هذه الأمة ، بل قد يقول بعضهم ان القوة العسكرية التى لجأ اليها محمد هى التى أوجدت له هذه الأمة من الأتباع وليس الدين هو الذى اوجدها .

قال الشيخ : قد يثار هذا الافتراض لو أن محمدا نشأ فى دولة لها تنظيم ومنه الجيش أو القوة العسكرية ، فيفترض أن محمدا استطاع أن يصل الى القبض على زمام الجيش أو أية قوة فى الدولة ثم يستغل هذه القوة فى تحقيق أهدافه ، ولكن محمدا نشأ فى مجتمع بدوى أمى لم تكن له فى تاريخه دولة ، ولم يكن له قط أى تنظيم أو تجمع عام ، وانما كان مجرد قبائل متصارعة متناحرة ، وهذا المجتمع ناصب محمدا أشد العـداء ، وقال فيه من السـوء ما قيل أو أكثر مما قيل للأنبياء السابقين ، حتى انه قضى فى مكة ثلاثة عشر عاما يدعو الى الاسلام فلم يبلغ عدد أتباعه فى مكة أربعين شخصا معظمهم من العبيد المستضعفين .

واذن فلم تكن هناك قوة عسكرية أو غير عسكرية ــ غير دعوته ــ لجأ اليها ليستعين بها ، وانما كانت دعوته وحدها هى المصدر الذى أوجد القوة العسكرية ، وأوجد الأتباع ، وحقق وجود الأمة التى مات عنها نبى الاسلام وهى خير أمة أخرجت للناس .

قال الشاب : أظن أننا مازلنا ندور فى الحلقة المفرغة ، وهى أن كل الأنبياء السابقين كانت لهم أديان يدعون اليها كما كان يدعو محمد ، فلماذا تكونت لمحمـد من دعوته فى حياته أمة ولم يتحقق هـذا لنبى سابق ؟

قال الشيخ : من القصور الشديد حين نتحدث عن الأسباب فى الأمور العامة أن نحصرها فى سبب أو أسباب محددة ، بل هناك فى العادة

أسباب رئيسة ، وأسباب فرعية أو جانبية ليس من اليسير حصرها ، ولكن قيام أمة أو دولة اسلامية بهذه السرعة في حياة نبى الاسلام مهما تعددت أسبابه فلاشك أن هناك سببين جوهريين هما الأساس ، وهما اللذان اعتمدت عليهما كل العوامل الأخرى ، وأحد هذين السببين شخصية محمد صلى الله عليه وسلم بما وضع الله فى تكوينها من كل جوانب الخلق العظيم ، والجاذبية الشديدة لكل من يتصل به أو يتجه اليه ، والسبب الآخر هو القرآن ، ومع أنه ليس من اليسير فصـــل السببين بعضهما عن بعض فى دعوة الاسلام الا أن كلا منهما يمكن أن نلمح له خصائص تميزه ، فشخصية النبى كان أبرز طابعها القدوة الحسنة ، بمعنى أنه كان يؤثر فى كل من يتصـــلون به فى أخلاقهم وسلوكهم ومحاولتهم أن يقلدوا خلقه وسلوكه ما استطاعوا ، ولذلك كان الجيل الذى اتصل بالنبى اتصـــالا مبـــاشرا والذى يعرف بأصحاب النبى فى مجموعه مثلا عليا ، ونماذج بالغة الرفعة والسمو ، لأنهم كانوا بمثابة التلاميذ الذين رباهم النبى بنفسه ، وأما القرآن فكان أبرز طابعه التأثير النفسى والاقناع العقلى ، وبحكم كونه كلاما يمكن التنقل به ونشره فقد كان له الفضل فى انتشار الاسلام على هذا النطاق الواسع فى هذا الزمن الوجيز ، ويمكن أن يصاغ هذا فى تعبير آخر ، هو أن شخصية النبى كان لها فضل العمق ، أى تعميق مبادىء الاسلام فى نفوس المتصلين به ، وأن القرآن كان له فضل التوسع فى نشر الاسلام ، فان النبى لم يتجاوز فى دعوته بشخصه نطاق مكة والمدينة ، أما القرآن فكانت تتناقله الركبان والقوافل والرواة فى كل وجه ســـواء بقصد نشره للدعوة الى الاسلام ، أو بقصد نقل الطرائف والأخبار من مكان الى مكان ، وكانت دعوة الاسلام حينئذ أحدث وأطرف خبر يتنقل به هواة نقل الطرائف والأخبار ، بل ان أعداء الاسلام كانوا أحيانا يسهمون فى نشر الاسلام بدون قصد ، أو بقصد العكس ، حيث كانوا يتنقلون بسخطهم على محمد وعلى دعوته ، متحدثين بأنه يقول كلاما غريبا ينسبه الى الله ، وسواء ذكروا أمثلة منه أو لم يذكروا فانهم يثيرون فى الناس الفضول وحب الاستطلاع للسؤال عن هذا الكلام الذى هو القرآن حتى يستمعوا الى شىء منه ، فيحدث ما لم يكن يتوقعه أعداء الاسلام ، أو ما كانوا يخشونه وهو أن يقتنع بعض السامعين للقرآن بصدقه فيؤمنون ، ثم يصبحون وسيلة من وسائل نشره وهكذا ، وأما الأسباب الجانبية فى انتشـــار الاسلام فأهمها تهيؤ البشرية ونضجها العقلى .

وحيث كان سؤالك منصبا على المفاضلة أو الموازنة بين الاســـلام وغيره فى الانتشار منذ بدء أمره ، فأقول لك ان هذه الميزة التى تميز بها الاسلام من انتشاره فى بدء أمره نبعث من تفوق العوامل التى ساعدت على نشره تفوقا واضحا عن العوامل التى اعتمدت عليها الأديان السابقة ،

ففى العـاملين الأساسيين وهما شخصية النبى والقرآن ، نجد تفوق شخصية نبى الاســلام فى مجالات عديدة منها التكوين الخلقى المتعدد المواهب ، ومن أبرزه التزام المبادىء والقيم الخلقية والانسانية سواء قبل نبوته أو بعدها مما أكسبه الثقة الكاملة من كل الذين يعرفونه ، ومنه لين الجانب وطابع السماحة والعفو مما جعل فى شخصه جاذبية شديدة لكل من يتصـل به ، ومنه مع هـذا اللين قوة العزم وقوة الشخصية والشجاعة الباهرة مما كان يملأ نفوس كل من يتصل به تهيبا واكبارا ، والقرآن يشير فى وصف جامع الى خلق نبى الاســلام فى قوله تعالى (وانك لعلى خلق عظيم) ويشير الى بعض التفاصيل من هذا الخلق ومنها طابع اللين والرحمة فى خلقه والى أثر هذا فى التفاف الناس من حوله فى قوله تعالى (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) وأيضا فى قوله تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) وكذلك من مزايا نبى الاسلام فيما يتعلق بانتشار دعوته وكثرة أتباعه فى حياته هذه الدرجة الباهرة من البلاغة وحكمة اللسان التى كانت دائما تلفت نظر كل الفصحاء وسادة الكلام من العرب حيث كانوا يبهرون من قدرته التى لا توصف على اجتذاب آذان وقلوب سامعيه حين يتحدث رغم قلة كلامه وايجازه ، وهذه الصفة عبر عنها النبى فى قوله فى حديث مشهور أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى ، وذكر من الخمس قوله : أوتيت جوامع الكلم ، أى خصنى الله بالكلام القليل الذى يتضمن فيضا من المعانى ، واللسان هو أسلوب الدعوة ووسيلتها فى اجتذاب الأتباع ، ولعل هذه الميزة مما يتضمنه قوله تعالى (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) وتبدو أهمية هذه الميزة فى محمد اذا نظرنا الى احساس موسى ــ رغم أنه من صفوة الأنبياء ــ بان لسانه ليس من الطلاقة والفصاحة بالدرجة التى يتمناها للتأثير فى السامعين فيطلب من ربه أن يعينه بمن هو أفصح منه لسانا فى قوله تعالى عنه (وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى انى أخاف أن يكذبون) .

أما ثانى العاملين فى أساس انتشار دعوة الاسلام بهذه القوة وهذه السرعة وهو القرآن ، فاذا نظرنا اليه فى سياق الموازنة بينه وبين وسائل الدعوة فى الأديان السابقة فلا يوجد وجـه ذو قيمة للموازنة الحقيقية بينهما ، ذلك أن القرآن سواء بمادته أو بأهدافه يختلف عن أية وسيلة اعلام أو دعوة فى أى دين سابق ، فمن حيث مادته هو الكتاب الدينى الكامل الذى يجمع بين كل ما يتطلبه الدين فى العبادة الروحية بكل صورهـا ، وبين كل ما تتطلبه الحيـاة من أحكام التشريع لكل جوانب الحياة ، فهو الكتاب السماوى الوحيد الجامع لكل متطلبات الدين والدنيا ،

ومن الواضح فيه أنه ليس موجها الى بيئة أو قوم معينين ، ولا الى عصر أو جيل معين ، وانما هو عام مطلق للزمان والمكان والمجتمع • ولا شك أن هذا من دواعى وأسباب تكامله ، وفضلا عما سبقت الاشارة اليه من ثبوت نصه وتصدى هذا الثبوت لأية محاولة للتغيير فى أسس الاسلام التى تضمنها القرآن بوضوح ، فضلا عن ذلك فان الاسلام مدين له بسعة الانتشار فى وجوه الأرض ، ولا تنافسه فى هذه الميزة أية وسيلة دعوة أخرى فى الاسلام ، فان شخصية النبى صلى الله عليه وسلم مهما يبلغ تأثيرها فان هذا التأثير مرتبط بمحيط النبى ومن يتصل به ، ومهما جند من دعاة لنشر دعوته فان هؤلاء الدعاة لن يبلغوا من التأثير ما تبلغه شخصية النبى ، ولن ينالوا من الثقة فيهم ما تناله شخصية النبى ، أما القرآن فقد كان له من التأثير ما لا تنافسه وسيلة أخرى ، وكان تنقله فى أنحاء القبائل ووجوه الأرض يتم فى أقصى سرعة متاحة ولو من باب تناقل أغرب وأخطر ما تناقله الناس حينذاك بينهم بصرف النظر عن تصديقه أو تكذيبه ، ولكننا لو تأملنا حالة المكذبين فى داخل نفوسهم لو جدنا أمرهم يختلف عن ظاهر تكذيبهم ، فان المكذب قد يعلن تكذيبه ، وقد يقرنه بسخط أو سباب أو وعيد لأصحاب هذا الدين الجديد ، ولكن ما سمعه من القرآن يلاحقه فى تفكيره ، وفى خلوته ، وفى سمره حين يصفو الحديث بينه وبين صديق ، ونتيجة الموازنة بين ما يدعو اليه القرآن وبين عبادة الصنم الذى يعبده هذا المكذب واضحة ، فسيعرف فى أغلب الأحيان فى داخل نفسه أن تكذيبه بالقرآن مغالطة لعقله ، ومكابرة فى الحق ، ولا يستطيع نسيان هذه الخواطر لأن الذى أثارها أصبح كامنا فى داخله وملازما له وهو القرآن ، وكل هذا لم يتح لدين سابق قبل الاسلام •

وأما العامل الجانبى فى سرعة انتشار الاسلام فهو تهيؤ البشرية ونضجها العقلى ، فقد سبق الحديث عن أن البشرية فى مجموعها تعد كيانا واحدا تسرى عليه قوانين النمو والتدرج علوا والحطاطا مثل الفرد والجماعة والأمة ، وسبقت الاشارة الى أن البشرية عند مجىء الاسلام كانت بالضرورة أكبر نموا وأنضج تفكيرا منها فى أزمان الأنبياء السابقين ، وهذا كان من العوامل التى ساعدت على سرعة فهم الناس للاسلام ، وسرعة اقتناعهم به ، ولم تكن قبل ذلك مهيأة بمثل هذه الدرجة •

قال الشاب : أعتقد أننا كنا نتحدث عن المعجزات ، ولماذا كان القرآن هو المعجزة الوحيدة التى لم تكن محسوسة مرئية ؟ وأظن أننا بعدنا عن صلب الموضوع •

قال الشيخ : بل قل استطردنا بعض الشىء وهذا حق ، ولكنه لم

يكن استطرادا يخرج الحديث عن الموضوع ، وانما كان بسطة لابد منها للوصول فى تدرج معقول الى الاجابة المباشرة . وأظن أننا وصلنا الى مدخل الاجابة المباشرة ، وهى أن البشرية فى أطوار نموها وتطورها العقلى والثقافى أشــبه بالفرد ، فالأطوار الأولى كانت طفولة فى البشرية ثم تطورت حتى وصلت الى النضج فى آخر أطوارها ، وآخر أطوارها صاحبه آخر دين سماوى وهو الاسلام ، فحينما جاء الاسلام كانت البشرية فى بداية الطور الأخير من نضجها ، فجاء الاسلام وصاحبها فى هذا الطور من بدايته ، وسيظل يصاحبها فى مراحل نضجها فيه الى آخر الزمان ، وحيث كان هذا الطور هو قمة نضج البشرية عقليا وثقافيا بصرف النظر عن مراحل نضجها فيه فقد كان من الحكمة أن تكون المعجزة الدينية للنبى المصاحب لهذا الطور عقلية وليست حسية مرئية ، لأننا لو طبقنا الدين على واقع الحياة فسنجد النتيجة توجب هذا ، وذلك أن الأديان السماوية نوع من التعليم للناس ، ولو نظرنا الى مناهج التعليم البشرى الذى وصلت اليها عقول علماء التربية والتعليم فى العالم تؤكد أن مراحل الطفولة تحتاج فى التعليم أكثر من أية مرحلة أخرى الى الاعتمــاد على الحواس والماديات المرئية أكثر من اعتمادها على العقل المجرد أو الأسلوب النظرى ، ولذلك رأوا أنه لابد من ايجاد وسائل للايضــاح فى التعليم الابتدائى ، فبدل أن يقال للطفل ان خمسة تضاف اليها خمسة تصبح عشرة ، يصوغون الخمسة فى أشياء مرئية كخمس كرات مثلا ، ثم يستخدم أصابعه ليعد بها ، ولتكون هذه الوسائل معاونة لعقله الصغير على الوصول الى النتيجة ، فاذا انتقل هؤلاء الأطفال الى المرحلة الاعدادية أو المتوسطة التى تلى المرحلة الأولى يقل الاعتماد على الوسائل الايضاحية الحسية ، ويزيد الاعتماد على الأسلوب النظرى العقلى ، وهكذا حتى اذا وصلوا الى مرحلة التعليم العالى أو المرحلة الأخيرة من التعليم العام فلن تكون هناك حاجة الى وسائل الايضاح الحسية ، بل يكون الاعتماد كاملا على الاسلوب النظرى العقلى ، لأن عقولهم تكون قد وصلت الى مرحلة النضج الذى يهيؤهــا لتقبل الاســـلوب النظرى العقلى دون حاجة الى الاستعانة بوسائل حسية .

وهكذا الشأن فى الأديان السماوية بوصفها نوعا من التعليم الذى صاحب البشرية منذ طور طفولتها .

قال الشاب : ولكن الوسائل الحسية أو النظرية انما يكون تدرجها فى التعليم نفسه ، أعنى فى وسائل التعليم . والأحكام الدينية والتوجيهات هى وسائل التعليم ، أما المعجزات التى يأتى بهـا الأنبياء فليست من التعليم كما هو واضح ، والتدرج كان فى المعجزات كما أفهم الآن من كلامك وليس فيما جاء به الأنبياء من أحكام وتوجيهات دينية ، فكيف أفهم تشبيهك التدرج فى المعجزات بالتدرج فى وسائل التعليم ؟

قال الشيخ : بل التدرج كان فى الاثنين ، فى الأحكام الدينية ، وفى المعجزات ، أما الأحكام الدينية فقد سبق الحديث عن التدرج فيها من حيث انّ الأديان السابقة كانت مجرد توجيهات ومواعظ مهما كثرت فهى فى محيط الجانب الدينى الروحى والعبادات ، أما الاسلام فهو الذى جاء فى نهاية التدرج بالتشريع الكامل للدين والدنيا وبالعقوبات المحددة للمخالفات فيهما .

وأما عن حديثك عن اختلاف وجـه الشبه بين المعجزات والتعليم حيث فهمت من كلامك أنك تعنى أنه كان يجب الموازنة بين الأحكام الدينية والتعليم البشرى المعروف ، أما المعجزات فهى خارج هذا النطاق ، فأقول لك اننى لا أعنى الموازنة بين نوع ونوع ، وانما أعنى التدرج من حيث هو ، أى أعنى أن التدرج فى المعجزات له مثيل ومقابل فى حياة الناس ، والمعجزات وان لم تكن فى ذاتها تعليما الا أن كل ما يأتى به الأنبياء من تعليم للناس متوقف قبوله عند عامة الناس وغالبيتهم على المعجزات ، فكل الهدف من المعجزات هو أنها وسيلة لتصديق الأنبياء وبرهان على أنهم رسـل من الله ، فاذا صدقهم الناس تقبلوا منهم رسالتهم التى يحملونها من الله ، واذا لم يصدقوا رفضوها ، واذن فالمعجزات مدخل مباشر للدين بوصفه تعليما .

والنتيجة التى ننتهى اليها أننا فى الموازنة بين معجزات الأنبياء السابقين الحسية والقرآن نجد أن المعجزات السابقة كانت ملائمة للعصور التى صاحبتها لأن البشرية كانت فى طفولتها أو فى أطوار نموها فكانت فى حاجة الى معاونة العقل بالاعتماد على الوسائل الحسية كما يحدث فى الاعتماد على وسائل الايضاح الحسية فى تعليم الصغار ، ولكن حين بلغت البشرية طورها الأخير فى النضج لم تكن فى حاجة الى الحسيات لمعاونة ادراكها العقلى ، ولذلك كانت معجزة الاسلام عقلية محضة ، وأما فى الموازنة الموضـوعية بين المعجزات السـابقة ومعجزة القرآن فنجد أن المعجزات السابقة كانت محض وسائل لتصديق الأنبياء ، أما القرآن فقد جمع بين كونه وسيلة لتصديق النبى واشتماله على شريعة الاسلام ، فهو وسيلة وغاية معا .

قال الشاب : سمعتك تقول الآن ان عامة الناس وغالبيتهم يتوقف تصديقهم الأنبياء على المعجزات ، فماذا تعنى بالعامة والغالبية ؟

قال الشيخ : أعنى بالعامية والأغلبية الذين لا يستخدمون عقولهم ، فعامة الناس وغالبيتهم يحكمون على الأمور من خلال حواسهم وليس من خـلال عقولهم ، حيث ينقـادون للتوجيه بما يسـمعون ، أو ينفعلون بما يشـاهدون ، فينساقون فى مواقفهم وسلوكهم على هـذا الأساس ،

ولذلك يستغل السادة والزعماء فى المجتمعات هذه الظاهرة فيقودون العامة والغالبية بما يلقون في آذانهم من أســاليب التأثير ويكفي أن يكون الاسلوب صادرا عن سلطة أو جهة قوة ليقودهم الى حيث يريد قادتهم ، وإلى هذا المعني يشير أحمد شوقي في تعبيره عن انقياد الشعب لما يلقيه اليه حكامه من توجيه وان كان خادعا أو مضللا ، حيث يقول فى أحد مشاهد مطلع رواية مصرع كليوباترا : يا له من ببغاء عقله فى أذنيه ، بمعنى أن العقل الموجه للعامة لا ينبع من تفكيرهم ، وانما ينبع من آذانهم •

وكذلك موقف الناس من الأنبياء ، كان المفروض أو المنطق أن يكون موقف الناس نابعا من عقولهم ، بمعنى أن يفكر الناس فيما يعرضــه عليهم الأنبياء تفكيرا موضوعيا مجردا ، ولو فعلوا ذلك لآمن الناس جميعا بالأنبياء دون جهد من الأنبياء أو صراع مع اتباعهم ، لأن أساس ما يدعو اليه كل الأنبياء وهو الايمان بالله الواحد الخالق المدبر لكل شيء لا يحتاج الى جهد أو التواء فى فهمه أو الاقتناع به لدى أى عقل مجرد من المؤثرات الشخصية أو الاجتماعية ، بل ان العقل وحــده ولو بدون توجيه من الأنبياء ينبغى أن يكون كافيا للوصول الى هذه الحقيقة الدينية ، خصوصا وأن الله ركز فى تكوين النفس البشرية أساس الاحساس بوجود الله ، مما لحظه علمــاء الاجتماع فى دراستهم عن كل المجتمعات على اختلاف مستوياتها وعبروا عنه بالغريزة الدينية ، ونبى الاسلام قبل علماء الاجتماع بقرون عديدة أشار الى هذه الحقيقة فى قوله : كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، والفطرة فى الحديث الشريف اشارة الى قوله تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها) فالقرآن اذن هو الذى قرر هذه الحقيقة ، وهى أن الناس مخلوقون وفى تكوينهم الاحساس بالدين الحنيف وهو وحدانية الله ، ولكن المجتمع الذى ينشأ فيه الفرد هو الذى يغير وجهته الدينية ، ولذلك فان بعض علماء الكلام منذ أكثر من ألف ومائتى عام يشيرون الى هذه الحقيقة من خلال تفسيرهم قوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) حيث يقولون ان العقل هو الرسول الأول الى البشر ، ومن شأن العقل أن يهتدى بذاته الى الله ويحس بوجوده ، فارسال الأنبياء ليس للحجة على الناس ، وانما لايقاظهم وتنبيههم اذا غفلوا عن هذه الحقيقة ، أما الحجة فهى العقل ، ومن أتباع هذه الطائفة الامام الزمخشرى المفسر المشهور المولود سنة سبع وستين وأربعمائة للهجرة •

قال الشاب : ولكن هناك فيما يتعلق بالقرآن امور أقول لك بصراحة انها لا تصل في النفس الى درجة الاقتناع ، وأعنى أن كل الذين يتحدثون عن اعجاز القرآن يجعلون جودة أسلوبه وبلاغته أساس اعجازه ، واعجازه يعنى أنه معجزة لا يستطيع أحد أن ينافسها ، والذى يبعث فى النفس

التساؤل هو أن الذين يتحدثون عن هذا الاعجاز لا يبرزون ما يقنع النفوس كل الاقناع بأن فى أسلوب القرآن هذه الدرجة الخارقة للعادة ، بينما نقاد الأدب حينما يريدون ابراز جودة أسـلوب أو شعر تراهم يحددون المزايا والصور التى تقنع السامع بهذه الجودة أو هذا التفوق على غيره ، أما علماء الاسلام فانهم يركزون حديثهم عن مزايا أسلوب القرآن فى هذه الأوصاف العامة التى لا يكاد يعجز أديب أو بليغ عن انشائها ، كالايجاز وفخامة الألفاظ وعمق المعانى ، بل لا يعد أى أديب أديبا الا اذا كان له حظ منها ، فما قولك ؟

قال الشيخ : لا أظننا فى حاجة الى تكرار أن جوانب الاعجاز كثيرة ، وأن الجهود الجاهدة والدائبة لعلماء الاسـلام لم تستطع حتى الآن ولن تستطيع حصر هذه الجوانب ، وهذا نفسه من جوانب اعجاز القرآن ، أقول ان ما تقوله فيه بعض الحق ، فان العلماء يتحدثون عن الاعجاز البلاغى للقرآن نظريا ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يبرزوا هـذا الاعجاز بصـورة واضـحة مقنعة لغير المؤمنين الذين هم مهيئون بحكم ايمانهم للتصديق بكل ما فيه اجلال للقرآن دون حاجة الى أدلة اقناع ، وتستطيع أن ترد ذلك الى أسباب أهمها :

أولا : أن معظم هؤلاء العلمـاء الذين يتحدثون فى اعجاز القرآن البلاغى تغلب عليهم الثقافة أو التخصص فى العلوم الدينية وليس فى الأدب الذى من شأن نقاده ابراز الخصائص والمزايا فى الأسلوب ٠

ثانيا : تهيب العلماء وخشيتهم من القرآن بوصفه كـلام الله ، وخوفهم من زلل اللسان أو القلم فى الحديث عنه ، فآثروا عدم التعمق فى جانب الاسلوب ، والاكتفاء بالقدر الضرورى ، وقصروا جل جهودهم فى القرآن على ابراز المعانى والجوانب الروحية والتشريعية مثل كتب التفسير ٠

ثالثا : ومن أسباب عدم تركز جهودهم فى الجانب البلاغى للقرآن تحاشى اخضاع القرآن لمقاييس نقد الشعر ، فان جودة الشعر مرتبطة عند النقاد بمقاييس لا ينبغى أن يقاس بها القرآن لأنهـا لا تتفق معه ولا تناسبه ، ومن ذلك هذا التعبير النقدى الشائع وهو أحسن الشعر أكذبه ، فالنقاد لا يختلفون فى أن أجود الشعر أكذبه ، ولكنهم مهما أرادوا اثبات جودة القرآن فلا يستطيعون وصف القرآن بشىء من ذلك لأنه كلام الله أصدق القائلين ، وكذلك مما لا يختلف عليه النقاد أن مجاز الكلام أبلغ من حقيقية ، بمعنى أن الكلام كلما كان أوغل فى اسلوب المجاز وأبعد عن اسلوب الحقيقة المجردة كان أبلغ ، وهذا أيضا مما يتحرز علماء التفسير أن يطلقوه بظاهره على القرآن مهما بلغ حرصهم

على اثبات جودته ، وكذلك مما يعرفه النقاد أن هناك ألوانا من الأدب كالهجاء تكون أجود ما تكون حينما تصاغ فى اسلوب السخرية والفكاهة ، كما يقول الحطيئة مشيرا الى أجود الهجاء : اذا هجوت فأضحك ، أى اجعل السامع يضحك ساخرا ممن تهجوه ، وفى القرآن كثير من هجاء أعدائه وذمهم ، ولكن العلماء يتحرجون من نسبة الاستهزاء والفكاهة الى الله سبحانه ، وهكذا ، ورغم أن بعض المفسرين برزوا وأبدعوا فى ابراز الدقة اللغوية فى تعبير القرآن وخصوصا بعض المفسرين المتأخرين وعلى رأسهم الشيخ محمد متولى الشعراوى أمد الله فى عمره الا أن الاتجاه العام فى جملته كان للغوص فى عمق المعانى وسعتها وليس لابراز الاعجاز البلاغى للقرآن بالصورة الملائمة لاعجازه ٠

قال الشاب : وهل تراهم مقصرين فى موقفهم أم هم على صواب ؟

قال الشيخ : لا شك أن موقفهم من الناحية الدينية محمود ، فان أساس موقفهم هو اجلال كـلام الله والخوف من الزلل الذى يعرضهم لغضب الله ، ومن باب أن الأعمال بالنيات كان حمد موقفهم ، أما موقفهم من ناحية خدمة القرآن وابراز اعجازه الذى هو قاعدة الاسلام فقد كانوا يستطيعون ويملكون أكثر وأهم مما قدموا ، وخصوصا القدماء منهم ، فان شخصا كالجاحظ مثلا بأفقه العلمى الشاسع فى علوم الدين واللغة وخصوصا فى تذوقه الأدبى ومقدرته الباهرة على التقاط دقائق الاشارات ومقدرته على التعبير عنها فى اسلوبه المتميز بسلاسته وفكاهته وطرائفه كان بهذه المزايا وغيرها يستطيع أن يخصص جانبـا من بحوثه لابراز الاعجاز البلاغى والأدبى فى أسلوب القرآن ، ومن ذلك على سبيل المثال أننا نراه يستوقفه لفظ تكرر فى القرآن فأصبح اصطلاحا لا يدعو الى تأمل أو توقف ، وهو لفظ (خزنة) من تعبير خزنة جهنم ولكن الجاحظ يلمح ما يتضـــمنه لفظ الخزنة من ســخرية وطرافة فيقول : والخزنة الحفظة ، وجهنم لا يضيع منها شىء فيحفظ الى آخر حديثه الذى تعنينا منه هذه اللقطة التى تعنى أنه لمح أن وصف الخزنة فيه سخرية بأهل جهنم ، حيث صورت لهم جهنم كأنها تحوى أشياء ثمينة يخشى ضياعها أو أن تمتد يد الى شىء منها فتغنمه ، مع أن كل ما فيها ليس الا ألوانا بشعة رهيبة العذاب ، وكذلك كان أهل جهنم أنفسهم كأنهم صور لهم أنهم أشخاص ذوو أهمية ومكانة يحتاجون معها الى حراس كما كان وضع كثير منهم فى الدنيا فخصص لهم حراس هم الخزنة ٠

قال الشاب : ولكنى كنت أقصد من سؤالى أساسا الأمور التى تحاشاها علماء التفسير كما ذكرت أنت ، هل كانوا على صــواب فى تحاشيها ؟

قال الشيخ : أكرر لك أن المواقف فى الدين لا تحكم من ظاهرها الا اذا كانت فيها نصوص صريحة ، أما الاجتهاد فتحكمه النية فى حسنها أو سوئها ، وقد يتناقض موقفان فيكون كل منهما صحيحا كما حدث فى اختلاف أصحاب النبى حين أمرهم ألا يصلوا العصر الا فى بنى قريظة لفتحها ، فأوشكت الشمس أن تغيب فرأى بعضهم أنه من الخطأ فوات وقت العصر وأن النبى انما يقصد السرعة فى السير وهم محققوه ، فصلوا العصر قبل الغروب وواصلوا السير ، ورأى البعض الآخر أن عليهم تنفيذ ما أمرهم به النبى حرفيا وهو صلاة العصر فى بنى قريظة فصلوا العصر بعد الغروب فى بنى قريظة ، فأقر النبى كلا منهم لأن كلا الفريقين كان حسن النيـة ، وحتى على مستوى المذاهب ، كثيرا ما تختلف آراؤهـم واتجاهاتهم وتكون كلها صحيحة لأنها نابعة من حسن نية سواء فى أصل المذهب أو فى أحـكامه ، ومن أمثلة ذلك مذهب أهل السنة ومذهب المعتزلة ، فهما مختلفان فى أساسهما ، حيث برزت فى العصر العباسى ظاهرة الالحاد والزندقة على يد بعض الأدباء والسـاسه الفرس الذين حاولوا احياء مجدهم القديم ، ومنه المذاهب الالحادية والديانات الوثنية ، وأخذوا فى احيائها فعلا بعد أن ألبسـوا بعضها أثوابا زائفة تجعلها مستترة بعض الشىء بما يحيطونها به من حجج وأساليب ملتوية وأخذوا يجذبون كثيرا من العامة ليكونوا أتباعا لهم ، فرأى بعض العلماء ، كعلماء المعتزلة أن من واجبهم صد هذه الموجة الالحادية ومنع العامة من الانسياق فى تيارها ، ولكنهم وجدوا أنهم لن يفلحوا فى مواجهة حجج زعماء هذا الاتجاه الالحادى الا اذا اعتمدوا على أسـاليب المنطق والفلسفة ، بينما عارضهم فى هذا علماء آخرون كثيرون رأوا التزام القرآن والسنة والاكتفاء بهما دون حاجة للجوء الى فلسفة أو منطق لأن هذه المناهج غير مأمونة الزلل بأصحابها ولو من حيث لا يقصدون ، وأصبحت لكل منهما وجهة مبنية على حسن نية وعلى خدمة الاسلام ، بالمحافظة عليه فى التزام تراثه عند أهل السنة ، وبالدفاع عنه فى اكتسـاب أسـاليب ووسائل دفاع حديثة عند المعتزلة ، وقد ترتب على ذلك اختلافهم فى مسائل عديدة ذات أهمية ، ومع ذلك كل منهما له حجته فى خدمة الاسلام .

فلا تستطيع أن توجه لوما أو اتهاما بالتقصير للعلماء الذين كانوا يسـتطيعون أن يبرزوا من اعجاز القرآن البيانى ما لم يبرزوا أو فوق ما أبرزوا ، لأنهم رأوا فى موقفهم هذا خدمة للاسلام بعدم الخوض فى نقد كلام الله .

ولكن اذا كنت تعنى التسـاؤل عن مدى صـحة وصف القرآن بما يوصف به الشعر والأدب من أساليب النقد كالحديث عن الخيال والتصوير وأساليب السخرية والفكاهة ونحو ذلك فأقول لك ان التحرز

من وصف القرآن بما يوصف به الأدب انما ينبع كما سبق من أن القرآن كلام الله فيجب فى نظر المتحرزين تنزيهه عن مشابهة كلام البشر ، أو التسوية فى مقاييس النقد واصطلاحاته بينه وبين أى كلام آخر ، ولكنهم يتجاهلون ان الله انزله للبشر ، وبلسان بشرى كما يتكرر فى القرآن (بلسان عربى مبين) فهو لا شك كلام الله ، ولكنه بلسان البشر ، ومادام بلسان البشر، فلا مانع من أن يطبق عليه ما يطبق على كلا البشر طالما لم تقصد الاساءة اليه أو التشكيك فى نسبته الى الله ، هذا فضلا عن أنه لا خلاف فى أن من أبرز جوانب اعجاز القرآن هو جانب الاسلوب ، وحينما عرض على العرب تحديهم أن يأتوا بمثل شىء من القرآن كان مفهوما لديهم أن التحدى منصب على الصياغة والأسلوب قبل غيرهما ، ومادام الأمر كذلك فلابد لاظهار اعجاز اسلوب القرآن من ابراز مزاياه بمقاييس النقد والتحليل التى تنقد بها أساليب الأدب ، لأنها الوسيلة التى انتهى النقاد الى أنها الطريق الى ابراز جودة الكلام أو رداءته ٠

على أن كل ما يتحرز منه المتحرزون انما هو بالقياس الينا بوصفنا المخاطبين بالقرآن وليس بالقياس الى الله ، فالخيال خيال بالقياس الينا وليس هناك خيال بالقياس الى الله ، وكذلك المجاز وكذلك السخرية وغير ذلك ، ولذلك كان القرآن حافلا بكل الألوان التى تتضمنها الأساليب الأدبية شعرا أو نثرا ، والتى تسمو بها عن الاسلوب العادى ٠

ومن الغريب أن هؤلاء العلماء تحدثوا عن كل هذه الألوان ، بل عن قيمتها وأهميتها فى اسلوب القرآن ، ولكنهم لم يتخذوها مباحث مستقلة تنتهى الى اظهار اعجاز اسلوب القرآن بصورة واضحة ومقنعة ٠

قال الشاب : فهل لى أن أسمع أمثلة لذلك ؟

قال الشيخ : على سبيل المثال فان علماء البلاغة وقفوا طويلا عند قوله تعالى فى وصف شجرة الزقوم فى جهنم (طلعها كأنه رءوس الشياطين) وتساءلوا ليردوا على تساؤلهم : ان أحدا لم ير رءوس الشياطين ، فكيف يشبه الله سبحانه طلع شجرة الزقوم بشىء ليست له صورة فى أذهان الناس لأنهم لم يروه ؟ وليست تعنينا هنا اجابتهم ، وانما يعنينا أنهم يدركون أن هذا التشبيه ليس له واقع أى أنه خيال ، بل يروى أن علم البلاغة كله نشأ بسبب هذا المبحث ، ومع ذلك يتحاشون وصفه بأنه خيال رغم قولهم هو تشبيه تخييلى ، وأيضا من هذا القبيل قوله تعالى (ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) والولوج هو الدخول ، وسم الخياط هو ثقب الابرة ، فقد علق الله سبحانه دخول المكذبين الجنة على دخول الجمل ثقب الابرة ومروره منه ، فاذا تحقق

مرور الجمل من ثقب الابرة دخلوا الجنة ، ودخول الجمل ثقب الابرة مستحيل عادة ، وما دام مستحيلا فليست له صورة فى الواقع ، واذن فهو نوع من الخيال ، فهم يعرفونه ، بل هم أقدر على ادراكه وتذوقه من العصور التالية لهم ولكنهم يتحرزون .

وأما أمثلة السخرية التى يتحرزون من الافاضة فى التصريح بها ويلجأون الى وصف التهكم بدلا منها فكثيرة لأن القرآن حافل بالسخرية من أعدائه ، وهذه السخرية نفسها نجد فيها زيادة على الابداع فى صياغتها روح الفكاهة ، لأن السخرية الفكهة أبلغ أنواع التهوين من شأن المذموم والتنفير منه ، حيث يصبح أضحوكة الناس ، ومن هذا كان قول الحطيئة اذا هجوت فأضحك ، فمن أمثلة الصور الساخرة الفكهة فى القرآن تصوير نفور المشركين من دعوة النبى اياهم الى الله ، فالقرآن يصورهم كأنهم قطيع من حمر الوحش المشهورة بشدة الحذر وسرعة الهرب وكأن هذا القطيع كان مجتمعا فى مرعى أو على مورد ماء فظهر له فجأة أسد فانطلق كل حمار من القطيع مذعورا هاربا فى كل وجه ، فى قوله تعالى (فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة) ورغم طرافة الصورة الا أننا نجد فيها صورة فى وجه الشبه بين غبائهم الدينى وعقول الحمير ، وبين نفورهم المعنوى والنفسى وبين النفور الحسى لدى الحمير ، والقرآن حافل بكل ألوان الأساليب التى تملأ نفس متذوقهـا انفعالا بها ، ومن ذلك فى اسلوب السخرية أن كل أعداء الأنبياء والأديان فى كل العصور يتفقون على اتهام الأنبياء بالسحر ، فحين يؤتى بهؤلاء ويدفعون الى جهنم ينظرون اليها بطبيعة الحال فى فزع وهلع ، ولكن الملائكة يقولون لهم كما فى القرآن (أفسحر هذا) ؟ بمعنى أنكم كنتم تتهمون الأنبياء فى كل ما جاءوا بأنه سحر ، وقد أنذروكم بأنكم ستدخلون جهنم اذا لم تؤمنوا ، فهل هذه جهنم حقيقة أم هى سحر ؟ ومن الواضح أن السؤال ليس حقيقيا ولا استفهاميا وانما هو سخرية مضحكة بهم ، وكذلك فى سخرية القرآن من المتكبرين ذوى الخيلاء الذين يرسمون لأشخاصهم مظهرا خاصا من شموخ الأنف ولى العنق ، بحيث تبدو رقبته وكأنها معوجة ويمشى بهذه الهيئة بين الناس ، فينخدع كثير من العامة والسذج بهذا المظهر متصـــورين أنه مظهر السـيادة والقوة والتفوق الاجتماعى ولكن القــرآن يصـــور لهـؤلاء المغرورين صـــورة تعبيرية (كاريكاتيرية) حيث يشبه الواحد منهم بجمل مريض بمرض الصعر (بفتح الصـاد والعين) الذى يعرفونه جميعا وهو مرض يصيب أعناق بعض الابل فيلويها ، فيمشى الجمل وصدره متجه الى أمام ، بينما رقبته معوجة الى أحد الجانبين ، وذلك فى قوله تعالى على لسان لقمان (ولا تصعر خدك للناس) بمعنى لا تظن أن ما تفعله هو مظهر سيادة أو عظمة ،

وانما هو مرض ، غاية الأمر أنه مرض نفسي ، ومرض الابل عضوي ، وكذلك حين يعبر القرآن عن سفاهة اختيارهم في موقفهم الديني ، فالدين يعرض عليهم الايمان ليحقق لهم المجد السياسي والغني المعيشي ، والسعادة الاجتماعية ، والفوز في الآخرة ، ولكنهم يرفضون هذا كله ، ويختارون تكذيب الرسول والقرآن ، فيصوغ القرآن اختيارهم هذا في اسلوب ساخر ، (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) وكأنهم أشبه بمن عرضت عليه أنواع من الرزق الذى يعرفونه كالذهب والفضة والابل والغنم والثياب وغير ذلك ، وكان يمكنهم أن يختاروا أى نوع من أنواع هذا الرزق ، ولكنهم رفضوا كل هذه الأنواع ، واختاروا نوعا واحدا معينا جعلوه رزقهم هو التكذيب ، ومن الواضح أن التكذيب أى تكذيب لا يدخل في أى باب من أبواب الرزق والكسب ، ولكنها السخرية المضحكة من سفاهة اختيارهم ، وهكذا فيما لا يكاد يحصى من أساليب السخرية الفكهة في القرآن ٠

وأما عن الدقة الباهرة المعجزة في تعبير القرآن فهى منبثة في كل أرجاء القرآن ، ولكنها تحتاج الى تأمل ودقة ملاحظة ، وكلما كان التأمل أعمق ، وكانت الملاحظة أدق كان وجه الاعجاز في دقة تعبير القرآن أشد اشراقا ٠

وأضرب لك مثلا واحدا من هذه الدقة الباهرة في أسلوب القرآن ، فانك تقرأ مثلا قصة موسى عليه السلام مع العالم الربانى ، الذى منحه الله القدرة على استكشاف الغيب فيما يتعلق بمحيط حياته والمتصلين به ، وموسى بحكم أنه نبى عصره يفترض فيه أنه بحكم ذلك ينبغي أن يكون أعلم أهل عصره ، ولعله تصور في نفسه ذلك ، ولكن الله سبحانه اجلالا للعلم وسعته ، ومن باب قوله تعالى (وفوق كل ذى علم عليم) أخبر موسى بوجود عالم يعلم ما لا يعلمه هو وبعضهم يسميه الخضر ، ولعل موسى من باب الحرص الشديد على اكتساب كل أدوات الدعوة للدين ومنها أن يكون أعلم أهل عصره ٠ طلب من الله أن يخبره بمكان هذا العالم ليتعلم منه علمه حتى يكمل له تميزه عن سائر عصره ، فأخبره الله بمكانه ، وهو مجمع البحرين ، فشد رحله اليه ، وبلغ من تصميمه على الذهاب اليه أن قال (لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا) والحقب جمع حقبة ، ويقدر اللغويون الحقبة بثمانين سنة ، أى أنه لن يرجع من سفره حتى يلقى هذا العالم ، ولو ظل مسافرا أحقابا طويلة من الزمان ، والمثال الذى أريد ذكره مقتطع من محادثة موسى مع هذا العالم حين وصل اليه وأراد أن يكون تلميذا له ، حيث عرض موسى عليه أن يكون تلميذا له قائلا (هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا) ؟ وبعد تمنع من العالم واصرار من موسى أجابه العالم قائلا

(فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا) فهاتان العبارتان تبدوان وكأنهما حديث عادى لا يتضمن دقة معينة ، ولا مستوى بلاغيا خاصا ، حيث يطلب موسى من العالم أن يعلمه ، فيجيبه العالم أخيرا بالموافقة بشرط ألا يتدخل موسى فى أثناء التعليم ، ولكن التأمل يوحى بعمق شديد ودقة بالغة في هذه الكلمات القليلة ، حيث تصور العبارتان معاهدة كاملة ذات شروط محددة من كلا الطرفين ، ولو ألقيت معى انتباهك فى تأمل ودقة لحظ لأمكن أن نصوغ العبارتين فى بنود محددة على أسلوب الشروط والمعاهدات كما يلى :

موسى عليه السلام يعرض على العالم صورة الاتفاقية أو المعاهدة بينهما من وجهة نظره • ولكنه يستهلها بمقدمة أو مدخل ليهيىء الطرف الآخر نفسيا للموافقة والقبول ، وذلك بأن يصوغ رغبته أو مطلبه فى صورة سؤال واستفهام بلفظ (هل) ، بمعنى أن الأمر بيدك ، سواء الموافقة وعدمها ، فهل تقبلنى تلميذا لك ؟ ، وهذا المدخل من شأنه أن يهيىء كل نفس كريمة لقبول المطلب مهما كانت قيمته ، ثم يسوق موسى بنود المعاهدة وشروطها كما يلى :

أولا : من حقك على أن أكون تابعا فى أثناء التعليم تبعية علمية كاملة ، بحيث لا أرفض ولا أعترض ولا يغير من هذه التبعية كونى نبيا مرسلا •

ثانيا : من حقى عليك أن تكون تبعيتى لك أنت وليس لأحد سواك كنائب عنك أو مساعد لك فى التعليم •

وهذا الشرطان يستفادان من كلمة (أتبعك) المكونة من الفعل (أتبع) وكاف الخطاب •

ثالثا : المطلوب منك هو أن تقدم علمك بالصورة المعهودة فى التعليم وليس عليك أن أستفيد أولا أستفيد ، وهذا مستفاد من (تعلمنى) بمعنى أن تبذل علمك لى ، بخلاف ما لو قال على أن أتعلم منك ، فانه حينئذ يتضمن اشتراط استفادة موسى ، فالفرق واضح بين (تعلمنى) وبين (أتعلم منك) لأن الأول مرتبط بالمعلم والثانى مرتبط بالمتعلم •

رابعا : من حقى أن يكون بذل علمك خاصا بى ، بمعنى أن تكون حينئذ معلما خاصا بى ، ولا تجعلنى ضمن طلاب آخرين ، وهذا مستفاد من اضافة موسى التعليم الى نفسه فى كلمة (تعلمن) التى جاءت فى رسم المصحف بالنون بدون ياء •

خامسا : ليس من حقى أن أطالبك ببذل كل علمك لى ، وانما يكفينى القدر الذى يبذله المعلم عادة للطالب حتى يصبح الطالب عالما فى هذا العلم دون أن يطمح الى منافسة أستاذه فى علمه ، وهذا مستفاد من لفظ (من) التبعيضية فى كلمتى (مما) فهما كلمتان من بمعنى بعض وما بمعنى الذى وكان المفروض أن يكتبا من ما ولكن الاصلاح الاملائى أدمجهما ٠

سادسا : من حقى أن يكون ما تبذله لى من علمك هو من العلم الغيبى الذى منحك الله اياه وخصك به من عنده ، وليس من علم اكتسبته أنت بتعلمك اياه من أحد وهذا مستفاد من بناء الفعل للمجهول فى (علمت) ٠

سابعا : من حقى أن أشعر بأن ما تبذله لى من علمك فيه نفع وخير ، والا فمن حقى أن أرفضه ، وهذا مستفاد من لفظ (رشدا) ٠

وهذا كله بعض ما تتضمنه هذه الكلمات التى تبدو وكأنها عادية من قول موسى عليه السلام (هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا) ؟

وبهذا المستوى من الدقة كان رد العالم الربانى على موسى ، فبعد تمنعه عن قبول العرض الذى عرضه موسى ، وبعد حوار مع موسى ، وافق العالم ، ولكن بمستوى الشروط التى اشترطها موسى من وجهة نظره فى الاتفاق ، حيث كان رد العالم :

(فان اتبعتنى فلا تسالنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا)

ومع أن كلمات العالم تبدو أيضا وكأنها عادية ، الا أن تحليلها يكشف عن عمق ودقة شديدة ، فان فى ثنايا كلماته الشروط الآتية :

ولكنه يبدأ شروطه أيضا بتمهيد يبين رأيه الكلى فى الموقف ، وهو أنه يشك فى مقدرة موسى أو غيره على تحمل تعلم هذا العلم الغيبى والصبر عليه ، لأنه يعلم مقدما أن فى بعض هـذا التعليم ما يشبه فى ظاهره المنكرات ، والمؤمن فضلا عن النبى لا يستطيع السكوت على منكر ولا ينبغى له السكوت عليه ٠

فكأنه يرد على موسى بقوله : مع أننى أشك فى مقدرتك على اتباعى فى هذا التعليم الا أننى أوافق بشروط ، وهذا الشك مستفاد من لفظ (ان) لأنه يفيد الشك كما هو معروف فى علم البلاغة ، بخلاف لفظ (اذا) الذى يفيد توقع حدوث الفعل ، على أن شروطه كان بعضها تأييدا لما عرضه موسى ، وهى كما يلى :

اولا : من حقى أن تكون تابعا لى فى التعليم ، فلا تتدخل ولا تعترض ، ولا تدل بمعلومات أو غير ذلك ·

ثانيا : تبعيتك يجب أن تكون لى أنا ، فلا يصح أن تستسقى أى معلومات أو توجيهات من غيرى فيما يتعلق بهذا التعليم ·

وهذان الشرطان مستفادان من كلمة (اتبعتنى) ، حيث كان يمكن أن يكون التعبير مثلا فلا تتوجه بأية أسئلة ، فيحظر عليه حينئذ يكون تابعا له ولغيره ، ولكن تعبير (فان اتبعتنى) يشترط أن تكون تبعية موسى مقصورة على العالم ·

ثالثا : يحظر عليك فى أثناء التعليم التدخل حتى ولو بتوجيه سؤال ، فضلا عما فوق الأسئلة كالاعتراض ·

رابعا : هذا الحظر خاص فيما بينى أنا وبينك ، أما فيما عداى فلك أن تسأل من تشاء عما تشاء ولو عن موضوع هذا التعليم ·

وهذان الشرطان مستفادان من تعبير (فلا تسألنى) وقد كان يمكن أن يكون التعبير مثلا فلا تتوجه بأية أسئلة ، فيحظر عليه حينئذ سؤال العالم وغيره ، ولكن اضافة الفعل الى ياء المتكلم وهو العالم (فلا تسألنى) قصرت الحظر على توجيه الأسئلة الى العالم دون غيره ·

خامسا : حظر توجيه الأسئلة الى ليس مقصورا على موضوع التعليم ، بل هو حظر عام ، فلا يصح أن توجه الى أية أسئلة فى أثناء التعليم ، لا عن موضـــوع التعليم ولا عن غيره ، وهـذا مستفاد من تعبير (عن شىء) ، وهـذا قيد مهم فى منع التحايل والالتفاف حـــول الشرط ، فلولاه كان يمكن لموسى أن يصل الى الموضوع بسؤال غير مباشر ، ظاهره خارج الموضوع ، ولكن حقيقته فى الموضوع ، فمثلا من مواقف التعليم أن العالم الربانى سيقتل غلاما ، فالمحظور على موسى بالشرطين الثالث والرابع أن يسأل العالم لماذا قتلت هـذا الغلام ، ولكنه يستطيع بطريق غير مباشر أن يسأله : ما حكم قتل النفس ؟ ، ويقول اننى لم أسألك عن موضوع التعليم وهو قتل الغلام ، وانما سألتك عن حكم شرعى عام ، لذلك قيده العالم بقوله (فلا تسألنى عن شىء) أى عن موضوع التعليم أو غيره ·

سادسا : يظل حظر الأسئلة والتدخل مستمرا حتى يصدر منى تصريح صريح بانهاء هذا الحظر ، وذلك بأن أبدأ فى شرح وتوضيح ما كان غامضا ، وبيان أسباب الأحداث ·

سابعا : لا يعد تصريحا بانهاء الحظر الا بدء الحديث فى ذات موضوع التعليم ، والا اذا كان حديثى هـذا موجها اليك أنت ، وكان فى موضوع التعليم نفسه وليس فى أى موضوع يتصـــل به ، فاذا وجدتنى أتحدث مع أى شخص فى موضوع التعليم ، أو كان حديثى فى موضوع له صلة بموضوع التعليم فتدخلت أو سألت كان هذا اخلالا بالاتفاق .

والشرطان الأخيران مستفادا من تعبير (حتى أحدث لك منه ذكرا) والشرط الأخير بالذات مستفاد من الكاف والهاء فى (لك منه) .

وهكذا تجد دائما الدقة والعمق وراء ألفاظ القرآن وأسلوبه ، فهذا مجرد مثال من القرآن ليست له ميزة خاصة أو وضع متميز فى القرآن ، وانما يبدو وكأنه سرد عادى لأحداث قصة غابرة .

فهل تظن أن شيئا من كلام البشر يمكن أن يتضمن هذه الدقة وهذه الطرافة وهذا التنوع ؟

قال الشاب : فهل توجد كتب متخصصة تعالج هذه الجوانب فى القرآن وتبرز مضمونها ؟

قال الشيخ : قلت ان العلماء القدماء من المتخصصين فى الحديث عن الأدب والنقد كالجاحظ وابن قتيبة وابن سلام وابن رشيق والآمدى وغيرهم ممن كانوا أقدر على الغوص فى الجوانب البيانية فى القرآن وابراز دقائقها ومزاياها آثروا فى أغلب الظن السلامة من الزلل فى الحديث عن القرآن اجلالا له ، فتركوا المجال لغير المختصين ، أو لمن هم دونهم بكثير فى هذا المجال ، فتناوله بعض هؤلاء مطوفين بين جوانب اعجاز القرآن دون تخصيص بحوث لكل جانب على حدة ، وقلت لك ان تفسير الشيخ الشعراوى فى أحاديثه أقرب التفسـير الى الجانب اللغـوى فى اعجاز القرآن ، وأما الجوانب التى ضربت الأمثلة السابقة لها فتستطيع أن تجد بعض الكتب التى تتناول أمثلة لها ، أذكر منها كتاب اسلوب السخرية فى القرآن ، وكتاب التصوير الساخر فى القرآن ، وكتاب اسلوب المحاورة فى القرآن ، كما أذكر أننى رأيت عما ذكرناه من حديث موسى والعالم الربانى مقـالا فى مجلة الأزهر لعله فى أحد أعـداد عام سبع وثمانين وتسعمائة وألف وهو لمؤلف هذه الكتب .

قال الشاب : ومن مؤلف هذه الكتب ؟

قال الشيخ : ليس المهم اسم المؤلف ، وانما المهم الكتاب ، وهذه الكتب فى مكتبات الهيئة المصرية العامة للكتاب فيما أذكر .

قال الشاب : هناك سؤال آخر فيما يتعلق بنبى الاسلام ، وهو أن غير المسلمين ينسبون الاسلام الى محمد ، وكذلك ينسبون المسلمين اليه ، بمعنى أن محمدا عندهم هو كل شيء فى الاسلام ، فهل توضح لى الوضع الدينى الحقيقى لنبى الاسلام فى الاسلام ؟

قال الشيخ : موقف الاسلام من تحديد صفة النبى شديد الوضوح ، ولذلك فهو شديد القرب من العقول المستقيمة التى لا تنحرف بها الأهواء والمؤثرات ، فالاسلام يحصر النبى أو الرسول فى الصفة التى يوصفها بها ، وذلك أن النبى ـ كما سبق ـ هو من يوحى اليه من الله ، ولا يلزم أن يرسله الله الى الناس برسالة أو دين ، أما الرسول فهو الذى يختاره الله من بين أنبيائه ليحمله رسالة أو دينا يبلغه الى الناس ، وهذا ينطبق على كل الأنبياء والمرسلين ، فكل رسول لابد أن يكون جامعا بين الوحى اليه من الله ، وحمل رسالة من الله الى الناس .

ووضع نبى الاسلام فى الاسلام لم يتجاوز هذين الوصفين ، وهما أنه كان يتلقى الوحى من الله فهو نبى ، وحمله الله رسالة هى دين الاسلام ليبلغه الى الناس كافة ، وليظل هـذا الدين موجها الى الناس جميعا ، ويظل الناس جميعا مطالبين باعتناقه الى يوم القيامة ، فهو فى الاسلام مجرد شخص من البشر يحمل رسالة من الله .

قال الشاب : اذا كان هذا هو الوضع النظرى لنبى الاسلام فكيف كان الوضع التنفيذى له ؟ بمعنى كيف كان تطبيقه هو لهذا الوضع ، وكيف كان تطبيق المسلمين له فى نظرتهم الى نبيهم ؟

قال الشيخ : ان مما يثير العجب أو الاعجاب ، بل مما يؤكد صدق نبى الاسلام هو التزامه حدود صفته الدينية طوال حياته ، وهو أنه مجرد شخص من البشر يحمل رسالة من الله ، دون أن يتعدى ذلك دينيا أو اجتماعيا قيدشعرة ، مع أنه من الناحية الدينية هو مصدر التشريع ، وكل ما يقوله فهو مصدق عند المسلمين دون مراجعة ، ولو لم يكن صادقا لكان يمكن لمن هو دون وضعه الدينى بكثير أن يدعى لنفسه أى وضع يريده فيجد من يصدقونه وينساقون وراءه ، وأنت ترى فى واقع الناس من لا يحصون من أئمة المذاهب سواء الدينية والالحادية من يضـعهم أتباعهم فى موضـع التقـديس لأشـخاصهم ، والتقديس لكل ما يصـدر عنهم من توجيهات ، ولكن نبى الاسلام تتفق كل الروايات على أنه كان يعيش بين أتباعه كواحد منهم ، لا يتميز عنهم فى شيء من مجلسه أو مأكله أو حديثه أو تعامله ، فاذا تحدثوا أخذ فيما يتحدثون فيه من حديث كواحد منهم ما لم يكن الحديث اثما ، واذا جلسوا جلس بينهم كواحد منهم الا حينما ترتب على هذا التساوى معهم اشكال ، هو أن الوافدين

والقادمين الغرباء عن المدينة كانوا يأتون فيسـألون أين محمد أو أين النبى ؟ وهو جالس بينهم ، فصنعوا له دكة من طين ، ليس من خشب أو غيره ، وليس عليها أى فراش ، وهى مرتفعة عن الأرض قليلا ، فيجلس عليها النبى على التراب ليعرفه القادمون ، وكانت فى شخصه هيبة فى طبيعة تكوينه فكان بعض القادمين يضطرب من هذه الهيبة ، فكان النبى يلاطفه ليذهب عنه أثر الهيبة قائلا انما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد وهو طعام ردىء ، ومع أن المسلمين كانوا أتباعا له تبعية كاملة بحكم كونه نبيهم الا أنه لم يشر قط الى وصف هذه العلاقة بالتبعية ، وانما كان يقول أصحابى ، ومع أن طاعة المسلمين له كانت طاعة مطلقة لأن الاخلال بهـا اخلال بالدين والعقيدة من باب قوله تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) الا أنه لم يكن قط ينفرد برأى فى أى أمر من الأمور العامة ، بل كان شعاره فى كل موقف عام أن يقول أشيروا على أيها الناس ، وكثيرا ما كان بعض أصحابه يخالفونه الرأى ، ولو كانوا من عامة الناس ، كما خالفه الحباب بن المنذر فى تنظيم صفوف المسلمين يوم بدر ، فنزل النبى على رأى الحباب راضى النفس لأن رأيه عسكريا كان أصوب ، وكما خالفه عمر بن الخطاب كثيرا ، ومنها حين استشاره فى أسرى بدر ، حيث كان من المعروف عن النبى أنه يميل دائما الى كل ما فيه رحمة ولين ، فكان رأى النبى العفو عن أسرى المشركين بعد أخذ فدية منهم ، ولكن عمر رأى أن قتلهم وهم فى بدء الصراع مع المشركين أشد اخافة للمشركين وأبلغ فى الحرب النفسية ضدهم ، وقد اختار النبى ما يلائم طبيعته وهو العفو ، فنزل القرآن مؤيدا لرأى عمر ولائما لموقف النبى فى قوله تعالى (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) وكان تعقيب النبى حينئذ : والله لو نزل عذاب من السماء ما نجا منه غير عمر ، وهو اعتراف صريح بأن رأى عمر كان أصوب من رأيه ، وأنه لولا فضل الله ورحمته لنزل عذاب من السماء كان سيصيب النبى نفسه ٠

والحديث فى هذا المجال مستفيض وأخباره لا تكاد تحصى ، وموضع العبرة فيه أن النبى كان يتمتع بكامل الهيمنة والسلطة على أتباعه دون منازع ، سواء من الناحية الدينية بوصفه نبيهم ، أو من الناحية السياسية حيث كان فى وضع الزعيم والحاكم غير المنازع ، ومع ذلك فقد كان مثالا للتواضع ونبذ أى مسلك أو مظهر مما يسيطر على الزعماء والحكام ، بل وعلى السادة ووجوه المجتمع ٠

ولم يكن النبى ملكا من الملائكة ، وانما كان بشرا آدميا ، فيه طبيعة البشر وغرائزها الأصلية كاملة ، فلو لم يكن نبيا لغلبته بشريته فظهرت

آثارها فى أى مجال مما يبدو فى مسلك الزعماء والحكام والسادة ·

قال الشاب : هذه نظرة الى مسلك نبى الاسلام وخلقه ، ولكن اذا كانت هذه النظرة موجهة الى الاسلام نفسه فكيف نرى الاســـلام فى ضوئها ؟

قال الشيخ : ان القيمة الكبرى لهذه النظرة هى فى التشريع الاسلامى نفسه ، وذلك أن هذه النظرة كان لها أثران كبيران ، أو كان لها أثر كبير فى كل من الناحيتين الدينية والدنيوية أى الاجتماعية والسياسية ، وكلاهما كان ميزة للاسلام لم يسبق اليها ·

(أ) فأما من الناحية الدينية فان مسلك نبى الاسلام فى فعله وقوله ركز فى نفوس المسلمين أن الســـلطة الدينية والتشريع الدينى كلاهما مستمد من الله ، وهو صاحبهما وأن كل وضع النبى فيهما انما هو التطبيق والتوضيح والتفصيل لما هو مجمل ، ولذلك كان من مبـــادىء التشريع الاسلامى أن أى حديث يروى عن النبى مهما بلغت الثقة فى رواته فلن يقبل اذا تعارض مع مبدأ من المبادىء الجوهرية فى الاسلام ، أو مع نص صريح فى القرآن ، لأن مبادىء الاسلام وكذلك نص القرآن كلاهما مستمد من الله ، والرسول مبلغ عن الله فلا يعقل أن يعارض هو ما يبلغه عن الله ·

ولكن الأثر الأكبر أو الميزة الكبرى لهذا الوضـــع تبدو فى علاقة المسلمين بعلماء الدين ، فالعلماء ورثة الأنبياء ، وليس هذا فى الاسلام وحده ، وانما هو فى كل الأديان ، فعلماء الدين يرثون الشريعة الدينية التى يتركها لهم نبيهم ، فأما علماء الأديان الأخرى غير الاسلام فقد نظروا الى هذه التركة الدينية التى ورثوها على أنها ملك لهم ، يتصرفون فيها تصرف المالك ، وبالتالى فان أتباعهم ينظرون اليهم بهذا الوضع ، على أنهم المالكون للدين ، والنائبون عن الله ، بحيث يرضى الله حين يرضون ، ويغضب حين يغضبون ، ويفوضهم فى التصرف فى هذا الدين ، والأتباع كل آمالهم محصورة دينيا فى أن ينالوا رضا الله ويتحاشوا غضبهم ، فأصبحت هذه الآمال فى يد علماء الدين فى نظرهم ، واذا كان الانسان من شأنه أن يخضع لمن يرتبط به شىء من آماله فى الحياة فأولى أن يخضع لمن يملك كل آماله فى الآخرة وهكذا سيطر رجال الدين فى الأديان الأخرى على أتباعهم وسلبوهم حريتهم الدينية ، وسلبوا معها كثيرا من حريتهم الدنيوية ، مما ظهرت آثاره فى الصراعات الدموية الرهيبة التى اجتاحت شعوب أوربا فى القرون الوسطى · فيما عرف بالصراع بين رجال الدين ورجال السياسة ، هذه الصراعات التى انتهت بشل حركة رجال الدين والدين نفسه ، وقصر نشاطهم وتأثيرهم وكذلك تأثير الدين نفسه على المواعظ الروحية فى داخل دور العبادة ·

أما الاسلام فقد كان واضحا كل الوضوح منذ بدئه أن السلطة الدينية فى يد الله وحده ، وقد سجلها فى نص القرآن الذى بلغه نبى الاسلام الى الناس ، وكانت صفة النبى أنه مبلغ ومطبق للقرآن ولما يحتاج الى تفصيل أو توضيح منه ، والقرآن يؤكد ويكرر أن النبى لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئا ، لا من أمور الدين ولا من أمور الدنيا ، فحتى الدعوة الى الله التى يجاهد أقصى الجهاد فى توصيلها الى الناس ، لا يملك نتيجتها فهو لا يملك أن يهدى الى الله حتى أحب الناس اليه اذا لم يرد الله له الهداية ، ومن باب أولى من يرثونه · وهنا يبدو الأثر الأكبر لهذه الميزة فى الاسلام ، وهو شعور الفرد بالحرية التى تنجيه من سلطة البشر ومن قبضتهم ، فالمسلم يشعر بأنه لا سلطان عليه فى الدين الا سلطان الله ، وهذا يمثل أقصى الحرية فى حياة الناس ، أن يشعر الفرد بأنه متحرر من سلطة الناس جميعا ، وأنه لا أحد يملك سلطانا عليه من الناس فى دينه ، وأنه هو الذى يستطيع أن يحدد صلته بالله مباشرة حسنا أو سوءا دون تدخل من البشر ، وأن كل ما يملك البشر جميعا بالقياس اليه هو أن يعلموه من الدين ما لا يعلم ، أما الصلة بالله ، فهو وحده الذى يحدد وضعها بالحسن أو السوء ، وأما جزاؤه الدينى ثوابا أو عقابا فى الدنيا أو الآخرة فالله وحده هو الذى يملك أن يحدده وليس أحد على الاطلاق من البشر ، وقد حدده الله فى التشريع الاسلامى ·

قال الشاب : ولكن هذا من شأنه أن يقلل أو يضعف من صلة المسلمين بنبيهم ، حين يعلمون أنه لا ينفعهم فى الآخرة ، فالمفروض أو المتوقع أن ينظر أتباع كل نبى الى نبيهم على أنه الملجأ لهم عند الله ، فكيف تتفق هذه النظرة مع ما تقول ؟

قال الشيخ : أنت تتحدث عن صلة المسلمين بنبيهم ، وهناك فرق جوهرى بين العقيدة والصلة ، فالعقيدة يجب أن تتجه وحدها الى الله ، وتكون مقصورة عليه لا يشاركه سبحانه فيها أحد على الاطلاق ، لا الأنبياء ولا غيرهم ، والعقيدة هى دائرة الايمان والعبادة والطاعة المطلقة ، وهذه الدائرة مقصورة على الله وحده ، فالايمان لا يكون الا بالله وحده ، والعبادة لا تكون الا لله وحده ، والطاعة المطلقة لا تكون الا لله وحده ·

وأما وضع النبى صلى الله عليه وسلم بالقياس الى المسلمين فهو أنه يشترك مع الله سبحانه فى شىء واحد ، هو الطاعة ، وليست الطاعة المطلقة ، وانما الطاعة فيما يبلغه عن الله ، وهو أمور العبادة والتشريع فى الواجبات والمحظورات ، وأما الأمور المباحة ، فان طاعة النبى فيها من كماليات الدين وليست من أسسه ، بمعنى أن مخالفة النبى فى الأمور المباحة لا تخل بايمان المسلم ، ولا بصلاحه الدينى ، أما مخالفته فيما يبلغه عن الله من أوامره سبحانه ونواهيه فهذا اخلال بالايمان ، ومن باب أولى

بالصلاحية الدينية ، وهذا أمر منطقي ، لأن أوامر الله لا تأتي الى الناس من الله مباشرة ، وانما عن طريق الرسول ، وكذلك كل ما يبلغه الرسول عن الله ، فطاعة الرسول في هذا هي في حقيقتها طاعة لله ، من باب قوله تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) ومفهومه أن من يعصى الرسول فقد عصى الله ، وهذا المعنى مما واسى به الله الرسول فيما كان يؤذيه من تكذيب المشركين اياه ، في مثل قوله تعالى (قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون فانهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) بمعنى أن تكذيبهم اياك في حقيقته ليس موجها اليك أنت ، وانما هو موجه الى الله سبحانه .

هذا عن الجانب الديني في علاقة المسلمين بنبيهم ، وأما عن الجانب الانساني والاجتماعي في هذه العلاقة ، فانه من الواضح أن أى نبى له فضل عظيم على أتباعه ، بل هو فضل لا يوزن به شيء ، لأنه نقلهم أو كان سببا في نقلهم من الضلال والكفر الى الهداية والايمان ، وليس في الحياة كلها كسب أو ميزة توازى هذه الميزة ، والدين يقوم على الفضائل ، ومن أسس الفضائل الوفاء ، واذا كان الذي يسدي الينا أدنى معروف يستوجب علينا رد هذا المعروف أو شكره على الأقل ، فكيف بمن يسدى ما لا توزن به الحياة كلها وهو الايمان ، لأن الحياة معبر قصير يؤدى الى الحياة التي لا نهاية لها ، والايمان أو الكفر هو الذي يحدد مستقبل المرء في هذه الحياة الأبدية ، فالحياة الدنيا وسيلة ، والآخرة هي الغاية ، وفي كل منطق سليم لا توزن الغاية بالوسيلة ، واذن فالايمان لا توزن به الحياة الدنيا وما فيها ، والذى أسدى الايمان هو النبى ، فكان من فضيلة الوفاء الذى تقره كل أعراف البشر أن يستحق النبي من أتباعه كل الاجلال وكل الحب ، لأن البديل للاجلال هو الاستهانة ، والاستهانة بالنبي تتضمن الاستهانة بصفته وهي كونه رسولا لله ، وكذلك الاستهانة بالرسالة التي يحملها من الله ، وهذه دائرة الكفر بعينها ، وهذا يسرى أيضا على حب الرسول ، لأن البديل للحب هو البغض ، وبغض الرسول يرتد ضمنا فيصبح بغضا لله ، وللرسالة التي يحملها الرسول ، وهذا أوغل في دائرة الكفر ، وتستطيع أن تزيد هذا المعنى وضوحا اذا نظرت الى واقع الحياة ، فأنت اذا أرسلت الى شخص رسولا فان احترام هذا الشخص لرسولك ، أو اهانته اياه انما هو في حقيقته احترام أو اهانة لك أنت .

ومن هذا كان اجلال الرسول وحبه من الايمان ، والاخلال بهما اخلال بالايمان والعقيدة ، وقد ورد في محيط هذا نصوص عديدة في القرآن وفي الأحاديث النبوية صراحة أو ضمنا .

قال الشاب : أسمع كثيرا من الناس يتحدثون عن شفاعة الرسول

للمسلمين ، وبعضهم يتوسع في أمرها حتى يزعم أن النبي يشفع لكل المسلمين يوم القيامة فهل هذا صحيح ؟

قال الشيخ : لا شك أن مثل هذا التعميم لا يصدر من عالم أو ذى معرفة بالدين ، وانما يصدر عادة من العامة أو أشباههم ممن يعيشون على الأمانى والأوهام ، وذلك أن الشفاعة موجودة حقا ، وقد تحدث عنها القرآن في مواضع عديدة ، ولكن الأساس فيها أنها ليست ملكا لأحد ، ولا للأنبياء ، فالذى يملك الثواب والعقاب والرضا والغضب وكل شيء على الاطلاق في الآخرة هو الله وحده سبحانه ، وليس من المستبعد أن يبيح لبعض عباده المقربين وفى قمتهم الأنبياء أن يتوسلوا اليه ليشفعوا لأحد ، وقد يقبل الله هذه الشفاعة وقد لا يقبلها حسب درجة رضاه أو سخطه على المشفوع له ، فالمهم هو الأساس ، وهو أنه لا نبى ولا أحد يملك الشفاعة عند الله ملكا ، وانما هو رجاء يرجوه من الله ، ثم يترك الأمر للـه من مثل قوله تعـالى (من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه) ؟ وقوله تعالى (ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له) ويزيد الأمر وضوحا أن النبي لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، كقوله (قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ان أنا الا نذير وبشير ٠٠) فمن باب أولى ألا يملك لغيره نفعا ولا ضرا ولا شفاعة الا باذن الله ، وقد ضرب الله في القرآن أكثر من مثال من هذا القبيل لأكثر من نبى منهم ابراهيم عليه السلام الذى أراد أن يشفع لأبيه عند الله فدعا له ، ولكنه تراجع عن هذا الدعاء وتبرأ منه حين أيقن أن أباه لن يرجع عن عداوته لله ، كقوله تعالى (وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه) ومنهم محمد صلى الله عليه وسلم الذى أكد له ربه أن شفاعته أو دعاءه لأعداء الله لن يقبل ، كقوله تعالى في شأن المنافقين (استغفر لهم أولا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) ومنهم نوح عليه السلام الذى أراد أن يشفع لفلذة كبده لينجيه الله من الغرق في الطوفان ، وكان الله قد وعده أن ينجيه هو وأهله ، ولكن ابنه هذا كفر وانحاز للكافرين ، فأراد نوح أن يستغل عموم وعد الله ، فطلب من الله أن ينجى ابنه لأنه من أهله ، ولكن الله لامه لوما عنيفا ، بل توعده ان كرر هذا الخطأ ، لأن الرابطة الحقيقية وخصوصا لدى الأنبياء هى رابطة الايمان وليست رابطة النسب ، وذلك في قوله تعالى (ونادى نوح ربه فقال رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال يا نوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم انى أعظك أن تكون من الجاهلين) ٠

قال الشاب : وهناك سؤال يتعلق بنبى الاسلام ، لعلك تعلم أنه

مثار تعقيب من غير المسلمين ، وهو اقترانه بعدد كبير من الأزواج أظنه تسعا فى وقت واحد ، فالناس يرون غرابة فى أن يكون لدى نبى هذا الميل الشديد الى النساء ، فما قولك فى هذا ؟

قال الشيخ : أعلم أن هذا مما يتخذ به أعداء الاسلام على أنه مطعن فى نبى الاسلام ، ولكنه كما كنا نقول آنفا انه ليس الا أثرا من آثار عين السخط التى تبدى المساوىء كما يقول الشاعر ، أما الانصاف فهو أن ننظر الى القضية موضوعيا ، واذا نظرنا اليها من هذه الزاوية نجد أنها ذات شقين حتى فى نظرة أعداء الاسلام اليها :

(أ) فأما الشق الأول فهو مبدأ تعدد الزوجات فى الاسلام ، فان الاسلام يبيح للرجل أن يتزوج حتى أربع زوجات ، وأعداء الاسلام يرون فى هذا مطعنا على الاسلام ، لأنهم يعدونه اساءة الى الزوجة وانتقاصا من حقها ، ولكن هذا من الأحكام العاطفية التى تمليها كراهيتهم للاسلام، أما الانصاف فهو فى أحكام لا ينبغى أن يختلف عليها أصحاب الأديان جميعا ولا أصحاب العقول والأخلاق من غير ذوى الأديان ، وهى أنه من البدهى أن من يسعى الى الزواج من امرأة أخرى غير زوجته انما تكون لديه طاقة جسدية أو نزعة نفسية تجعله لا يكتفى بامرأة واحدة ، وهذا أمر واقع ملموس فى كل المجتمعات سواء أكانت اسلامية أم غير اسلامية ، وحينئذ سيسعى هذا الشخص الى التماس امرأة أخرى غير زوجته ، وهذا السعى أيضا موجود فى كل المجتمعات على الاطلاق ، ولن يكون أمامه حينئذ الا طريقان ، طريق مشروع وهو الزواج ؟ وطريق غير مشروع وهو الزنا ، والزنا لا شك أنه محرم فى كل الأديان السماوية على الاطلاق ، بل وفى كل الأعراف السوية فى المجتمعات ، فأيهما خير : الطريق المشروع ، أم الطريق غير المشروع ؟

قال الشاب : ولكن غير المسلمين لا ينظرون الى الأمر من هذه الزاوية ، وانما ينظرون اليها من زاوية أن غير المتزوجين سواء من الرجال أو النساء يستطيعون أن ينفسوا عن طاقاتهم الجسدية أو النفسية فى الاتصال ببعضهم جسديا ، وحتى ان اعترفوا بأن هذا نوع من الزنا الا أنهم يرونه أخف ضررا من الاضرار بحقوق الزوجة وكرامتها بالزواج عليها من امرأة أخرى .

قال الشيخ : هذه مغالطة تتضمن الهروب من ضرر يسير الى أضرار فادحة ، بل الى كوارث فى كثير من الأحيان ، فبالاضافة الى جريمة مزاولة شىء محرم فى كل الأديان ، فينبغى أن نتذكر ولو شيئا واحدا من آثار هذه الجريمة ، وهى الجناية على مولود يخرج من علاقة سفاح فلا يعرف له أبا ينتمى اليه ، وفى أغلب الأحيان لا يعرف له أما ، لأن أمه غالبا

ما تتخلص من عبئه بالقائه الى أية جهة تتبناه ، ولو كانت هذه الجهة قارعة الطريق ، فانظر الى حال هذا الوليد وما يعانيه طوال حياته ، ووازن بين ما يصيبه من ضرر ، وما يصيب الزوجة من ضرر بزواج زوجها عليها ، بينما المسلم مهما تزوج غير زوجته ، فان كل ما يلدن من أولاد فهم منتمون اليه ، ويخرجون فى كنف أسرة من أم وأب يحتضنانهم ·

وفيما يتعلق بانتقاص حق الزوجة هناك نظرة أخرى لا أدرى لماذا لا يلتفت اليها ، وهي أن التى تتزوج رجلا متزوجا هى عادة تعلم ذلك ، ولا يكرهها أحد على هذا الزواج ، فلولا أن فى هذا الزواج حلا لمشكلة أو مشاكل فى حياتها ما قبلت هذا الزواج الناقص ، فلماذا لا ننظر الى أن تعدد الزوجات اذا كان فيه انتقاص لحق الزوجة الأولى فان فيه حلا لمشاكل امرأة أخرى هى الزوجة الثانية ·

على أن الاسلام لم يطلب من الرجال أن يتزوجوا أكثر من امرأة ، بل ولم يرغب فى ذلك ، وانما راعى الطبيعة البشرية وغرائزها وأحوالها ، فجعل تعدد الزوجات رخصة يمكن أن يلجأ اليها عند الضرورة ، فحينما يجد الرجل أن طبيعته جسديا أو نفسيا تضطره الى التماس امرأة أخرى غير زوجته ، فان خير الحلول هو الزواج بامرأة أخرى ، فهذا خير أو أخف ضررا من البديلين الآخرين أمامه ، وهما الطريق المحرم وهو الزنا ، أو طلاق زوجته ليتزوج امرأة غيرها ليظل ذا زوجة واحدة وقد ألزم الاسلام الرجل العدل بين نسائه محافظة على حقوقهن ·

(ب) وأما الشق الثانى من هذه القضية وهو ما يتعلق بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، فمن الحق القول بأنه جمع بين تسع زوجات فى وقت واحد ، بل وليس من الباطل أن يقال انه كان يمكن أن يضيف اليهن أخرى أو أخريات لولا أن الله حرم عليه أى زواج بعدهن ، لا بالزيادة عليهن ، ولا بتعويض من تفقد منهن فى قوله تعالى (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن) ، ولكن لا ينبغى أيضا أن نأخذ من العاطفة وهى كراهية الاسلام أحكاما فنجعل من هذا الوضع مطعنا على نبى الاسلام ، بل يجب أن نحكم الشرائع السماوية والمنطق المألوف فى عقول الناس وأعرافهم ، وذلك أنه مما لا يختلف عليه أحد من أعداء الاسلام وغيرهم أن صلة بنى الاسلام بهؤلاء النساء كانت صلة مشروعة بالزواج العلنى والزواج من حيث المبدأ مشروع فى كل الأديان والأعراف ، وأما عدد الزوجات فمن المعروف والمشهور أنه لم يكن عرف العرب قبل الاسلام مقيدا، ولم يكن هناك بأس على الرجل أن يتزوج بأى عدد ولو عشرات من النساء ، بل لعل هذا كان من مظاهر الوجاهة والسيادة فى المجتمع ، ولذلك لم ير أعداء الاسلام فى حياة النبى فى زواجه بهذا العدد من النساء عيبا ولا غرابة ، وهم

أحرص الناس على أن يتلمسوا أدنى مطعن فيه ليشيعوه في كل وجه عسى أن يسهم في تنفير الناس منه ، فتعدد الزوجات بغير حدود كان مباحا في عرف العرب ، ولكن الاسلام قيده بالقياس الى النبى بتسع لا يتجاوزهن •

وقد كان يمكن أن أكتفى فى ردى على سؤالك أو على شبهتك بهذا الرد ، وهو أنه لم يكن فى زواج النبى بهذا العدد من النساء عيب ولا مطعن لا فى الدين ولا فى العرف ، ولكنى أزيدك توضيحا واضافة ، فأقول ان نبى الاسلام كان يتمتع بقوة جسدية غير عادية ، سواء فى التكوين العضلى ، أو فى الرغبة فى النساء ، وهى ميراث فى أسرته بنى هاشم ، وأمثلتها كثيرة ، اكتفى منها بمثال القوة العضلية فى على بن أبى طالب الذى حمل باب حصن خيبر وحده حين فتحت وكان الباب يحتاج في حمله الى عشرة رجال ، وبمثال لقوة الرغبة في النساء بقول معاوية بن أبى سفيان وهو أمير للمؤمنين لعبد الله بن عباس ابن عم النبى ذات مرة وكان بين أسرتيهما من التنافس والصراع ما بينهما : ان في رجالكم يا بنى هاشم لشبقا بينا ، فقال له عبد الله بن عباس : ولكنه فى نسائكم يا بني أمية أبين ، والشبق هو شدة الرغبة الجنسية ، والشاهد فى القصة أن ابن عباس لم ينكر هذه الصفة فى أسرته بني هاشم ، ونبى الاسلام مهما تكن منزلته بين الأنبياء فهو بشر ، ولا يختلف عن سائر البشر فى شيء الا في أنه يتلقي الوحي من الله ، ويحمل رسالة الله الى البشر ، أما فيما عدا ذلك فلا يختلف عن سائر البشر فى شيء من طبيعته البشرية ، والقرآن يؤكد هذا الحقيقة في أكثر من موضع ، كقوله تعالى (قل انما أنا بشر مثلكم يوحي الي) فلم يكن من الغرابة في شيء أن يحمل خصائص أسرته بني هاشم ، ومنها القوة غير العادية فى تكوينه الجسدي وفي رغبته في النساء ، ولا أظن أن مجتمعا من مجتمعات البشر ، أو عرفا من أعرافهم على الاطلاق يرى فى هذه القوة غير العادية عيبا أو مطعنا ، بل لا شك أنها ميزة فى كل أعراف البشر ، بل ان كثيرا من الناس يبذلون ما يبذلون ، وينفقون ما ينفقون ليحصلوا على مقويات أو عقاقير تمنحهم شيئا من هذه القوة •

وأما تمتع نبى الاسلام بهذه القوة فهو حقيقة لامراء فيها ، وقد احتفظ صلى الله عليه وسلم بهذه القوة فى كلا جانبيها طوال حياته ، ومن أمثلتها فى قوته الجسدية أنه وهو فى النبوة في مكة كان فيها شخص قوى البنية يسمى ركانة ، وكان مصارعا لا يثبت أمامه أحد ، ووجد النبى أن ركانة لا يفهم غير منطق القوة ، فقال له أترى يا ركانة لو صرعتك أتسلم ؟ قال : نعم ، لأنه يثق أنه لا يمكن أن يصرعه أحد ، فضلا عن محمد هذا الوادع الهادىء ، فصارعه النبى فصرعه ، فتعجب

ركانة وطن أو ادعى أن محمد اخـذه على غرة ، فطلب منه أن يعــاود المصارعة ، فعاودها فصرعه النبى ، وهكذا ثلاث مرات ، ومن أمثلتها أيضا ما يرويه أحد أصحاب النبى من أنهم حين كانوا يحفرون فى الخندق فى موقف الأحزاب فى المدينة عرضت لهم فى أثناء الحفر كدية ، أى صخرة صلبة ، لا تأخذ فيها المعاول ، فضرب فيها النبى ضربتين أو ثلاثا فعادت كثيبا مهيلا ، أى تفتت كأنها رمال متفرقة .

وأما عن قوة الرغبة فى النساء فمما يروى عن النبى قوله : حبب الى من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة ، والروايات كثيرة فى هذا المجال ، وبعض الروايات تكشف ما يعد حياة خاصة للنبى فى معاشرته أزواجه ، ولكنها تؤكد هذه الحقيقة ، وهى أنه كان يتمتع بقوة غير عادية فى الرغبة فى النساء .

وقد كان يمكن أن أكتفى بهذا القدر الذى تتضح منه سلامة موقف نبى الاسلام فى هذا الأمر الذى يحاولون أن يتخذوا منه مطعنا عليه ، ولكنى أزيدك أيضـا ايضاحا فى الأمر مما يملأ النفس اعجابا واكبارا للاسلام ، فمن البدهيات التى لا ينازع فيهـا أحد أن أول زواج للنبى كان قبل أن يبعث رسولا وكان فى سن الخامسة والعشرين بينما كانت خديجة التى تزوجها حينئذ فى سن الأربعين أى أنها بدأت تودع الشباب ، واذا تجاوزنا عن عشر سنوات بعد ذلك سنجدها فى سن الخمسين ، أى أنها ودعت الشباب من زمن ، وودعت الأنوثة التى يرغب فيها الرجال ، بينما كان زوجها فى عنفوان القوة والشباب ، فى سن الخامسة والثلاثين ، وبالاضافة الى ذلك فقد كان فى قمة من ترغب فيه النساء ، وسامة وحسبا ونسبا وخلقا ، وليست هناك فتاة أو امرأة على الاطـلاق تمتنع عليه لو تقدم لزواجها ، ومع ذلك فمما لا نزاع فيه أنه لم يتطلع الى امرأة غير زوجته ، ولم يصدر منه قط أدنى شىء يدل على ضيقه بها ، أو رغبته فى التخلص من حياته معها ، بل الأمر بالعكس ، فقد ظل يحمل لها الحب والتقدير حتى ماتت ، بل ظل حبه وتقديره لها بعد موتها حتى كان هذا من المشاكل الدائمة والمتكررة بالقياس الى زوجه عائشة ، التى كانت توقن كما كان النبى يتحدث الى الناس بأنها أى عائشة أحب الناس اليه ، فكانت تمتلىء غيرة من تمسك النبى بحبه وتقديره لخديجة بعد موتها ، حتى قالت له ذات يوم ماذا تريد من عجوز حمراء أبدلك الله خيرا منها ، وتعنى بالتى هى خير منها نفسها ، فقال لهـا النبى فيما قال : والله ما أبدلنى الله خيرا منها ، لقد واستنى بمالها ، ورزقنى الله منها الولد ، وقد ظلت خديجة الزوجة الوحيدة للنبى حتى ماتت وهى فى سن الخامسة والستين ، بينما النبى فى سن الخمسين ، ومعنى ذلك أنه قضى معها خمسا وعشرين سنة ، معظمها وهى عجوز طاعنة فى السن ، بينما هو

فى قمة قوته ورغبته فى النساء ، فلم يتطلع الى الزواج من غيرها مع تيسر ذلك له ، بل ولم تتغير عواطفه نحوها ، وانما ظل يحمل لها الحب والتقدير مدى حياته ٠

فاذا تأملنا موقف النبى نجد أنه قضى شبابه وأقوى مراحل قوته الجسدية طوال خمسة وعشرين عاما مع امرأة واحدة بصرف النظر عن ملابسات هذا الأمر من شيخوختها أو قوته أو قدرته على الزواج بأخرى أو أخريات ، ولم يفكر فى الزواج بأخرى الا بعد موتها ، وكان هو حينئذ على أبواب الشيخوخة أو قريبا منها بعد سن الخمسين ، ولو كان فى تاريخ حياته شىء قط خلاف هذا ، أو كانت فيه أدنى هفوة معيبة لكان أعداؤه فى الدين من معاصريه ومعايشيه أحرص الناس على تضخيم هذه الهفوة وعلى اشاعتها فى كل وجه ، وفى مقدمة هؤلاء عمه أبو لهب وزوجه ، وكان بيتهما ملاصقا لبيت النبى ولا يخفى عليهما من أمره صغير أو كبير طوال حياته فى مكة ٠

أفيقال مع هذا ما يقوله أعداء الاسلام من أن النبى تزوج التسع من الزوجات لمجرد الشغف بالنساء ؟

قال الشاب : فماذا تقول أنت فى تعليل ذلك ؟

قال الشيخ : أقول ما هو واضح فى التاريخ ، وهو أن النبى تزوج بعد خديجة بعائشة حتى لا يظل بدون زوجة ، ثم تزوج من بعد بالأخريات لأسباب عدة ، منها سبب تشريعى كزواجه بزينب التى كانت زوجا لشخص كان قد تبناه النبى وهو زيد بن حارثة ، وقد أبطل القرآن نظام التبنى ، وكان من تقاليد العرب تحريم زواج الأب من زوج ابنه بالتبنى فأراد الله أن يتزوج النبى زينب وهى زوج زيد الذى كان ابنه بالتبنى ، ليكون تطبيقا عمليا لابطال نظام التبنى وما يترتب عليه من آثار كموضوع الزواج ، ويصرح القرآن بأن هذا الهدف التشريعى كان السبب فى هذا الزواج فى قوله تعالى (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا) ومن أسباب زواجه رعايته لبعض أزواج الشهداء والذين خلفوا أزواجا يعجزن عن الانفاق على أنفسهن ، ومن أسباب زواجه الجانب السياسى بوصفه ممثلا للمسلمين وزعيما لهم بالاضافة الى وضعه الدينى ، فهو يبذل جهده فى تأليف القلوب وضم أكبر عدد من الناس تحت راية الاسلام ، ومن وسائل تأليف القلوب أن يكون صهرا لمن يتألفهم ٠

وليست هذه الأسباب دفاعا عن موقف النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد رأينا أن موقفه ليست فيه شائبة من نقص أو عيب ، لا من ناحية الدين ، ولا من ناحية العرف حتى يحتاج الى دفاع ، بل ان كل سلوكه

سواء قبل نبوته أو بعدها كان مثلا أعلى يصعب على أى انسان أن يساميه أو يدانيه فيه ٠

قال الشاب : قبل أن نتوقف عن حديثنا حول نبى الاسلام أعرض عليك ملحوظة يراها الناس شائعة فى أنحاء الأمة الاسلامية ، وهى أن كثيرا من الطوائف وليس الأفراد من بين المسلمين يستغلون شخصية نبى الاسلام أو من ينتمون اليه من ذريته ، فيعظمونهم تعظيما يوشك أن يكون عبادة لهم ، بل كثيرا ما يضعونهم مكان الله ، فيضرعون اليهم بالدعاء ، ويلتمسون منهم ما لا يلتمس الا من الله ، وأرى هذا يتناقض مع ما أفضت فيه من حديثك عن وضع النبى فى الاسلام وهو أنه مجرد رسول من الله يحمل رسالة منه الى البشر ، وأنه لا يملك لنفسه ولا لغيره خيرا ولا شرا الا أن يأذن الله به ، ومن باب أولى من ينتمون اليه ، فكيف يتفق هذا الواقع مع ما تقول ؟

قال الشيخ : أرى فى سؤالك تطورا ، فانه أشبه بالاجابة منه بالسؤال ، أما قولى هذا فان بعضه قد تكرر أكثر من مرة ، وهو أن حديثى عن وضع النبى فى الاسلام ليس من رأيى أو اجتهادى ، وانما هو صريح القرآن فى أنه مجرد رسول من الله ، كقوله تعالى (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل) وفى أنه لا يملك بذاته لنفسه ولا لغيره خيرا ولا شرا كقوله تعالى (قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله) وكما قلت أنت فمادام الرسول لا يملك بذاته لنفسه ولا لغيره شيئا فمن باب أولى ألا يملك غيره لنفسه ولا لغيره شيئا ، سواء أكان هذا الغير من ذرية النبى ، أو من صحابته ، أو من قرابته ، أو من أية جهة تنتمى اليه ، وقد كان من آخر ما أوصى به النبى وهو على فراش الموت نهى المسلمين عن أن يعظموه كما بالغ بعض أصحاب الأديان السابقة فى تعظيم أنبيائهم ، وألا يتخذوا قبره مسجدا كما اتخذ أصحاب الأديان السابقة قبور أنبيائهم معابد ، وكان الهدف من هذا كله افراد الله سبحانه بالألوهية ، وما تستتبعه الألوهية من العبادة وملكية النفع والضرر ونحو ذلك بحيث لا يشاركه ولا يدانيه من قريب أو بعيد أحد قط فى خصائص الألوهية ٠

ولكن مما يؤسف له أن كثيرا جدا من المسلمين تجاهلوا كل هذه المحاذير ، وراحوا يقدسون بعض القادة الأئمة الدينيين ، حتى رفعوا بعضهم فوق مرتبة النبوة ، بل رفعوا بعضهم الى ما يشبه مشاركة الله سبحانه ، ومن صور هذه المشاركة أن يتوجهوا اليهم بالدعاء ، على أساس أنهم هم يملكون النفع أو الضرر وليسوا مجرد وسائل الى الله ، أو شفعاء عنده ، ومن العجيب أن النبى أشار الى هذا ونحوه فى عدة أحاديث نبوية ، منها ما يتضمن أن الأمم السابقة افترقت الى سبعين فرقة ، وأن

أمته ستفترق الى ثلاث وسبعين فرقة ، أى أن المسلمين سيزيدون عن الأمم السابقة فى الافتراق الى مذاهب دينية شتى ·

ولا شك أن القادة الدينيين فى كل طائفة أو فرقة بعدت عن جوهر العقيدة هم الذين يتحملون جرم هذا البعد ، فان عامة الناس من الأتباع فى كل الأديان يسلمون قيادهم الدينى فى العادة الى قادتهم فى الدين دون أن يستخدموا عقولهم ، وكثير من هؤلاء القادة سواء أكانوا قادة طائفة أم قادة جماعة يكون حرصهم على استقرار زعامتهم الدينية وتوسيع قاعدتها أهم من حرصهم على الدين نفسه ، فيتلمسون ما يرونه أقرب الى عواطف أتباعهم فيملأون نفوس أتباعهم به ، وشخصية الرسول هى هى أشد ما يستحوذ على عواطف المسلمين ولكن تركيز القرآن الشديد فى التأكيد على تحديد صفة النبى فى بشريته وفى أنه مجرد رسول من الله ، وأنه لا يملك لنفسه ولا لغيره خيرا ولا شرا ، وتكرار هذا فى القرآن جعل الحريصين على زعامتهم وقيادتهم الدينية لا يجدون مجالا واسعا لينفذوا الى أهوائهم من خلال شخصية النبى ، فلجأوا الى شىء بديل ، وهو النفاذ من خلال أهل بيت النبى وذريته الى ما يريدون فأخذوا فى تعظيمهم وتقديسهم ، وجعل كل فريق من هؤلاء القادة الدينيين لنفسه أسلوبا ومنهجا فى هذا التقديس لأهل بيت النبى وذريته حتى بعدوا بأتباعهم عن جوهر عقيدة الاسلام بعدا شديدا أو يسيرا حسبما أحدثوه من أسلوب قيادتهم ·

قال الشاب : من الواضح أن كل فرقة تدعى أنها على الحق ، وأن من عداها على الباطل ، والا لما استقر الاتباعفى تبعيتهم لها ، فكيف السبيل الى تمييز الحق من الباطل فى كل هذه الاتجاهات ؟

قال الشيخ : السبيل واضحة نيرة لمن أخلص فى التماس الحق ، وهى كتاب الله ، فان طريق الاسلام فى القرآن واضحة مستقيمة لا لبس فيها ولا عوج ، وأقول انها واضحة لمن أخلص ، لأن بعض أصحاب الهوى استطاعوا أن يؤولوا بعض ما فى القرآن تأويلا معوجا بحيث يلائم أهواءهم فزادوا بهذا التأويل أتباعهم بعدا وضلالا عن صلب الاسلام ·

(٧)

قال الشاب : هناك بعض أسئلة أتحرج من القائها ، لأنها تتعلق بذات الله ، ولا أدرى سبب تحرجى من التصريح بها ، هل هو التهيب من الله ؟ أم الخوف من اسـاءة السامع ظنه بى ؟ أم هما معا ؟ وهذا ما جعـلنى أتأخر فى الادلاء بهـا ، وآمل ألا تجـد أنت حرجا فى الاجابة عنها ، وأول هذه الأسئلة أنه من البداهة أن كل من يسمع اسم الله سواء أكان من المؤمنين به أم من الكافرين به لابد أن ترتسم فى ذهنه صورة لذات الله ، لأن الانسان من طبيعته ألا يفكر فى شىء الا اذا كانت له فى نفسه صورة معينة ، بصرف النظر عن رضاه عن هذا الشىء أو سخطه عليه ، وحتى الذين ينكرون وجود الله لا يعقل أن تخلو أذهانهم من تخيل صورة له رغم رفضها أو انكار وجودها ، ومن جهة أخرى لا يعقل أن تكون هذه الصورة عن ذات الله واحدة فى أذهان المؤمنين والملحدين ، بل ولا يعقل أن تكون واحدة حتى فيما بين المؤمنين أنفسهم .

فكيف ترى الصـورة الصحيحة التى ينبغى أن يتصورهـا الناس لذات الله ؟

قال الشيخ : ان ما تقوله عن اختلاف الناس فى تصورهم لذات الله هو الصحيح ، أعنى هو المعقول ، لأن البشر لا يعرفون صورة معينة أو محددة عن الله سبحانه ، وهذا ينطبق حتى على الأنبياء الذين يتلقون الوحى عن الله ، وقد كان موسى عليه السلام وهو من صفوة الأنبياء ، وقد ميزه الله عن سائر الأنبياء بأنه كان يكلمه مباشرة أحيانا دون وحى بينهما ، كان موسى يتلهف شوقا الى أن يرى الله بعينيه حتى لا يخطىء خياله فى رسم صورة لذات الله لا تطابق الواقع ، فطلب من الله أن يسمح له بأن يراه بعينيه ، ولكن الله رده الى العقل والفكر السليم ، وهو أن حواس الانسان ومنها البصر محدودة الادراك ، فالبصر لدى أى مخلوق له حدود لا يستطيع أن يرى أو يدرك ما وراءها ، بينما ذات الله غير محدودة بزمان أو مكان أو جهة ، فهو موجود فى كل الأزمنة ، وكل الأمكنة ، وكل الجهات ، فى وقت واحد ، وهذا ما لا تستطيع العقول تصوره أو ادراكه ، لأن عقول البشر كحواسهم محدودة مقيدة بمجال أو

مجالات معينة ، فالانسان مهما بلغت عبقريته ، ومهما اتسعت آفاق ادراكه العقلي فان لعقله وادراكه حدودا ، كما أن لبصره حدودا لا يستطيع أن يرى أبعد منها ، ولسمعه حدود لا يستطيع أن يسمع مما هو أبعد منها ، فكيف يستطيع العقل وهو محدود الادراك أن يدرك تصورا محددا لذات الله غير المحدودة ؟ ولذلك اكتفت الأديان بمطالبة البشر بمجرد الايمان بوجود الله وصفاته دون الخوض فى تصور ذاته .

قال الشاب : كيف لى أو لغيرى أن يفهم ما تقول من أن الله لابد أن يكون موجودا وجودا مطلقا ، واذا فهمت شيئا ولو غير مقنع من وجوده فى كل مكان فكيف أفهم وجوده فى كل زمان ، فى الماضي على عمقه ، وفى الحاضر ، وفى المستقبل على امتداده ، كل هذا فى وقت واحد ؟ كيف تجتمع الأزمنة على تعددها فى زمن واحد ؟

قال الشيخ ضاحكا : وطبعا فى فهمك اليسير كما تقول لوجوده سبحانه فى كل مكان أنت تتحدث عن الأرض ، بمعنى وجوده فى كل مكان على الأرض ، وهذا تحديد مضحك ، لأن الأرض جزء من خلقه ، فيسرى على كل خلقه ما يسرى على الأرض ، ومن بدهيات علوم الناس اليوم أن الأرض كلها ليست الا ما يشبه ذرة سابحة فى الكون ، بل ان كل المجموعة الشمسية ، وهى الكواكب التى نرى بعضها بأعيننا ليست كل هذه المجموعة بكل كواكبها ومنها الأرض الا أصغر مجموعة سابحة فيما لا يحصى ولا تحيط به المدارك من المجموعات والفضاء فى الكون غير المتناهى ، أى الذى ليست له نهاية وليس له حدود ندركها ، وعدم التناهى فى الكون هو أحدث ما انتهت اليه بحوث علماء الفلك والفضاء ، بمعنى أن آخر ما انتهت اليه دراساتهم وبحوثهم أن الكون لا نهاية له .

ومقتضى الألوهية لله أن يكون خالقا لكل شىء فى الكون ومهيمنا عليه ، أى غير غائب عنه ، أى أنه موجود فى كل مكان فى الكون على الاطلاق ، ولكنه وجود لا تدرك حقيقته أو طبيعته العقول فضلا عن الحواس ، وأما موضوع الأزمنة التى تتحدث عنها ، فان الفصل بين الماضى والحاضر والمستقبل انما هو فصل بالقياس الينا نحن حتى تستطيع عقولنا أن تتلائم مع واقع الحياة وتنظم شئونها ، أما بالقياس الى الخالق للزمان وهو الله فالأمر مختلف ، فلا يوجد بالقياس اليه ماضى أو حاضر أو مستقبل ، بل الزمن كله عنده واحد ، وعلمه به وهيمنته عليه واحدة ، غير أن هذا لا يتلاءم مع عقولنا لأن مداركها صيغت وفق حدود قصيرة صغيرة تتلاءم مع حياتها وقدراتها المحدودة ، وأنا أعلم — قبل أن تسأل أو تعترض — أن هذا الكلام غير معقول أو مفهوم ، وهذا ما كررته لك من أن ما يتعلق بذات الله فوق عقول البشر ، بل خارج عن مدارك البشر ، لأن عقولهم تدرك وتحكم من خلال واقعها وقدراتها ، وما يتعلق

بذات الله لا هو من واقعها ولا هو من قدراتها ، ومن هنا نعود الى حديث موسى عليه السلام الذى أراد أن يرى ذات الله بعينيه ، فطلب هذا من ربه قائلا (رب أرنى أنظر اليك) فأراد الله أن يعلمه أن ادراك ذات الله خارج عن مدارك عقول البشر فضلا عن مدارك حواسهم ، بل هو خارج مدارك مخلوقاته جميعا ، وأن شيئا من مخلوقاته مهما بلغت قوته لن يطيق مواجهة ذات الله فضلا عن رؤيتها أو ادراكها ، وضرب له مثلا بالجبل وهو أقوى وأصلب ما يعرفه الناس ، فكان كما قال سبحانه (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر اليك قال لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين) فقد أغمى على موسى من مجرد رؤيته آثار تجلى ذات الله لشيء من خلقه ، وكأن اللـه يقول له حينئذ فكيف لو تجلت ذات اللـه لك مباشرة ؟

ولهذا فان الدين ينهى عن الخوض فى ذات الله ، ويكتفى بطلب الايمان بوجود الله وبصفاته المعروفة فى الدين بأسماء الله الحسنى ، وهى تسعة وتسعون اسما ، ولكنها فى الحقيقة صفات لله وليست أسماء بالمعنى المعروف للأسماء ، فان الاصطلاح المعروف للأسماء أنها أعلام تميز أصحابها عن غيرهم دون نسبة ما قد تدل عليه الى المسمى ، بمعنى أننا قد نسمى شخصا أسدا فلا نعنى أنه أسد حقيقة أو أنه يشبه الأسد ، وان كان الذين سموه بهذا تمنوا أن يكون شجاعا كالأسد ، ولكنه قد يكون جبانا ، وكذلك قد نسمى شخصا محمودا وهو فى الواقع مذموم ، وقد نسمى شخصا أبا المجد وهو فى الواقع حقير مهين وهكذا ، بينما الصفات لابد أن تقصد نسبتها الى الموصوف بمعنى وصفه بها ، فحين نصف شخصا بأنه شجاع فالمفروض أن يكون شجاعا حقيقة وهكذا ٠

فأسماء الله هى صفات يقصد نسبة مدلولاتها الى الله ووصفه بها ، وأعتقد أن عدد التسعة والتسعين فى أسماء الله لا يقصد بها الحصر ، وانما يقصد بهـا التعميم والاطـلاق ، بمعنى وصف الله سبحانه بكل صفات الكمال والخير وما يناسب الألوهية ولو كانت أكثر من تسـعة وتسعين ٠

قال الشاب : تقول ان الدين ينهى عن الخوض فى ذات الله فهل تعتقد أن الناس استجابوا لذلك ؟ أو هل يستطيعون ذلك ؟

قال الشيخ : لست أحب أن أفيض فى هذا الحديث ، ولكنى أكتفى بأن أقول لك ان الناس فى هذا الأمر لهم موقفان ، فبعضهم قد ترتسم فى خياله صورة لذات الله سبحانه سواء قصد رسمها أو لم يقصد ،

وهذا النوع غير مؤاخذ على تصوره طالما لم يتعمد الاخلال بقداسة الألوهية ، ولم يتعد الحدود التى رسمها الدين لتصور ذات الله سبحانه ٠

قال الشاب : وما هذه الحدود التى رسها الدين لتصور ذات الله ؟

قال الشيخ : هذه الحدود تتمثل فى قوله تعالى عن تصور ذاته (ليس كمثله شىء) بمعنى أنه لا ينبغى تصور ذات الله بتشبيهها بأى شىء فى السموات أو فى الأرض أو فى الكون على الاطلاق ، لأنه لا شىء يشبهه ٠

فالذين يتصورون ذات الله فى خيالهم لا ينبغى أصلا أن يتخيلوا صورة له ، ولكن اذا غلبتهم طبيعة التخيل فأعتقد أنهم غير مؤاخذين طالما لم يتعدوا هذه الحدود ولم يعبروا عن هذا التصور أو التخيل بألسنتهم أو أقلامهم أعنى لم يخرجوها من حيز التخيل الى حيز الواقع ٠

وأعود فأقول وبعض آخر من الناس يصرون على أن يتصوروا ذات الله سبحانه فى صـــورة مجسدة ومحددة ، وهؤلاء حين يتعمدون ذلك ويعرفون مدى اخلاله بقداسة الألوهية يخرجون من دائرة الايمـــان الى الالحاد والكفر ، بل ان بعض الناس وخصوصا اليهود لا يكتفون بتصوير ذات الله فى صورة مجسدة ، وانما يجعلون هذه الصورة سيئة منكرة ، فهم حتى فى كتبهم المقدسة التى وضعوها بعد وفاة موسى عليه السلام بنحو ثمانمائة عام يصورون الله سبحانه فى صورة انسان ماكر مخادع ويصفونه بأنه العدو الأكبر لهم ، ومن ذلك وصفه فى قصة خروج آدم من الجنة فى صورة انسان ماكر مراوغ يختبىء من آدم فى الجنة وراء شجرة ليضلله ، ومنها تصويره فى صورة مصارع مهزوم حيث يزعمون أنه ظل يصارع موسى طول الليل ، ولكن موسى انتصر عليه وشل حركته فأخذ يتوسل الى موسى أن يطلقه ، وكثير من هذا وأسوأ من هذا التصور ينسبونه الى الله ٠

وليسوا وحدهم الذين تصوروا ذات الله فى صورة مجسدة ، بل كثير من الملحدين ، وأصحاب المذاهب الضالة كانوا كذلك ٠

قال الشاب : وهناك أسئلة تتعلق بالله ، وبعلاقته بالناس ليست من عندى أنا ، بل أسمع بعض الناس ومنهم مؤمنون يرددونها ، ومنها أنه ما دام الله هو المقدر والمصرف لكل شىء فمعناه أنه هو الذى أراد للعصاة عصيانه ، وأيضا أراد للكافرين الكفر به ، فكيف يحاسبهم أو يعاقبهم على شىء هو الذى أراده ؟

قال الشيخ : ان بعض الناس ينسون قدر الله سبحانه بالقياس الى أقدارهم وكأنهم يضعون أنفسهم فى مستوى الله سبحانه ، ويحاسبونه

على أساس التكافؤ بينهم وبينه ، مع أن هذا لا يجوز فى أى عقل يحمل ذرة من ايمان ، فغير المؤمن قد يرى أو يتصور ما يشاء لأنه فقد أساس الاعتراف بالله أو بحقيقة الله ، أما المؤمن فينبغى أن يكون ماثلا فى عقله ويقينه بصفة دائمة أنه لا وجه اطلاقا للموازنة بين الله وأى شىء على الاطلاق من مخلوقاته ، وبين كل ما عداه سبحانه من مخلوقاته ، وحينما نصف الناس بأنهم عبيد الله فاننا نضخم من شأنهم أو قل نعطيهم أكثر من حقهم ، لأن العلاقة بين العبد وسيده فى عرف الناس وواقعهم لها حدود فى كلا الطرفين ، فطاعة العبد لسيده مهما تبلغ فان لها حدودا لا يملك السيد بعدها طاعة من عبده ، وكذلك سلطان السيد على عبده أيضا مهما يبلغ فان له حدودا لا يعقل من السيد أن يتجاوزها ، وفى كل حال فان السيد وعبده كلاهما كيان قائم بذاته ، ويستطيع العبد أن يخفى كثيرا من شئونه عن سيده ، ويستطيع أن يعصيه أو يخالفه دون أن يعلم ، وكثير غير ذلك بين العبد وسيده من البشر ، بينما لا يجوز شىء من ذلك قط فى العلاقة بين الله ومخلوقاته ، فالصلة بين الله ومخلوقاته ومنها الناس تختلف عن أية صلة أخرى ، فالله هو الصانع والموجد لكل مخلوق بعد أن لم يكن شيئا ، وهو المدبر والمصرف الوحيد لكل صغيرة أو كبيرة فى شئون كل المخلوقات ، فمجرد المشيئة منه تفعل كل شىء ، وتغير كل شىء ٠

وفى ضوء هذا فان من الاجابة عن تساؤلك أن أى مخلوق لا يملك وليس من حقه أن يطالب الله بشىء ، وانما عليه فقط أن يطيع ويستجيب لكل ما يأمر به الله دون أن يطلب من الله سببا أو توضيحا ٠

ولكن من رحمة الله وفضله أن قبل من الناس ما يقبله السيد من عبده ، بل جعل الدين ــ كما سبقت الاشارة الى ذلك ــ صورة من حياتهم ، بمعنى أنه يقبل منهم ما يتعارفون عليه فى حياتهم فى أغلب ما يطلبه منهم ٠

وفى تساؤلك عن أنه كيف يريد الله لعباده مخالفته ثم يحاسبهم ويعاقبهم على ما أراده منهم ، فان هذا مما تجاوز فيه الناس أقدارهم بالقياس الى الله ، أو تناسوا قدر الله سبحانه بالقياس اليهم ، بل انهم فى مثل هذا التساؤل يحاولون أن يغالطوا الله سبحانه فى تصوير الواقع ، والواقع أن كل انسان حينما يكون فى موقف يجمع بين الخير والشر ، أو بين طاعة الله ومخالفته ، فلابد أن يشعر بأنه حر وكامل الاختيار لأى اتجاه يسلكه ، ســواء أكان اتجاه الخير والطاعة ، أم اتجاه الشر والمخالفة ، وعلى أساس حريته واختياره يحاسبه الله ، أما كون الله سبحانه أراد أو لم يرد فالمفروض أن الانسان لا شأن له به ، لأنه شأن الله ، ولا ينبغى للعبد أن يتدخل فى شئون سيده ، بل لا ينبغى للمخلوق

أن يتدخل فى شئون خالقه ، أما شأن الانسان فهو أن يسأل نفسه : هل كان حينما فعل هذا الشيء حرا ومختارا فى فعله أم لم تكن له حرية واختيار ؟ ومن المعروف المشهور فى الدين أن الله انما يحاسب الذى يملك الاختيار ، أما المكره المغلوب على أمره فقد أعفاه من المسئولية عما يكره عليـه ولو كان كفرا ، كقوله تعالى (الا من أكره وقلبـه مطمئن بالايمان) فقد استثنى المكره على الكفر من المسئولية والعقاب ما دام قلبه مطمئنا بالايمان ٠

على أن هناك شيئا مهما ينبغى أن نقف عنده ، وهو أن كون الله قد أراد للمخالفين مخالفته انما هو من باب الافتراض والتسليم الجدلى ، بمعنى أننا لو افترضنا جدلا أن الله أراد لهم ذلك فان هذا لا يعفيهم من المسئولية لأن مسئوليتهم لا تتجاوز أن يقال لهم هل كنتم مختارين لمخالفة الله بمحض ارادتكم أم أن أحدا أكرهكم عليها ، سواء أكان هذا الأحد هو الله سبحانه أم غيره ؟

أما الحقيقة الواضحة فهى أن ادعاء كون الله أراد لهم العصيان أو المخالفة أو الكفر فهذا افتراء على الله ، وقلب للحقيقة ، فلا يعقل أن يريد الله لأحد أن يعصيه أو يكفر به ، لأن مثل هذا يأباه الانسان العادى فضلا عن كرام الناس ، فلا يعقل من انسان له جاه وسلطة ويملك أن يأمر وينهى أن يدفع الناس الى عصيانه وتحديه أو انكار سلطانه وجاهه عليهم كما يفعل الكافرون مع الله ، لأن عصيانه وتحديه اساءة اليه ، والانسان العادى فضلا عن كريم النفس لا يقبل الاساءة ولا يرضاها ، فكيف يعقل أن يريد الله الاسـاءة اليه بعصيانه أو تحديه أو انكار ألوهيته ؟ وفى القرآن (ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم) ٠

قال الشاب : ولكن الذين يثيرون هذه القضية لا ينظرون اليها من هذه الزاوية ، وانما ينظرون اليها من زاوية منطقية ، وهى أن المفروض أنه لا يحدث فى الكون شيء على الاطـلاق الا ويكون الله قد أراده ، وعصيان العصاة ، أو كفر الكافرين مما يحدث فى الكون ، فلابد أن يكون الله قد أراده ، ومن هنا كان تساؤلهم : كيف يحاسب الله الناس على شيء أراده هو ؟

قال الشيخ مبتسما : انك بحديثك عن الكون والانسـان تخلط الأوراق بلغة لاعبى الورق ، أعنى تخلط الأمور بعضها فى بعض وان كان واضحا أنه بدون قصد منك ، وذلك أن كل الكون الذى نعرفه بكل ما فيه شيء ، والناس وحدهم شيء آخر ، وذلك أن الله خلق كل الكون الذى نعرفه بكل ما فيه سواء فى السموات أو فى الأرض مسخرا لا ارادة له ولا اختيار ، وخلق الانسان وحده وله ارادة واختيار ، فكل شيء فى

الكون خلق لمهمة معينة ، فهو يؤديها ولا يملك أن يخالفها ، كالملائكة مثلا خلقوا لتسبيح الله ، فهم بصورة تلقائية يزاولون مهمتهم بصفة دائمة ، ولا يملكون مخالفتها ، والحيوانات سواء في البر أو البحر أو الجو كل منها يؤدى مهمته فى حياته بصورة تلقائية لا يملك مخالفتها ، وكذلك الجماد ، أو ما نسميه نحن جمادا ، ولكنه بالقياس الى الله لا يوجد ما يسمى جمادا ، وانما هو مخلوق له مهمة معينة وان كنا لا ندرك بعضها أو كلها فهو يؤدى هذه المهمة بصورة تلقائية لا يملك مخالفتها ، وكذلك كل ما في الكون يؤدى المهمة أو الشأن الذى خلق له ولا يملك مخالفة ذلك الا حين يأمره الله بالمخالفة ، كما يحدث فى المعجزات التى تخرق سنن الكون فالبحر مثلا خلقه الله ماء سائلا متصلا بعضه ببعض لحكمة معينة ، ولا يملك بعضه الانفصال عن بعض ، ولكن حينما أراد الله له الانفصال أمره أن ينفصـــل حين ضرب موسى بعصـــاه فى البحر فاستجاب البحر وانشق فأصبح قسمين منفصلين ، وهذه الاستجابة من البحر لله هى معنى أنه لا يوجد ما يوصف بأنه جماد بالقياس الى الله ، فلو كان البحر جمادا كما نفهم نحن صفة الجماد من نحو أنه لا يحس ولا يتحرك ولا تتغير صفته بطفولة أو شيخوخة أو غير ذلك ما استجاب البحر لأمر الله لأنه لا يعقل ما يوجه اليه حينئذ من أمر — فى عرفنا — وبالتالى لن يستجيب ، أو لا يملك الاستجابة ، وكذلك العصا التى نصفها بأنها جماد والتى خلقها الله لأداء مهمة معينة لا تملك مخالفتها أو التغيير فيها ، حينما أمرها الله بأن تتحول ثعبانا حين ألقاها موسى استجابت ، فلو كانت جمادا بالقياس الى الله ما كانت لتعقل ما أمرها به ، ولا أن تغير من طبيعتها أو طبيعة مهمتها ، وكذلك النار طبيعتها أن تحرق كل ما تمسه ، ولا تملك مخالفة هذا ، ولكن حين أمرها الله أن تتحول بردا وسلاما على ابراهيم استجابت ، ولو كانت جمادا بالقياس الى الله ما عقلت أمره ولا استجابت ، غاية الأمر أن كل هذه الأشياء وغيرها فى الكون مسخرة ليست لها ارادة أو اختيار ، ولا تملك الا ما خلقها الله من أجله أو ما يأمرها به .

ولكن الانسان هو المخلوق الوحيد الذى خلقه الله غير مسخر ، بل خلقه ذا ارادة واختيار ، فهو يملك الحرية فى أن يختار الشىء وعكسه فى كل ما يزاوله فى حياته ، ولعل هذا ما أفزع الملائكة حين عرض الله عليهم أنه سيخلق آدم وذريته ، فهم يعرفون أن الكون كله مستقيم وصالح لأن كل شىء فيـــه مســـخر لأداء ما يريده الله منه ، ولكن حرية الارادة والاختيار التى سيمنحها لبنى آدم ستكون افســـادا منهم وتخريبا فى الأرض ، وهذا ما حدث فعلا فى تاريخ بنى آدم حتى اليوم .

واذن فكل ما يفعله الانســـان هو مسئول عنه لأنه يفعله بارادته

واختياره ، وهذا المعنى يتكرر مضمونه فى القرآن كقوله تعالى عن الانسان (وهديناه النجدين) أى بينا له الطريقين ، طريق الخير وطريق الشر ليختار أيهما يشاء ويكون مسئولا عن اختياره ، وكذلك قوله تعالى عن الانسان أيضا (انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا) فهو حر مخير بين أن يسلك سبيل الخير والشكر ، أو سبيل الجحود والكفر ٠

ومن هنا لا محل للتساؤل الذى نتحدث عنه فضلا عن أن يكون تساؤلا منطقيا ، أما المنطق فهو أن الانسان ينبغى أن يحصر نفسه فى شئونه ، وهى أنه يحاسب على ما يفعله باختياره ، ولا ينبغى أن يتطاول الى الدخول فى شئون الله سبحانه ، هل أراد أو لم يرد ٠

قال الشاب : مع كل هذا هل يعقل أن يكون اختيار الانسان أو ارادته ملغية أو مانعة لارادة الله فيما يصدر عن الانسان من خير أو شر ؟

قال الشيخ : ان ألفاظا مثل الالغاء والمنع بالقياس الى الله سبحانه تصدم سمعى ولو كانت مجرد افتراض ، ولكنى لم أنس بل أخرت قاصدا أن أقول لك انه يستحيل أن تصدر صغيرة أو كبيرة على الاطلاق فى الكون بعيدا عن الله سواء أصدرت من الانسان أم من غيره ، غير أنه من اليسير على أى متأمل فى هذا المجال أن يدرك أن لله سبحانه فيما يتعلق بهذا النحو أكثر من صفة ، كصفة الارادة التى يترتب عليها حدوث أى شىء على الاطلاق فى الكون ومنه الانسان بمجرد ارادة الله ، فبمجرد أن يريد الله ايجاد أى شىء فى الانسان أو غيره من مخلوقاته على الاطلاق فلابد أن يوجد هذا الشىء فور ارادة الله ، ويعبر القرآن عن هذا بمثل قوله تعالى (سبحانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون) ٠

فصفة الارادة صفة ايجاد وخلق ، وهناك صفة لله سبحانه كالعلم ، هى صفة ادراك وليست صفة ايجاد وخلق ، بمعنى أن الله سبحانه يعلم كل ذرة فى الكون مهما صغرت ، ويعلم كل حركة فيه مهما خفيت أو خفتت ومن ذلك الانسان ، ولكن طبيعة العلم لا تقتضى ايجاد شىء غير موجود ٠

ومن هنا يمكن أن نفهم موضوع حرية الانسان واختياره ، فالله سبحانه يعلم مثلا أن هذا الشخص سيسرق أو يقتل ، ولكنه لا يأمره بالسرقة أو القتل ولا يريد ذلك له ، وانما يزاول هذا الشىء باختياره ، وقد كان يمكن ألا يسرق أو لا يقتل ، غاية الأمر أن الله لابد حينئذ أنه كان يعلم أنه لن يسرق ولن يقتل ٠

فالفارق كبير وجوهرى بين طبيعة الارادة ، وطبيعة العلم ، وكذلك

الأمر بالقياس الى الناس ، فأنت حينما تريد فعل شيء فمعناه أنك تريد ايجاد شيء غير موجود ، ولكن علمك بالشيء هو مجرد ادراك أن هذا الشيء موجود ، والفارق بين علم الله وعلم الناس فيما يتعلق بالزمن أن علم الناس مقصور على الماضي والحاضر دون المستقبل ، كما يقول الشـاعر العربي الجاهلي :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عمي

أما علم الله فهو مطلق الزمان لأنه لا يوجد بالقياس الى الله زمان أصـلا٠

ومن هذا لعله يتضـح لك أن علم الله بأنك سـتختار كذا لتفعله لا يقتضى أنه يريد منك أن تفعل هذا ، وحتى من زاوية أن علم الله لابد أن يتحقق وهذا حق فان هذا لا يترتب عليه التأثير على حرية الانسان فى اختياره ما يفعل ، وانما يترتب عليه أنك لو فرض واخترت عكس ما فعلت فلابد أن الله كان سيعلم أنك ستفعل هذا العكس ٠

واذن فالله يعلم أن فلانا سيختار كذا دون كذا وفلانا سيختار هذا دون هذا فيحاسبهم على اختيارهم ان كان ما فعلوه يدخل فى نطاق ما أوجبه عليهم أو ما نهاهم عنه ٠

قال الشاب : ولكن بعض من يستمعون الى حديثك عن حرية الانسان واختياره قد يتصور أو يتوهم أن الانسان مستقل عن الله وأنه ٠٠

قال الشيخ مقاطعا فى فزع : أعوذبالله وأستغفره من أن أقول عن الله سبحانه ما فيه لبس ، فانما قصدت الرد على الذين يفترون على الله ويريدون أن يحملوه أخطاءهم ، ولم أتجاوز فى ردى الواقع والمنطق ، ولم يكن فى كلامى لبس فيما أظن ، ومحاولة القائهم أخطاءهم على الله سبحانه هى ادعاؤهم أن الله أراد لهم ما فعلوه من عصيان أو كفر ٠

على أن فى سؤالك جانبا تستحق الاجابة عنه مزيدا من التوضيح ، وهو أن حرية الانسان واختياره انما تكون فيما يقدم عليه هو من شئون حياته وأمامه سبل الاختيار ، أما ما يصيبه من خير أو شر دون أن يكون له فى كسبه وفعله اختيار فهذا من شئون الله ، لا يملك الانسان فيها اختيارا ، بل ولا يملك التدخل فيها ، فحينما يصيبه ضر من مرض أو ألم أو فقر أو موت أو عقبة فى أمور حياته أو غير ذلك ، وكذلك ما يصيبه من خير لاختيار له فى كسبه ، كل ذلك من قضاء الله وقدره وحده ، والايمان به من أسس العقيدة الصحيحة ٠

قال الشاب : الأسئلة فيما يتصل بالله كثيرة ، وأخشى أن تضيق ببعضها ، ولكنى مجرد مستوضح ، أو ناقل لما أسمعه يتردد ، وأذكر أننى قرأت أو سمعت ذات مرة قاعدة دينية تقول ان ناقل الكفر ليس بكافر ، فاذا كان هذا صحيحا فدعنى أستوضحك الاجابة عن بعض هذه الأسئلة ، ومنها أن بعض الناس يقولون ان الدين أو بمعنى أوضح ان الله يكلف الناس أحيانا مالا يفهمون الحكمة من تكليفهم اياه ، فاذا فهموا مثلا فريضة الزكاة على أنها مواساة للفقراء وتعاون بين طبقات المجتمع فهم لا يفهمون بوضوح الحكمة فى فريضة الصوم التى تكلفهم المعاناة وتحد من قدرتهم على العمل مما يؤثر فى المجموع على اقتصاد المجتمع كله ، وما يساق لهم من تعليل مثل كون الصوم فائدة صحية فان هذا لا يقنعهم على أساس أن لكل شخص ظروفه وأحواله الصـحية المختلفة عن الآخرين ، فلا يوجد علاج يصلح لكل الحالات على اختلافها ، والأطباء هم أعرف بتحديد الظروف الصحية لكل شخص ، وأقدر على وصف علاج المرض ، ووسائل الوقاية من المرض ، وكذلك فى الأمور المحرمة من المشروبات والمأكولات ، بعضها لا يفهم كثير من الناس الحكمة فى تحريمه ، وما يساق لهم من تعليل لتحريمه لا يقنعهم ، وهكذا فى أمور كثيرة فى الدين أذكر منها مثالا سمعته من أحد زملائى من غير المسلمين ، وفهمت منه أنه مما يتردد بينهم بل ومما يثيره بعض رجال دينهم من الطعن على الاسلام ، هو لماذا يوجب الاسلام غسل الجسم كله عقب المواقعة بين الرجل والمرأة ؟ وأنه كان يكفى الأمر بغسل عضوى التناسل ، حيث هما فقط اللذان لحق بهما شىء من آثار المواقعة ويضربون مثالا لتأييد قولهم بوعاء ملىء بثمار الخيار فأصابت احدى الثمرات نجاسة ، فلماذا نغسل كل ما فى الوعاء من ثمار ، بينما يكفى غسل الثمرة التى أصابها النجاسة ، وهكذا فى أمثلة كثيرة من الدين بعض النـاس لا يفهمون حكمتها فيرون تكليف الناس اياها غير منطقى ، فما قولك ؟

قال الشيخ فى لهجة مداعبة : وما قولك أنت فى هذا ؟

قال الشاب : لقد اتفقنا منذ البداية على ألا تسألنى عن موقفى من الدين ، ولا عن موقفى مما تقول ، ولا عن اقتناعى أو عدم اقتناعى بما أسمع، ومع ذلك أقول لك اننى رددت على زميلى غير المسلم بأن المثال الذى ذكره عن الوعاء الملىء بثمار الخيار يتضمن تأييدا للاسلام وليس طعنا عليه ، فان النفس العيوف اذا رأت ثمرة نجسة فى الوعاء تعاف كل ما فى الوعاء ، ولا تسيغ شيئا مما فى الوعاء الا اذا غسل كل ما فى الوعاء ، وهذا ما فعله الاسلام حين أوجب غسل الجسد كله بعد المواقعة بين الرجل والمرأة .

ولكنى لا أخفى عنك أننى انما رددت عليه هذا الرد لأنى وجدت المثال الذى استشهد به مثالا رديئا غير مقنع ، ولكن أصل الموضوع ماثل فى

نفسى ، حيث ان كثيرا من أمور الدين ومنها المثال الذى ذكره زميلى غير المسلم حكمتها غير واضحة فى نفسى ، وقد كان المفروض فى رأيى أن تكون أحكام الدين مصحوبة بأسبابها وتعليلها .

قال الشيخ : يقول العرب فى أمثالهم : شب عمرو عن الطوق ، بمعنى أن عمرا تجاوز مرحلة الطفولة التى يزين فيها جيده بالطوق ، وانتقل الى مرحلة فوقها ، وكذلك الذين يثيرون هذا التساؤل وأنت منهم باعترافك ، تجاوزوا وضعهم الذى يجب ألا يتجاوزوه بالقياس الى الله ، وهو أنهم فى أحسن الفروض عبيد لله ، وأصبحوا بمثل هذا التساؤل يحاورون الله ، ويريدون أن يملوا عليه مطالب ، ويفرضوا عليه سبحانه واجبات ، وأقول ان الناس فى أحسن الفروض عبيد لله ، لأن تشبيه وضعهم بالقياس الى الله بوضع العبد بالقياس الى سيده من البشر فيه تجاوز ، فالسيد من البشر لم يخلق عبده ، ولا يملك من أمره الا أيسر ظاهره ، أما الله فهو الخالق والمدبر لكل ظاهر وباطن وكل واقع وكل مستقبل ، والانسان فى حقيقة أمره مجرد مخلوق من سائر خلقه كالنمل أو الطير أو غير ذلك ، ولكنه كرمه بمزايا كثيرة فى تسوية خلقه وفى منحه العقل والادراك ، وفى منحه الارادة والاختيار ، وفى منحه صفة التملك ، وكثير مما ميزه الله به هو من خصائص الله سبحانه ، ولم يمنحه لشىء من مخلوقاته التى نعلمها سوى الانسان ، تكريما له ، كقوله تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبـات وفضـلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) فالانسان فى الأصل مجرد مخلوق كأى شىء خلقه الله ، ولكن الله كرمه وميزه عن كثير من خله ، ألا ترى مثلا الى قسيمه فى الحيوانية وهو جنس الماشية طعامه التبن والحشائش ، بينما الانسان يأكل أطايب الطعام من باب قوله تعالى (ورزقناهم من الطيبات) فتصور لو كان طعام بنى آدم من التبن والحشائش كقسيمهم فى الحيوانية وهو البهائم ، وأقول قسيمهم فى الحيوانية ، لأنه من المعروف أن علماء المنطق يعرفون الانسان بأنه حيوان ناطق ، أى أنه يشترك مع سائر الحيوانات فى الحيوانية ، ولكنه يمتاز عنها بالنطق النابع من عقل وادراك .

ومن العجيب أن يقابل الانسان هذا التكريم من الله ليس بالشكر له والامتنان ، بل ولا حتى بالتغافل والتجاهل ، وانما بالكفر والجحود الظاهر ، أو بما هو فى سبيلها كالتكبر والتطاول على جلال ذات الله الذى منحهم هذا التكريم ، والقرآن حافل بأساليب التعبير عن كفر الانسان وجحوده لنعم الله وتكريمه اياه ، كقوله تعالى (ان الانسان لكفور) وقوله تعالى (ان الانسان لظلوم كفار) ولكن من الأساليب التى تملأ النفس انفعالا وشعورا بالطرافة معا قوله تعالى (قتل الانسان ما أكفره) فهو أسلوب

تعجب من شدة كفر الانسان بالله وكفره بفضل الله ونعمه عليه ، والطرافة فى ظاهر الدعاء ، وهو كأن الله يدعو على الانسان بالقتل ، والله سبحانه دائما هو المدعو وليس الداعى ، وجوهر الطرافة فى تشبيه غضب الله على كفر الانسان ، بغضب الناس بعضهم على بعض ، فقمة غضب شخص على آخر أن يدعو عليه بالقتل بمثل قوله قاتله الله ، فتعبير (قتل الانسان) يتضمن قمة غضب الله من كفر الانسان ، وكأن الله سبحانه يقول ان الانسان ينبغى أن يزول من فوق الأرض ولو بالقتل والابادة ، ولكن رحمة الله التى وسعت كل شىء وسعتهم فيما وسعت فى الدنيا وأجلت حسابهم الى يوم القيامة •

ومن كفر الانسان بتكريم الله اياه أن يستغل تكريم الله فى التطاول على جلال الله ، ومن تكريم الله اياه العقل ، ومن التطاول على جلال الله محاولة التدخل فى شئون الله ، ومن شئون الله ما يمليه على خلقه أيا كان هذا الذى يمليه ، وليس من حق مخلوق أن يسأل الله لماذا فعلت كذا ، أو ما الحكمة فى هذا ، وانما وضع المؤمن أن يتقبل كل ما يأمره به الله ، أو ينهاه عنه ، أو يصيبه به بنفس راضية مهما بلغ تضرره من ذلك طالما هو فى حدود طاقته ، فاذا لم يكن فى طاقته فان الله يعفيه من أدائه من باب قوله تعالى (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) أما ما فى وسع الانسان مما يصدر عن الله فان موقف المؤمن منه يجب أن يكون كما يقول تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) أما أن ينتظر الانسان أو يطلب من الله أن يدخله فى شئونه ، أو أن يشرح له كل ما يمليه عليه فليس هذا من طبيعة الايمان ، بل ولا من طبيعة التعامل بين الناس •

• قال الشاب : وهل من طبيعة التعامل بين الناس أن يتقبل الانسان مالا يفهمه أو ما ينكره عقله ؟

• قال الشيخ : أنت تنظر الى التعامل بين الناس على أنه كالتعامل بينى وبينك ، ليس لأحد منا على الآخر سلطان، ولكن أنظر الى التعامل بين أى طرفين يجمعهما سلطان لأحدهما على الآخر ، ثم وازن بين هذا السلطان وسلطان الله وما ينبغى أن يترتب عليه ، انظر الى علاقة وزير مثلا بموظفى وزارته ، حين يصدر الوزير قرارا ثم يعممه فى منشور على الموظفين ليوقعوا عليه بالعلم والتنفيذ ، هل يملك موظف أن يرفض التوقيع أو التنفيذ الا اذا شرح الوزير الحكمة فى هذا القرار ؟ ، وهل يملك موظف أن يسأل الوزير أو يرسل الى الوزير من يسأله لماذا أصدرت هذا القرار ؟ بل ان الوزير لا يحتاج فى تنفيذ قراره الى تعميمه على الموظفين أو توقيعهم عليه بالعلم ، وانما يكفي نشره في صحيفة معينة هي صحيفة الوقائع الرسمية

ليكون ملزما للجميع ، مع أن هذه الصحيفة لا يقرأها حتى الذين يصدرونها ، ثم يحاسب الجميع على أساس أن الجهل بالقانون لا يعفى من المسئولية ، ولكن الله من رحمته أنه لا يحاسب الناس على هذا الأساس ، وانما يحاسبهم بعد اعلامهم فردا فردا بما أصدره اليهم ، من باب قوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ، ولو افترضنا أن موظفا صغيرا شذ عن سائر الموظفين وأصر على عدم تنفيذ القرار الا اذا فهم حكمته ، أو أصر على أن يطلب من الوزير بيان الحكمة فى هذا القرار ، فكيف تكون نظرة زملائه اليه فضلا عن الوزير ؟ ألا يتحدثون عنه ولو فيما بينهم بأنه مجنون أو شبه مجنون ؟

أفلا يكون سلطان الله على عباده كسلطان وزير على موظفيه ؟ ثم أفلا ينبغى أن يكون موقف عباد الله مما يصدره الله اليهم على الأقل كموقف موظفين مما يصدره اليهم وزيرهم ؟

وانظر الى سلطان قائد على جنوده ، حينما يصدر هذا القائد أمرا الى جنوده ، هل يملك جندى أو مرءوس أن يرفض تنفيذ هذا الأمر حتى يفهم السبب فى صدوره ؟ أو أن يصر على أن يطلب من القائد شرح الأسباب أو الأهداف التى دعت الى اصدار هذا الأمر ؟ ثم انظر لو شذ جندى عن سائر الجنود وأصر على أن يطلب ذلك من القائد ، فكيف تكون نظرة زملائه اليه ؟ ألا يتحدثون عنه ولو فيما بينهم بأنه معتوه أو شبه معتوه ؟

أفلا يكون سلطان الله على عباده ولو كسلطان قائد على جنوده ؟ ثم أفلا ينبغى أن تكون طاعة الناس لله ولو كطاعة الجنود لقائدهم ؟

وبمناسبة الحديث عن الجنود فان هناك شيئا يعرفه الناس عن الحياة العسكرية ، وهى قاعدة : نفذ وتظلم ، بمعنى أن الجندى حينما يصدر اليه أمر من رئيسه فلا مفر من تنفيذه فورا ، مهما كان رأيه فى هذا الأمر ، بل مهما كان تضرره منه ، وبعد أن ينفذ فمن حقه أن يتظلم ، فهل تعرف أن الله سبحانه يعامل عباده على هذا الأساس فى كل ما يتعلق بالصلة الفردية بين الله وعبده ؟

قال الشاب ضاحكا : وكيف ؟

قال الشيخ : الأساس أن ينفذ المؤمن كل ما يصدر عن الله فورا دون تردد أو تبرم ، فاذا عجز كل العجز أو بعض العجز فعليه أن ينفذ ما يستطيع فى حالة بعض العجز ، وأن يبدى استعداده الصادق وطيب نفسه بهذا الاستعداد ثم يتوجه الى الله بالدعاء أن يعفيه مما لا يستطيع ، وأوضح من هذا ما يصيب الله به عبده من ضر أو آلام فان على المؤمن أن يتقبل بنفس

راضية كل ما يأتيه من قضاء الله مهما يكن نوعه ، ولكن اذا شعر بتضرر من هذا القضاء فعليه أن يلجأ الى الله بالدعاء أن يكشف عنه ما أصابه ، فالدعاء الى الله يعادل التظلم فى عرف القاعدة العسكرية مع استبعاد معنى الظلم بالقياس الى الله كل الاستبعاد ، ولكن وجه الشبه بينهما هو طلب رفع ما صدر أى محوه أو التخفيف منه ، وأيضا فان ساحة الله أرحب من ساحة البشر ، فان البشر يضيقون بالتظلم أى بطلب الغاء ما أصدروه أو تخفيفه ، بينما الله سبحانه هو الذى يطلب من الناس أن يدعوه ، كقوله تعالى (وقال ربكم ادعونى استجب لكم) فهو يطلب منهم أن يدعوه ، ويضمن لهم الاستجابة اذا أخلصوا فى الدعاء .

قال الشاب مقاطعا : وهل معنى ذلك أن كل من يدعو الله مخلصا لابد أن يستجيب له الله كصريح هذا الوعد ؟ ألا ترى أن هذا لا يتفق مع الواقع ؟ فما أكثر الذين يدعون ويلحون فى الدعاء مخلصين ، وأحيانا يتوسلون معه بدموعهم ومع ذلك لا يستجاب دعاؤهم .

قال الشيخ : ومن قال لك انهم لم يستجب لهم ؟ ان الانسان فى دعائه يطلب تغيير الواقع ناظرا اليه من خلال واقعه فحسب ، بينما الله سبحانه يستجيب له من خلال علمه بحياته كلها وبما يحيط بحياته من ملابسات ، فيحقق له ما هو خير له وأنفع وان كان مخالفا لما يطلبه ، بل ان الانسان كما نشاهد أحيانا يطلب شيئا ويسعى اليه ملحا فى سعيه ثم يتبين له أنه انما كان يسعى الى شقائه أو الى حتفه وليس الى سعادته كما كان يتخيل ، وكذلك العكس ، ويلفت القرآن نظر الناس الى هذه الحقيقة أو يذكرهم بها فى قوله تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) فالله لابد أن يستجيب لكل دعاء مخلص كما وعد ، ولكن بما يعلم أنه خير للداعى .

وكنت أقول ان الدعاء يعادل التظلم فى العبارة العسكرية التى نتحدث عنها وهى نفذ وتظلم ، لأن التظلم طلب تغيير واقع ، وكذلك الدعاء طلب تغيير واقع .

وأعود الى مواصلة الاجابة عن تساؤلك عن أن بعض الناس وأنت منهم يجدون فى الدين من الأحكام مالا يفهمون حكمته فأقول اذا كان الجنود لا يملكون أن يطلبوا تفسير أو تعليل ما يصدر اليهم من أوامر ، فكيف يطلب الناس من الله هذا ؟

وانظر أيضا الى مثال آخر عن الخادم ولا أقول العبد ، هل يملك الخادم أن يلزم سيده أو مخدومه بأن يفسر له لماذا طلب منه أن يصنع له قهوة ؟ أو لماذا يريد اليوم أن يأكل الطعام الفلانى ؟ أو لماذا يأمره الآن أن ينتظره فى المكان الفلانى ؟

وإذا كان الخادم وليس العبد لا يملك أن يطلب من مخدومه أن يفسر له ما يطلبه منه فكيف يملك الناس أن يطلبوا من الله هذا ؟

وأذكر أنك قلت في بدء سؤالك عن هذا الموضوع ان بعض المؤمنين يسهمون في هذا التساؤل : فأقول لك انك لو قلت بعض المسلمين كان أقرب الى الدقة ، ولعلك تذكر حديثنا في أوائل رحلتنا عن الفرق بين الإسلام والايمان ، من حيث ان الاسلام وصف ينصب على الطاعة الظاهرية، أما الايمان فهو ينصب على اليقين العقلي والوجداني ، فلو قلت ان بعض المسلمين يسهمون في هذا التساؤل كان أقرب الى الدقة لأنهم مازالوا يحتاجون الى تغلغل الايمان واليقين في نفوسهم ، أما المؤمن فلا يمكن أن تثور في نفسه خاطرة تزعزع ثقته في الله ، أو حسن طاعته لله .

وليس معنى ذلك أن المسلم من حقه أن يكون كذلك ، فان قبول الدخول في الدين وهو معنى الإسلام يتضمن ما يشبه العقد بين المسلم وربه ، ومقتضيات هذا العقد معروفة ، ومن أوضحها قبول كل ما يصدر عن الله ، فاثارة مثل هذه الخواطر اخلال بالعقد ، ومن الواضح في واقع الناس التزامهم بما تتضمنه العقود ، ان لم يكن اختيارا فالزام القانون ، فالشخص الذي يعمل لدى شخص آخر أو لدى أية جهة يكون مفهوما لديه أنه يعمل بناء على عقد صريح أو ضمني بينه وبين الجهة التي يعمل لديها ، وهو يعلم كل الشروط التي تشترطها الجهة التي يعمل لديها كما يعلم حقوقه التي يقتضيها العقد المكتوب أو المفهوم عرفا ، فهل يستطيع من يعمل لدى أية جهة في أي عرف من أعراف الناس في العالم أن يستخف بشروط هذه الجهة في أداء عمله ، أو أن يصر على أن تشرح له الجهة التي يعمل لديها الأسباب التي دعتها الى ما تشترطه عليه ، وأقصى ما يملكه العامل لدى أية جهة مهما كانت صفته أو كانت خبراته أن يرفض العمل أو التعاقد مع هذه الجهة ، وأحيانا لا يستطيع ترك العمل اذا تم التعاقد معه ، فقد يكون من بين شروط الجهة التي يتعاقد معها الزامه عدم ترك العمل ، والا تعرض لعقـــوبات جزائية معروفة في كثير من جهـــات التعـاقد .

والارتباط بالدين في حقيقته وجوهره صورة من هذا التعاقد ، فالذي يؤمن ويعتنق الدين فكأنه وقع عقدا بينه وبين الله سبحانه ، وكل ما يطلبه الدين من المؤمن من أوامر أو نواه هو من شروط هذا التعاقد فيما يتعلق بأحد طرفي العقد وهو المؤمن ، كما أن العقد يتضمن شروطا تتعلق بالطرف الآخر وهو الله سبحانه ، وهذه الشروط هي ما وعد الله به المؤمنين في الدنيا والآخرة ، ووعد الله أوثق من أي شرط على الاطلاق ، وجوهر هذه الشروط وقمة خيرها أن ينال المؤمن رضا الله في الدنيا والآخرة ، ومن

آثار هذا الرضا الجنة فى الآخرة ، والحياة الطيبة فى الدنيا ، ويجمعهما مثل قوله تعالى مؤكدا وعده (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) ٠

قال الشاب مبتسما : قد يعبر مثلى عن الله بألفاظ مثل التعاقد ، أما أن يعبر به مثلك أفلا ترى فيه غرابة ؟

قال الشيخ : وأية غرابة فى هذا أو نحوه ، ولعلك تذكر أننى كررت كثيرا أن الدين ليس الا صورة من واقع حياة الناس ، حتى لا يجد الناس غرابة فى الدين أو حتى لا يجدوا لهم حجة عند الله بأن الدين لم يكن مفهوما أو مألوفا لهم ، فليس من الغرابة فى شىء أن يجعل الله التعامل بينه وبين الناس صورة من التعامل فيما بينهم ، ومنه حديث التعاقد ، بل ان الله كثيرا ما يعبر عما بينه وبين الناس بما هو أوضح وأكثر شيوعا فى حياتهم كالبيع والشراء فى مثل قوله تعالى (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا ٠٠٠) فقد جعل الله الجهاد فى سبيله صفقة بينه وبين المجاهدين ، هم البائعون ، وهو سبحانه الشارى ، والصفقة هى الجهاد فى سبيل الله ، والثمن الجنة ٠

ومن وجوه التوافق بين الدين وواقع الحياة فى حديث التعاقد أن كثيرا من العقود فى تعامل الناس تحظر على المتعاقد ترك العمل الا بشروط معينة ، وتفرض جزاء عليه ان تركه دون موافقة الطرف الآخر ، وكذلك الدين يلزم من يقبل التعاقد معه أى اعتناقه عدم الخروج منه بعد اعلان اعتناقه ، ويفرض للاخلال بهذا الشرط أقصى جزاء ، حيث ان ترك الدين بعد اعتناقه يمكن أن يستغل استغلالا خطيرا فى الدعاية ضد الدين ويصبح هذا سلاحا من أسلحة الحرب النفسية التى توجه ضد الدين ، فالحرية الكاملة لمن يريد اعتناق الدين هى قبل اعلان اعتناقه الدين ، حيث من حقه حينئذ ان يفكر ما يشاء له التفكير ، وأن يسأل عن مضمون هذا الدين قبل الدخول فيه كما يريد ، ثم هو حر كامل الحرية فى أن يدخل فى هذا الدين فيصبح من المؤمنين به ، أو أن يرفضه فيصبح من الكافرين به ، وليس لأحد عليه سلطان فى موقفه ، ولا يملك أحد أى عقاب له ان رفض الدين وكفر به ، بل عقابه الرهيب مؤجل الى الآخرة ، أما فى الدنيا فهو كامل الحرية فى اختيار طريق الايمان أو طريق الكفر ، وهذا المعنى يتكرر صراحة أو ضمنا فى مواضع كثيرة فى القرآن ، كقوله تعالى (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) أما بعد توقيع عقد الايمان أى بعد اعتناقه الدين فليست له حرية فى الاخلال بهذا العقد الموثق ، الذى يعلم قبل توقيعه ان من بنوده أن تركه الدين جزاؤه القتل ٠

قال الشباب : قد يكون موقف الذين يرفضون الدخول فى الدين واضحا ومفهوما ، أما موقف الذين يدخلون فى الدين ويؤمنون به ، فكثيرا ما يجعل الناظر اليه فى حيرة ، فالمفروض أنهم يعلمون كما تقول أن الدين يشترط عليهم شروطا يجب الوفاء بها ، ولكن الواقع المشاهد أن كثيرا من المؤمنين يرتكبون أشياء مخالفة للدين ، وكثيرا ما يتكرر منهم هذا ، فما موقف الدين منهم ؟

قال الشـيخ : الأحكـام الدينية فى هذا وغيره معروفة وواضحة ، ويحكمها فى مجموعها قوله تعالى (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فكل ألوان الكفر والشرك لا نزاع فى أنها لا غفران فيها ، وأما ما دون الكفر من ألوان المعاصى ومخالفة الله فأمرها مفوض الى الله ان شاء غفرها وان شاء عاقب عليها ، ولكن الخلاف بين العلماء فيها هو فى التوبة الى الله منها أو عدم التوبة ، بمعنى أن بعض العلماء يرون امكان غفران المعاصى مهما تكن ولو بدون توبة منها كظاهر هذا النص من القرآن ، بينما يرى علماء آخرون أن غفرانها مشروط بالتوبة منها ، مستندين الى أن القرآن صرح بأن بعض الذنوب مثل القتل العمد جزاؤه الخلود فى النار ، كقوله تعالى (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما) وتقاس على القتل كبائر أخرى ، والمهم المبدأ وهو أن بعض الذنوب جزاؤه الخلود فى النار كما فى صريح هذه الآية ، والذى يمكن أن يوجد احتمال غفرانه هو التوبة المقبولة ، أما بدونها فيبقى الأصل وهو الخلود فى النار .

ولكن هذا كله يدخل فى شئون الله سبحانه وموقفه من عباده مؤمنين أو عصاة ، أما الذى هو أولى بالعناية والحديث فيه فهو موقف الناس ، وحديثنا الآن محصور فى نطاق المؤمنين العصاة المخالفين لله .

فانظر الى هذا النوع من الناس ، ولا شك أنهم كثيرون ان لم يكونوا هم الغالبية العظمى من المؤمنين ، فالمفروض أنهم مؤمنون بالله ، وفى ضوء حديثنا السابق فان الايمان عقد بينهم وبين الله ، وهم يعلمون أن هذا العقد يحظر عليهم ما ارتكبوه من اثم وعصيان ، ولكن هناك نظرة نفسية أهم من ذلك ، وهى أنهم بحكم كونهم مؤمنين بالله لابد أن يكونوا عالمين وموقنين بأن الله يطلع على كل صغيرة وكبيرة وكل ظاهر وكل خفى مما يفعله أى انسان أو يحدث به نفسه ، ولو نظرنا الى واقع حياة الناس فى مثل هذا لوجدنا عجبا فى موازنته بموقفهم من الله ، ففى واقع الناس نجد كل انسان مهما تكن صفته يتحاشى أن يزاول أى شىء معيب أو يستحيى منه أمام أى أحد من الناس ، فالسارق مثلا بصرف النظر عن نظرته الى موقف الدين أو القانون من السرقة هو يعلم أنها معيبة فى عرف الناس ، فهو

لا يزاولها أمام أحد قط مهما صغر سنه أو شأنه ، ومن باب أولى لا يعقل أن يزاولها أمام من يملك عقابه على هذه السرقة ، ومع ذلك قد يكون هذا السارق مؤمنا ، ويوقن بأن الله يراه وهو يسرق ، فلا يخاف من عقابه ، ولا يستحيى من وجوده معه وهو يسرق • بينما هو يخاف أو يستحيى أن يراه أصغر الناس سنا أو شأنا وهو يسرق •

وكذلك من يزاول الزنا يخاف ممن يرون فى هذا الزنا انتهاكا لعرضهم ، وإذا لم يخف فهو يستحيى من مزاولته أمام أى انسان ، ومع ذلك فهو بحكم ايمانه يوقن بأن الله يراه وهو يزنى ، فلا يخاف من عقابه ، ولا يستحيى من وجوده معه وهو يزنى ، بينما هو يخاف أو يستحيى من أن يزاوله أمام أصغر الناس سنا أو شأنا •

وكذلك من يقبل الرشوة ، ومن يزاول أى شىء ينكره عرف المجتمع أو يعاقب عليه ، فهو يخاف أو يستحيى من مزاولته أمام أى أحد مهما صغر شأنه ، بينما هو يعلم أن الله يراه حينئذ فلا يخاف ولا يستحيى من الله •

فانظر الى هذا التناقض العجيب بين ادعاء الايمان ، وفى الوقت نفسه اتيان مالا يتفق مع الايمان ، والواقع أن من يعصى الله مع ايمانه به كأنه يتحدى الله بما يفعل ، وكأنه يقول لله سبحانه ، سأفعل ما يغضبك أمامك فافعل ما تشاء ، ومضمون هذا نجده واضحا فى الحديث النبوى (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن) وجوهر هذه الحقيقة أن الايمان بالله ليس مجرد ألفاظ تردد ، وليس صورة ميتة فى النفس ، بل لن يكون ايمانا حقيقيا الا اذا أثار المشاعر واستجابت له الجوارح فضلا عن العقل ، والقرآن يضرب أمثلة كثيرة للايمان الحى لتمييزه عن الايمان الزائف أو الشكلى ، فى مثل قوله تعالى (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) •

وفيما يتعلق بهذا السياق وهو استشعار جلال الله يكفى من هذه الآثار للايمان قوله تعالى وبأسلوب الحصر أو القصر (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) بمعنى ان الذين يوصفون بالايمان الصادق هم فقط الذين اذا ذكروا بالله امتلأت قلوبهم انفعالا واستشعارا لجلال الله وهيبته ثم بقية الصفات التى ساقتها الآية ، واذا كان مجرد ذكر الله ينبغى أن يملأ قلب المؤمن تهيبا وانفعالا وخشية ، فكيف بمن يتعمد عصيانه سبحانه وتحديه مع استشعار وجوده معه ورؤيته اياه ؟ ومن هذا القبيل جاء الحديث القدسى الذى يصور عتاب الله للعصاة بهذا التعبير الذى يملأ النفس انفعالا (يا عبدى جعلتنى أهون الناظرين اليك ؟) •

قال الشاب : بناء على ما تقول كيف يترك اله عبيده أو مخلوقاته يعصونه وهو يراهم دون أن يمنعهم أو ينزل غضبه العاجل عليهم ؟

قال الشيخ فى إبتسامة استنكار : بناء على ما أقوله أنا ؟ فانى أتغاضى عن هذه حيث اتفقنا على ألا أتدخل فى موقفك من الدين ، ولا حتى موقفك مما أقول ، ولكنك سمعت من حديثى أن هذا ليس ما أقوله أنا وانما ما يقوله الله ورسوله .

وأما الاجابة عن سؤالك فلا أظنها تحتاج الى علم أو ذكاء ، ويمكن صوغها فى ايجاز شديد بأن الله لا يمنع المخالفين من مخالفته مع أنه يراهم لأنه كما سبق القول جعل الحياة الدنيا كلها ليست الا اختبارا يسجل فيه على الانسان كل ما يفعله من خير أو شر ، ولو منعهم الله فلن يكون امتحانا بالمعنى الصحيح ، كما أنك لو تصورت مراقبا يراقب طلابا يمتحون ، فلو تدخل هذا المراقب وأملى عليهم أن يكتبوا كذا لأنه الصواب ، وألا يكتبوا كذا لأنه خطأ فلن يكون هذا امتحانا حقيقيا .

واما أن الله لا ينزل غضبه العاجل عليهم وهو يراهم يعصونه ، لأن نتيجة أى امتحان فى واقع حياة الناس بما يترتب عليها من فوز أو فشل ومن ثواب أو عقاب لا تكون فى أثناء الامتحان ، وانما تكون بعد انتهاء الامتحان ، وآثارغضب الله أورضاه من عقاب أو ثواب كذلك انما تكون بعد انتهاء الاختبار وهو انتهاء حياة الانسان وانتقاله الى الحياة الآخرة ، وأما ما يحدث فى الدنيا من آثار رضا الله أو غضبه فليس هو الجزاء الحقيقى ولك أن تضيف الى هذا ما سبقت الاشارة اليه من أن الزمن بمفهومنا نحن لا قيمة له بل لا وجود له بالقياس الى الله أصلا ، فحياة أى انسان مهما طالت لا تساوى عند الله فى طولها طرفة عين ، بل لن تبعد عن الحقيقة اذا قلت ان حياة الأرض كلها مهما طالت ملايينها لا تساوى عند الله فى طولها هذه الطرفة من العين ، ومن باب تقريب هذا المعنى الى عقول البشر كان قول الله (وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) والعلماء يعرفون أن عدد الألف ليس مقصودا لذاته ، وانما هو لتقريب المعنى الى الأذهان ، لأن الألف هو أقصى عدد كان يعرفه العرب ، ويعبر العلماء عن ذلك بقولهم ان العدد لا مفهوم له ، ويصبح المفهوم أن اليوم عند الله كأى عدد أو رقم على الاطلاق عى عرف البشر ، فلن يضيق الله سبحانه بامهال انسان هذه اللحظة الخاطفة وهى عمره على الأرض ، بل لا يضيق سبحانه وهو الصبور بامهال الأرض كلها هذه اللحظة الخاطفة التى هى عمر الأرض فى هذا الكون .

قال الشاب : واذا سألك مؤمن يريد التمسك بالدين عن أحسن ما يفعل أو عن خير وضع يصل اليه فى الدين فبماذا تجيبه ؟

قال الشيخ مبتسما : كنت أتمنى أن تكون أنت السائل ، ولكن على أى حال فان من يريد اجابة سهلة فانها معروفة فى الدين ، بل هى من بدهيات الثقافة الاسلامية ، ولكنى أريد كما كررت لك أن يكون فهمنا للدين دائما نابعا من واقع الحياة أو مرتبطا به حتى يكون أقرب الى أذهاننا وأثبت فى عقولنا ، ومن هذه الزاوية فان طبقات التمسك بالدين صورة من طبقاتهم فى حياتهم ، فالناس من حيث ما يملكون من المال طبقات ، وكذلك هم من حيث الثقافة طبقات ، وكذلك فى مهنهم وكل شئونهم ، وكذلك المؤمنون أيضا هم فى تمسكهم بالدين طبقات ، وذلك أنك تستطيع أن تأخذ مثالا من واقع الحياة ثم تقابله بواقع المؤمنين فى تمسكهم بالدين وموقفهم منه .

فالناس مثلا من حيث وضعهم الاجتماعى فى أى مجتمع فى العالم أكثر من طبقة ، وهم فى العرف الغالب ثلاث طبقات ، الطبقة الدنيا ، وهى التى لا يملك أفرادها مالا أوجاها ذا قيمة ، أو بمعنى أوضح هى التى لا تملك ما يكفيها ، وتوصف عادة بأنها الطبقة الفقيرة ، والطبقة الثانية هى الطبقة الوسطى وهى التى تملك ما يكفيها فحسب ، ولكنها لا تملك فائضا أو زائدا يجعل لها منزلة فى المجتمع أو تأثيرا فيه ، والطبقة الثالثة هى الطبقة التى تملك من المال أو الجاه ما يزيد عن حاجتها بحيث يكون لهذه الزيادة تأثير فى المجتمع ، أى تأثير ، ولو كان مجرد تطلع الطبقات الأخرى بحيث يكونون هم موضع الأمل ، وهم القدوة لمن يريد أن يصل الى ما وصلوا اليه من مال أو جاه فيسلك مسلكهم الذى وصل بهم الى ما وصلوا اليه .

وكذلك الحال فى الدين ، فانك لو نظرت الى مجتمع المؤمنين ، وأقول المؤمنين لأن غير المؤمنين لهم مجتمعهم الخاص بهم من الناحية الدينية وان كانوا مخالطين للمؤمنين فى المجتمع العام ، فلو نظرت الى مجتمع المؤمنين لوجدت أنه من حيث الدين طبقات أيضا تشبه الطبقات الاجتماعية ، فالطبقة الدنيا فى هذا المجتمع هم الفقراء فى مزاولتهم الدين بحيث لا يملكون من الحسنات أو من أداء الواجبات الدينية ما يكفى للحد الأدنى ، بل تجدهم مقصرين فى نواح كثيرة عن أداء الحد الأدنى ليكونوا من المرضى عنهم ، أو ممن لا يحاسبون على تقصير ، بل يكون وضعهم من قبيل تعبير القرآن (خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم) الغالبية العظمى عادة فى كل المجتمعات الدينية ، وهم يتميزون غالبا بالسطحية فى موقفهم من الدين ، بحيث يعنيهم المظهر الدينى أكثر مما يعنيهم التعمق فى الدين والايمان وفهم جوهره ، وهم الذين يصفهم القرآن بأنهم مسلمون ولم يصلوا الى درجة أن يوصفوا بالايمان ، كما سبقت الاشارة الى التفرقة

بين الاسلام والايمان في مفهومهما اللغوى والدينى أيضا من أن الاسلام يعنى الطاعة السطحية ، وأن الايمان يعنى اليقين العقلى والنفسى .

والطبقة الثانية من طبقات المؤمنين هى التى تؤدى ما هو مطلوب منها دينيا دون تقصير ، وأفرادها يتميزون بأنهم زيادة على الطاعة السطحية يتعمقون فى فهم الدين والاقتناع به نفسيا وعقليا ، ولكن لا يكون لديهم فائض أو زيادة كبيرة عن المطلوب منهم فى الموقف الدينى بحيث يكون لهذه الزيادة تأثير فى مجتمع الايمان ولو بأن يكونوا موضع آمال المتطلعين إلى التفوق الديني أي لا يصلون الى موضع القدوة الواسعة أو التأثير الحقيقى فى مجتمع المؤمنين .

وأما الطبقة الثالثة فهى تنبع من الطبقتين السابقتين بأسلوب التدرج عادة ، ولكنها تعلو عليهما فى مجال الإيمان والدين نفسه حتى يصل أفرادها الى درجة صلاحية كل منهم ليكون قدوة عامة فى الدين ، وذلك حين يصل الفرد من شدة حبه لله ، وشدة خوفه من الله الى درجة الشفافية الروحية التى تجعله من شدة مراقبته لله يشعر كأنه يرى الله أمامه فى كل ما يزاول من عمل وكل شأن من شئون حياته ، ومعنى ذلك أنه لا يستطيع أن يقصر فى أداء واجب ، ولا أن يخالف الله بمزاولة شيء منهى عنه ، لأنه يتمثل الله معه يراه ويطلع عليه ، وفوق ذلك فانه يشعر أن صلته بالله مباشرة ، وليست من خلال أشخاص ، ولا من خلال عبادة ، فهو يناجى الله ويدعوه بصورة مباشرة يزداد فيها شعوره بجلال الله وهيبته لأنه يشعر أنه قريب منه ، وكلما قربنا من الشيء ازددنا احساسا بخصائصه ، فكلما قربنا من الوردة ازددنا احساسا بطيب رائحتها ، وكلما ازددنا قربا من النار ازددنا احساسا بشدة حرارتها ، وصلاحية الفرد من هذه الطبقة لأن يكون قدوة لأن الصالح للقدوة فى أية مهنة ، أو أى مجال هو من يلتزم السلوك الأمثل فى مجاله أو مهنته ، والمؤمن الذى يصل الى درجة استشعار وجود الله دائما معه لابد أن يلتزم السلوك الأمثل ، وهذا يجعله قدوة صالحة .

ومن الواضح أن هذه الطبقات الدينية غير مرتبطة بالطبقات الاجتماعية، بل غالبا ما تسير فى وضع معاكس لها ، بمعنى أن الفرد من الطبقة الدنيا اجتماعيا لا يلزم أن يكون أيضا فى الطبقة الدنيا دينيا ، بل قد يكون فى الطبقة العليا ، وكذلك العكس ، فقد يكون الفرد من الطبقة العليا اجتماعيا فى الطبقة الدنيا أو ما دونها دينيا ، وما دونها هو الخروج من دائرة الايمان كله ، بل ان هذا العكس هو الواقع الغالب فى الحياة ، فان الطبقة الدنيا اجتماعيا وهى طبقة الفقراء هى عادة أقرب الى الدين ممن فوقها من الطبقات الاجتماعية ، وذلك لأن المال والجاه فى العادة يخضعان صاحبهما للمحافظة عليهما بل وتنميتهما ، وهذا الحرص يصرفه عن التفرغ للدين ومتطلباته ،

بل ويدفعه عادة الى استقبال المال والجاه واستدبار متطلبات الدين ، ومن هذا القبيل قوله تعالى (ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى) والطغيان هو مجاوزة الحد فى أى شىء ، ومنه (إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية) وطغيان الانسان حين يرى نفسه قد استغنى بما لديه يدفعه الى مجاوزة الحدود التى رسمها له الدين ، ولكن الذى لا يملك مالا ولا جاها ليس لديه ما يطغيه أو يصرفه عن واجبه الدينى ، ولذلك كانت الغالبية العظمى من أتباع الأنبياء من الفقراء .

ولكن المهم أن الطبقات الدينية غير مرتبطة بالطبقات الاجتماعية .

ومن الطريف أن النبى صلى الله عليه وسلم يشير الى هذه الطبقات الدينية بأسلوب دينى فى حديث نبوى مشهور ، مؤداه أن أصحاب النبى يروون أنهم بينما كانوا جلوسا عند النبى جاء رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، ليس عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، فجلس بين يدى النبى ثم سأله : ما الاسلام ؟ قال أن تشهد ألا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا ، قال الرجل : صدقت ، يقول أصحاب النبى فعجبنا من الرجل كيف يسأل ويصدق ، ثم سأل النبى : ما الايمان ؟ قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، حلوه ومره ، قال الرجل صدقت ، يقولون فعجبنا أيضا من سؤاله وتصديقه ، ثم سأل النبى : ما الاحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك . فأخبرهم النبى أن هذا السائل هو جبريل جاء يعلمكم دينكم .

ففى نظرة عامة متأملة الى مضمون الحديث نجد أنه فعلا يجعل مجتمع المؤمنين ثلاث طبقات ، الطبقة المبتدئة ، وهى التى لا تتجاوز فى تمسكها بالدين متطلباته الظاهرة أو الشكلية من العبادات ، وهى تقابل طبقة العامة أو الفقراء فى المجتمع ، ثم الطبقة الأعلى منها ، وهى التى تزيد عن الطبقة السابقة التعمق فى الدين ، حتى تبلغ اليقين النفسى بالمغيبات التى أخبر بها الدين وليس فى وسع أحد أن يطلع على حقيقتها مما ورد فى الحديث .

قال الشاب مقاطعا : لقد ذكرت فى موقف هذه الطبقة الايمان بالكتب السماوية وبرســل الله ، فهل هما من الغيبيات مع أنهما ماثلان أمام النـــاس ؟

قال الشيخ : ليس الكتب أو الرسل ذاتهما من الغيبيات ، ولكن ادعاء نسبتهما الى الله هو الغيب ، بمعنى أن الرسول حين يقول أنا مرسل من الله ، فان ارسال الله اياه هو الغيب الذى لم يطلع عليه أحد ، وكذلك

حين يقول الرسول هذا الكتاب من الله ، فان صدور هذا الكتاب عن الله لم يطلع عليه أحد فهو غيب •

وأعود الى مسار الحديث فأقول ان هذه الطبقة تشبه أو تقابل الطبقة الوسطى فى المجتمع من حيث ان لديها ما يكفيها ، فأفراد هذه الطبقة يؤدون واجبهم التشريعى كاملا ، سواء من الناحية الشكلية الحسية أو من الناحية النفسية المعنوية ، ولكن ليس لديها فائض يؤثر فى غيرها تأثيرا ذا قيمة •

وأما الطبقة الثالثة فهي التي لديها ما لدى الطبقتين السابقتين ولكنها ترتفع فوق ذلك بوضع زائد عن متطلبات التشريع ، بل هو تطلع اختيارى الى درجة روحية أعلى تتمثل فى مداومة مراقبة الله والتفكير فى صفاته حتى يصل هذا التفكير الى تمثل مصاحبة الله للمؤمن ، وهى التى وصفها النبى بالاحسان ، ى بأنها أحسن وضع يصل اليه المؤمن ، وهو كما وصفه النبى (أن تعبد الله كأنك تراه) وقد جعل النبى لهذا بديلا أدنى منه وهو (فان لم تكن تراه فانه يراك) بمعنى أن أسمي درجة للايمان أن يتمثل المؤمن الصلة المباشرة بين الله وبينه ماثلة فى نفسه ، فالله بالضرورة يراه ، ولكن هو أيضا كأنه يرى الله ، فكأن الرؤية متبادلة بينهما ، لأن الانسان اذا لم يشعر كأنه يرى الله فيجب إلا يغيب عنه أن الله يراه •

قال الشاب : هناك ملحوظة كانت تحيرنى ، وتحير زملاء معى فى الدراسة ، وهى أن بعض علماء الدين كانوا يهاجمون أشخاصا من وجوه المجتمع وخصوصا فى المجال الثقافي ويصفونهم بالالحاد والكفر ، ومع ذلك كنا نرى هؤلاء الأشخاص يتحدثون علانية فى وسائل الاعلام عن ايمانهم بالله ، ويبلغون من اجلالهم لله أن يقرنوا حديثهم عنه بقولهم سبحانه وتعالى ، فكيف يصفهم العلماء بالكفر والالحاد ؟

قال الشيخ : لا يستطيع عالم أن يصف أحدا بالكفر الا اذا كان واثقا من دليل على الحاد من يصفه بذلك وكفره ، والدليل أن يتأكد من أن هذا الشخص قد صدر منه ما يخل بصحة عقيدته مما يصفه العلماء بأنه انكار شيء من الدين معلوم بالضرورة ، أى انكار شيء من معالم لدين التى لا مجال للاجتهاد فى ثبوتها ، فهذا دليل واضح على كفره والحاده •

قال الشاب : ولكن كيف يحكم عليه بالحاد وهو معترف بالله ومعظم إيـاه ؟

قال الشيخ ضاحكا : أتعلم أن المشركين الذين كانوا يعبدون الأصنام عندما جاء الاســلام كانوا مع عبادتهم الأصــنام يعترفون بالله ويعظمونه ويتوسلون اليه ، ولكنهم يعبدون معه أيضا الأصنام ، والقرآن يسجل هذا فى أكثر من موضع ، كقوله تعالى حاكيا عنهم ومشيرا الى عبادتهم الأصنام

(وقالوا ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) وكقوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) .

كما أن المنافقين كانوا يظهرون الايمان العميق بالله ، ولكنهم يخفون الكفر بالله ، والاستهزاء بالدين وبكل ما يتصل به ، وأحسب أن الذين تتحدث عنهم هم من هذا القبيل ، وأظن أننا طرقنا هذا الموضوع فى أوائل رحلتنا .

قال الشاب : أظنك تحدثت كثيرا عن سوء حال المسلمين ، فهل من علاج تراه لاصلاح حالهم ؟

قال الشيخ : لست أنا الذي يرى في هذا رأيا ، بل الدين هو الذي وضع وسائل الاصلاح سواء فى السلوك أو فيما يتعلق بالدين نفسه ، وجعل المحافظة على صلاح المجتمع الاسلامي فيهما واجبا يحاسب عليه كل فرد من المسلمين ، كل على حسب مقدرته على الاسهام في هذا الاصلاح ، ولم يعف أحدا من المسلمين على الاطلاق من المسئولية عن هذا الاسهام ، لأن كل فرد مهما بلغ من العجز أو الضعف يملك قدرا من الاسهام .

فأما ما يتعلق باصلاح السلوك فقد جعل له الاسلام واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو فى الاسلام واجب وليس اختيارا أو فضلا، غاية الأمر أنه يدخل فيما يعرف فى الفقه الاسلامي بفروض الكفاية ، وهي الواجبات العامة التى يطالب بها المسلمون بصفة عامة ، فاذا قام بها البعض سقطت المسئولية عن الباقين ، واذا لم يؤدها أحد كان كل أفراد المجتمع آثمين ومحاسبين ، والقرآن يحدد واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى قوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وهو تصوير للواقع فى أداء هذا الواجب ، فليس كل الناس يؤدونه ، بمعنى أن هذا الواجب لا يحتاج عادة الى كل الناس في أدائه ، وانما يحتاج الى بعض منهم غالبا ما يكون قليلا ولكنه يكفى لالزام المقصر أن يؤدى ما قصر فيه من واجب ، وزجر مزاول المنكر عن مزاولته ، ولكننا نجد الحديث النبوى المشهور لا ينظر الى هذا الواجب من صورة أدائه ، ولكن من زاوية وجوبه على كل فرد ، وهو (من رأى منكم منكرا فليغيره ، بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان) وأظن أننا قد طرقنا هذا الموضوع فيما سبق ، ولكن الذى يحتاج الى التنبه اليه هو عموم المسئولية عن اصلاح المجتمع على كل فرد من المسلمين ، لأن كل فرد مهما ضعف شأنه يملك على الأقل عواطفه ، ويملك أن يوجهها نحو مرتكب المنكر ، فلو أن المجتمع كله على الاطلاق كان عاجزا وضعيفا ووجه كل أفراده عاطفة الكراهية وأظهروها لمرتكب المنكر

وعاملوه على أساسها بتحاشيه والنفور منه فمهما تبلغ قوة هذا المرتكب للمنكر ، بل مهما يبلغ سلطانه فلن يستطيع الاستمرار فى منكره ، بل لن يجد أمامه الا طريقين ، اما أن يقوم سلوكه تاركا منكره ، واما أن يترك هذا المجتمع ، وفى كليهما اصلاح للمجتمع ، وهذا الموقف السلبى من المجتمع كله ضد صاحب السلطة هو ما يعرف اليوم فى المجتمعات المتحضرة بالعصيان المدنى ٠

فواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر منوط بحدوث فساد فى السلوك ٠

أما اذا وقع الفساد فيما يتعلق بالدين فالواجب هو الجهاد ، والجهاد فى الاسلام ليست له صورة محددة ، وانما يجمع كل صوره استعداد المسلم للتضحية بكل ما يتطلبه الموقف ولو كان تضحية بالنفس اذا أحس بخطورة أو عدوان على الدين بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، وكل صورة من صور العدوان على الدين لها نوع من الجهاد يلائمها ، فالعدوان على الدين فكريا كالحملات التى توجه ضد الدين فكريا لمحاولة تشويهه والتشكيك فيه من جانب أعداء الدين جهاد هذا هو الرد على هذه الحملات بما يلائمها فكريا أيضا ، والعدوان العسكرى على أى شىء من ممتلكات الدين جهاده الرد العسكرى أيضا ، ولا يلزم أن يكون العدوان على الدين حينئذ من خارج المجتمع الاسلامى ، بل أحيانا ينبع من داخل المسلمين ، فيجب أيضا الجهاد حينئذ على المسلمين حتى يزول هذا العدوان ، ومن أمثلته أن يغير أو يمس أحد من ذوى السلطان شيئا من معالم الدين سواء فيما يتعلق بالتشريع كالغاء حكم من أحكام الاسلام ، أو استحداث حكم يتعارض مع التشريع الاسلامى ، أو كان التغيير فيما يتعلق بالسياسة ، وهو أيضا مثل الغاء نظام سياسى اسلامى ، أو استحداث نظام سياسى يتعارض مع مبادىء الاسلام ، ومن المعروف أن التشريع الاسلامى يتضمن تشريعا لكل أحوال المسلمين ، سواء من الناحية الدينية أو الدينوية وسواء فيما يتعلق بالفرد أو الجماعة أو السلطان وهى تشريعات معروفة ٠

ويشير القرآن الى أن الجهاد فى الاسلام ليست له صورة محددة وذلك فى تعبيره عن الجهاد وأمره به حيث ان القرآن دائما يقرن بين النفس والمال حين يأمر بالجهاد ، ولكن عند الترتيب بينهما نجده يقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس وقد ورد الجمع بينهما فى القرآن فى نحو تسع عشر مرة ، قدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس فى ثمانى عشرة مرة منها ، وقدم الجهاد بالنفس فى مرة واحدة ، وذلك لأن كل صور الجهاد لا تستغنى عن المال ، بينما الجهاد بالمال قد يغنى عن كثير من صور الجهاد الأخرى ، وهذا لا ينفى أن هناك

مواقف لا يصلح لها غير الجهاد بالنفس ، ولكن لابد أن يرتكز هذا الجهاد على مال ، للاستعداد له قبل اعلانه ، ولامداده بلوازمه بعد اعلانه ، ولهذه الأهمية للمال كان الجهاد به مقدما على الجهاد بالنفس ·

قال الشاب : وهل هذا يعنى أن أحدهما يغنى عن الآخر ؟

قال الشيخ : تعبير القرآن صريح فى الجمع بينهما من مثل (وجاهدوا بأموالكم وانفسكم فى سبيل الله) ومعنى ذلك أن من يملك القدرة على الجهاد بهما يجب عليه الجمع بينهما ، وانما كان التخيير يفهم لو كان التعبير نحو جاهدوا بأموالكم أو أنفسكم ·

(٨)

قال الشاب : لقد أوشكت رحلتنا على الانتهاء ، فنحن في المرحلة الأخيرة منها ، وقد قضينا حديثنا كله فيما يتعلق بالدنيا ، أفلا نجعل للآخرة منه نصيبا ؟ وأظن أن سؤالي عن الآخرة يرضيك ، وأنا أتمنى أن تترك هذه الرحلة فى نفس كل منا ودا للآخرة مهما اختلفت آراؤنا أو اتجاهاتنا .

قال الشيخ : ولكن رضاى أنا أو رضا غيرى لن ينفعك فى شىء ، كما أن سخطى أو سخط غيرى لن يضرك فى حقيقة الأمر فى شىء ، لأن الذى يملك هذا كله هو الله ، فليتك تتوجه بهذا السؤال مع عقيدة صادقة إلى الله ، أما ما لدى أنا فهو هذا القدر اليسير من المعلومات عن الدين ، فلك أن تسألنى فأجيبك بما أعرف أو بما أرى .

قال الشاب : هناك أشياء لك أن تعدها خواطر وليست أسئلة بمعنى الأسئلة ، لأنى أتوقع أنه ليست لها على الأقل فى تفاصيلها إجابة علمية لأنها لم تخضع لعلم البشر ، ولكني أعرضها عليك لأرى خواطرك نحوها أو ما قد يكون لديك من علم عنها ، ومن هذه الخواطر ما يتعلق بالروح ، فأنا أعلم أن وجود الروح حقيقية لا يختلف الناس عليها مهما اختلف موقفهم الدينى ، لأنهم جميعا يعلمون أن الفارق بين حياة الشخص وموته هو وجود الروح فى الجسد أو خروجها منه ، ولكن البحوث العلمية لم تستطع حتى الآن أن تحدد حقيقة الروح وطبيعتها ، ولكنى أتساءل أحيانا عن بدايتها ، هل تخلق الروح مع الجسد ، أو هي كانت موجودة قبل خلق الجسد وحلت فيه حلولا ؟

قال الشيخ : أحمد لك ما قلته من أن كل ما يتعلق بالروح هو خواطر وليس علما ، وما قلته فى تساؤلك من أن البحوث العلمية لم تستطع أن تحدد حقيقة الروح وطبيعتها حتى الآن يجب أن تضيف اليه ولن تستطيع أيضا الوصول الى هذه الحقيقة ، لأن الله جعل علم الروح من خصائص علمه التى لم يشرك فيها أحدا ، ومع ذلك فقد تحدث كثيرا من علماء الدين حتى الأفاضل منهم عن الروح وكيفية حلولها فى الجسد وكيفية خروجها منه وبعض خصائصها ونحو ذلك ، ولكن مما لا شك فيه أن كل هذا كما قلت أنت محض خواطر وتصورات لا تقوم على أى أساس علمى ، لا من العلم المادى التجريبى ، ولا من الدين ·

ولكن النتيجة التى نخرج بها من حلول الروح فى الجسد أن الروح كيان مستقل عن الجسد ، ومما يترتب على ذلك أن موت الجسد أو تحلله بعد الموت لا يعنى موت الروح أو تحللها ، بل تظـل كيانا قائما ، بل وتستطيع أن تقول تظل كيانا حيا بالحياة الخاصة بالأرواح ·

ومعنى ذلك أن أرواح الموتى تظل حية مدركة ، وهذا ما يؤكده الواقع الملموس ، فان كثيرا من الناس يرون الموتى أى أرواح الموتى فى المنام تخبر عن أشياء لا يخبر بها الا من له وجود وادراك ، وأمثلة هذا فى واقعنا وفى كل العصور الماضية لا تحصى ، ومن أشهر هذه الأخبار قصة الصحابى الذى استشهد فى احدى المواقع فى خلافة أبى بكر وهو أنصارى ، فجاء أنصارى آخر فأخذ درعه وهو قتيل ، وخبأها تحت اناء فى خيمته ، فجاءت روح الصحابى الشهيد الى أبى بكر وأخبرته بأمر الدرع وبالمكان المخبأة فيه ، وزاد على ذلك أن أوصى فى الرؤيا ذاتها بثلث ماله فى سبيل الله ، وكان أمر الدرع كله كما أخبر به الشهيد ، فأعادها أبو بكر الى ورثته ، وأجاز وصيته استثناء من الحكم الشرعى ، لأن الحكم أنه يموت الشخص تنتقل ملكية كل ما يملك الى ورثته ، فلا يملك أحد غيرهم التصرف فى شىء من التركة ، وهذه النتيجة وهى حياة الروح وادراكها بعد موت صاحبها يؤكدها أيضا الدين ، فمن الأخبار المشهورة فى غزوة بدر أن قتلى المشركين طرحوا فى بئر مهجورة ، ثم وقف النبى صلى الله عليه وسلم يخاطبهم قائلا : لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ فقال له عمر :

أتكلم الموتى يا رسول الله ؟ فقال النبى : والله ما أنتم بأسمع منهم لما أقول ، ولكنهم لا ينطقون ، وكذلك ما ورد فى عذاب القبر ونعيمه من الأحاديث النبوية ، ومن الواضح أن العذاب أو النعيم فى القبر لا ينصب على الجسد ، لأنه يتحلل ويزول ، فالمراد الروح ، وبعض العلماء يحاول اثبات عذاب القبر بقوله تعالى (مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا) فالتعبير بالفاء فى اللغة يعنى الفورية ، أى أنهم أدخلوا النار فور موتهم .

قال الشاب : بمناسبة الحديث عن الرؤيا فى النوم ، هل لى أن أسالك عن أرواح الأحياء وليس الموتى ، من حيث ان بعض الناس يزعمون أنهم يرون فى منامهم أشياء تدل على اطلاعهم على أمور غيبية ستحدث ، وأن هذه الأمور تحدث بعد ذلك فعلا ، فما مدى صحة ذلك فى رأيك ؟ وإذا كان هذا صحيحا فكيف يتاح لأحد الاطلاع على الغيب فى يقظة أو منام ؟

قال الشيخ : أتدرى أن هذا الحديث لا يدخل فى نطاق التخمين أو الخواطر كما أسلفنا ، وانما يعتمد على أساس من العقل ومن الدين معا ، أعنى أن ادراك الروح فى أثناء النوم لبعض المغيبات ليس تخمينا أو محض ظن ، بل له أساس عقلى ودينى ، رغم أنه لا يخضع للعلم أو البحث التجريبى ، فأما عن العقل فهو أننا ما دمنا سلمنا بأن الروح كيان مستقل عن الجسد مهما كانت طبيعة تداخلهما فان الجسد من الواضح أن ادراكه محصور فى الحواس وفى الجوهر العقلى الذى يستمد ادراكه ومعلوماته أيضـــا من محيط الحواس ، أما الروح فهى كيان ذو طبيعة غير حسية ولا مادية ، ولكن الجسد بمثابة سجن لها كما يقول أبو العلاء المعرى ، بحيث لا تدرك إلا من خلال حواس الجسد طالما هى محبوسة داخل الجسد ، فاذا تخلصت من الجسد كحالة الموت فان ادراكها يختلف عن ادراكها وهى داخل الجسد ، لأنها تكون حينئذ قد خرجت من قيود المكان والزمان ، فتنطلق فى الأماكن بغير حدود أو قيود ، كما أن الزمان بمفهومنا يلغى بالقياس اليها ، فلا ليل ولا نهار ولا حاضر ولا مستقبل ، بل كل ذلك لديها سواء ، ولذلك لم يكن غريبا أن تخبر روح ميت عن أشياء غيبية لم تحدث بعد ، لأن المستقبل عندهـــا كالحاضر ، فهذا من حيث المبدأ يدخل فى نطاق التصور العقلى ، وان كانت تفاصيله خارج دائرة العقل ، وابن خلدون فى مقدمته يعرض تصوره لكيفية ادراك الروح للمغيبات ، فيقول ما مضمونه ان الروح اذا تخلصت من الجسد فان من طبيعتها ادراك الغيبيات ، وفى أثناء النوم قد تستطيع الخلوص من الجسد ولو لحظة تشبه الومضة أو طرفة العين أو بمفهومنـــا المعـــاصر ما يشبه لقطة آلة

التصوير (الكاميرا الفوتوغرافية) • ففى هذه اللحظة أو الومضة تطلع على بعض الغيبيات فى صورة معينة ، فتنطبع هذه الصورة فى ذاكرة النائم ، وتظل ماثلة فى نفسه حين يستيقظ •

قال الشاب : وهل معنى ذلك أن كل ما يراه النائم يعد من محيط الغيب ؟

قال الشيخ : كل ما يراه النائم ليس الا استعادة لمخزون ذاكرته من صدى انفعالاته وأحداث حياته ، حيث يراها عادة فى صور مبعثرة ومشوهة ، فهى كتعبير القرآن (أضغاث أحلام) أى أخلاط من المشاهد ، أما لقطات الروح من الغيب فهى لقطات نادرة ، قد لا تتاح لها الا بعد آماد قد تطول وقد تقتصر •

قال الشاب : وهل كل الأرواح لديها القدرة على هذه اللقطات من الغيب ؟

قال الشيخ : كما أن القدرات الخاصة التى نصفها فى حياة الناس بالمواهب ، أو المواهب التى يسميها بعضهم بالقدرات الخاصة لا تتاح الا لبعض قليل من الناس ، فكذلك تستطيع أن تقول ان للأرواح أعنى لبعض الأرواح قدرات خاصة أو مواهب فى بعض المجالات منها مجال التقاط بعض الغيب فى أثناء النوم ، ومنها قدرات شريرة ، كالمقدرة على الحسد التى تسلط الروح فيها قدرتها التدميرية على شخص أو شىء فتدمره أو تدمر شيئا فيه ، ومنها مقدرة بعض الأرواح فى حال يقظة صاحبها أو ما يشبه اليقظة على الاطلاع على ما هو محجوب ، كما يشاهد الناس فى حالة التنويم المغناطيسى من مقدرة النائم مغناطيسيا على الاطلاع على أشياء فى أماكن بعيدة قد تكون فى دولة أو قارة أخرى ، ونحو ذلك من القدرات ، ولكنى أعتقد أن مثل هذه القدرات الروحية لا يتم استخدامها الا اذا أصبح صاحبها فى حالة تشبه النوم ولو للحظة لتستطيع الروح التخلص فى هذه اللحظة من الجسد فتزاول قدرتها الخاصة ، ومن المعروف أنه ليس كل الناس يحملون هذه القدرات ، وليس كلهم يصلح للتنويم المغناطيسى ، انما يكون ذلك عند من لدى أرواحهم نوع من هذه القدرات الخاصة ، سواء أكانت قدرتها خيرة أم شريرة •

قال الشاب ضاحكا : سمعتك الآن تقول القدرات التى نصفها بالمواهب أو المواهب التى نصفها بالقدرات ، فذكرنى هذا بأسلوب طه حسين المشهور عنه ، فهل كان تعبيرك هذا تأثرا به ؟ وبمناسبة أسلوب طه حسين أذكر أن كليتنا أقامت ذات مرة أمسية ترفيهية ، فكان من فقراتها مشهد من مسرحية هزلية يقلد فيه أحد الممثلين أسلوب طه حسين فيقول لممثل آخر : سأضرب رأسك بالعصا ، أو أضرب العصا برأسك ،

أو أضرب كليهما بالآخر ، فحين سمعت تعبيرك هذا ذكرني بهذا الاسلوب ٠

قال الشيخ : ما الى شيء من هذا قصدت ، ولكنك قد تعجب أو تضحك أو كلاهما معا كما يقول طه حسين اذا عرفت أنني لأول مرة أفكر الآن في الفرق بين تعبيرى الموهبة والقدرة الخاصة ، وذلك أننا منذ كنا طلابا ندرس علم النفس التربوى ، ونقرأ ما يتعلق به في الكتب والبحوث ، كانت تتردد كلمة الموهبة للدلالة على الميزة التي يتمتع بها شخص ما في مجال معين ، ولكن بعض المثقفين وبعض علماء التربية وعلم النفس كانوا يستنكرون تعبير الموهبة ، ويصرون على أن يستبدلوا بها تعبير القدرة الخاصـــة ، دون أن يبينوا فيما أعلم سببا لرفضهم تلك واختيارهم هذه ، وقد تقبلت هذا على أنه تصحيح لمصطلحات علمية من العلماء المختصين لأسباب علمية هم أعلم بها ، ولكنى الآن فقط طرأ في ذهنى التفكير في أنه في أغلب الظن لم يكن تصحيحا علميا ، وانما كان تعبيرا مذهبيا يتعلق بالعقيدة الدينية ، من المنافقين — وهم غير قليلين — من المدفوعين بفكر الشرق الشيوعى ، أو الغرب العلمانى الالحادى ، وهم ظاهرون كل الظهور في أوساطنا الثقافية والاعلامية كانوا يتولون مثل هذه التعبيرات ، وهذا التغيير في المصطلحات ، فان الموهبة تعنى أن الميزة التى يحملها شخص ما انما هى هبة ، وواضح أنها هبة من الله لأنه هو الذى يخلق الانســـان ويخلق ما فيه من مكونات شخصيته ، وســـواء الشيوعيون والعلمانيون الملحدون لا يعترفون بتدخل الله في شـــئون الحياة أو شئون الناس ، حتى وان اعترف بعضهم بوجوده ، فهم ينكرون ويرفضـــون أى تأثير لله أو للدين في الحياة حتى يصرفوا الناس عن الدين ، فبدل أن يقولوا ان هذه الميزة موهبة يقولون انها قدرة خاصة ، أى قدرة ذاتية في شخصية صاحبها وليست موهبة من الله ٠

قال الشاب : بمناسبة حديثك عن الحسد أجد كثيرا من الناس يتحدثون عن الحسد على أنه واقع ملموس الأثر بينهم ، وقد فسرته أنت الآن بالقدرة الروحية الشريرة لدى بعض الناس ، وأعتقد أن هذا الفهم شائع حتى لدى الكتاب والباحثين الأجانب ، ولكنى أسألك عن موقف الاسلام من هذا ٠

قال الشيخ : موقف الاسلام من الحسد معروف ومشهور ، وهو الاعتراف بوجود الحسد ، وقد سجل القرآن هذا في أكثر من موضع ، منها نسبة الحسد الى بعض الناس كقوله تعالى في سياق الحديث عن اليهود (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) والحسد من كبائر الاثم والجريمة ، ولذلك أمر القرآن بالاستعاذة منه في قوله تعالى (قل أعوذ برب الفلق) ثم قوله (ومن شر حاسد اذا حسد) أى استعذ بالله من شر الحاسد اذا حسد ٠

قال الشاب : فى هذا التعبير من القرآن لى ملحوظة لغوية رغم أننى لست لغويا ولا أديبا ، وهى أن الناس حتى من أعداء الاسلام لا ينازعون فى بلاغة القرآن ، ولكنى أجد غرابة فى تعبير (ومن شر حاسد اذا حسد) فقد كنت أتوقع أن يكون التعبير نحو استعذ بالله من الحاسدين ، ليكون الكلام أوجز وأبعد عن التكرار اللفظى ، فما معنى نسبة الشر الى الحاسد والمعروف أن الحاسد شرير ؟ وما معنى (حاسد اذا حسد) ؟ لأن الحاسد لا يكون حاسدا الا اذا حسد .

قال الشيخ مبتسما : لا تفتح أبوابا تحتاج الى حديث طويل ورحلتنا قد أوشكت على النهاية ، ولكنى أقول لك ان هذه الألفاظ التى تراهـا تطويلا هى غاية فى دقة الأداء ، ولولاها لأمكن لأى متعمق فى التحليل أن يجد خللا فى معانى القرآن ، وذلك لأنه لو كان التعبير استعذ بالله من الحاسد فان هذا يعنى الاستعاذة من شخص الحاسد وليس من حسده فحسب ، والحاسد رغم أنه يحمل شر الحسد وجرمه المنكر الا أنه قد يحمل معه صفة أخرى من صفات الخير ، فلا ينبغى الاستعاذة من هذا الخير ، ولا من أى شىء غير الشر ، لأن الذى يستعاذ من شخصه كله هو الشيطان لأنه شر محض ولا يحمل أى خير ، فكان من دقة تعبير القرآن الاستعاذة مما يحمله الحاسد من شر ، ســـواء من الحسد أو غيره من الشرور ، دون الاستعاذة مما قد يحمله مما ليس شرا .

وأما تعبير (حاسـد اذا حسد) فهو أيضا لتخصيص الاســتعاذة بالحسد لأنه هو المقصود هنا بالحديث دون أن تنطلق الاســتعاذة الى شخص الحاسد ، لأن نزعة الحسد استعداد كامن فى طبيعة الحاسـد يمكن أن يستخدمه أو لا يستخدمه ، وهو لا يؤاخذ على وجود هذه النزعة فى طبعه ، لأنه لا دخل له فى وجودهـا فى طبعه ، وانما يؤاخذ على استخدامها ومزاولتها فى الاضرار بالمحسود ، كالذى يحمل سلاحا ، فليس من حق الناس أن يؤاخذوه على حمل السلاح ، وانما من حقهم أن يؤاخذوه اذا استخدمه ضدهم وآذاهم به ، وكل ما يحمله الانسان من صفات الخير أو الشر لا يحاسب على حمله أية صفة ، وانما يحاسب على استخدامها ، فالذى يحمل صفة الجود مثلا وهى صفة خير لا يثاب على مجرد حمله هذه الصفة ، وانما يثاب اذا استخدمها بالبذل والعطاء ، وكذلك بعض الناس يحملون نزعة عدوانية يجدون معها رغبة فى الاعتداء على غيرهم ، فهم لا يعاقبون على مجرد حمل هذه النزعة ، وانما يعاقبون على استخدامهـا بالعدوان على غيرهم ، وهكذا فى كل صفات الخير أو الشر لا يكون الحساب على حملها وانما على استخدامها ، ومن هذه الصفات الحسد ، فلا يحاسب الحاسد على وجود نزعة الحسد فى طبعه ، وانما يحاسب على استخدامها حين يحسد فعلا ولهذا كانت دقة تعبير القرآن فى أنه لا يطلب الاستعاذة من الحاسد ذاته مهما كان يحمل فى طبعه من نزعة الحسد ، وانما يطلب

الاستعاذة من مزاولته الحسد فعلا ، ذلك فى قوله تعالى (ومن شر حاسد اذا حسد) وهى ضمن سورة الفلق (قل أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ، ومن شر غاسق اذا وقب ، ومن شر النفاثات فى العقد ، ومن شر حاسد اذا حسد) ٠

قال الشاب : فلنعد الى حديثنا الأصلى ٠

قال الشيخ : كنا نتحدث حول رؤيا المنام ، وكنت أقول ان العقل لا ينكرها لأن الروح هى حياة الجسد ، فاذا نزعت من الجسد أصبح الجسد ميتا ، كما أنها حين تحل فى جسد الجنين يصبح حيا ، فالروح اذن هى الحياة ، وما دام لها كيان مستقل عن الجسد رغم تلابسهما بحيث تدخل الجسد وتخرج منه فستبقى اذن حية ، ومن الواضح أن لها صفة الادراك ، لأن الجسد لا يكون مدركا الا مع وجود الروح فيه ، وخلوه من الادراك بعد خروج الروح منه معناه أن الروح هى المدركة ، وادراك الروح يختلف عن ادراك حواس الجسد ، لأن الحواس محكومة كما سبق بالمكان والزمان ، أما الروح فلا تحدها الأمكنة والأزمنة المحيطة بها ولذلك كان من قدراتها التقاط الغيب ، لأن الغيب المكانى هو المحجوب عنا ، فأنت حينما تكون فى حجرة فان الذى فى حجرة أخرى أو بيت آخر هو غيب بالقياس اليك لأنه محكوم أو محجوب بمكان محدد ، وأما الغيب الزمانى فهو المستقبل ، والمستقبل نوع من الزمان ، وحيث تخلصت الروح من قيود الزمان فالحاضر والمستقبل لديها سواء ، واللحظة التى تتخلص الروح فيها من الجسد فى أثناء النوم تتيح لها التقاط لقطة من الغيب ، سواء الغيب المكانى أو الزمانى ، مثل أن يكون للنائم شخص فى بلد آخر فيرى أن قد حدث لهذا الشخص حادث ، فيكون كما رأى ، فهذا من الغيب المكانى ، أو يرى أنه حدث له حادث ، ولم يكن ذلك قد حدث ، فيحدث فيما بعد ، فهذا من الغيب الزمانى ٠

وهذا كله واقع معروف فى كل البيئات وكل العصور ٠

وكنت أقول ان الدين أيضا يؤكد واقعية رؤيا المنام التى فيها التقاط غيب ، وذلك فى القرآن وفى الأحاديث النبوية ، فأما فى القرآن فقد ساق القرآن عدة مواقف عن رؤيا المنام ، منها رؤيا الشابين اللذين كانا زميلين فى السجن ليوسف عليه السلام ، ومنها رؤيا ملك مصر التى أنقذت مصر ومنطقة الشرق الأوسط كله من المجاعة بسبب جفاف النيل سبع سنوات ، وكان تفسير يوسف اياها هو سبب الانقاذ ، ومنها رؤيا ابراهيم عليه السلام فى المنام أن يذبح ابنه ، ومنها رؤيا محمد صلى الله عليه وسلم فى المنام أنه سيدخل المسجد الحرام بمكة هو والمسلمون آمنين وذلك فى الوقت الذى كانت قريش تحظر عليهم دخولها ٠ وأما عن

الأحاديث النبوية فقد تكرر كثيرا أن يرى أحد أصحاب النبى وأحيانا النبى نفسه رؤيا فى المنام فيفسرها النبى أو يفسرها أحد أصحابه ثم يقر النبى هذا التفسير ، ومن الأحاديث النبوية المشهورة فى اثبات واقعية رؤيا المنام التى فيها التقاط غيب (لم يبق من المبشرات الا الرؤيا الصالحة يراها المؤمن فى نومه) ومن هذه الأحاديث المشهورة (الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة) ·

قال الشاب : الحديث الأول يتحدث عن صلاح الرؤيا ، وعن ايمان الرائى ، فهل معنى ذلك أن الرؤيا مرتبطة بالايمان وبالصلاح فيها هى ؟

قال الشيخ : أعتقد أن الروح فى طبيعتها الادراكية لا تختلف عند غير المؤمن عنها عند المؤمن ، فلو تصورنا شخصين ماتا أحدهما مؤمن والآخر غير مؤمن فان روح كل منهما لا تختلف عن الأخرى من حيث الادراك بالذات لأن هذه طبيعة الروح بصرف النظر عن كونها مؤمنة أو غير مؤمنة ، كما أن المؤمن فى حياته لا يختلف فى ادراك حواسه كالسمع والبصر عن غير المؤمن ، وكذلك فى حال النوم لا تختلف روح غير المؤمن فى التقاطها الغيب عن روح المؤمن ، ولكن ذكر الحديث النبوى لصلاح الرؤيا وايمان الرائى هو وضع خاص برؤيا المؤمنين ، فان المؤمن دائما يستبشر بكل ما يقدره له الله ، ولو كان فى ظاهره شرا من باب (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) ووصف الرؤيا بالصلاح يعنى أنها الرؤيا الصادقة التى يتاح لها التقاط الغيب ، تمييزا لها عن أضغاث الأحلام التى لا تدل على شىء ، فحينما يرى المؤمن رؤيا يعلم أنها صادقة ، أى أن مضمونها سيتحقق فانه يعد هذا قضاء من الله ، وهو يستبشر بكل ما يأتيه من قبل الله ، فان كان خيرا حمد الله ، وان كان ضررا متوقعا دعا الله أن يكفه عنه ، وان وقع فعلا صبر فنال رضا الله ورضا الله يهون فى سبيله بل يستعذب فى سبيله أى احتمال ·

فالتقاط الروح الغيب ليس وقفا على روح المؤمن ، بل تستوى معها فى ذلك أرواح غير المؤمنين ، طالما كانت لدى الروح القدرة والتهيؤ للتخلص من الجسد فى أثناء النوم ، والقرآن يؤكد ذلك فى أكثر من مثال ، منها الفتيان المصاحبان ليوسف فى السجن ، فقد كانا من المشركين بالله ، ومع ذلك كانت رؤياهما صادقتين ، ويوسف عليه السلام يدعوهما الى ترك الشرك بالله فى مثل قول الله سبحانه على لسانه (يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) ، وكذلك ملك مصر الذى رأى رؤيا آثار جفاف النيل الذى سيحدث بعد سبع سنين من هذه الرؤيا كان هذا الملك مشركا بالله ضمن قومه الذين يتحدث يوسف عن شركهم ، ومع ذلك كانت رؤياه صادقة ·

قال الشاب : في الحديث النبوى الثانى الذى ذكرته لم أفهم معنى أن الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ٠

قال الشيخ : وسيلة الاتصال المألوفة بين الله سبحانه والأنبياء هى الوحى ، والوحى هو اتصـــال روحى بين ملك مخصص للوحى هو جبريل وبين روح النبى ، ورغم أن هذا الاتصال يتم عادة فى يقظة النبى الا أن النبى يكون فيها فى حالة أشبه بالنوم ، وهو الذى تستطيع فيه الروح أحيانا التخلص من الجسد ، ولكن تخلص الروح فى أثناء النوم يكون فيه يسر لا يشعر معه النائم بجهد ، أما فى حـالة تخلص روح الأنبياء وهم فى اليقظة فان هذا يقتضى جهدا وعناء ليسا باليسيرين ، ولذلك كان ما ورد فى الأحاديث النبوية من أن النبى صلى الله عليه وسلم كان وهو فى اليوم الشديد البرد يفصل عنه الوحى وهو يتصبب عرقا ، ولكن المهم فى سياقنا هذا أن نبى الاسلام ظل ثلاثا وعشرين سنة ينزل عليه الوحى وهو فى اليقظة باستثناء ستة أشهر فى بدء الوحى كان يوحى اليه فيها وهو نائم ، ويرى الرؤيا فى النوم فحين يستيقظ يجدها تتحقق واضحة صريحة يصفها الرواة بأنها فى وضوحها كانت كفلق الصبح ٠

فاذا حسبت الشهور الستة التى كان يوحى اليه فيها فى المنـام بالقياس الى مدى النبوة كلها وهى الثلاث والعشرون سنة تجدها جزءا من ستة وأربعين ، ومعنى ذلك أن كل رؤيا صادقة فى المنام هى نوع من الوحى ، أو تشبه الوحى فى أن كلا منهما اخبار بغيب ، غاية الأمر أن وحى الأنبياء وحى كامل ، بينما وحى الرؤيا وحى جزئى ، يوازى جزءا من ستة وأربعين بالقياس الى وحى الأنبياء ٠

قال الشاب : لأننى لست من الذين أتيحت لأرواحهم المقدرة على التخلص من أجسادهم وأحمد الله على ذلك لأنى لا أحب أن تفارق روحى جسدى فى يقظة أو منام فمن يدرى قد يحدث لها حادث فى أثناء خروجها ، أو قد تجد وجودها خارج جسدى خيرا من وجودها داخله فلا تعود ، ولكنى أقول ان عـدم تجربتى تخلص روحى من جسدى لتلتقط بعض الغيب لم يتح لى أن أعرف كيف تخبر الروح بهذا الغيب ، هل تقول انه سيحدث كذا وكذا صراحة ، أو هل فى المكان الفلانى كذا وكذا بكلام صريح ؟

قال الشيخ : الأمر بالعكس ، فان من علامات صدق الرؤيا ألا تكون صريحة أو بالكلام العادى ، لأنه من المعروف أن الرؤى الروحية تعتمد على لغة رمزية تكاد تكون ثابتة فى أغلب الأحيان ، فمثلا قد يرى النائم أن ثعبانا عضه ، فلا يحدث هذا صراحة بأن يعضه ثعبان ، وانما يعنى أن الثعبان مجرد رمز لشىء يشبهه ، ومفسرو الأحلام يقولون ان الثعبان

فى النوم رمز لعدو يكتم عداوته ويخفيها ، فهو بعداوته وتحينه فرص الايذاء يشبه الثعبان فى ايذائه ، وهو فى محاولته اخفاء عداوته يشبه الثعبان فى حرصه على التخفى وفى نعومة ملمسه التى لا تناسب خطورة ايذائه يشبه بعض الأعداء من الناس الذين يظهرون الود وحسن الصلة رغم ما يحملونه من عداء دفين ، ومثل أن يرى النائم ميتا أعطاه شيئا ، فان هذا رمز لأن ينال خيرا من مصدر غير متوقع ، كما أن الميت لا يتوقع صدور شىء منه ، وهكذا فان أهم ما يميز لغة الأحلام أنها لغة رمزية غير صريحة ، ولذلك فان معظم الناس لا يحسنون فهمها أو تفسيرها ، وبعض الناس يعطيهم الله موهبة فهم هذه اللغة الرمزية فى كل ما يصدر عنها ، كما كان يوسف عليه السلام ، وكما كان محمد بن سيرين وهو من علماء الاسلام فى القرن الثانى الهجرى ، وقد جمع بعض الرواة كثيرا من تفسير ابن سيرين لرموز لغة الأحلام ، وهى مطبوعة الآن فى كتيب ٠

قال الشاب : وحيث كان هذا الطور من حديثنا عن الآخرة فلننتقل بالحديث وليس بالواقع — أطال الله عمرك — الى القبر ، فان فى أموره ما يدعو الى التساؤل ، ومن ذلك أنه مع التسليم بوجود الآخرة ، وبوجود ثواب وعقاب فيها فكيف نتصور ثواب الميت أو عقابه ؟

قال الشيخ : سأتجاوز عن تعبيرك عن التسليم بوجود الآخرة وما يتضمنه هذا التعبير من شك بناء على ما اتفقنا عليه فى بدء الرحلة ، لأنى اذا لم أتجاوز عنه فليس من الحكمة الحوار فى أمور فرعية اذا فقدت هذه الفرعيات أصولها ، والحديث عن القبر أو عن أى شىء فى الدين فرع من العقيدة التى هى الايمان واليقين ، واذا تطرق الى الايمان شك فلن يكون ايمانا ولا جدوى حينئذ من الحديث فى أى شىء عن الدين ، ولكنى أواصل الحديث بناء على اتفاقنا ، فأقول انه من حيث المبدأ فان كل ما يتعلق بالغيبيات ومنها أمور الآخرة لا قيمة علمية لأى حديث عنها الا ما ورد فى نصوص دينية من القرآن أو الحديث النبوى الصحيح ، وما عدا ذلك فليس الا مجرد خواطر أو تصورات من بعض العلماء يستوى لدى أى شخص قبولها أو رفضها ، ومن حيث المبدأ أيضا فان الآخرة مرحلتان ، مرحلة القبر ، ومرحلة البعث من القبر ، فأما مرحلة القبر فانها مؤقتة تنتهى بالبعث ، وبعث البشر جميعا من القبور سيكون فى وقت واحد هو يوم القيامة الذى لا يعلم موعده أحد على الاطلاق الا الله والذى يستشف من خلال وصف القرآن اياه أنه سيكون عند دمار الكرة الأرضية وتغير النظام الكونى المشاهد لنا والمحيط بنا ، ومن المعروف أن كل الكواكب الكونية يربطها نظام دقيق ، فاذا حدث خلل فى هذا النظام يمكن أن نتصور انهيار هذا النظام الكونى ، أو دمار هذا الكون كله ، ليحل محله كون جديد ، أو نظام كونى جديد ، وكلاهما يختلف عن الوضع

الحالى اختلافا لا يعلمه الا الله ، وقد يفهم هذا من قوله تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار) •

قال الشاب مبتسما : معنى ذلك أننا سنمكث فى القبـــور أزمانا بالغة الطول ، لا تقـاس بالملايين أو المليـــارات من السنين ، فان العلماء يتحدثون عن ملايين السنين التى اســـتغرقها تكون هذه الأرض التى نعيش عليها ، وهى كلها لاتساوى حجم شرارة أوذرة اذا قيست بحجم الكون ، فكيف بتغيير الكون أو تغيير نظامه ؟ وكم يستغرق هذا ؟ •

قال الشيخ : الله أعلم بذلك ، ولكن اللـه لو أراد تغيير الكون أو نظامه فى لحظة لفعل ، ومع ذلك فان الروح كما سبق تتخلص من قيود الزمان والمكان وأحاسيس الجسد بتخلصها من الجسد ، فالزمان يستوى عندها حاضره ومستقبله ، ويستوى أيضـــا طوله وقصره ، فلا تشعر بطوله أو قصره ، ومن بـــاب أولى لاتشعر بملل الطول وقلق الانتظار الذى كانت تشعر به ازاء الزمان حينما كانت فى الجســـد ، ولعل هذا يفهم من قوله تعالى (ويوم تقوم الســـاعة يقســـم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون ، وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لاتعلمون) فالمجرمون أعداء الله لم يشعروا بطول الزمن الذى مر عليهم وهم موتى رغم أنهـــم لم يكونوا نائمين ولا غائبين عن الوعى والادراك ، وانما كانوا يفقدون الاحساس بطول الزمن فيصفون هذه الآماد الشاسعة من الزمن منذ موتهم الى بعثهم بأنها أشبه بساعة ، ولكن المؤمنين الذين يعلمون من خلال ايمانهم هذه الحقيقة عن هذا الأمد بين الموت والبعث يذكرونهم بأن هذا كان المؤمنون يقولونه لهم فى حياتهم فكانوا يكذبون بالبعث والحياة بعد الموت أصلا ، فيقولون لهم حينئذ : فهذا ما كنتم تكذبون به فى حياتكم الدنيا •

وأما من حيث الثواب والعقاب ، فالذى لا مجال اطلاقا للشك فى شيء منه هو الثواب والعقاب بعد البعث من القبور بالصور التى أخبر بها القرآن ، وهو المقصود أصلا ، لأن الحساب على الأعمال لايكون فى القبر ، وانما يكون يوم القيامة بعد البعث ، ولذلك سمى هذا اليوم يوم الحساب ، وتوزن أعمال الناس بموازين الخير والشر بعد ميزان الايمان والكفر ، ولاتكون هذه الموازين الا يوم القيامة كقوله تعالى (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) •

أما القبر فليس هو مكان الحساب أو الثواب والعقاب ، وكل ما ورد

في شأنه لا يعدو وكثيرا أن يعرف الانسان فور موته ما ينتظره من ثواب أو عقاب ، وهذا يمكن ان يحدث للميت ولو من تلقاء نفسه دون تعرضه للحساب ، لأن الموت يجرده من كل العوامل والملابسات والأهواء التى كانت تبعده عن الحق ، أو تحجب الحق عنه ، فينظر الى كل ما صدر منه في حياته في ضوء الحقائق المجردة ، فيقومه من تلقاء نفســـه تقريما صحيحا ، وعلى سبيل المثل الكافر الذى يعرض عليه الايمـــن فيفهمه ولكنه يرفضه لأنه يجد فيه اضرارا بمنزلته الاجتماعية ، أو بممتلكاته ، أو بولائه لآبائه وأجداده أو غير ذلك ، فانه عند موته لا يجد لديــه شيئا على الاطلاق من هذه العوامل التى صدته عن الايمان فيرى خطأه وجرمه الفادح فى رفضه الايمان ، وكذلك الذى يرتكب معصيه بدافع غريزة ما أو تحت أى اغراء ، فان الموت يمحو عنه كل الغرائز ، وكل عوامل الاغراء ، فيبقى احساسه بالمعصية ومخالفة ربه ماثلا مضخما في نفسه ، ومما وود فى شـــأنه القبر من الأحـــاديث النبوية (القبر إما روضة من رياض الجنة ، واما حفرة من حفر النار) ومن الواضـــح أن التعبير بالجنة والنار بالقياس الى القبر تمثيل وتصوير بياني لا يراد به الحقيقة ، فليس فى القبر نار حقيقية ولا جنة حقيقية وانما يكون ذلك بعد البعث ، وكذلك من هذه الأحاديث النبوية أن النبى صلى الله عليه وسلم مر بقبرين ، فقال (هذان قبران يعذبان ، وما يعذبان فى كبير ، فأما أحـــدهما فكان يمشى بين النـــاس بالنميمة ، وأما الآخـــر فكان لايستبرىء من بوله) فأيضا هذا العذاب لن يكون عذابا حسيا بالنار كعذاب جهنـــم ، وانمـــا هو عذاب معنوى أو نفسى ، يبدأ من ادراكه لكل ما صدر منه فى حياته من خير أو شر على حقيقته مجردا من العوامل الدنيوية ، فيقومه التقويم الصحيح ، ولعل هذا يفهم من كشف الغطاء عن الميت بمعنى ازالة العوامل النفسية والاجتماعية التى كانت تصرفه عن الحق ، أو تحجب الحق عنه ، وذلك من قوله تعالى فى سياق لحديث عن الموت (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منـــه تحيد ، ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد ، وجاءت كل نفسى معها سائق وشهيد ، لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليـــوم حديد) فحين يكشف الموت عنه غطاء العوامل التى أضلته يصبح وبصره حديدا فيرى كل شيء على حقيقته دون غلاف أو غطاء .

ومن الطريف فى الخيالات التى يتخيلها بعض الناس عن عذاب القبر ونعيمه خيال طه حسين فى كتيبه (رحلة الربيع) حيث يتحيل من قبيل ما سبق أن عذاب القبر يكون بأن تعود للميت ذاكرة كأقوى ما تكون الذاكرة فيستعيد استعادة كاملة كل ما صدر منه فى حياته من مساوىء ، صغيرها وكبيرها ، فيشقى باســـتعراض هذه المســـاوىء

أيما شقاء ، وكلما انتهى من استعراضها اســـتعاد عرضها من جديد ، فيستعيد شقاءه بتذكرها ، وهكذا الى يوم القيامة ، وكذلك صاحب الخير يستعيد كل ما صدر عنه من خير ، فيجد في استعادته سعادة أيما سعادة ، ثم يظل يستعيد كل ما صدر منه ، ويجد معه هذه السعادة الى يـــوم القيامة •

قال الشاب : الذين ينكرون البعث والحياة بعد الموت لاتستسيغ عقولهم كيف يمكن اعادة الميت الى الحياة بعد أن يفنى كيانه ، حيث يذوب في شيء آخر ، مثل أن يذوب في الأرض ويصبح جزءا منها ، حين يصبح ترابا ، فلا يبقى وجود له هو وانما يصبح أرضا أى لا يمكن تمييزه من الأرض ، بل يصبح فعلا أرضا كما يتخيل أبو العلاء المعرى الشـــاعر فيما أذكر مما درسناه أن الأرض التى نمشى عليها ليست الا أجســـاد أجدادنا الأقدمين بعد تحللها وتفتتها في الأرض ، فنحن في تصـــوره انما نمشي على أجساد آبائنا وأجدادنا فينبغي أن نخفف وطء أقدامنـــا عليهم احتراما لهم ، حيث يقول :

خفف الـــوطء ما أظن أديم الأرض الا من هـــذه الأجســـاد

وقبيح بنـــا وان قـــدم العهـــد هوان الآباء والأجـــداد

وقد يذوب الميت مثلا في وحش افترسه ، أو سمك أكله حين غرق في البحر أو نحو ذلك ، فالذين ينكرون البعث يجدون غرابة في عودة الميت بعد أن ينمحى كيانه الى الحياة ، ومع أننى لا أقرهم في انكار عودة الميت الى الحياة ، ولكنى أجد نفسى مشاركا لهم في غرابة تصور عودة الشخص الى الحياة بعد فنائه وانمحاء وجوده ، فكيف أتصور ذلك ؟

قال الشيخ : ليس المهم التصور ، وانما المهم الايمان الذى لاينبغي أن يخالطه أدنى شك في قدرة الله المطلقة على كل شيء بغير اســـتثناء وبغير حدود ، وقد كانت قضية البعث بعـــد الموت أكبر عقبة واجهت الأنبياء في أقوامهم حيث كانوا في كل العصور والبيئات ينكرون عودة الميت الى الحياة ، والقرآن يرد عليهم بحجج وأمثال يضربها لهم لاتكاد تحصى ، منها أنه لو كان الموت في الدنيا نهاية الانســـان لكان وجوده الذى يعيشه في هذه الأرض عبثا ، حيث يفعل ما يشاء من خير أو شر ، فلا يجد ثوابا لخيره ، ولا عقابا على شره حين تنتهى حيـــاته بالموت ، فيتساوى حينئذ المحسن والمسيء ، بل ان هذا يغرى الناس بأن يفعلوا كل ما تتيحه لهم قدراتهم من شر وعدوان وظلم وسلب لحقوق غيرهم طالما كان هذا لايجر عليهم وبالا في حياتهم ، فكل ما يستطيعون الوصول اليـــه مما ليس من حقهـــم ، أو مما هو من حقوق غيرهم يعـــدونه غنيمـــة

كل ما يهمهم فيها النجاة من عقاب الدنيا ، حيث لا عقاب فى تصورهم بعد الموت ·

قال الشاب ضاحكا : ألا تدرى أن كثيرا من الطوائف وأصحاب المذاهب منذ القدم حتى اليوم يعتنقون هذا المذهب فى استحلال كل ما ليس من حقهم وكل ما هو من حقوق غيرهم اذا أمنوا عدم العقاب فى الدنيا ، ومنهم فى القديم السوفسطائيين ، وكثير من المذاهب الماجوسية القديمة وغيرها ، ومنهم من القديم المستمر حتى اليوم كثير من طوائف اليهود ، وكثير من أصحاب مذهب الوجودية ·

قال لشيخ : ولكن كثيرا أيضا من المشركين الذين يحملون شيئا من عقل وتفكير كانوا يؤمنون بالبعث والحياة بعد الموت رغم شركهم بالله ، على أساس أن العقل يقضى بأنه لابد أن يكون هناك حساب بعد الموت حتى لايتساوىء المحسن والمسيء ، ومن هؤلاء قدماء المصريين الذين كانوا يعبدون الشمس ، ومع ذلك تجد مقابرهم حافلة بالرسوم والنقوش التى تصور الحياة بعد الموت ، وتصور عقاب اللصوص والمجرمين بعد الموت ·

ولنعد الى مسار الحديث فأقول ان القرآن رد على منكرى البعث بردود كثيرة شتى ، عقلية وواقعية وتشبيهية ، وأعنى بالواقعية أن يضرب لهم أمثالا للبعث بأشياء من واقع الحياة ، وأعنى بالتشبيه أن يشبه لهم البعث بشيء يشاهدونه كمعجزات بعض الأنبياء فى احياء الموتى ، ومن الردود العقلية أن يدعوهم الى التفكير فى أن الذى خلق الانسان من عدم ، أو مما يشبه العدم فى عرفنا وهو ذرة غير مرئية كيف لايستطيع تجميع ذراته مهما تفرقت أو ذابت فى غيرها ؟ ومن البدهى أن تجميع الشيء بعد تفرقه أيسر من ايجاده من عدم أو ما يشبه العدم ، ومن نحو هذه الردود فى القرآن قوله تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لاترجعون) وكذلك قوله تعالى (ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب) وكذلك قوله تعالى (أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده) ؟ وأيضا قوله تعالى (أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا) ؟

قال الشاب : لا تنس أننى لا أسأل عن مبدأ البعث ، وانما أسأل عن كيفية البعث ، فلم أستطيع أن أجد له تصورا واضحا فى ذهنى ·

قال الشيخ : الحديث عن مبدأ البعث وكيفيته حلقة واحدة ، فكلاهما مرتبط بقدرة الله ، فما دمنا آمنا بقدرة الله المطلقة على كل شيء على الاطلاق ، فلن توجد عقبة أمام الايمان بأى شيء فى الدين ، وقد سبق القول بأن الأساس فى كل الغيبيات ومنها أمور الآخرة لاتخضع للعقل ، وانما للايمان والتصديق بكل ما أخبر به الدين عن الله ، وقد أخبر الدين

بأن الناس يبعثون بعد الموت بأجسادهم كما ولدوا حفاة عراة غرلا أى غير مختتنين ، بمعنى أنه لايغيب من أجسادهم شىء ٠

قال الشباب : هل لى أن أسـأك : لماذا لاتبعث العجماوات من الحيوانات والوحوش والحشرات وغيرها ؟

قال الشيخ : لأن الهدف من البعث هو الحسـاب ، والحيوانات العجماء لم يصدر منها ما تحاسب عليه من خير أو شر ، لأن وصف العمل بالخير أو الشر انما يكون اذا صاحبه اختيار ، بمعنى أن من يكون مخيرا بين طريقين أحداهما خير والأخرى شر ، فاختياره هو الذى يحدد الحكم عليه ، فاذا اختار طريق الخير أثيب على اختياره ، واذا اختار طريق الشر عوقب على اختياره ، وهذا انما ينطبق فى المخلوقات الحية المرئية على الانسان فحسب ، أما سائر الأحياء على الأرض فهى مصـيرة مسخرة لا اختيار لها ، بل كل مخلوق منها يؤدى وظيفته التى خلق من أجلهـا دون اخلال بها ، فليس لها فضل فى خير فعلته ، وليس عليها مسئولية فى شر صدر منها لأنها لم يكن لها خيار فى شىء فعلته ، ولم تدرك أصلا التفريق بين الخير والشر ، فلا جدوى من حسابها ، بل ليس من العدل حسابها ، وبالتالى فلا جدوى من بعثها بعد الموت ٠

قال الشاب ضاحكا : ولو افترضنا جدلا أنها بعثت وحوسبت فماذا يكون مصيرها ؟

قال الشيخ : أظن أننا طرقنا شيئا قريبا من هذا المعنى فيما سبق ، ومع ذلك فلا شك أن الحيوانات العجماء لو بعثت وحوسبت فسيكون حالها فى مجموعها خيرا من حال بنى آدم فى مجموعهم لأن الحيوانات العجماء أدت ما سخرت له وما خلقت من أجله أداء كاملا دون تقصـير أو مخالفة ، أما بنو آدم فان أكثرهم تعمدوا ، اما تحدى الله سـبحانه وهم الكافرون به ، واما التقصير فى حقه وهم العصاة من المؤمنين ، وهؤلاء وخصوصا الكافرين أسوأ عند الله من الحيوانات العجماء ، لأنهم لم يؤدوا ما خلقوا من أجله وهو طاعة الله فى دينهم ودنياهم ، ومن هذا القبيل قوله تعالى عن المشركين (ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) ، لأنهم تجاهلوا ألوهية الله وفضله عليهم وتكريمه اياهم ، بل راحوا ينابذونه العداء ، والقلة القليلة من بنى آدم هم الذين كانوا كما أراد الله لهم ، وأدوا ماخلقوا من أجله ٠

ومن يدرى فلعل من ستر الله لبنى آدم فى الآخـرة ألا يبعث العجماوات ولايحاسبها ، فتصور لو أن شخصا يملك حمـارا وبعث هو وحماره ، فينتهى الحساب بأن يذهب الحمار الى الجنة ، بينما يتجـه

صاحبه الى الجحيم ، وتصور حينئذ مدى الشماتة التي يشمتها هذا الحمار في صاحبه مذ درا اياه بما أثقل عليه من الركوب والحمل والضرب ، وتصور حال صاحبه حينئذ وهو يتوسل الى الحمار ويستعطفه الا يتركه فيما فيه أو فيما هو متجه اليه ، وتصور لو أن كل رد الحمار عليه حينئذ هو السخرية منه بنهقة ينهقها ، كما يسخر أحد السوقة من آخر بشحرة يشخرها به ، وتصور لو أن صاحب هذا الحمار كان بجواره شخص من ذوى المال أو الجاه أو السلطان ورأى ما فيه الحمار حينئذ من عزة ، وما هو مقدم عليه من نعيم فأخذ يتوسل الى صاحب الحمـــار أن يسمح لحماره أن يقبله رفيقا له الى الجنة ولو بأن يركبه الحمار ويحمل هو الحمار قائلا ان كل شيء هنا قد انعكس وانقلب وضعه فلماذا لايركبنى الحمار ، ولكن صاحب الحمار يقول له لقد خرج الحمار عن طاعتي فلا أملك أن آمره بشيء ، وها أنتذا ترى أنه أصـــبح خيرا منى ، وقد رأيت كيف أنى استعطفته لنفسى فسخر منى بنهيقه الذى سمعته ، فيحاول صاحب الجاه أو السلطان أن يزجر الحمار بجاهه أو سلطانه متخيلا أنه مازال ذا جاه أو سلطان ، ولكن الحمار يفتح فاه على أقصى سعته ساخرا منـــه بنهقة أخـــرى .

وتصور لو أن صاحب سلطان رأى مثلا بقرة متجهة الى الجنـــة بينما هو متجه الى جهنم فانطلق وراءها فشـــبثا بذيلها متوســـلا بها ومستعطفا اياها يقول لها أنا وأنت أشبه المخلوقات بعضها ببعض ، فأولى بأن يعطف بعضنا على بعض ، فتقول له : وأى شبه بيننـــا ، فيقول : بل الشبه فى نواح كثيرة ، منها أنه كما أن النـــاس فى كل المجتمعات يستفيدون بما تدرينه من لبن ، فكذلك الناس فى كل المجتمعات ينتظرون منى بوصفى سلطانا ما أسمح لهم به من قطرات النفع ورخاء المعيشة ، وحيث كنا أشبه المخلوقات بعضنا ببعض وقد جعلنى اللـه اليـــوم فى موضع الذل لك أفلا تسمحين لى أن أتعلـــن بذيلك وأتخفى بين رجليك لعلى بهذه الحيلة أستطيع دخول الجنة دون أن يرانى أحد من حراسها ، ولكن البقرة تسخر منه بأن تخور له خوارا مدويا ، فيتضـاءل ويمتلىء شعورا بالذل والهوان ويقول لها ودموعه تنســـاب على خديه ، أهكذا تصبحين خيرا منى وترفضين الاستجابة لذلى واستعطافى ، ولكن بقى لى رجاء يسير أضرع اليك ألا ترفضيه ، وهو أن تسمحي لى بقطـــرات لبن من ضرعك أبل بها حلقى ، فان كرب العطش تحول الى شعلة تلتهب فى حلقى ، وأدنى صاحب السلطان فاه من ضرع البقرة فاذا هي ترفســـه رفسة تجعله يتدحرج الى الوراء ، وحيث لاتوجد جاذبية أرضية حينئذ لعدم وجود الأرض نفسها فانه يظل يتدحرج حتى يجد نفســـه فى قاع الجحيـــم .

وهكذا في مواقف ومشاهد بين الحيوانات العجماء وبنى آدم يمكن أن تملأ الكتب سخرية وتفكها ٠

أفلا ترى اذن أن من ستر الله على بني آدم في الآخرة أنه لم يبعث معهم الحيوانات العجماء ولم يحاسبها ؟

قال الشاب : سمعتك تقول آنفا ان الدين يذكر أن الناس يبعثون يوم القيامة حفاة عراة غرلا ، أفلا ترى أن اجتماع الناس هكذا مما يخدش الحيـــاء ؟

قال الشيخ : أذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي سئل هذا السؤال ، وذلك أن زوجه عائشة حينما سمعت ذلك امتلات شعورا بالحياء من أن يظهر النساء هكذا عرايا أمام الرجال ، فذكرت ذلك للنبي ، فقال لها : يا عائشة لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ، بمعنى أن ما هم فيه من هول الموقف يصرفهم عن هذه المعاني الحيوانية ، ويمــكن أن تضيف الى ذلك أن حياء الناس من اظهار عوراتهم الجسدية انمــا هو مرتبط بغريزتين أصليتين في الانسان ، فاذا انعدمت الغريزتان انعدم الحياء من ظهور العورة ، بل انعدم الشعور بأنها عورة ، وهاتان الغريزتان هما الغريزة الجنسية بين الذكر والأنثى ، والأخرى طبيعـة اخـــراج الفضلات من الشراب والطعام ، فان الطبيعة البشرية جبلت على أن تستحي أو تأنف من اظهار مزاولةهاتين الغريزتين أمام الناس ، ولو تصورنا عدم وجود هاتين الغريزتين لما كان هناك شعور بالحياء من ظهور العورة ، بل لم يكن هناك شعور أصلا بالعورة ، ولذلك نلحظ في سرد القرآن قصة آدم وحواء أنهما قبل الأكل من الشـــجرة لم تكن عليهما ملابس ، ولم يشعرا بوجود عورة في جسديهما ، فلما أكلا تولدت في جسديهما الغريزة الجنسية والحاجة الضرورية الى اخراج فضلات الطعام عندئذ بدأ احساسهما بالعورة ، وبالحاجة الى سترها ، كقوله تعالى (فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) فواضح من تسلسل أحداثها أن شعورهما بالعورة ترتب على الأكل من الشجرة ، وحينئذ بدأ يبحثان عما يستران به عورتيهما ٠

والناس حين يبعثون بعد الموت لاتبعث معهم غرائزهـم الجنسية المألوفة لأن هذه الغريزة انما أوجدها الله في الدنيا للتناسل وبقاء النوع ، ولا تناسل بعد الموت ولا خوف من انقراض النوع أو فنائه ، فلا حاجة اذن الى الغريزة الجنسية أو بمعنى أدق الغريزة الحيوانية لأنها ركيزة الحياة الدنيا لدى كل أنواع الحيوان ومنها الانســـان ، وكذلك غريزة اخراج الفضلات مترتبة على الطعام والشراب ، ويـــوم القيـامة لا طعام

ولا شراب فلا حاجة الى اخراج فضلات ، ومن ثم فلا شعور بوجود عورة لدى الناس ولا الى شيء يحتاجون ستره حين يبعثون ، وأعنى بيـــوم القيامة ما قبل الجنة والنار ٠

قال الشاب : مادامت أعضاء العورة فقدت الغرض منها بعد الموت فلماذا لا يبعث الله الناس بدون هذه الأعضاء ؟ أعنى لماذا يعيد أعضـــاء فقدت الغرض من وجودها ؟

قال الشيخ : الدين يذكر أن كل أعضاء الانسان ستبعث معه يوم القيامة لسبب آخر غير سبب وجودها فى الدنيا ، وهو أن تكون شاهدة على الانسان فيما لو ادعى غير الواقع ، فالسارق تشهد عليه يده بأنه سرق بها ، والكاذب يشهد عليه لسانه بأنه كذب به وهكذا ، والقرآن يؤكد ذلك كقوله تعالى (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهـــم بما كانوا يعملون) ويصور القرآن هذا الحوار الطريف فى جهنـــم بين المجرم وأعضائه التى ارتكب بها جرائمه فى قوله تعالى (ويـــوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون ، حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون ، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصـــاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لايعلم كثيرا مما تعملون ، وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) ٠

قال الشاب : أظن أن القرآن حافل بوصف الطعام والشراب وبوجود العلاقات الجنسية فى الجنة ، فكيف يتفق هذا مع ما ذكرته من عدم وجود علاقات جنسية بعد البعث ، وأيضا من عدم وجود طعام أو شراب ؟

قال الشيخ : كنت أتحدث عن موقف الحساب وليس عن الجنة ، ومع ذلك فلاشك فى أن هذه الأشياء فى الجنة تختلف عنها فى الدنيـــا إختلافا جوهريا ، وذلك أن الطعام والشراب فى الدنيا هدفهما استمرار الحياة ، والعلاقة الجنسية هدفها هى الأصل المحافظة على النـــوع وعدم انقراضه ، أما فى الجنة فالهدف الوحيد من هذا كله هو المتعة فحسب ، ونحن نعرف ما يترتب على تناول الطعام والشراب ، وعلى مزاولة العلاقة بين الذكر والأنثى فى الدنيا ، ولكنا لانعرف ما يترتب عليها فى الجنة ، لانه لم يرد فيما أعلم شيء فى القرآن أو فى الحديث النبوى الصحيح عن تفاصيل ذلك ، وكل ما قد يروى فى هذا الشأن انما هو اجتهـــاد وتصور لايغنى من العلم واليقين شيئا ، وان كان من المؤكد أنه ان وجدت هذه الآثار التى تترتب على مزاولة هذه الأمور فى الجنة فانها تختلف كل الاختلاف عنها فى الدنيا بما يحفظ للجنة صفاءها ونقاءها وطهرها٠

قال الشباب : لست أخفي عنك أن مثل هذه الأشـــياء مما يثير الاضطراب والتناقض ، وبالتالى فهي مما لا يشجع على اطمئنان النفس الى الايمان بأمور لايتقبلها العقل باقتناع كامل ، وعلى سبيل المثال ما نحن في حديثه ، فكيف يكون لأهل الجنةأن يأكلوا ويشربوا ، بل أن يأكلوا في غير شبع ، وأن يشربوا في غير رى وكأنهـــم لا يكفون عن الأكل والشرب ثم لاتوجد فضلات لطعام وشرابهم الذى لاينتهي ؟ ثم كيف يجدون الحور العين أبكارا وكلما أرادوا مواقعتهن عدن أبكارا دون أن تحدث لذلك آثار من دم أو آثار مواقعة ، أليس في ذلك وغيره من صور الجنة غرابة في العقول ؟

قال الشيخ : هذه الغرابة تنبع من أن عقولنا وأخيلتنا تتصـــور الأشياء من واقع ما ترى وما تعرف فى هذه الحياة ، وكل ما فى الآخرة يختلف فى طبيعته عن واقع الدنيا ، فالذى يترتب على الطعام والشراب يستحيل وجوده في الجنة بالصورة التى نعرفها فى الدنيـا ، وكذلك الدماء التي تتحدث عنها لايعقل أيضا وجودها في الجنة بصورتهـــا فى الدنيا ، لأنها فى الدنيا من وسائل الحياة ، وهي متجـددة متغيرة فى الجسد ، والجنة ليست فى حاجة الى وسائل حياة ، لأنها حيـاة أبدية كاملة ، كما يقول تعالى (وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون) ولكن الذى لاشك فيه أن كل ما فى الجنة متع كاملة صافيـــة لاتخالطها شائبة ضر أو ضيق ، كما أن كل ما فى جهنـــم عذاب وايلام كامل لاتخالطه شائبة من سعادة أو راحة ٠

قال الشاب : مع أن قضية الجنة والنار بالقياس الى قضية ثانوية فان الذى يشغلني قبلها هو قضية الايمان نفسه ، الا أنني أناقش هذه التفاصيل من الناحية العقلية فحسب ، فأقول : هل من حق أحـــد أن يتصور حلا عقليا وسطا ، هو أن يكون المؤمنون فى الجنة أرواحا وليسوا أجسادا مادية ، وأن هذه الأرواح تتحقق لها كل المتع التى ورد وصفها في الجنة ، ولكنها متع روحية وليست جسدية ، ويكون الحل الوسط في أن المؤمنين موجودون بأرواحهم فعلا في الجنة ومتمتعون فعلا بكل ما وصفته الأديان ، ولكن ليست لهم أجساد مادية لأن وجود الأجساد المادية فى الجنة يترتب عليه مالا يتفق مع العقول ؟

قال الشيخ مستغرقا فى الضحك : وهكذا وصلنـــا الى درجة أن نقترح على الله أو على الدين حلولا كأنها خير من حلول الله ودينه ٠

وقال الشاب : أرجو ألا تسيء فهم ما أقول ، فلم أقصد التدخل في أمور الدين أو الادلاء فيها بآراء ، ومن البدهى أننى حتى لو قصـــدت الادلاء بآراء فان آرائى لا تقدم فى الدين شيئا ولا تؤخر ، وانما قصدت

تفسير كلامك بما يتفق مع عقلي وعقول كثيرين ، على أنك لو كنت منصفا مو جدت في كلامي هذا غرابة ، فلعلك لم تنس أنك كررت كثيرا فيما سبق أن الدين ليس الا صورة من واقع الحياة ، وأن الله لم يكلف الناس الا مثل ما ألفوه في حياتهم ، فمن هذا القبيل أردت أن أفهم وضع الناس في الجنة ، والفهم الذى يلائم واقع الحياة أن وجود الناس في الجنة بأجساد مادية لايلائم طبيعة الجنة فيما وصفه الدين من أن الحياة فيها أبدية لا نهاية لها ، ومن أنها نقية مطهرة لا يوجد فيها شيء قط مما تتأذى به النفوس ، أو تنفر منه المشاعر ، والأجساد المادية لاتتفق مع هذا ، لأن الجسد الحي خلاياه دائمة التجدد والتغير ، وهذا التجدد لابد أن تكون له نهاية ، ثم الجسد المادى له بالضرورة مقومات حياة ، وحاجات غرائز وغير ذلك ، وكل هذا الذى نعرفه لايلائم طبيعة الجنة ، أما اذا فهمنا أن أهل الجنة سيكونون مجرد أرواح وليسوا أجسادا ، فان الحياة الروحية من اليسير تصور الأبدية لها ، وفي الوقت نفسه ليس من الصعب على العقول تصور أن تتاح للأرواح كل المتع وكل السعادة التي يصفها الدين في الجنة دون مزاولة أسبابها بصورة محسوسة أو مادية ، بمعنى أن يتاح للروح أن تشعر بالمتعة التى يشعر بها من يأكل أطيب الطعام وأشهاه دون أن تأكل طعاما ، وأن تشعر بالمتعة التى يشعر بها أطراف المواقعة الجنسية دون أن تحدث لها مواقعة فعلية ، وأن تشعر بالسعادة والبهجة التى يشعر بها من حقق كل آماله وأمانيه دون أن تحدث للروح العوامل والأسباب التى تحققت بها الآمال والأماني .

فهل تجد في هذا الفهم ما يدفعك الى الاستغراق في الضحك ؟

قال الشيخ : أرجو ألا تسرف في سوء ظنك بضحكي ، فالواقع أنني لا أضحك من فهمك لذاته ، وانما أضحك لأن ما تقوله هو في جوهره عين ما ووجه به حديث البعث والجنة والنار من المجتمعات في كل العصور والأديان السماوية ، فقد كانت العقبة الكئود التى صدتهم عن الدين هي قيامهم الحياة الآخرة بمقاييس الحياة الدنيا ونسيانهم قدرة الله المطلقة على كل شيء ، ولذلك كان الايمان بالله يجب أن يكون سابقا ومقدما على الحديث عن أى شيء في الدين ، فالانسان اذا آمن بالله كما ينبغى أن يكون الايمان فلن يجد غرابة ولن تساوره حيرة قط في شيء من الدين ، وبالعكس حينما يقف عقله أو تصوره أمام شيء في الدين يجده غريبا أو بعيدا لحدوث فمعناه أنه غير مؤمن بالله ، أو أن ايمانه ليس كما ينبغى ، ولعل من هذا القبيل النهى المتكرر في القرآن عن مجادلة غير المؤمنين ، فالنهى ليس مقصودا لذاته ، وانما يقصد به أن المرء ما لم يؤمن بالله كما ينبغى فلا جدوى من الجدال والحوار معه ، لأن الجدال المهم سيكون بالضرورة في الغيبيات كالذى نتحاور فيه الآن ،

وكل الغيبيات ومنها ذات الله سبحانه لا تخضع لمجرد العقل بتصوره المادى فلا يجدى فيها الجدال شيئا ، لأن العقول التى تنشد الحق مجردا من العوامل النفسية والاجتماعية تبدأ طريقها الى الدين ليس من البحث فى ذات الله ، ولا فى ذات الغيبيات ، وانما من البحث فى آثار الله من بديع خلقه وجلال كونه وقدرته المطلقة على كل شىء على الاطلاق ، ومن أن هذا كله لايعقل أن يوجد بدون موجد ، وأنه لا يوجد أحد غيره أوجد شيئا من ذلك ، فحينئذ تسلم العقول قيادها اليه ، فلا تجد غرابة فى شىء من الغيبيات ، وعلى سبيل المثال فان ما يحيرك من أمر الأجساد المادية فى الجنة فان العقل المؤمن ايمانا حقا قد يجد فعلا غرابة فى شىء مما يخبر به الدين كالغيبيات ، ولكن هذه الغرابة لاتتجه به الى استنكار حدوث هذا الشىء الغريب ، وانمـــا تتجه به الى أن قدرة الله التى خلقت فى هذه الحياة التى نعيشها مالا يحصى من العجائب والغرائب التى اعترفت كل العقول بالعجز أمام معرفتها أو فهم طبيعتها ، كالروح التى يحملها كل منا ، ما هى ؟ وما طبيعتها ، وما كيفية حلولها فى الجسد وملابستها ايـــاه وغير ذلك مما لا يحصى من العجائب والغرائب فى كل المخلوقات المرئية وغير المرئية ، وأقول ان عقل المؤمن يتجه الى أن القدرة التى خلقت هذه العجائب لا يعجزها أن تخلق المغيبات فى أية صورة لاتجد عقولنا فيها غرابة ، بل وأن تجعل عقولنا فى الآخرة تستسيغ هذه المغيبات بصورتها التى يرويها الدين فلا تجد فيها أيضا غرابة • وأما ملحوظتك عن أننى كررت كثيرا أن الدين صورة من واقع الحياة فينبغى أن تلحظ معها أننى قلت هذا عن واقع الدين وليس عن غيبه ، فالدين كمـا هو معـــروف له جانبان ، جانب التشريع وهو التكليف الذى يكلفنا الدين اياه أمرا أو نهيا ، وجانب الغيب الذى يجب أن نؤمن به كما أخبرنا الدين ، لأننا مادمنا آمنا بالله ورسوله فيجب أن نصدق كل ما يخبرنا به الدين الذى يحمله هذا الرسول •

والدين يصف قبول جانب التشريع بأنه اسلام ، ويصف جانب الغيب بأنه ايمان ، وأظن أنه سبق الحديث بشىء من افاضة عن الفارق بين الاسلام والايمان ، وعن أن الايمان والاســلام مع ضرورة اجتماعهما الا أن الايمان أهم من الاسلام ، لأنه لا قيمة لأى اسلام أو أداء تكاليف مالم يكن نابعا من ايمان •

واذا أردت اجابة قريبة سهلة عما يحيرك فأقول لك انه من اليسير على قدرة الله أن يجعل أهل الجنة يأكلون ويشربون فلا تخـــرج منهم فضلات لأن ما يتناولونه يتآكل ويفنى ذاتيا فى أجسادهم ، أو كما يقول بعض العلماء يخـرج من أجســـادهم فى صورة عرق طيب الرائحـــة يستمتعون به وبريحه ، حتى يصبح العرق نفسه متعة من متعهم وهكذا •

فملحوظتك عن قولي ان الدين صورة من واقع الحياة انما ينصب على جانب التشريع والتكليف ، بمعنى أن الله لا يكلف الناس مالم يألفوه ، وما لايستطيعونه ، وانما يكلفهم دائما ما يدخل في نطاق واقعهم وتعامل بعضهم مع بعض كما سبق حديثه ، ومن محيط هذا قوله تعالى (لايكلف الله نفسا الا وسعها) وقوله تعالى (لايكلف الله نفسا الا ما آتاها) وتعبير (الا ما آتاها) واسع الدلالة ، بمعنى الا ما آتاها من قدرة أو من معرفة او من تعود والف ، والشيء الذي لايعرفه الانسان أو لا يالفـــه لا يعد مما آتاه الله إياه ·

واذن فالذي هو دائما صـــورة من واقع الحياة هو التشريع الذي كلفنا الله اياه ، أما الغيبيات كلها سواء غيبيات الدنيا مثل كيفية ذات الله او الروح أو الملائكة او الجن أو غيبيات الآخرة وهي كل ما بعد الموت فهذا جانب لايعتمد الا على التصديق فحسب ، لأنه خبر عن الله أو رسوله، ولا يخضع لمنطق الحياة الدنيا أو واقعها فلا نملك الا أن نصدق به كما ورد في القرآن أو الحديث النبوي الصحيح ·

قال الشباب : وحين يصدق المرء مثلا بالجنة والنار ، فهـــل له أن يسأل : هل هما موجودان الآن أم أنهما سيخلقان يوم القيامة ؟

قال الشيخ : الله أعلم ، ومن أحكام الدين أو من آدابه أن من قال الله أعلم فقد أجاب ·

قال الشباب : أظن أننا اتفقنا في بدء الحديث على أن يكون العقل هو العامل المشترك بيننا ، وفي بعض ما سمعت من الدين تحديد لمسار الاجابة ، ومن ذلك أنني سمعت أن القرآن يصف الجنة بما يتضمن أن عرضها يساوي سعة السموات والأرض وبالضرورة سيكون طول الجنة أكبر من عرضها ، ومعنى ذلك أن حجم الجنة وحده أكبر من حجم السموات والأرض مجتمعه ، واذن فلن تكون موجودة الآن ، لأن السموات والأرض لن تتسع لها فضلا عن وجود جهنم التي لابد أن تكون أكبر من الجنة ، بحكم أن المؤمنين الذين ينتظرون الجنة قلة قليلة بالقياس الى الذين تحكم عليهم الأديان السماوية بأن مصيرهم سيكون الى جهنم ·

قال الشيخ : تعني مثل قوله تعالى (وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض) فان هذا لايصلح دليلا عقليا أو حتى نقليا على عدم وجود الجنة ، لأن السموات لايقصد بها كل الفضاء الكوني وما فيه ، وانما يقصد بها الآفاق المرئية بالقياس الينا مما نشـــاهده فوقنا أو حولنا من فضاء وكواكب، والعلماء يعرفون اليوم أن كل ما نشاهده لايكاد يساوي في حجم الكون شيئا ، بل ان آخر ما توصلت اليه بحوث

علماء الفضاء فيما أذكر أن الكون لانهائى ، أى لاحدود ولا نهاية له ، ومعنى ذلك أن العقول تقف عاجزة حتى عن مجرد تصوره وتخيل سعته ، فالجنة التى تتسع للمؤمنين ، والنار التى تتسع للكافرين مهما تبلغ سعتهما فلن يكونا أيضا فى كون الله الا مساحة بالغة الضآلة واذن فليس هناك ما يمنع عقلا ولا نقلا من وجود الجنة والنار الآن ، خصوصا وأن فى القرآن ما يشير ولو محض اشارة الى وجود مكان للنعيم حاليا ، كقوله تعالى عن المسيح عليه السلام (بل رفعه الله اليه) وحيث رفعه اليه تكريما له فسيكون بالضرورة فى مكان نعيم ، وكذلك وصفه تعالى للشهداء فى سبيله بمثل (ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) فكونهم أحياء وكونهم يرزقون يعنى أنهم فى مكان نعيم ، ومكان النعيم بعد الموت هو الجنة ، وكذلك فى حديث القرآن عن النار نجد مثل قوله تعالى عن قوم فرعون (مما خطيآتهم أغرقوا فأدخلوا نارا) بما يعنى لغويا دخولهم النار عقب موتهم وقبل يوم القيامة ٠

ولكن هذا كله لا يؤكد أيضا وجود الجنة والنار الآن حيث يمكن أن يفهم النعيم أو الرزق بأنهما روحيان ، وكذلك العذاب ٠

ومع ذلك فلست أرى ضرورة أو داعيا لهذا التفكير فى وجود الجنة والنار أو عدم وجودهما لأن المهم هو الايمان بارتباطهما بالثواب والعقاب يوم القيامة وأما ما عدا ذلك فهو محض تصور أو تخيل حيث لا يرد نص صريح ، أو لايتعارض مع نص صريح لايحتمل التأويل ٠

واذا ذهبنا الى مجال التصور فهناك مجال واسع للتصور الذى لايتعارض فيما أعلم مع نص صريح ، فقد يتصور شخص أن الجنة موجودة الآن فعلا فى كوكب من كواكب الكون التى لم نصل الى معرفتها ، وهى بالأوصاف التى ساقها القرآن ، وأن النار موجودة فعلا الآن بالأوصاف التى ذكرها القرآن فى كوكب آخر ، وقد يكون هذا الكوكب هو الشمس نفسها ، فان ما فيها من نار وحرارة يمكن أن يطابق أوصاف جهنم فى القرآن ، ولا أظن أن فى الحديث النبوى عن شدة حرارة الشمس (أبردوا بالظهر فان شدة الحر من فيح جهنم) لا أظن أن وصف حرارة الشمس بأنها آتية من جهنم مقصود على وجه الحقيقة ، بل على وجه التشبيه ، أى تشبيه شدة حرارة الشمس بنار جهنم ، ويترتب على التصور السابق أن يوجه أهل الايمان والخير يوم الحساب الى هذا الكوكب الذى هو الجنة ، كما يوجه أهل الكفر والشر الى هذا الكوكب الذى هو النار ، والذى لا مانع أن يكون هو الشمس نفسها ٠

وقد يتصور شخص آخر أن الأرض ومجموعة الكواكب من حولها ستدمر وتزول فى قيام القيامة ، وسيخلق الله مكانها مجموعة أخرى

كما يشير اليه قوله تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) وفى هذا التبديل تخلق الجنة والنار مكان الأرض والسموات الحالية ، أو فى أى مكان من ملك الله الذى تحيط به العقول والخيالات فضلا عن العلوم والمعارف ، وقد يتصور شخص غير ذلك ٠

قال الشاب مبتسما : بعض الناس يتحدثون عن الخيال العلمى ، فهل يمكن أن نسمى مثل هذه التصورات خيالا دينيا ؟

قال الشيخ : سمها ما شئت ، ولكن لاتتجاوز بها حدود النصوص الدينية من جهـــة ، ولا تجعل فيها مساســا بقدرة الله على كل شى من جهة أخرى ، وهذا كله مع شرط مهم ، هو أن تصرح بأنها محض تصورات أو خيالات ، حتى لايظنها أحد من الناس معلومات من الدين ، فمما يؤسف له أن كثيرا من هذه التصورات والاحتمالات عن الغيبيات أو عن أخبار السابقين التى ساقها القرآن أدلى بها بعض العلماء على أنها مجرد احتمالات ، فاذا بعض الناس يأخذونها ويتداولونها بل ويدونونها فى كتب على أنها جزء من الأخبار نفسها ، ومن أيسرها اختراع أســماء للذين تحدث القرآن عنهم من السابقين ، مثل ابن لقمان ، والعالم الربانى الذى أراد موسى أن يتعلم على يديه علم الغيب ، ومثل أهل الكهف وكلبهم، وكثير جدا مما تجده مبثوثا فى كتب التفسير وليس له ســـند دينى ، وانما أدلى به بعض محترفى القصص للناس فى العصور الاسلامية الأولى فتناقله بعض الرواة عنهم على أنه علم صحيح ، ودونه بعض العلماء فى تفسيرهم وكتبهم ٠

قال الشاب : هأنتذا ترى عامل القطار يعلن للركاب قرب وصولنا مدينة أسوان ليستعدوا للنزول ، وقد بقيت لدى أســئلة كثيرة فى موضوعات شتى تتعلق بالدين لم تتسع الرحلة لهـــا وكنت أتمنى أن أسمع لها أجوبة منك ، أو بمعنى أصح أن أسمعك وجهة نظرى فى الاجابة عنها ، فلا أخفى عنك أننى لم أكن لأستطيع الاستماع طوال هذه الرحلة الى معلومات عن الدين لولا أننى وجدتها مصبوغة بالصبغة العقلية مهما يكن توافقى أو اختلافى معها ، ولولا أنى وجدتها أيضا مرتبطة الى حـد كبير بواقع الحياة وليست واديا آخر ، فكنت أتمنى أن تكون الرحلة أطول لنتحاور فى بقية الأسئلة التى تتردد فى نفسى ٠

قال الشيخ : أؤكد لك أنه ليس المهم فى الدين كثرة المعلومات ، ولا كثرة الأسئلة والأجوبة ، وانما المهم هو التركيز فى عمق الايمان ، فحينما يوجـــد فى قلب المرء وعقله هذا الجوهر فانه يصبح بمثابة نور يهـديه الى الطـريق القويم فى الدين مهما قلت أو صغرت معلوماته عن الدين ، وذلك من احدى ناحيتين ، ناحية أن أى عمل يصدر عن ايمان

وحسن نية يتقبله الله ويثيب عليه ، وناحية أن المؤمن حينما يستغلق عليه أمر فانه يلجأ الى من لديه علم عن هذا الأمر ، والناحية الأولى نجدها واضحة فى الحديث النبوى المشهور (انما الأعمال بالنيـــات ، وانمـــا لكل امرىء ما نوى) والناحية الثانية نجدها فى قوله تعالى (فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون) والمؤمن لايتعدى هذين الحالين ، وأحكى لك قصة طريفة وان كنت طوال حياتى أنفر من القصص الوعظى لأنى أعتقد أن معظمه لاسند له فى الدين ، ولكن ذاكرتى احتفظت بهذه القصة رغم أنى سمعتها فى صباى لطرافتها ، ومضمونها أن أحد العلماء كان يمر ذات يوم فى مكان مقفر فوجد رجلا من الزاهدين فى الدنيا يعبد الله فى هذا المكان المقفر وهو يسبح الله مرددا (ياخروف يا خروف ...) ففهم أنه يعنى (يا رءوف يا رءوف ...) فزجره العالم مستنكرا وأرشده الى التعبير الصحيح ، فشكره الزاهد وظل يرد يا رءوف ، ولكنه بعد وقت قصير نسى التعبير السليم الذى علمه اياه العالم ، فأسرع وراء العالم ، ولكن العالم كان قد ركب سفينة وأوغل فى البحر ، فاذا هذا الزاهد يسرع وراءه وهو يمشى فوق الماء حتى أوشك أن يصله وهو يصيح : لقد نسيت الاسم الذى علمتنى اياه فما هو ؟ ، ولكن العالم حين رآه يمشى فوق الماء ، قال له : ارجع ، وابق على ما كنت عليه .

وأعتقد أنها ليست قصة حقيقية ، وانما هى أسلوب وعظى عن طريق القصص ، وليس المقصود منها التقليل من شأن العلم وأهميته ، وانمـــا يقصد بها ما هو من قبيل التطبيق العملى للحديث النبوى المشـــار اليه (انما الأعمال بالنيات) .

قال الشاب : أراك لجأت الى الايجاز فى تصوير الايمان ، ولكنـــه ايجاز أو تصـــوير نظرى ، فهل يمكن أن توجزه فى صـــورة عمليـــة تطبيقيـــة ؟

قال الشيخ : الأمر يســـير ، وهو ينحصر فى (لا اله الا الله ، محمد رسول الله) اذا آمن بها المرء ايمانا عقليا وقلبيا وطبق مقتضاها ، فأما لا اله الا الله فهو اليقين بأن الله هو الاله الواحد الذى لاشريك له ، ومقتضى ألوهيته هو اليقين بأن كل ما يتعلق بنـــا وبالكون كله فى يده وحده ، وهو المتصرف فيه كيف يشاء ، ومقتضى رسالة النبى هو اليقين بأنه مرسل من الله ، وبناء على ذلك فنحن مطالبون بالتزام كل ما أمرنا به ، واجتناب كل ما نهانا عنه ، لأنه فى كل هذا انمـــا هو مبلغ عن الله الرسالة التى يحملها ، والمؤمن حين يستقر هذا الجوهر فى قلبه وعقله سيجد الدين سهلا ميسورا ، وسيجد الأمور الشائكة فيه أشد سهولة ويسرا ، فان الحديث النبوى المشهور يوجز هذا فى قوله : (الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما مشبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه

ودينه) ، ومؤدى ذلك أن المعالم الأصلية للدين واضحة لا لبس فيها ، وهى المتمثلة في الواجبات والمحرمات الأصلية ، وهى التى توصف فى تركها اذا كانت واجبة بالكبائر ، وكذلك فى مزاولتها اذا كانت محرمة ، فكل هذا من بدهيات الاسلام ، حتى ان العامة أنفسهم لايسألون عنه لأنه معروف لديهم ، وتبقى الأمور المشبهات كما يصفها الحديث النبوى ، أى التى ليست فيها أحكام دينية مشهورة ، ويجد المؤمن نفسه أمامها مترددا ، هل هى حرام أم حلال ، فان المؤمن الصادق حينئذ ينبغى أن يتحاشاها مؤثرا جانب السلامة ومرجحا جانب الحذر ، وحين يؤدى الواجبات المشهورة ، ويتجنب المحرمات المشهورة ، ويتحاشى الشبهات التى لاتطمئن اليها نفسه يكون موقفه من الايمان سليما كامل السلامة ، وبهذا تجد الأسئلة التى تتردد فى نفسك ، والتى لم يتسع لها زمن الرحلة ليست بذات شأن أو أهمية كبيرة ٠

قال الشاب : بقي سؤال لعله الأخير أو من الأواخر ، وهو : أني سمعت كثيرا عن التوبة والرجوع الى الله ، فهل لهذا أسلوب خاص أو أدعية خاصة في الاسلام ؟ فان بعض الأديان السماوية الأخرى تشترط أن يكون ذلك عن طريق أحد رجال الدين ، وغالبا ما يشترط مع ذلك اعتراف المذنب لرجل الدين بذنبه ليكون تطهيرا له من ذنبه ، وأنا أعلم أن هذه الطقوس بصورتها هذه ليست موجودة فى الاسلام ، ولكنى أسأل : هل هناك طقوس أو أنظمة أخرى يجب أن يسلكها فى الاسلام من يريد التوبة والرجوع الى الله ؟

قال الشيخ : لعلك لم تنسى أننا تحدثنا في أوائل الرحلة عن أن من مزايا الاسلام تحرير الفرد من أية سلطة دينية بشرية ، حيث يجعل الاسلام صلة الفرد بالله مباشرة دون أية واسطة من البشر ، حتى النبى نفسه رغم وجوب طاعته فيما يبلغ عن الله فهو ليس واسطة بين الله والناس ، بمعنى أنه فى حياة النبى لو أراد شخص أن يتوب الى الله ، فتاب دون أن يلجأ الى النبى مع قربه منه ، بل دون أن يعلم النبى ذلك ، فلا شك أن توبته مقبولة عند الله ان أخلص فيها ، وحتى فى الايمان نفسه ، ما أكثر الذين آمنوا بالله فى حياة النبى فى أماكن عديدة بمجرد علمهم بحقيقة الايمان ، دون أن يلجأوا الى النبى أو الى أحد عن علماء الدين ، فكان ايمانهم صحيحا مقبولا ٠

وأما عن التوبة نفسها فليس لها أية طقوس أو نظام أو أدعية ، وانما هى مجرد الشعور بالندم على الخطيئة سواء فى العقيدة أو السلوك ، والعزم الصادق على التزام النهج القويم ، واللجوء الى الله أن يتقبل هذا الشعور بالندم وهذا العزم على الاستقامة ، وقد يحدث هذا اللجوء الى الله نفسيا دون أن يخطر شيء منه على اللسان ، ودون أن يسمع به مخلوق ،

وقد وعد الله بأن مثل هذه التوبة لابد أن تكون مقبولة عنـده كما سبق الحديث عن نحو ذلك ٠

وأما الدعاء فخيره وأحبه الى الله ما كان نابعا من القلب والانفعال ، وأما الأدعية المحفوظة أو المأثورة فكل قيمتها فى التبرك بها ، ولكنهـا لاتصلح أن تكون دعاء الا اذا كان الداعى يعلم مضمونها ومعناها قبل أن يدعو بها ، فحين يدعو سيدعو حينئذ بمعانيها وكأنها نابعة من مشاعره ، وجانب التبرك بها سيكون فى ألفاظها فقط ، أما أن يدعو الانسان بأدعية لايكاد يعى معانيها ، ولا ينفعل بها حين يدعـو ، ولا يشعر معهـا بأنه يناجى الله ويخاطبه ، فلا تعد دعاء مهما كانت مأثورة ، ولك أن تقيس ذلك على أى انسان أو على نفسك ، لو أساء شـخص اليك ، ثم أراد أن يعتذر اليك لتسامحه ، فجاء يقرأ لك من ورقة ، أو يردد كلاما محفوظا من شعر أو نثر أو حتى من الأحاديث النبوية أو من القرآن نفسه ، وهذا الذى يردده يتضمن معانى الاعتذار وطلب العفو ، ولكنه اقتصر على ترديد هذه المعانى دون أن يبدى لك شعورا بأنه أساء ، وأنه يطلب العفو منك ، فهل تجد فى نفسك داعيا الى العفو عنه ؟ ووازن بين هذا وبين شخص أساء اليك فجاء يعترف بأنه أسـاء وأنه يطلب منك العفو ولو بكلمات ساذجة ولكنها معبرة فأظن أن الفرق بينهما واضح ، فكذلك الشأن فى الدعاء لله ، لايكون دعاء الا اذا نبع من القلب والمشاعر وراعى مخاطبة العبد لربه وسيده مهما يكن الأسلوب الذى يصاغ به ، بل قد يكون من القلب والمشاعر الى الله مباشرة دون ألفاظ أو كلمـات ، فاذا اجتمع استحضار المشاعر فى مناجاة الله بالدعاء مع كون الدعاء مأثورا كان الفضـل ٠

ولكنى نسيت أن أقول لك اننى أتمنى أن يكون السائل عن التوبة والرجوع الى الله هو أنت ، وليس سائلا آخر ٠

قال الشاب : لا أظن أننا فى حاجة الى تكرار ما اتفقنا عليه من أنك لاتنتظر منى بيان موقفى أو ابداء رأيى فيما أسمعه ، ولكنى أستطيع أن أقول لك ان ما سمعته يدعو الى التفكير فيه ، وأعتقد أننى سأفكر فيه كثيرا ، ولو قدر لنا أن نلتقى مرة أخرى فلا أشك فى أنك ستجدنى قد استقررت على قرار نهائى ، فان أهم ما سيطر على نفسى هو الشعور بضآلة هذه الحياة وقصرها ، وأننا فعلا يجب أن ننتهز كل لحظـة فيها لنكسب بها شيئا مفيدا ، وأظن أن هذا مفترق طرق لكثير من النـاس ان لم يكن لكل الناس ، فبعض الناس يجعل من حياته فرصة لجمع المال ، وبعضهم يجعلها فرصة لتحصيل العلم ، وبعضهم يجعلها فرصة لتحقيق هوايات أو أمانى معينة ، وبعضهم يجعلها فرصة للتمسك بالدين والايغال فيه ، ونحو ذلك ، وكل منهم يرى سعادته ومتعته فيما انصرف اليـه ،

فأنا الآن فى مفترق هذه الطرق ، ولست أدرى الى أى اتجاه سيؤدى بى التفكير ، ولكنى آمل أن أحسم هذا الأمر عما قريب .

قال الشيخ ضاحكا : وكأن كل حديثنا طوال الرحـــلة لم يضىء ولو بصيصا من نور يميز لك احدى الطرق عن سائرها فى هذا المفترق ، فما أجدرنى أن أقول الآن : لله يا زمرى ، وهذا مثل هل تعرف قصته ؟

قال الشاب : لا أظننى سمعته قبل ذلك فضلا عن أن أعـــرف قصـــته .

قال الشيخ : قصته أن رجلا من الذين يتسولون فى الريف على أنغام مزمار ، ظل يتنقل أمام الدور يعزف على مزماره أمام كل دار حتى يمنحه أهل الدار ما تجود به أيديهم فينتقل الى دار أخرى ، وهكذا حتى وجد دارا أنيقة توسم فى أهلها الثراء ومن ثم ضخامة الاحسان ، فأخذ يعزف أمام هذه الدار ، وطال عزفه دون أن يخرج اليـــه أحـد يمنحه شيئا ، أوخيرا مر عليه شخص فسأله لمن تعزف هنا ، قال أنتظر احسانا من أهل هذه الدار ، قال الرجل : ولكن هذه ليست دارا ، انها مسجد ، فقال فى حزن : لله يا زمرى ، بمعنى أننى أجعل عزفى لصاحب هذه الدار أو هذا المسجد وهو الله ، فهل أســـتطيع الآن أن أقول : لله يازمرى بما يحمله المثل من خيبة أمل ؟

قال الشاب مبتسما : وهل نكره أن تتاح لك أية فرصة لتقدم فيها شيئا لله ولو كان زمرا ؟

قال الشيخ : اذا كان فى ردك هذا اســـتخفافا بى فقد أحتمله ، ولكنى لا أحتمل ولا ينبغى أن أحتمل الاستخفاف بشىء من الدين ، انك بهذا تؤلمنى ، وما كنت أتوقع أن تكون هذه نهاية رحلتنا ، أو ما تنتهى اليه الصلة بيننا بعد هذه الرحلة الطويلة .

قال الشاب : معاذ الله أن أكون قد قصدت شيئا من الاســـاءة اليك أو من الاستخفاف بشىء من حديثك مهما يكن رأيى فيه أو خلا فى معه ، وانما كنت أمزح ، وقد جررتنى أنت الى المزاح بهذا المثل الطريف الذى استشهدت به ، فثق بأننى أكن لك احتراما عميقا ، وأننى أقدر كل التقدير أسلوب عرضك لما عرضت من حديث مهما اختلفت معه ، على اننى آمل ألا يكون اختلافى معه فى النتيجـة كبيرا ولا جوهـــريا ، والشىء الذى لا أشك فيه أننى كنت أتمنى أن تطول بنا هذه الرحلة ، أو أن يتاح لنـا لقاء آخـــر ، ولكن ظروف الحيـــاة فيما يبـــدو لاتحقق للناس كل ما يتمنون .

قال الشيخ : وأنا من جانبى أبادلك التقدير ، وثق بأنه لولا أنى أحمل لك تقديرا ، ولولا أنى توسمت فيك خيرا ما عنيت نفسى وأرهقتها بهذا الحديث الطويل ٠

قال الشباب مبتسما : فاذا لم تتح لنا الظروف لقاء آخر فى هذه الحياة فبناء على حديثك عن الروح لابد أن نلتقى فى الآخـــرة ، أعنى بعد الموت ، فكيف يعرف أحدنا الآخر والأرواح ليس لها ملامح تميزها ؟ فالناس فى هذه الحياة يكون تعارفهم بملامح وجوههـــم وأجســـامهم والأشكال الحسية العضوية المميزة لهم ، ولكن الأرواح ليس لها أجساد أو ملامح ، فكيف يعرف بعضهم بعضا فى الآخرة ، وكيف يعرف بعضنا بعضا أنا وأنت ؟

قال الشيخ : الله أعلم ، ولكن الذى لاشك فيه أن الأرواح يعرف بعضها بعضا ، أما كيفية تعارفها ، وكذلك كل ما يتعلق بها فالله أعلم به ، من باب قوله تعـــالى (ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا) وعندئذ كان القطار قد وصل الى محطة أسوان ٠

الفهـــرس

الصفحة

(١)

حوار حول حياة الناس فى اختلاف طبائعهم وأخلاقهم وموقفهم من الدين ومن المصـلحة العـامة ، وعلاقة الدين بواقع الحيـاة ٣

(٢)

حوار حول أجوال المؤمنين فى ارتباطها بالدين وبواقع الحياة ٥١

(٣)

حوار حول مفهوم السعادة والشقاء بين الدين وواقع الناس ، وحول حقيقة الابتـلاء وما يلابســه من فلسفة العقـاب فى الاسلام ٧٣

(٤)

حوار حول علاقة الاسلام بالأديان الأخرى وطبيعة موقفه . ١٠١

(٥)

حوار حول طبيعة الاختلاف بين الاسلام والأديان الأخرى وكذلك بين المسلمين وغيرهم ١٢١

(٦)

حوار حول شخص النبى صلى الله عليه وسلم وموقف الاسلام من المعجزات ومن مهمة النبى وما يثيره الاعداء حوله . ١٦٣

(٧)

حوار حول ذات الله وصفاته وما يكلف الناس اياه ، والمبادىء التى يدور عليها الحساب ١٨١

(٨)

حوار حول الآخرة وبعض ما يتصل بها كحياة الروح ، والجنة والنار وعذاب القبر ٢٠٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٧٨٦ / ١٩٩٤

ISBN — 977 — 01 — 3707 — 3